الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز
جائزة الخنجر الذهبي كأفضل رواية جريمة.

رواية تم تحويلها إلى فيلم سينمائي

جين هاربر

مكتبة ١٣١٣

القحط

THE DRY

جريمة مروّعة في بلدة صغيرة تملؤها الأسرار الكبيرة

ترجمة: إسراء محمود



القحط
THE DRY

مكتبة | 1213



Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي: The Dry
● العنوان العربي: القحط
● طُبِع بواسطة: Macmillan Australia Pan
● طُبِع بواسطة: بان ماكميلان أستراليا

● المترجمة: إسراء محمود
● مراجعة وتحرير: محمد الجيزاوي
● تدقيق لغوي: مُهاب هشام
● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
● الطبعة الأولى: نوفمبر/ 2021م
● رقم الإيداع: 2021/22504م
● الترقيم الدولي: 978-977-6902-54-1

مكتبة
t.me/soramnqraa

20 6 23

الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز
جائزة الخنجر الذهبي كأفضل رواية جريمة.

رواية تم تحويلها إلى فيلم سينمائي

جين هاربر

القحط
THE DRY

جريمة مروّعة في بلدة صغيرة تملؤها الأسرار الكبيرة

ترجمة: إسراء محمود



إلى والديَّ: مايك وهيلين، اللذين يقرآن لي دومًا.

ليس الأمر وكأن المزرعة لم تشهد الموت من قبل، ولم يكن الذباب يكترث؛ فبالنسبة إليه يوجد فرق ضئيل بين جثث البشر وجيف الحيوانات.

كان صيف هذه السنة جافًا لدرجة أنه قدَّم للذباب وليمةً احتارَ في الاختيار من بين صنوفها. فكان يهيم باحثًا عن العيون الجاحظة والجروح اللزجة بعدما يطلق فلاحوا كيوارا النار على ماشيتهم الهزيلة ببندقياتهم؛ فما دام لا توجد أمطار لا يوجد طعام، وعدم توفر الطعام يجبرنا على اتخاذ القرارات الصعبة؛ فقد كانت المدينة الصغيرة تتأجَّج تحت السماء الزرقاء الحارقة يومًا بعد يوم.

مضت الشهور حتى اكتمل العام الثاني، وكان الفلاحون يستبشرون فيما بينهم بنهاية قريبة لهذا الجفاف مرددين هذه الكلمات كالترانيم بين بعضهم بعضًا، وكالصلاة في دواخل نفوسهم.

لكنّ مذيعي النشرة الجوية لم يتفقوا معهم؛ فكانوا يظهرون بأطقمهم المهندمة وملامحهم المشفقة في الاستوديوهات المكيفة في الساعة السادسة من معظم الليالي، لينقلوا بعض نشرات حالات الطقس. رسميًّا كانت تلك حالات الطقس الأسوأ هذا القرن، وتم إطلاق اسمٍ خاصٍّ لهذا الطقس، الذي لم يستقر نطقه على طريقة معينة قط.. «النينيو»[1].

على الأقل كان الذبابُ سعيدًا، كانت الغنائم غير اعتيادية ذاك اليوم برغم ذلك؛ أصغر حجمًا، ولحمها أكثر ذبولًا ولينًا؛ ليس لأن ذلك يشكل فرقًا، فقد كانوا على حالهم عندما عُثِرَ عليهم؛ الأعين الزجاجية، والجروح الرطبة.

(1) كُتبت بالإسبانية في النص الأصلي، ومعناها الطفل.

كانت الجثة التي في الغابة هي الأكثر طزاجة، واستغرقت الحشرات وقتًا أطول قليلًا في اكتشاف الجثتين في بيت المزرعة، برغم الباب الأمامي الذي يتأرجح مفتوحًا كأنما يدعوهم للدخول، وأولئك الذين غامروا بعيدًا عن العرض الأول الكائن في المدخل، فقد كوفئوا بغنيمة أخرى، ولكن في غرفة النوم هذه المرة. كانت هذه أصغر، ولكن التنافس عليها كان أقل.

في بداية المشهد؛ أسرابٌ من الحشرات تطير بإصرار في ذلك الجو الحار، بينما تجمعت بقع دماء سوداء على القرميد والسجاد. بالخارج كانت الملابس لا تزال معلقة على حبل الغسيل الدوار، وقد جفت وتيبَّست كالعظام من حرارة الشمس. ودراجة أطفال ملقاة على عتبة الممر الحجري. وبالكاد يوجد إنسان في محيط المزرعة.

وكذلك كان الصمت يخيِّم بداخل المنزل، لم يقطعه سوى صوت طفل ينتحب.

الفصل الأول

حتى أولئك الذين لم يتزاحموا بملابس الحِدَاد السوداء أمام باب الكنيسة كل كريسماس لن يعجزوا عن تخيل أعداد المعزين التي تفوق عدد المقاعد، تفوقها لدرجة أن هناك تجمُّعًا من الأَسْود والرمادي أمام المدخل يُشكِّل عنقَ زجاجة مصنوعة من البشر، حين توقف آرون فولك فجأة بسيارته مثيرًا غيمةً من الغبار والأوراق المتساقطة عن عمد، ولكن مع محاولة عدم إظهار ذلك، تدافَع مَن بالجوار علّهم يمنعون تدافع الناس من الأبواب كتدافع مهاجمي لعبة الرجبي في محاولة السيطرة على الكرة، في حين تجمَّع الصحفيون على الجانب الآخر من الطريق.

ركن فولك سيارته السِّيدَان بالقرب من منطقة اعتادت هي الأخرى أنْ تشهد أيامًا أفضل من تلك، ثم أطفأ المحرك، كان مكيف الهواء يخشخش في هدوء فامتلأت جنبات السيارة بالدفء فور إطفائه. توقف وأخذ يتفحص الحشود مليًا على الرغم من كونه لا يملك وقتًا، فقد جر قدميه على مضض طوال الطريق من ملبورن، قاطعًا مسافةَ خمس ساعاتٍ من القيادة في ستٍّ ساعاتٍ. بعد أن اطمأن من عدم وجود أحدٍ يعرفه، ترجّل من السيارة فلفحته حرارة تلك الظهيرة كالغطاء الوثير. بحركة خاطفة فتح الباب الخلفي للسيارة ليأخذ سترته، فأحرق المقبضُ الساخن يده في أثناء ذلك.

تردد قليلًا قبل أن يأخذ قبعته البنية ذات الحافات العريضة الصلبة المصنوعة من الكتان، التي لم تتماشَ مع بدلة الجنازة التي يرتديها، ولكن مع بشرته الشاحبة طوال ما يقارب نصف العام، وتجمُّع النمشِ ذي المظهر المنفِّر؛ تخلَّى فولك عن اتِّباع صيحات الموضة المزعومة.

كان يحس طوال سنواته الستّ والثلاثين، كونه شاحبًا منذ الميلاد، بشعره الأبيض المائل للصفرة والمحلوق من قرب، ورموشه غير المرئيَّة، أن شمس أستراليا تحاول أن توصّل إليه رسالة ما، رسالة من السهل تجاهلها تحت ظلال ملبورن الممتدة أكثر مما في مدينة كيوارا حيث الظلال كالنسمات العابرة.

خطف فولك نظرة سريعة نحو الطريق المؤدِّي إلى خارج المدينة، ثم نظر في ساعته. الجنازة.. سواد الليل.. ليلة واحدة ومن ثَمَّ يذهب بلا عودة. *ثماني عشرة ساعة* -حسبَها- *ليس أكثر من ذلك*، فكر في نفسه بإصرار واضعًا هذا في عقله. اندفع وسط الحشد بإحدى يديه على قبعته بسبب نسمة هواء حارة خشيَ أن تطيّرها.

عندما دخل، بدت الكنيسة أصغر مما تسجله ذاكرته. متخبطًا بين الغرباء، سمح فولك لنفسه أن يبحر عبر الحشد، وقع بصره على بقعة فارغة قرب الحائط فاندفع نحوها ليقف فيها، شاقًّا طريقه بالقرب من فلاح يكاد قميصه القطني أن يتفتق من شدةِ شدِّه حول كرشه المنتفخ، هزّ الرجل رأسه له في تحية سريعة وتابع تحديقه إلى الأمام مباشرةً، تمكّن فولك من رؤية التجعُّدات حول كوعيه، التي اكتسبها قميصُ الرجل كونه ظلَّ مثنيًّا لفترة طويلة.

خلع فولك قبعته وأخذ يُهوِّي على نفسه بتروٍ. لم يستطع منع نفسه من استراق النظر للجمع من حوله، وجوهٌ بدت للوهلة الأولى غير مألوفة بالنسبة إليه، أخذَت تثير انتباهه شيئًا فشيئًا، انتبه لتلك التجاعيد حول العيون، والشعور المشتعلة بشيبٍ فضِّي، والكيلوات الزائدة التي لا تُخفى على كلِّ من يرى هذا الجمع الغفير.

التقت عينا فولك بعينَي رجل كبير على بُعد صفَّين من الخلف، فتبادلا إيماءة رأس مصحوبة بابتسامة طفيفة تعبيرًا عن ملاحظتهما لبعضهما، ماذا كان اسمه؟ حاول فولك أن يتذكر، ولكنه لم يكن منتبهًا كفاية. لقد كان الرجل مدرِّسًا، تمكن فولك في لحظة واحدة من تخيُّل الرجل واقفًا أمام الفصل باذلًا جهودًا حثيثة لإضفاء بعض الحياة في الجغرافيا أو بعض التماثيل أو أيٍّ مما يدرِّسونه لأولئك المراهقين الضَجِرين، ولكن لم تنفك مخيلته تتشتت.

أشار الرجل برأسه للمقعد المجاور له؛ مشيرًا إلى أن هناك مكانًا شاغرًا، ولكن فولك هزّ رأسه رافضًا بأدب واتجه بنظره إلى الأمام. كان من عادته أن يتجنب الأحاديث القصيرة حتى في أفضل الفرص، وكانت هذه الدعوة، بكل وضوح، أبعد ما تكون عن أفضل الفرص.

يا إلهي! التابوت الأوسط كان صغيرًا، وكونه يتوسط تابوتين كبيرَي الحجم، جعله منظرًا صعبًا، لو كان ذلك ممكنًا. أشار الأطفال الصغار ذوو الشعر المُصفَّف والملتصق بجمجمتهم بعناية قائلين: «انظر يا أبي، هذا الصندوق بألوان كرة القدم!»، بينما أولئك الكبار كفاية ليدركوا ما يوجد بداخل هذا التابوت، ظلوا محدّقين في صمت مشبَّع بالخوف، متململين في زيهم المدرسي وهم ملتصقون بأمهاتهم.

أعلى التوابيت الثلاثة، وُضِعت صورة شاحبة لعائلة من أربعة أفراد، بدت ابتساماتهم الساكنة مُبَكْسَلة ومشوشة، كأنما كُبِّرت الصورة، تمكّن فولك من التعرف على الصورة من الأخبار حيث نُشِرت بكثرة.

بينما أسفل التوابيت كُتِبت أسماء المتوفين بالزهور الحقيقية: لوك، كارن، بيلي.

أمعن فولك النظر في صورة لوك، الشعر الأسود الكثيف الذي قد خطَّه الشيب، ولكنه بدا أكثر لياقة ووسامة مِمَّن هم في الجانب الآخر من عمر الخمسة والثلاثين. بدا وجهه أكبر مما يتذكره فولك، ولكن خمس سنوات قد مرت منذ المرة الأخيرة، ما زالت الابتسامة الواثقة لم تتغير، مثلها مثل نظرة عينيه. *لم يتغير قط*، تلك الكلمات كانت أول ما تبادر إلى ذهنه، ذلك عكس ما تشي به التوابيت الثلاثة المستلقية أمامه.

- يا لها من مأساة محزنة.

قال أحد الفلاحين بالقرب من فولك، كانت ذراعاه متشابكتَين وقبضتاه مطويتين بقوة تحت إبطيه.

- أجل.

أجابه فولك.

- هل كنت تعرفهم من قرب؟

- ليس بالضبط. فقط أعرف لوك، الـ...

لوهلة لم يستطع فولك أن يجد وصفًا صائبًا للرجل المُستلقي بداخل الصندوق الأكبر، فقط حاول أن يبحث في ذهنه، ولكنه لم يجد وصفًا تقليديًا مبتذلًا يمكن أن يقوله.

- الأب.

وجدها أخيرًا.

- كنا أصدقاء في صغرنا.

- أجل، وأنا أيضًا أعرف مَن هو لوك هادلر.

- أعتقد أن جميع مَن هنا يعرفونه الآن.

- ما زلت تعيش هنا، أليس كذلك؟

سأل الرجل ذلك، ثم اعتدل قليلًا فأصبح ينظر نحو فولك مباشرةً للمرة الأولى.

- لا، ليس منذ مدة طويلة.

- أجل، فقط أشعر أنني رأيتك من قبل.

قال ذلك مقطبًا جبينه محاولًا التأكد.

- مهلًا، أنت لست واحدًا من أولئك الصحفيين، هل أنت كذلك؟

- كلا، لست كذلك، أنا شرطي، من ملبورن.

- حقًا؟ لا بد وأنك تحقق في أمر تلك الحكومة اللعينة التي جعلت الأمور تصل إلى هذا السوء.

قال ذلك مشيرًا برأسه نحو تابوت لوك المستلقي بجوار تابوت زوجته وابنه ذي الست سنوات. استأنف قائلًا:

- نحن هنا نبذل جهدنا لإطعام هذه البلدة، ولدينا طقس من أسوأ الطقوس منذ مئة عام، وهم يتحامقون ويقومون بإلغاء المعونات. بطريقة ما، لا يمكنك أن تلقي اللوم على الفقير الوغد. إنها لـ...

توقف مستكشفًا أرجاء الكنيسة وأكمل:

- إنها لفضيحة بكل المقاييس، هكذا هو الأمر.

لم يَزِد فولك شيئًا؛ إذ اتفق كلاهما على عدم كفاءة كانبيرا، فكل الاحتمالات في قضية موت عائلة هادلر قد عُرِضت وفُضِحت في صفحات الجرائد.

- أنت تحقق في هذا الأمر إذًا؟

قال الرجل مشيرًا برأسه نحو التوابيت.

- كلا، أنا هنا كصديق فقط، لست واثقًا من أنه ما زال هناك شيءٌ للتحقيق فيه.

لقد عرف كل شيء من خلال الأخبار مثله مثل البقية، وكان الأمر واضحًا وفقًا للتعليق؛ البندقية كانت للوك، وكانت هي نفسها التي وُجِدت لاحقًا مُشبَّكة فيما تبقى من فم لوك.

- كلا، أنا أفترض العكس. أنا فقط كنت أفكر، كونه صديقك وأشياء كهذه.

- أنا لست من هذا النوع من رجال الشرطة، إنني عميل فيدرالي، وحدة الاستخبارات المالية.

- لا أعرف ما يعنيه هذا يا صديقي.

- ببساطة إنني أطارد المال، كل شيء ينتهي بعدة أصفار ولا يوجد حيث ينبغي له أن يكون؛ المال المغسول، المختلس، أشياء من هذا القبيل.

قال الرجل شيئًا ما مجيبًا، ولكن فولك لم يسمعه؛ فقد تحول بصره من التوابيت الثلاثة إلى المعزين في المقعد الأمامي. المقعد الذي خُصِّص للعائلة ليجلسوا أمام جميع أصدقائهم وجيرانهم، الذين يقومون بدورهم بالتحديق إلى ظهورهم من الخلف حامدين الله أنَّ هذا لم يحدث لهم.

على الرغم من أن عشرين عامًا قد مضت الآن، تمكّن فولك من التعرف على والد لوك على الفور، كان وجه جيري هادلر شاحبًا، بدت عيناه غائرتين في رأسه، جالسًا بإخلاص في مكانه في الصف الأمامي، ورأسه ملفوف. كان متجاهلًا زوجته المنتحبة بجانبه، والصناديق الخشبية التي تحمل بقايا كلٍّ من ابنه وزوجة ابنه وحفيده، وبدلًا من ذلك كان يحدق مباشرة نحو فولك.

انبعثت بعض الألحان الموسيقية من السماعات أعلى مكانٍ ما بالخلف؛ معلنةً بداية الجنازة. حرك جيري رأسه بإيماءة صغيرة فوضع فولك يده على

جيبه بحركة لا إرادية كمَن أدرك شيئًا للتو، تحسس الخطاب الذي وُضِع على مكتبه منذ يومين، كان من جيري هادلر، ثماني كلمات كُتِبَت بيدٍ ثقيلة:

لقد كذب لوك، وأنت كذبت، كُن في الجنازة.

وكان فولك أول من أشاح بوجهه بعيدًا.

رؤية الصور كانت أمرًا صعبًا، تتتابع على شاشة في مقدمة الكنيسة بطريقة قاسية، كان لوك يحتفل بفرحة طفل صغير بكارن الصغيرة، وهي تقفز بحصان صغير أعلى حاجز، بدا الأمر غريبًا فجأة عندما تجمدت الشاشة عند لقطة ابتساماتهم، ولم يكن فولك وحده من حاول منع نفسه من التحديق.

دُهِش فولك عندما تغيرت الصورة وظهرت أخرى رأى نفسه فيها، صورة مشوشة له عندما كان في الحادية عشرة من عمره ظهرت أمامه فجأة، هو ولوك بجانب بعضهما بنصفهما الأعلى عارٍ وكلٌّ منهما فاغرٌ فاه بعد أن تمكنا من الإمساك بسمكة صغيرة بالصنارة. لقد بدا أنهما سعيدان.

تتابعت صور لوك وكارن في الظهور على الشاشة، كانا يضحكان وكأنما لم يتوقفا قط عن الضحك، ثم ظهرت صورة أخرى لفولك، هذه المرة شعر فولك بضيق في التنفس، عرف من خلال التمتمات التي تردد صداها بين الحشود، أنه ليس الوحيد الذي صُدِم برؤية الصورة.

رأى صورة لنفسه وهو شابٌّ واقفٌ بجانب لوك، وقد ازداد كلٌّ منهما طولًا وتناثر حَبُّ الشباب على وجهيهما، كانا لا يزالان يضحكان، ولكن في تلك الصورة بالذات كانا جزءًا من رباعي وليس هما الاثنان فقط. كانت ذراع لوك مُلتفَّة حول خصر فتاة مراهقة شقراء، أما يد فولك فقد احتضنت كتفَيْ فتاة أخرى ذات شعر طويل أسود وعينين داكنتين بعناية أكبر.

لم يصدق فولك أن صورة كتلك قد تم عرضها، استرق نظرة نحو جيري هادلر، والذي كان يحدق مباشرة للأمام في لا مبالاة، شعر فولك بالمُزارع الذي بجانبه وهو يتحرك نصف خطوة محسوبة بعيدًا عنه، لقد أدرك شيئًا ما للتو، فكر فولك.

أجبر نفسه على النظر ثانية نحو الصورة، نحو صورتهم هم الأربعة، وإلى الفتاة التي بجانبه، تذكر فولك هذا المشهد الذي التُقِطت فيه هذه الصورة، في

ظهيرة أحد الأيام في أواخر صيف طويل، لقد كان يومًا جيدًا. وكانت تلك هي الصورة الأخيرة لأربعتهم معًا؛ فبعد شهرين من ذاك اليوم، كانت الفتاة ذات العيون الداكنة ميتة.

لوك كذب. وأنت كذبت.

ظل فولك محدِّقًا إلى الأرض لمدة دقيقة كاملة، وعندما نظر مجددًا، كان الوقت قد مر وظهرت صورة لـلوك وكارن بابتسامة جامدة رسمية يوم زفافهما، كان فولك مدعوًّا يومها لكنه لا يتذكر ما الحجة التي تحجج بها كي يعتذر عن الحضور، *العمل بالتأكيد*.

وها قد ظهرت أول صورة لـبيلي، كان وجهه أحمر كطفلٍ وُلِد حديثًا، وشعره كثيفًا كطفلٍ ما زال يحبو، كان يشبه والده قليلًا، يرتدي سروالًا قصيرًا ويقف بجانب شجرة الكريسماس، تنكرت العائلة في هيئة ثلاثة وحوش ذات وجوه متشققة حول أفواههم رُسِمت بالألوان. تخطت الصور بضعة أعوام، وظهرت صورة لـكارن أكبر سنًّا وهي تحمل برفق إلى صدرها طفلًا آخر حديث الولادة.

تشارلوت، الأكثر حظًّا؛ فلم يكن اسمها مكتوبًا بالزهور. في الوقت ذاته كانت تشارلوت، والتي كان عمرها ثلاثة عشر شهرًا الآن، تبكي في حضن جدتها الجالسة في مقعدها في الصف الأول، ضمَّت بارب هادلر الفتاة بقوة إلى صدرها بإحدى ذراعيها، تهدهدها بهزات متوترة، بينما تمسك في يدها الأخرى منديلًا وتضعه على وجهها.

فولك بخبرته المنعدمة مع الأطفال لم يكن متأكدًا إذا تعرفت تشارلوت على والدتها على الشاشة أم لا، أو ربما تكون قد ضجرت من كونها في خِضَم هذا التأبين بينما لا تزال على قيد الحياة. أدرك فولك في داخله أنها سوف تعتاد على ذلك، فليس لديها خيارات كثيرة، لا مفر لمن كان مصيرهم أن يكبروا وهم حاملون لقب «الناجي الوحيد».

خفتت الموسيقى شيئًا فشيئًا، وانتهى تتابع الصور على الشاشة مما خلَّف صمتًا مزعجًا، ما لبث أن تحول تدريجيًّا إلى بعض الراحة عندما فتح أحدهم الأضواء.

نظر فولك ثانية نحو التوابيت ذات المنظر المرعب، يملؤه شعورٌ بالثقل والإجهاد، كقسيس سمين يعاني أشد المعاناة في أثناء صعود درجتَيْ المنبر. كان فكره منشغلًا بالفتاة داكنة العينين، وبكذبة تم تلفيقها والاتفاق عليها منذ عشرين عامًا، وأحس فجأة بالخوف وهرمونات المراهقة تتدفق في شرايينه.

لوك كذب، وأنت كذبت.

كم مر الوقت سريعًا كالحلم بين لحظة هذا القرار وتلك اللحظة اليوم؟ داهمه هذا السؤال كالصفعة.

وقعت عينا سيدة كبيرة على فولك بالصدفة، هو لم يكن يعرفها، ولكن المرأة بادرت بإيماءة آلية مهذبة لتخبره أنها لاحظته، فابتعد فولك بناظريه ولم يبادلها الإيماء، عندما نظر نحوها ثانية كانت لا تزال تحدق إليه، وفجأة تجهم وجهها والتفتت إلى السيدة الجالسة بجانبها، لم يكن فولك مضطرًّا إلى أن يقرأ شفتَيْها ليلتقط ما همست به إلى السيدة: «لقد عاد فولك الابن».

ألقت السيدة الأخرى نظرة سريعة نحو وجه فولك، وأشاحت بنظرها بعيدًا على الفور، أومأت برأسها إيماءة خفيفة للغاية مؤكدة ظنون صديقتها، ثم مالت نحو صديقتها الجالسة على الجانب الآخر لها وهمست بشيء ما؛ أحس فولك بثقل جاثم على صدره في تلك اللحظة، ونظر في ساعته متوسلًا. *سبع عشرة ساعة*، ومن ثَمَّ يرحل مجددًا.. *حمدًا لله*.

الفصل الثاني

- آرون فولك! إلى أين تظن أنك ذاهب؟!

كان فولك واقفًا بجوار سيارته يقاتل الرغبة الملحَّة في الركوب، وأن يقود مبتعدًا قدر الإمكان، وقد شرع معظم المعزين في السير بتثاقل نحو المكان الذي سيجتمعون فيه حول التوابيت ليبدؤوا مراسم التأبين من: الدعاء للمتوفين، وذكر صفاتهم الحسنة، والمواقف التي جمعت كلًّا منهم قبل مراسم الدفن. التفت فولك نحو الصوت وابتسم رغمًا عنه.

- غريتشن.

قال فولك بينما جذبته المرأة إليها معانقة إياه وهي تدفن جبهتها في كتفه، وضع ذقنه على رأسها الأشقر وبقيَا كذلك مدة دقيقة طويلة يتمايلان للأمام وللخلف.

- يا إلهي، إنني سعيدة للغاية لرؤيتك هنا.

كان صوتها مكتومًا بداخل حضنه.

- كيف حالك؟

سألها بينما ابتعدت عنه، هزت غريتشن شونر كتفيها في عدم اكتراث، ونزعت نظارتها الشمسية الرخيصة لتكشف عن عينين حمراوين.

- لست بخير، سيئة بحق.. ماذا عنك؟

- مثلك.

- مؤكد يبدو أنك كذلك.

وافتعلت ابتسامة مهزوزة.

- ما زلتَ تبدو في مظهرك الأمهق[1].

- وأنتِ أيضًا لم تتغيري كثيرًا.

ابتسمت ابتسامة مستنكرة قائلة:

- لقد مر عشرون عامًا، بحقك!

لم يكن فولك يحاول أن يبدو مجاملًا؛ فغريتشن كانت لا تزال جذّابة كما كانت في صورة الرباعي التي عُرضت في أثناء التأبين، الخصر الذي أحاطه لوك بذراعه أصبح أعرض قليلًا الآن، الشعر الأشقر الفاتح ربما قد تمت معالجته ببعض الصبغة، ولكنّ العينين الزرقاوين وعظمتَي الخد المرتفعتين كانوا كسابق عهدهم. كان بنطالُها وبلوزتها الرسميان أضيق قليلًا من الملابس الجنائزية المعتادة، وتواجه القليل من الصعوبة في الحركة بداخلهما، تساءل فولك عما إذا كانت تلك الملابس مستعارة، أو فقط نادرًا ما يتم ارتداؤها.

ظلت غريتشن تنظر إليه بنفس النظرة المتفحِّصة، وبمجرد ما التقت عيناهما بدأت تضحك، فبدت على الفور أخف وأكثر شبابًا.

- هيا.

أمسكت بساعده في إلحاح، شعر فولك ببرودة يدها على جلده.

- سيُعقَد عشاء التأبين في المركز الاجتماعي، سنتخطى هذا الأمر معًا.

عندما بدآ السير في الطريق، نادت غريتشن على فتى صغير كان ينكز شيئًا ما بعصا، نظر الفتى نحوها وترك ما كان يفعله مُكرهًا، مدت غريتشن يدها له، ولكن الولد هز رأسه رافضًا ومضى مهرولًا ضاربًا بالعصا كأنه يمسك بسيفٍ.

- ابني، لاكي.

قالت غريتشن دون أن تنظر مباشرة نحو فولك.

- أجل، لقد سمعت أنه أصبح لديك طفلٌ.

---

(1) مرض المهق أو البرَص: وهو مرض نقص صبغة الجلد؛ فيجعل الشخص ذا جلد أبيض باهت، وشعر أبيض مصفر، وعينين ورديتين ذاتَي رموشٍ شفافة.

استغرق فولك لحظة ليتذكر أن الفتاة التي عرفها في الماضي أصبحت الآن أمًّا.

- سمعت ممن؟! لوك؟

- لا بد وأن هذا ما حدث، مضى وقت طويل الآن، كم عمره؟

- خمس سنوات فقط، ولكنه زعيم عصابة معظم الوقت.

كانا يراقبان لاكي وهو يغمد سيفه المزيف في قلب أعدائه الخياليين، كانت عيناه واسعتين وشعره داكنًا ومجعدًا، ولم يرَ فولك الكثير من غريتشن في ملامح الفتى الحادة، حاول جاهدًا أن يتذكر أن لوك حدّثه مسبقًا أنها كانت في علاقة مع أحدهم أو من هو والد الطفل، لم يكن يعتقد ذلك، وفضّل أن يظن أنه قد تذكر ذلك. استرق فولك النظر إلى يد غريتشن ولم يجد خاتمًا، ولكن لم يكن هذا ذا معنى في تلك الأيام.

- وكيف هي حياة العائلة معكِ؟

قال أخيرًا، يتصيد المعلومات.

- بخير، لاكي هو عائلتي.

قالت غريتشن ذلك بصوت خفيض.

- فقط هو وأنا، ولكنه ولد جيد، ونستطيع العيش معًا، إلى الآن على الأقل.

- ما زال والداك يمتلكان مزرعتهما؟

هزت رأسها نافية.

- يا إلهي، لا.. لقد تقاعدا وبَاعَاها منذ ثماني سنوات. انتقلا للعيش في سيدني واشتريا شقة تبعد ثلاثة شوارع فقط عن بيت أختي وأولادها.

هزت كتفيها كمَن لا حيلة له.

- يقولان إنهما يحبان حياة المدينة، يبدو أن أبي يمارس رياضة البيلاتيز.

لم يستطع فولك أن يكبح ابتسامته وهو يتخيل السيد شونر منغمسًا في ذاته الداخلية وتمارين التنفس.

- ألا تنوين اللحاق بهم؟

أجابت بضحكة خالية من وروح الدعابة.

- وأترك كل هذا؟

وأشارت نحو الأشجار الذابلة على طول الطريق.

- لا، إنني أعيش هنا منذ زمن، هذا المكان في دمي، أنت تعلم كيف يكون هذا.

لم تزد على هذه الجملة وأشاحت بنظرها جانبًا.

- أو ربما لا تعرف، آسفة.

لوح فولك بيده ليغير الموضوع.

- ماذا تعملين هذه الأيام؟

- في الزراعة بالتأكيد، اشتريت منزل آل كيلرمان منذ سنتين، وأُربِّي الغنم.

- حقًّا؟!

كان فولك مندهشًا، لقد كان هذا المنزل مرغوبًا للغاية، أو على الأقل كان كذلك عندما كان صغيرًا.

- ماذا عنك؟ سمعت أنكَ التحقت بالشرطة؟

- أجل، الشرطة الفيدرالية، ما زلت هناك.

مشيَا ملتزمَيْ الصمت لفترة. بدت أصوات الطيور القادمة من الأشجار شديدة الاهتياج كما اعتادها في السابق، كانت أمامه الآن مجموعات من المعزين يملؤون الطريق.

- كيف حال كل شيء هنا؟

- في أسوأ حال.

كان هذا فقط هو الجواب الوافي، وضعت غريتشن طرف إصبعها على شفتيها بعصبية مُدخِّن سابق.

- يعلم الله أن كل شيء كان سيئًا كفاية من قبل، الجميع خائفون بسبب المال والجفاف، ثم حدث ذلك مع لوك وعائلته، إنه لشيء مؤسف بحق يا آرون.. مؤسف بحق، يمكنك أن ترى ذلك، إننا جميعًا كالأموات، لا

أحد يعلم ماذا يقول أو ماذا يفعل، نراقب بعضنا بعضًا لنحاول أن نخمِّن من سيكون التالي ليفقد عقله.

- يا للهول.

- أجل، لا يمكنك أن تتخيل.

- هل كنتِ أنت ولوك لا تزالان مقربين؟

سأل فولك بفضول، ترددت غريتشن في الإجابة وعضت على شفتيها من الداخل.

- كلا، لم نعد منذ سنوات، ليس مثلما كنا نحن الأربعة.

فكر فولك في تلك الصورة: لوك، غريتشن، هو، وإيلي ديكون ذات الشعر الطويل الأسود. كانوا مقربين بشدة، صداقة سن المراهقة، الوقت الذي تعتقد فيه أن أصدقاءك هم جزءٌ من روحك وأن شملكم سيدوم للأبد.

لوك كذب. وأنت كذبت.

- يبدو أنكَ كنتَ على تواصل معه؟

- بين الحين والآخر.

على الأقل هذه كانت الحقيقة.

- كنا نتقابل كل فترة ونتناول البيرة عندما كان في ملبورن، أشياء من هذا القبيل.

توقف فولك قليلًا.

- مع ذلك فأنا لم أره منذ سنوات، الحياة تلهينا، أليس كذلك؟ كان لديه عائلته، وأنا كنت أعمل كثيرًا.

- لا عليك، لستَ مضطرًا للبحث عن أعذار، إننا جميعًا نشعر بالذنب.

كان المكان يعج بالناس. توقف فولك على الدرج وتعلقت غريتشن بذراعه.

- هيا تعالَ، سيكون كل شيء على ما يرام، لن يتذكرك معظم الناس حتى.

- سيكون هناك بعض ممن يتذكرونني، بالأخص بعد تلك الصورة في الجنازة.

تغيرت ملامح وجه غريتشن.

- إنني أفهمك، لقد صُدِمتُ أيضًا، ولكن لا تقلق، فالناس لديها الكثير لتقلق بشأنه اليوم أكثر منك، أبقِ رأسك منخفضًا وسنخرج من الطرف الخلفي.

دون أن تنتظر إجابة، جذبت ذراع فولك بإحدى يديها وابنها باليد الأخرى وقادتهما نحو الداخل تشق طريقها بين الحشود. كان الجو خانقًا وكان مكيف الهواء في المكان يحاول بكل طاقته دون جدوى، كقبضة تواجه عاصفة رملية، حيث تجمهر المعزون بالداخل بعيدًا عن الشمس، كانوا متلاصقين كليًّا يحاولون الإمساك بالأكواب البلاستيكية وأطباق كعك الشوكولاتة الذائبة.

تمكنت غريتشن من الوصول إلى الأبواب حيث اضطر بعض الذين يعانون من فوبيا الأماكن المغلقة إلى الخروج نحو الساحة غير الممهدة، وجدوا بقعةً ظليلة بالقرب من السور، وجرى لاكي نحو الزلاجة المعدنية التي تحترق من الشمس ليجرب حظه.

- لستِ مضطرة إلى الوقوف معي، إذا كان ذلك سيلطخ سمعتك الطيبة.

قال فولك ذلك وهو يخفي وجهه أكثر بقبعته.

- كلا، اصمت. في الأصل إنني كافية لفعل ذلك تمامًا.

تفحص فولك الساحة ووقع ناظراه على رجلين كبيرين في السن وفكر أنهما ربما كانا أصدقاء والده يومًا ما، كانا يتبادلان حديثًا مع أحد ضباط الشرطة الذي كان مرتديًا زيًّا شرطيًّا كاملًا وغارقًا في عرقه تحت شمس الظهيرة؛ حيث كانت جبهته تلمع عندما أومأ برأسه بأدب.

- مهلًا لحظة، أهذا بديل باربيري؟

نظرت غريتشن حيث ينظر فولك.

- أجل، هل سمعت عن باربيري؟

- بالتأكيد. يا للخسارة، تتذكرين كيف كان يخيفنا حد الموت بحكاياته عن الأطفال الذين يعبثون بمُعدّات المزرعة؟

- نعم، لقد أصيب بأزمة قلبية منذ عشرين سنة.

- إنه شيء مؤسف مع ذلك.

قالها فولك وهو يعنيها.

- من هو الرجل الجديد إذن؟

- النقيب ريكو، وإذا بدا لك أنه قد خطا للتو نحو الهاوية، فذلك لأنه قد فعل.

- أليس جيدًا؟ يبدو أنه يسيطر على الحشود جيدًا.

- لا أعلم حقًا، لقد جاء إلى هنا منذ خمس دقائق فقط عندما حدث كل هذا.

- يا له من موقف لا يُحسَد عليه عندما يهوي في أول خمس دقائق له.

اختصرت غريتشن إجابتها بحركة سريعة نحو الباب، أفسح الحشد المجال احترامًا لمجيء بارب وجيري هادلر اللذين يمكنهما بالكاد فتح أعينهما في ضوء الشمس، كانا يمران بجموع المعزين ويد كل منهما تعانق يد الآخر بقوة. كلمتان، فعناق، وإيماءة توحي بالصبر والجَلَد، ثم يمضيان.

- متى كانت آخر مرة تكلمتَ معهما؟

- منذ عشرين عامًا، حتى الأسبوع الماضي.

أجاب فولك ثم صمَت. كان جيري لا يزال على الجانب الآخر من الفناء عندما لمحهما، ابتعد فجأة عن امرأة بدينة منهيًا عناقًا دون تمهيد ليتركها معانقة الفراغ بدلًا منه.

كُن في الجنازة.

وقد كان فولك هناك، حسب التعليمات. وقف يترقب والد لوك وهو يقترب منه.

تطوعت غريتشن أولًا وعانقت جيري، الذي التقت عيناه بعيني فولك من خلف كتفها، ولاحظ فولك أن بؤبؤي عينيه كانا متوسعين ولامعين، حتى تساءل ما إذا كان يتعاطى بعض الأدوية لتساعده على الصمود في أثناء اليوم. عندما انتهى عناق جيري وغريتشن، مد يده وطوّق يد فولك بحميمية.

- لقد أتيتَ بالفعل.

قال جيري ذلك بلهجة غير ذات معنى؛ حيث كانت غريتشن لا تزال بجانبهما.

- هأنذا، لقد تلقيت خطابك.

أجاب فولك، ونظر إليه جيري محدقًا.

- صحيح.. حسنًا، لقد كنت أفكر أنه لمن المهم أن تكون حاضرًا، من أجل لوك، وبصراحة لم أكن متأكدًا أنك ستأتي.

بقيت الجملة الأخيرة معلقة في الهواء.

- بالطبع يا جيري، من المهم أن أكون هنا.

أومأ فولك مؤكدًا.

لم يبدد هذا شكوك جيري، كان فولك بداخل مكتبه في ملبورن يحدق إلى صورة لوك المنشورة في إحدى الصحف عندما رن هاتفه، وسمع فولك ذاك الصوت العجوز الذي لم يسمعه منذ عشرين عامًا، أخبره جيري بأمور الجنازة.

- سنراك هناك.

قال ذلك دون علامة استفهام في النهاية. تحاشى فولك النظر إلى صورة لوك المبكسلة بينما كان يذكر شيئًا عن التزامات العمل. في حقيقة الأمر، لم يكن قد اتخذ قرارًا بعد، وبعد مرور يومين فقط، وصلته الرسالة. لا بد وأن جيري قد أرسلها بمجرد أن أنهى مكالمته معه.

لوك كذب، وأنت كذبت.. كُن في الجنازة.

لم يتمكن فولك من النوم ليلتها.

كانا كلاهما ينظران بارتباك نحو غريتشن، كانت على وشك أن تفقد صوابها؛ حيث كان ابنها يترنح على القضبان خشية أن يسقط.

- ستبقى هنا الليلة، أعلى الحانة.

قال جيري ذلك دون علامة استفهام هذه المرة أيضًا.

دوّى صوت بكاء من ساحة اللعب، وصرخت غريتشن من شدة الحنق.

- اللعنة، عرفت أن ذلك سيحدث، معذرة.

هرولت نحو ابنها. جذب جيري فولك من ساعده وانزوى به بعيدًا عن المعزين، كانت يده ترتعش.

- يجب أن نتكلم قبل أن تعود.

سحب فولك ذراعه بعيدًا بحركة هادئة آخذًا في الاعتبار الحشد الموجود خلفهما، ليس لديه فكرة مَن يوجد هناك ومَن يراقبهما الآن.

- بحقك يا جيري، ماذا تريد؟

أجبر فولك نفسه على أن يبدو في مظهر هادئ.

- إذا كان هذا نوعًا من الابتزاز، فدعني أخبرك أن ذلك لا يجدي نفعًا.

- ماذا؟ يا إلهي، بالطبع لا يا آرون، لا يوجد شيء كهذا.

بدا جيري مصدومًا بحق.

- لو وددتُ افتعال المشكلات لكنتُ فعلت منذ سنوات، ألا تتفق معي؟ كنت موافقًا على تلك الكذبة، يا إلهي، بل كنت مسرورًا بها. ولكن لا يمكنني الآن، هل يمكنني أن أفعل؟ بعد الذي حدث؟ لقد ماتت كارن وبيلي الذي لم يبلغ حتى السابعة من عمره.

كان صوت جيري متقطعًا.

- انظر، أعتذر من أجل الخطاب، ولكن كان يجب أن تكون هنا، أحتاج إلى أن أعرف.

- تعرف ماذا؟!

بدت عينا جيري سوداوين تمامًا تحت ضوء الشمس.

- إذا كان لوك قد قَتلَ من قبل.

التزم فولك الصمت، لم يسأل حتى عما يعنيه جيري بسؤاله.

- هل تعلم...

ابتلع جيري جملته؛ حيث اقتحمت امرأة فضولية حديثهما لتخبره أن القسيس يريده، على الفور إن أمكن.

- يا إلهي، ما هذه الفوضى؟!

قال جيري محتجًا، تنحنحت المرأة في خجل وبدت فجأة كشهيدة الواجب.

التفت مجددًا نحو فولك.

- يجب أن أذهب.. سنتواصل.

صافح يد فولك، وظل ممسكًا بها لمدة أطول من اللازم.

أومأ فولك متفهمًا، بدا جيري صغيرًا محني الظهر عندما رآه مبتعدًا مع المرأة، عادت غريتشن متسائلة إلى فولك، بعدما هدَّأت ابنها، ووقفا معًا يراقبان جيري مبتعدًا في طريقه.

- إن حالته مزرية.

قالت غريتشن كأنما تكلم نفسها.

- لقد سمعت أنه تشاجر مع كريج هورنبي في محل البقالة بالأمس متهمًا إياه أنه يسخر من الموقف، أو شيئًا من هذا القبيل، إنه أمر غريب، فكريج صديقه منذ خمسين سنة.

لم يتذكر فولك أي أحد، بالأخص كريج هورنبي عديم الشعور، ذاك الذي سولت له نفسه بأن يسخر من تلك التوابيت المروعة.

- أحقًّا لم يبدُ أي شيء قط على لوك؟

لم يستطع فولك كبح نفسه.

- مثل ماذا؟

هبطت ذبابة على شفتي غريتشن فمسحت فمها بيدها في ضيق.

- كأن يمسك بسلاح ويلوح به مهددًا في منتصف الطريق بأنه سوف يفعل هذا بعائلته؟

- بربك يا غريتشن، أنا فقط أسأل، أعني الاكتئاب وأشياء من هذا النوع.

- آسفة، ولكن هذا الجو الحار يفقدني صوابي.

توقفت لوهلة.

- انظر، لا يوجد أحدٌ في كيوارا إلا وعلى وشك أن يجن، ولكن صراحةً، لم يكن يبدو أن لوك يعاني أكثر مما يعاني الجميع، على الأقل لم يلحظ أحدٌ شيئًا كهذا.

شردت غريتشن بعيدًا في تجهم ثم قالت بعد فترة.

- من الصعب أن تعرف كذلك، الجميع غاضبون، ولكن ليس من لوك تحديدًا، كل الناس الحانقين عليه لا يبدون أنهم يكرهونه لما قد فعله، هذا غريب.. إن الأمر يبدو وكأنهم يحسدونه.

- على ماذا؟

- لأنه فعل ما لن يقوى أحدهم على فعله، هذا ما أعتقده؛ لأنه الآن قد استراح، أليس كذلك برأيك؟ بينما لا نزال نحن جميعًا عالقين هنا حتى نتعفن، لن يستمر بالقلق بعد الآن بشأن المحاصيل، ولا أن تفوته مواعيد الدفع أو انتظار الأمطار.

- إنه لحل يائس أن تحكم على عائلتك بالموت معك، كيف تتعامل عائلة كارن مع الوضع؟

- لم تكن لديها عائلة، حسب ما سمعت. ألم تقابلها قبلًا؟

هز فولك رأسه نافيًا.

- كانت طفلة يتيمة، فقد توفي والداها في مراهقتها، ومن ثمَّ انتقلت إلى هنا للعيش مع عمة لها وقد ماتت هي الأخرى منذ عدة سنوات، أعتقد أن كارن لم يكن لديها على الإطلاق سوى عائلة هادلر.

- هل كنتما أصدقاء؟

- ليس تمامًا، أنا..

سمعا صوت رنة شوكة على كوب نبيذ قادم من ناحية الأبواب، عمَّ الصمت شيئًا فشيئًا بين الحشود، وانتبه الجميع إلى حيث وقف جيري وبارب هادلر يدًا بيد، بدَوَا غريبين ووحيدين وهما محاطان بكل أولئك الناس.

أدرك فولك أنه لم يبقَ لهما أحد سوى نفسيهما الآن، لقد كان لهما ابنة أيضًا فيما مضى، لوقت قصير؛ فقد وُلدَت ميتة وكان لوك وقتها في الثالثة من عمره، إذا كانا قد حاولا أن يُنجبا أطفالًا بعد هذه المرة، فإنهما لم يُكتَب لهما النجاح، وبدلًا من ذلك فقد بذلا كل جهودهما لأجل ولدهما القوي الذي تمكن من أن يظل على قيد الحياة.

تنحنحت بارب، تأرجحت عيناها يمنة ويسرة بين جموع الناس.

- نودُّ أن نشكركم جميعًا على حضوركم، لقد كان لوك رجلًا صالحًا.

كانت كلماتها سريعة وعالية، ضمت بارب شفتيها على بعضهما كي تمنع هرب المزيد من الكلمات، دام الصمت لفترة طويلة حتى أصبح مريبًا، كان جيري يحدِّق في صمت نحو مجموعة من الناس أمامه، أجبرت بارب شفتيها أن ينفتحا وتنهدت مستنشقة بعض الهواء.

- وكارن وبيلي كانا جميلين، إن ما حدث كان..

ابتلعت ريقها.

- كان فظيعًا بحق، ولكنني آمل أن تتذكروا لوك بصورة طيبة، لقد كان من قبل صديقًا لمعظمكم، وجارًا طيبًا، ومثابرًا في عمله.. وكان يحب عائلته أيضًا.

- أجل، حتى إنه قتلهم.

انبعثت تلك الكلمات من الخلف بصوت خفيض، ولم يكن فولك وحده الذي أدار رأسه على إثرها، تجمعت نظرات الجميع مشيرة إلى قائل تلك الكلمات، كان رجلًا ضخمًا في منتصف الأربعينيات لكن في حالة مزرية، ذراعاه سمينتان يغلب عليهما الشحم أكثر من العضلات؛ إذ كانتا مترهلتين على قميصه وهو يطويهما، كان وجهه متوردًا، ولحيته شعثاء غير مُشذَّبة، ومظهره جريئًا يوحي بالبلطجة. كان يحدق بتحدٍّ لكل من استدار نحوه موجهًا نظرة لوم، حتى أجبرهم جميعًا على تركه وشأنه وبدؤوا ينظرون بعيدًا واحدًا تلو الآخر، تظاهر كلٌّ من جيري وبارب أنهما لم يسمعا ما قيل. لحسن الحظ، قال فولك لنفسه.

- مَن يكون ذو اللسان الطويل ذاك؟

- ألم تعرفه؟! إنه جرانت دو.

- أنتِ تمزحين!

أحسَّ فولك بأن شيئًا ما قد وخزه في رقبته، وأشاح بوجهه بعيدًا، لقد تذكر الرجل في الخامسة والعشرين من عمره، ذا عضلات نحيفة كسلكٍ شائك، هذا الرجل يبدو الآن وكأن العقدين الماضيين لم يمرَّا عليه بسلام منذ ذلك الوقت.

- إنه يبدو مختلفًا للغاية.

- لكنه لا يزال أخرق كبيرًا، لا تقلق.. لا أظن أنه قد رآك، كنت ستعلم بالتأكيد لو فعل.

أومأ فولك متفهمًا، ولكنه أبقى رأسه منخفضًا، أجهشت بارب بالبكاء مما جعل الناس يظنون أنها قد أنهت كلمتها، اتجه البعض تلقائيًا نحوها وذهب البعض الآخر، كلٌ حسبما قاده وجدانه، لبث كلٌ من فولك وغريتشن في مكانَيهما، جاء ابن غريتشن مهرولًا ودفن وجهه بين ساقَي أمه، حملته ببعض الجهد لترفعه على فخذها ثم إلى كتفها فأخذ الفتى يتثاءب.

- حان الوقت لنأخذ هذا الفتى إلى المنزل على ما أظن، متى تنوي العودة إلى ملبورن؟

تفحص فولك ساعته، *خمس عشرة ساعة*.

- غدًا.

أومأت غريتشن وهي تنظر إليه، ثم مالت نحوه وأحاطت ظهره بذراعها الفارغة وجذبته نحوها برفق، شعر فولك بحرارة الشمس تلفحه من ظهره وبدفء جسدها من الأمام.

- مسرورة لرؤيتك مجددًا يا آرون.

نظرت عيناها الزرقاوان إلى وجه فولك في محاولة لحفظ ملامحه جيدًا وابتسمت له ابتسامة حزينة.

- ربما لن أتمكن من رؤيتك قبل عشرين عامًا أخرى.

ظل مراقبًا إياها وهي تمشي مبتعدة حتى اختفت.

الفصل الثالث

جلس فولك على حافة السرير وأخذ يتابع في ملل عنكبوتًا متوسط الحجم يجثم على الحائط، انخفضت درجة الحرارة مساءً إلى حد ما بعد غروب الشمس، استحم فولك وبدَّل ملابسه وارتدى سروالًا قصيرًا مريحًا، لم يكن يشعر بالراحة كثيرًا؛ إذ التصقت ساقاه الرطبتان بغطاء السرير القطني الرديء.

سمع فولك الأصوات الخافتة المُنبعثة من الحانة بالأسفل، أخذ الصوت المكتوم الذي ينبعث من حين إلى آخر يدوي دويًا بعيدًا، يوجد جزءٌ بداخله يملؤه الفضول ليعرف مَن يوجد بالأسفل، ولكنه لم يشعر برغبة حقيقية في الانضمام إليهم. ارتفع الصوت قليلًا ليتضح صوت مكتوم لزجاج يتهشم، ساد الصمت لبعض الوقت ثم تبعه صوت ضحك جماعي ساخر، حرك العنكبوت إحدى ساقيه على إثر ما يحدث.

انتفض فولك عندما سمع صوت الهاتف الموجود على منضدة الغرفة يرن بصوت صاخب ومكتوم، شعر فولك بالفزع، ولكنه لم يتفاجأ، بل شعر أنه كان ينتظر تلك المكالمة لساعات.

- مرحبًا.

- هل أنت آرون فولك؟ لديك مكالمة.

كان صوت نادل الحانة عميقًا ينم عن لكنة إسكتلندية قوية، استطاع فولك أن يستحضر صورة ذاك الشيء الضخم الذي أخذ بيانات كارت الائتمان خاصته ثم أعطاه مفتاح الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة منذ ساعتين.

لم يسبق لـفولك أن رآه من قبل، لأنه لو كان فعل لكان تذكر رؤية هذا الوجه بكل تأكيد: في أواخر الأربعينيات، عريض المنكبين، وبِلحيَة برتقالية

اللون، خمن فولك أن نادل الحانة هو أحد الرحَّالة الذين عاشوا لمدة طويلة في هذا المكان. لم يبدِ الرجل أي إشارة تدل على أنه تعرف على اسم فولك، فقط أعطى شعورًا بعدم التصديق لفكرة أنه يوجد أحد في الحانة لأي سبب لا يتعلق مباشرة بالخمر.

- مَن يتصل؟

سأل فولك بالرغم من أنه يمكنه أن يخمِّن الإجابة.

- اسأله بنفسك، إذا كنت تريد خدمة توصيل الرسائل فعليك أن تقيم في مكان أفخم من هنا يا صديقي، سأضعه على الخط الآن.

ساد الصمت لوهلة على الخط قبل أن يسمع فولك صوت تنفس أحدهم.

- آرون، هل تسمعني؟ أنا جيري.

بدا والد لوك مرهقًا.

- جيري، علينا أن نتكلم.

- أجل، مُرّ بالمنزل، بارب تريد التكلم معك على كل حال.

أعطاه جيري العنوان، سادت فترة ليست بقصيرة من الصمت، تبعتها تنهيدة مثقلة.

- وانتبه يا آرون، هي لا تعلم بأمر الخطاب ولا أي من تلك الأشياء، ويجب أن تبقى كذلك، مفهوم؟

اتَّبَع فولك الاتجاهات التي وصفها جيري عبر الشوارع الريفية الكئيبة، وبعد عشرين دقيقة انعطف بسيارته نحو طريق قصير ممهد، كان البيت في نهايته. انعكست لمعة برتقالية اللون من مصباح الرواق الخارجي على البيت المغطى بالألواح الخشبية.

توقف بسيارته فسمع صوت صرير الباب الواقي ينفتح كاشفًا ظل بارب هادلر القصير، ظهر زوجها وهو يقف خلفها بعد لحظات، عَكَس طول قامته ظلًّا طويلًا على أرضية الممر، لاحظ فولك أنهما لا يزالان يرتديان ملابس الجنازة عندما صعد درجات الشرفة الأمامية، ولكنها كانت قد تجعدت الآن.

- آرون.. يا إلهي، لقد مضى وقت طويل، شكرًا لمجيئك.. تفضل.

همست بارب وهي تمد يدها الفارغة إليه تدعوه للدخول، كانت تحمل تشارلوت الصغيرة إلى صدرها وتهزها بنشاط لتهدهدها.

- معذرة من أجل الطفلة، إنها متعبة للغاية، لا تود أن تهدأ.

رأى فولك أن تشارلوت قد غَطَّت في النوم بسرعة.

- بارب.

مال فولك بجانب الطفلة ليتمكن من أن يعانق المرأة.

- مسرورة كثيرًا لرؤيتك.

ضمته طويلًا بذراعها حول ظهره فشعر فولك بالطمأنينة لبضع لحظات، استطاع أن يشم رائحة شعرها المفعمة بعبير الزهور، نفس نوع مصفف الشعر الذي اعتادت أن تستخدمه عندما كانت لا تزال السيدة هادلر بالنسبة إليه، انتهى عناقهما وتمكن فولك من أن ينظر مليًّا لـتشارلوت للمرة الأولى، كان وجهها أحمر اللون ولم تبدُ مرتاحة، دفنت وجهها بداخل صدر جدتها، دُهش فولك عندما لاحظ تجعد جبهتها في عبوس، كانت تشبه والدها بغرابة.

خطا خطوة نحو الداخل، وظلت بارب تنظر إليه مليًّا في غير تصديق والدمع يترقرق في عينيها، اقتربت منه واحتضنت وجنتيه بأطراف أصابعها الدافئة.

- انظر إليك، إنك لم تتغير قط.

لم يفهم فولك شعور الذنب الذي داهمه، أدرك أنها تتخيل صورة ابنها في سن المراهقة واقفًا بالقرب منه في تلك اللحظة، أجهشت بارب ومسحت وجهها بمنديل مُهترِئ من كثرة البكاء، حتى تناثر فُتاته على قميصها، تجاهلته ورسمت ابتسامة حزينة على وجهها ثم أشارت لـفولك لكي يتبعها، قادته عبر ممر مملوء بالصور العائلية التي حاولا جاهدين تجاهلها، قام جيري بفعل الشيء ذاته.

- إن بيتكِ جميل يا بارب.

قال فولك بأدب.

لطالما كانت بارب مدبرة منزل في غاية الدقة والترتيب، ولكن الآن كانت هناك بعض الفوضى غير المعتادة: أكواب متسخة تزاحمت على الطاولة، سلة

المهملات ممتلئة عن آخرها، وأكوام من الرسائل التي لم تُفتَح، كلها أشياء كانت تعكس مدى الحزن والاضطراب الحاليين.

- شكرًا، كنا نفكر أن نجد شيئًا صغيرًا وأكثر ملاءمةً بعد...

ترددت للحظة وابتلعت ريقها.

- بعد أن بِعنا المزرعة لـلوك.

ثم خرجا إلى شرفة مُطلَّة على حديقة أنيقة، كانت ألواح الأرض الخشبية تصر من تحتهم وقد ضعفت صلابتها متأثرةً بحرارة النهار، حديقة ممتلئة بشجيرات الورد المُشذَّبة بعناية، ولكنها بلا حياة.

- كنت أسقيهم بالمياه المستعملة في محاولة لإنقاذهم.

قالت بارب وهي تتابع حيث ينظر فولك.

- قضت الحرارة عليها تمامًا.

أشارت له ليجلس على كرسي مصنوع من الخوص.

- لقد رأيناك في الأخبار، هل أخبرك جيري؟ منذ نحو شهرين، في قضية تلك الشركات التي تنهب مستثمريها وتسرق أموالهم.

- قضية بيمبرلي، لقد أثارت ضجة كبيرة.

- قالوا إنك أبليت بلاءً حسنًا يا آرون، في التلفاز وفي الجرائد، وإنك أعدت لأولئك الناس أموالهم.

- بعضًا منها، وخسرنا بعضها.

- فليكن، قالوا إنك أديت عملًا جيدًا.

ربتت بارب على ساقه.

- كان والدك ليفخر بك.

- أشكرك.

قال فولك بعد وهلة من الصمت.

- حزنًا كثيرًا عندما سمعنا أنه مات، ذلك السرطان وغد حقًّا.

- أجل.

سرطان القولون، منذ ستة أعوام.. لم تكن ميتة سهلة.

كان جيري واقفًا وهو يستند على إطار الباب، وتكلم للمرة الأولى منذ أن أتى فولك.

- حاولت أن أبقى على اتصالٍ بعدما ذهبتم.

لم تخلُ لهجته العفوية من لهجة دفاعية.

- كتبت لوالدك، حاولت الاتصال مرتين، لم أتلقَ أيَّ إجابة، في النهاية شعرت أنه عليَّ أن أتوقف.

- لا عليك، لم يكن حقًّا يهتم بأي اتصال بـكيوارا.

كانت تلك الجملة تحمل معنى آخر في باطنها، تظاهروا جميعًا بعدم ملاحظته.

- هل تريد مشروبًا؟

اختفى جيري بداخل المنزل دون أن ينتظر إجابة لثوانٍ ثم عاد حاملًا ثلاث كؤوس من الويسكي، أخذ فولك كأسه وهو يتعجب، لم يكن يعلم قط أن جيري يمكن أن يشرب شيئًا أكثر قوة من البيرة، كان الثلج قد بدأ بالفعل في الذوبان بعد أن أمسك الكأس بيده.

- نخبك!

أرجع جيري رأسه للخلف ثم تجرع كمية كبيرة مرة واحدة.

توقع فولك أنه سوف ينقبض تحت وطأة المشروب الحاد الذي ابتلعه للتو، ولكنه لم يفعل، أخذ فولك رشفة بسيطة ووضع كأسه جانبًا، بينما نظرت بارب إلى خاصتها بعدم اهتمام.

- حقًّا ما كان يجب أن تشرب تلك الأشياء أمام الطفلة يا جيري.

- إنها تبكي بكل ما لديها من قوة يا عزيزتي، الطفلة لا تهتم، فهي ميتة بالنسبة إلى هذا العالم اللعين.

قال جيري ذلك وساد صمتٌ رهيب، بدأت الحشرات الليلية في الخشخشة من مكان ما من الحديقة المتشحة بالظلام، تنحنح فولك جارحًا هذا الصمت.

- كيف تتعايشين مع الوضع يا بارب؟

نظرت للأسفل ولمست خد تشارلوت، وأخذت تهز رأسها بينما سقطت دمعة هاربة على وجه الفتاة.

- مؤكد...

شرعت بارب في الكلام ثم توقفت، كانت عيناها تطرفان بشدة.

- أعني.. أنا متأكدة أن لوك لم يفعلها، لم يكن ليفعل ذلك قط، أنت تعلم ذلك، هو لا يفعل ذلك لنفسه، ولا لعائلته الجميلة بكل تأكيد.

نظر فولك نحو جيري الذي ما زال واقفًا أمام الباب يحملق إلى كأسه الفارغة نصفها.

استأنفت بارب.

- تحدثتُ مع لوك قبل الحادثة بعدة أيام وكان بخير حال، حتى لا أبالغ، لقد كان طبيعيًا.

لم يوفَّق فولك في إيجاد أي شيء يرد به فأومأ برأسه، اعتبرت بارب تلك الإيماءة علامة على الموافقة.

- أترى، ها أنت ذا تفهم، لأنك كنت تعرفه حق المعرفة، ولكن بقية الناس هنا ليسوا كذلك، إنهم فقط يؤمنون بما يسمعونه.

منع فولك نفسه من أن يوضح أنه لم يرَ لوك لمدة خمس سنوات، نظر كل منهما نحو جيري الذي لا يزال ينظر متفحصًا كأسه، لا يوجد أمل منه.

- لهذا السبب كنا نأمل...

نظرت بارب مجددًا في تردد.

- كنت آمل أنك تستطيع مساعدتنا.

نظر فولك إليها محدقًا.

- كيف أساعدكما بالضبط يا بارب؟!

- حسنًا، بأن تكتشف ماذا حدث بالفعل؛ لتسترد سمعة لوك، ومن أجل كارن وبيلي.. وتشارلوت.

ثم بدأت تهدهد تشارلوت بين ذراعيها وتربت على ظهرها وتصدر أصواتًا لتهدئتها، كانت الطفلة ساكنة لا تتحرك.

- بارب.

مال فولك للأمام بكرسيه نحوها وربت على يدها براحته، كانت يدها رطبة ومحمومة تحت وطأة الانفعال.

- أنا حقًّا في غاية الأسف لما حدث، لكم جميعًا، لقد كان لوك بمنزلة أخ فيما مضى، تعلمين ذلك، ولكن لست أنا الشخص الصحيح لهذه المهمة، إذا كان لديك أي شكوك فيجب أن تذهبي للشرطة.

- لقد جئنا لك.

أبعدت يدها.

- أنت من الشرطة.

- الشرطة المخولة بالتعامل مع هذا النوع من القضايا، لم أعد أقوم بتلك الأشياء، كما تعلمين، فقد أصبحت أعمل في مجال الأموال الآن، الحسابات، المال.

- بالضبط كذلك.

أصدر جيري صوتًا من حلقه.

- إن بارب تعتقد أن المسألة متعلقة بالمال.

اعتمد جيري لهجة محايدة، خجولة إلى حد ما.

- أجل إنني أعتقد ذلك، لماذا يبدو هذا لك أمرًا لا يُصدَّق يا جيري؟ تحدث عن تبذيره، إن لوك لو امتلك دولارًا لكان أنفق اثنين ليتأكد من أنه قد ذهب.

هل هذا صحيح؟ كان فولك يتساءل، فلم يسبق له أن عرف عن لوك أنه يميل لأن يصبح مفلسًا. التفتت بارب لتواجهه.

- انظر، طوال عشر سنوات كنت أظن أننا فعلنا الصواب بأن أعطينا المزرعة لـلوك، لكن خلال الأسبوعين الماضيين لم أستطع أن أفكر إلا في أننا قد أثقلنا كاهله بحمل كبير عليه في ظل هذا الجفاف، من يدري؟ الجميع يائسون للغاية، من الممكن أنه اضطر أن يقترض بعض المال من أحدهم، أو كانت عليه ديونٌ ثقيلة لم يستطع سدادها، ربما أحد الدائنين هو من فعل ذلك بغرض الانتقام.

ساد الصمت لفترة، انتبه فولك لكأس الويسكي خاصته فأخذ رشفة بسيطة، لقد أصبح دافئًا.

- بارب.

تكلم أخيرًا.

- قد لا يبدو ذلك حقيقيًّا، ولكن المحققين المسؤولين عن القضية سيأخذون كل تلك الاحتمالات في الاعتبار حقًّا.

- ليس حقيقيًّا.

أصرت بارب.

- هم لم يكونوا يريدون أن يعرفوا، لقد جاؤوا من كلايد وألقوا نظرة خاطفة وقالوا: «أجل، فلاح آخر فقد عقله»، وهذا كل شيء، فُتحت القضية، أُغلقت القضية، استطعت أن أرى ما يفكرون به، مجرد خراف وحقول، لا بد أن تكون بلا عقل لكي تعيش هنا في الأصل، استطعت أن أرى كل ذلك على وجوههم.

- أرسلوا فريقًا من كلايد؟!

سأل فولك بقليل من الدهشة؛ إن كلايد هي أقرب مدينة كبيرة بها مركز شرطة مجهز بالكامل.

- لم يكن الضابط المحلي هنا؟ ما اسمه؟

- الرقيب ريكو. لا، لقد كان هنا فقط لأسبوع تقريبًا وأرسلوا واحدًا آخر بدلًا منه.

- هل تحدثتِ مع المدعو ريكو ذاك حول شكوكِكِ؟

كان مظهرها الواثق كافيًا ليجيب عن سؤاله.

- هذا ما نخبرك إياه.

وضع جيري كأسه على الطاولة مُصدِرًا صوتًا عاليًا فانتفض كلٌّ منهما.

- حسنًا، أعتقد أننا قلنا ما لدينا، لقد كان يومًا طويلًا، لنعطي آرون بعض الوقت ليفكر في كل شيء مليًّا، ليرى ما يبدو صحيحًا بالنسبة إليه. هيا قم يا رفيق، سأوصلك إلى الخارج.

فتحت بارب فمها كأنما على وشك أن تعترض، ولكنها تراجعت بنظرة ذات معنى من جيري. وضعت تشارلوت على كرسي فارغ وجذبت فولك في عناق واهن.

- فقط فكِّر في الأمر من أجلي.

شعر بدفء أنفاسها بالقرب من أذنه، كانت أنفاسها تحمل رائحة الكحول، جلست بارب مجددًا وحمَلَت تشارلوت، أخذت تهزها بسرعة حتى فتحت الطفلة عينيها وأجهشت بالبكاء تعبيرًا عن الانزعاج، ابتسمت بارب للمرة الأولى وهي تملس شعرها وتربت على ظهرها، سمعها فولك وهي تغني بفتور بينما يتبع جيري خلال الرواق.

قاد جيري فولك حتى سيارته مباشرة.

- إن بارب تبحث عن إبرة في كومة قش، لقد وضعَت في عقلها أن كل ذلك وراءه أحد الدائنين الخياليين، هذا هراء، لم يكن لوك أحمق في الأمور المالية، كان يمر بفترة صعبة كالجميع، أجل، وخاطرَ، ولكنه كان عاقلًا كفاية، لم يكن قط ليتورط بأشياء من ذلك النوع، في الأصل كانت كارن تهتم بجميع حسابات المزرعة، حتمًا كانت ستتكلم، كانت لتخبرنا لو كانت الأمور بهذا السوء.

- إذن ما الذي تعتقده أنت؟

- إنني أعتقد.. أعتقد أنه كان تحت وطأة الكثير من الضغوطات، بقدر ما يؤلمني ذلك وأنا أقول لك، إنه يقتلني، أظن أن الأمر هو كما يبدو تمامًا، ما أريد معرفته إذا كنت أستحق اللوم.

استند فولك على سيارته، كان رأسه يدور.

- منذ متى وأنت تعلم؟

- إن لوك كان يكذب عندما ساعدك على اختلاق عذر للهرب طوال الوقت؟ كم كان ذلك، عشرين عامًا؟! لقد رأيت لوك يقود دراجته وحده ذاك اليوم، ليس بالقرب من المكان الذي ادعيتما أنكما كنتما فيه، أعلم أنكما لم تكونا معًا.

توقف للحظة.

- لم أخبر أحدًا بذلك مطلقًا.

- أنا لم أقتل إيلي ديكون.

انبعث صوت صرصور الحقل من مكان ما في الظلام.

أومأ جيري موافقًا، موجهًا نظره للأسفل نحو قدميه.

- آرون، لو ظننت للحظة واحدة أنك فعلت ما كنت لأصمت حينها، لماذا في رأيك لم أقل أي شيء؟ كان هذا سيخرب حياتك، كانت التهمة ستلاحقك لسنوات، هل كانوا سيدعونك تنضم للشرطة؟ ولوك كانت ستتم معاقبته كذلك، كل ذلك من أجل ماذا؟ الفتاة لا تزال ميتة.. في الواقع قتلت نفسها، ويوجد بعض ممن أعرفهم يؤيدون ذلك أيضًا. لم يكن في أيديكما شيءٌ يمكنكما فعله لأجل ذلك.

ركل جيري الأرض بطرف حذائه.

- هذا ما ظننته حينها على الأقل.

- والآن؟

- الآن؟ يا إلهي، أنا لا أعرف ماذا يجب أن أصدقه، لطالما اعتقدت أن لوك كذب ليحميك، ولكنّ الآن لدي كَنَّة وحفيدًا تعرضا للقتل، وبصمات أصابع ابني الميت موجودة على سلاحه.

مسح جيري وجهه بيده في انفعال.

- لقد أحببتُ لوك، وسأدافع عنه حتى النهاية، ولكنني أحب كارن وبيلي أيضًا، وأحب تشارلوت. كنت سأذهب إلى قبري وأنا أقول إن ابني ليس بقادرٍ على أن يأتي بفعل مثل هذا، ولكنّ صوتًا لا ينفك يتردد داخلي: «هل هذا صحيح؟ هل أنت متأكد من هذا؟». لذلك أنا أسألك هنا والآن، هل لفَّقَ لوك تلك الكذبة ليحميك يا آرون؟ أم إنه كان يكذب ليحمي نفسه؟

- لم يوجد قط أي شيء يشير إلى أن لوك له يد فيما حدث لإيلي.

- كلا، ليس بالضبط لأنكما كنتما تُبرِّئان بعضكما، هل هذا صحيح؟ كلانا يعلم أنه كان يكذب في هذا الشأن، ولم يقل أيٌّ منا شيئًا، لذا فسؤالي

هو ما إذا كان ذلك يضع إثم مقتل زوجة ابني وحفيدي على عاتقي أم لا؟

أدار جيري وجهه ولم يبدِ تعبيرًا واضحًا.

- ذلك شيء لتسأله لنفسك قبل أن تغادر مسرعًا إلى ملبورن، كلانا أخفى الحقيقة، لو كنت أنا مذنبًا، فأنت أيضًا كذلك.

بدت الطرق الريفية أطول بكثير في طريق العودة إلى الحانة، فتح فولك الأضواء الأمامية العالية لسيارته فشقت له ضوءًا أبيض مخروطي الشكل وسط الظلام الكئيب، شعر أنه الشخص الوحيد لعدة أميال، لا شيء أمامه، ولا شيء خلفه.

شعر بصوت ارتطام مقزز تحت العجلات، قبل أن يدرك ماهية الشيء الضبابي الذي قفز فجأة عبر الطريق، كان أرنبًا، ظهر للحظة ثم اختفى، خفق قلبه بشدة وضغط على الفرامل فجأة، ولكن الأوان قد فات بسرعة ألفٍ وثمانين كيلومترًا في الساعة، لا مجال للمنافسة. شعر فولك كأنما تلقى ضربة في صدره واندفع شيء ما في عقله، صعدت ذكرى إلى عقله لم يفكر بها منذ سنوات.

كان الأرنب لا يزال رضيعًا، يرتجف بين يدي لوك، أظافره كانت متسخة بالسخام، عادة ما كانوا يفعلون هذا، لم تكن طرق التسلية للأطفال في عمر الثامنة متعددة في كيوارا، كانوا يجرون بسرعة وسط الأرض المكسوة بالأعشاب، لم يتوقفوا عن السباق إلا عندما توقف لوك متعبًا، انحنى للأسفل بين العشب ومن ثمَّ قام مجددًا وهو يحمل في يده مخلوقًا صغيرًا ويرفعه عاليًا، هرول آرون بسرعة ليرى، أوشكوا جميعًا أن يخنقوه وهم يحذِّرون بعضهم بعضًا ألا يضغطوا بشدة.

- إنه يحبني، هو لي.

قال لوك، ظلوا يتجادلون حول الأسماء طوال الطريق إلى منزل لوك.

أحضروا صندوقًا من الكرتون ليضعوه فيه، وتجمَّعوا من حوله ليتفحصوا حيوانهم الأليف الجديد، كان الأرنب يرتجف تحت عيونهم المتفحصة له، ولكنه بدا ثابتًا مستكينًا، خوف متنكر في هيئة قبول.

دخل آرون المنزل ليُحضِر منشفة لتحيط بالصندوق الورقي، استغرق منه الأمر أطول مما يجب وعندما خرج مجددًا في ضوء الشمس كان لوك ثابتًا لا يتحرك، إحدى يديه كانت في الصندوق، أخرج لوك رأسه من الصندوق عندما اقترب منه آرون، اقترب آرون أكثر غير متأكدٍ مما يراه، ولكنه كان يرغب ألا ينظر داخل الصندوق.

- لقد مات.

قال لوك وفمه مغلق، ولم ينظر إلى وجه آرون.

- كيف؟!

- لا أعلم، لقد مات فقط.

كرر آرون سؤاله عدة مرات، ولكنه لم يظفر بإجابة مختلفة، كان الأرنب يرقد على جانبه لا يحرك ساكنًا، وعيناه سوداوان جاحظتان في الفراغ.

- فقط فكر في الأمر من أجلي.

قالت بارب ذلك عندما كان يغادر المنزل، بدلًا من ذلك، وبينما يقود سيارته خلال تلك الطرق الريفية الطويلة، وذاك الحيوان الميت لا يزال ساخنًا تحت عجلاته، لم يتمكن فولك من أن يتوقف عن التفكير في إيلي ديكون وعصابة المراهقة الرباعية.

الفصل الرابع

كانت الشرائط الصفراء للاصق الخاص بالشرطة لا تزال معلَّقة حول باب منزل مزرعة لوك هادلر، لم يكد نور الصباح أن يطلع حتى توقف فولك بسيارته بجانب سيارة الشرطة على أرض مفروشة بالعشب الميت أمام المنزل، لم تصل حرارة الشمس بعد إلى ذروتها وعلى الرغم من ذلك شعر فولك بوخز في جلده بمجرد أن ترجل من السيارة، ارتدى قبعته وأخذ يتفحص المنزل، لم يكن في حاجة لمعرفة الاتجاهات، فقد قضى أيامًا في هذا المنزل بينما كان يكبر كتلك التي قضاها في منزله الخاص.

لم يُغيِّر لوك كثيرًا في المكان مذ أخذه من والديه، فكر فولك في ذلك وهو يقرع جرس الباب، تردد صدى صوت الجرس عميقًا بالداخل، كان مصدومًا بإحساسه بالعودة بالزمن لسنوات، راوده شعورٌ مؤكد بأن مراهقًا مغرورًا في السادسة عشرة من عمره سيفتح الباب مترنحًا ما إن ييأس ويلتف عائدًا.

لم يحدث أي شيء، كانت الشبابيك مقفلة تغلفها الستائر السميكة فلا يمكن أن ترى شيئًا من الخارج أو الداخل.

قضى فولك الليلة وهو مستلقٍ على السرير يفكر فيما قاله جيري، فقط حتى نهاية الأسبوع، كان ذلك يوم الخميس، ومن المفترض له العودة إلى العمل بحلول يوم الاثنين، ولكن في الوقت الحالي سيذهب إلى مزرعة لوك، سيتحقق من الأمور المالية من أجل بارب، هذا أقل ما يمكن أن يفعله، كانت اللهجة التي تكلم بها جيري تقطع بأنه قد وافق، كان هذا أقل ما يمكن لـفولك أن يفعله فعلًا.

انتظر فولك لثانية، ثم مشى ناحية أحد جوانب البيت، بدت السماء في الأفق هائلة وزرقاء أعلى الحقول الصفراء الذابلة، على مسافة من هناك كان

يوجد سور من الأسلاك الشائكة يفصل بين المزرعة والأدغال، لاحظ فولك للمرة الأولى أن المزرعة منعزلة للغاية، لطالما كانت مفعمة بالحياة عندما كان صغيرًا، كان منزل طفولته يبعد عن هنا مسافة قصيرة بالدراجة، ولكنه وبطريقة ما لا يمكن رؤيته على امتداد البصر، عندما نظر حوله الآن، كان يوجد منزل واحد فقط يمكن أن يُرى من هناك؛ مبنى رمادي مترامٍ يمتد إلى أحد جوانب سهل بعيد، منزل إيلي.

تساءل فولك عمًّا إذا كان والدها وابن عمها لا يزالان يعيشان هناك، ومن ثَمَّ أدار رأسه بعيدًا، تجول في الفناء حتى عثر على الرقيب جريج ريكو في المخزن الأكبر من أصل ثلاثة.

كان الضابط جالسًا على ركبتيه ويديه في إحدى الزوايا يفتش بدقة في بعض الصناديق القديمة، تجاهلَت العنكبوت حمراء الظهر كل تلك الأحداث التي تحدث على بعد مترين فقط منها، وظلت مختبئة تلتمع في شبكتها، طرق فولك الباب المعدني فالتفت إليه ريكو بوجه مغبر ينضح بالعرق.

- يا إلهي.. لقد أفزعتني، لم أسمع خطوات قدوم أحد.

- آسف.. آرون فولك، صديق لعائلة هادلر، أخبرتني موظفة الاستقبال أنك هنا.

أشار إلى العنكبوت حمراء الظهر.

- بالمناسبة، هل لاحظت وجود هذه؟

- أجل.. شكرًا، توجد اثنتان بالجوار.

انتصب ريكو واقفًا وخلع قفازاته، جرب حظه في أن يزيل الوسخ عن بنطال زيه الكُحلي، ولكنه استسلم إذ ازداد الأمر سوءًا، ظهرت بقع عرق دائرية تحت ذراعَي قميصه المكوي بعناية، كان ريكو أقصر قامة من فولك، وذا بنية رياضية كلاعب مصارعة، ذا شعر مجعد قصير وبشرة بنيَّة لامعة ذات انعكاس أخضر اللون كتلك التي يمتلكها بعض سكان مدن البحر الأبيض المتوسط، ولكن لكنته كانت لكنة الريف الأسترالي تمامًا، عيناه مرتفعتان بشكل يجعله يبدو مبتسمًا دائمًا، حتى لو لم يكن يبتسم. لاحظ فولك ذلك لأنه لم يكن يبتسم الآن.

- اتصل جيري هادلر وأخبر أنك ستمر.

قال ريكو.

- أعتذر عن هذا يا صديقي، ولكن هل لديك أي إثبات للشخصية؟ يأتي بعض الحمقى إلى هنا يحومون خلسة، يتفرجون أو شيء من هذا النوع.. لا أعرف.

بالنظر من قرب نجد أنه أكبر سنًّا من فولك، لاحظ فولك أن الرقيب كان يتفحصه بتمعن، مُرحِّبًا ولكن حذرًا، هذا جيد. أعطاه فولك رخصة القيادة خاصته، أخذها ريكو وهو مستغرب كأنما كان يتوقع شيئًا آخر.

- أعتقد أن جيري قال إنك شرطي؟

- أنا هنا بصفة شخصية فقط.

- إذن ليس بصفة رسمية.

- على الإطلاق.

بدا شيء ما على وجه ريكو لم يستطع فولك تفسيره، كان يأمل حقًّا ألا يتحول هذا إلى منافسة هزلية.

- إنني صديق قديم للوك منذ مرحلة المراهقة.

تفحص ريكو الرخصة جيدًا قبل أن يسلمها له.

- قال لي جيري إنك تريد كشف حساب بنكي، ودفاتر الحسابات وما إلى ذلك.

- يبدو ذلك صحيحًا.

- هل يوجد شيء يجب أن أعرف بأمره؟

- طلبت مني بارب أن ألقي نظرة، كمعروف.

- حسنًا.

برغم كونه أقصر ببضعة سنتيمترات، فقد تمكن ريكو من النظر مباشرة في عيني فولك.

- اسمع، أنا لن أطلعك على تلك الأشياء فقط لأن جيري وبارب يقولان إنك جيد؛ ولكنهما مجروحان في الوقت الحالي، لذلك، فبإمكانك أن

تطَّلع على أي شيء ربما أحتاج أن أعرفه من خلالك، واحرص على أنني سأعرفه، حسنًا؟

- لا مشكلة، أنا هنا من أجل المساعدة لا أكثر.

لم يستطع فولك مقاومة النظر من فوق كتف ريكو، كان المخزن الذي يشبه الكهف يحترق كالجحيم، وأعطت أشعة الشمس النافذة مسحة من اللون الأصفر الشاحب على كل شيء، كان هناك جرار مركون على الأرض الخرسانية للمخزن، والعديد من أدوات التصليح معلَّقة على الحوائط لم يتمكن فولك من التعرف عليها، تسللت إحدى وصلات الخراطيم بالقرب من قدمه، فكر أنها تستخدم لحلب اللبن، ولكنه لم يكن متأكدًا، من الممكن أنه كان يعرف تلك الأشياء في الماضي، ولكن الآن لا تبدو لعينيه المعتادة على المدينة سوى أدوات للتعذيب، أشار فولك برأسه نحو الصناديق في زاوية المخزن.

- عَمَّ تبحث هنالك؟

- محاولة جيدة يا صديقي، ولكنك قلت إنك هنا بصفة شخصية، الخطابات البنكية موجودة في المنزل، هيا بنا سأطلعك عليها.

- لا عليك، أنا أعرف أين هي.. شكرًا.

عندما استدار ليغادر، لاحظ فولك أن ريكو قد رفع حاجبه مستغربًا، لو كان هذا الرجل يتوقع أن تنشب معركة من أجل السيطرة، هكذا فكَّر فولك، فإنه لن يحصل عليها. ولكن على كل حال لا يزال معجبًا بتفانيه في العمل، كان الوقت مبكرًا، ولكن بدا أن ريكو ظل يعمل لوقت طويل دون كلل.

اتجه فولك نحو البيت، ثم توقف مفكرًا لثانية، من الوارد أن تراود بارب بعض الشكوك، ولكن ريكو بدا وكأنه يأخذ الأمر بجدية، استدار فولك عائدًا.

- اسمع، ليس لدي فكرة عمَّا أخبرك به جيري بالضبط، ولكنني متأكد من أنني عندما أكون مُكلَّفًا بمهمة وأنا على علم بكل شيء فإن هذا سيجعل الأمر أسهل بكثير، لا أحب التلاعب وإخفاء بعض الحقائق.

استمع ريكو إلى فولك في صمت وهو يخبره بشأن نظرية بارب عن المشكلات المادية والديون كسبب رئيسي في الحادث.

- هل تعتقد أن هذا صحيحٌ؟

- لا أعلم، بالتأكيد ستكون هناك مشكلات مادية، هذا طبيعي جدًّا بالنظر إلى الظروف الحالية، إذا كان ذلك يعني أن أحدًا غير لوك هو القاتل فهذا أمر آخر.

أومأ ريكو ببطء.

- شكرًا، أنا أقدر مساعدتك.

- العفو، سأكون في غرفة المكتب.

لم يكد فولك يقطع نصف المسافة عبر الفناء الجاف حتى سمع ريكو ينادي عليه:

- انتظر لحظة.

مسح الرقيب وجهه بساعده، وكانت عيناه نصف مغمضتين في مواجهة الشمس.

- كنت صديقًا مقربًا للوك، أليس كذلك؟

- منذ وقت طويل.

- بفرض أن لوك أراد أن يخفي شيئًا.. شيئًا صغيرًا جدًّا، هل لديك أي فكرة عن أين يمكن أن يكون قد خبَّأه؟

فكر فولك للحظة، ثم أدرك أنه ليس بحاجة للتفكير.

- ربما لدي، أيُّ نوع من الأشياء تقصد؟

- عندما نجدها سأريك إياها.

في المرة الأخيرة التي استلقى فيها فولك على قطعة الأرض تلك، كان العشب أخضر يانعًا، ولكن الآن يشعر بالأعشاب الصفراء الذابلة تخترق قميصه وتخدش معدته.

قاد ريكو حول المنزل حتى وصلا إلى الجانب الآخر منه، وأخذ يختبر ألواح الطقس بقدمه، عندما عثر على اللوح الذي يبحث عنه نزل للأسفل وأزلق عصا تحت اللوح، أصدرت بعض الصرير تحت وطأة الضغط ومن ثَمَّ أصبحت أسهل وتمكن من إزالتها بيديه.

نظر فولك إلى ريكو الواقف أمامه.

- هناك بالداخل؟!

سأل ريكو وهو يخلع قفازاته الثقيلة.

- ما الذي اعتاد أن يخفيه؟

- في الواقع كل شيء؛ ألعاب ومأكولات سريعة عندما كنا أطفالًا، لاحقًا كان يقوم بإخفاء الخمر، ليست بأشياء مهمة جدًّا، الأشياء العادية التي لا يفضل الأبناء أن يراها الآباء.

جلس ريكو على ركبتيه، حشر ذراعه حتى كوعه داخل الحفرة وأخذ يفتش بيده بلا هُدى، سحب يده وهي ممتلئة بالأوراق الجافة وعلبة سجائر قديمة، ألقى غنيمته على الأرض بجانب ركبتيه وأدخل يده مجددًا، هذه المرة أخرج بقايا مجلة جنسية، كانت أطرافها متجعدة وصفراء اللون والكثيرُ من أجزائها متآكلًا، ألقى بها جانبًا في سخط وحاول مجددًا وأخذ يدفع ذراعه نحو الداخل إلى أقصى عمق يمكن أن تصله، إلى أن أخرجها أخيرًا على مضض ويده فارغة، لم يجد شيئًا.

- هنا.

أشار فولك نحو القفازات في يديه.

- سأجرب.

لم يسبق له هو أو لوك أن استخدما القفازات من قبل، فكر فولك بهذا بينما يقوم بإيلاج يده في الحفرة، أي شيء دُفِن تحت المنزل ولا يمت بصلة لبقاء الأطفال والمراهقين؟! أخذ يتحسس بيده ولم يشعر بأي شيء سوى الأرض المسطحة.

- أعطني أي فكرة عمَّا أبحث عنه بالضبط؟

قال بصوت منهمك.

- محتمل أن يكون صندوقًا، أو أي نوع من التغليف.

استجمع فولك نفسه ودفع ذراعه عميقًا بأقصى ما يمكنها، كان المخبأ السري فارغًا، أذعن للأمر وسحب يده خارجًا.

- آسف، لقد مر وقت طويل.

كان ريكو جالسًا القرفصاء وسمع صوت طقطقة ركبتيه عندما وقف، فتح علبة السجائر المهترئة وأخذ واحدة منها وأخذ ينظر إليها بتمعن ثم وضعها مجددًا، لم ينبس أحدهم ببنت شفة لهُنَيهَة.

- إنني أبحث عن الطلقات.

قال ريكو أخيرًا.

- طلقات السلاح المُستخدَم في قتل عائلة هادلر، ليست متطابقة.

- ليست متطابقة مع ماذا؟!

- مع النوع الذي اعتاد لوك استخدامه لسنوات على حد علمي، الطلقات الثلاثة التي قتلته وعائلته كانت ريمنغتون، الذخيرة الوحيدة التي استطعت العثور عليها في هذا المكان بأكمله من النوع وينستر.

- وينستر؟!

- نعم، لاحظت ذلك عندما وصلتني قائمة بالموجودات من كلايد، ومن حينها تُلحُّ عليَّ تلك الفكرة، هذا هو ما أبحث عنه، صندوق من طلقات الريمنغتون وسأصبح رجلًا في غاية السعادة.

نزع فولك القفازات وكانت يداه لزجتين.

- ألم يستطع مركز شرطة كلايد إرسال رجلين يساعدانك في معاينة مسرح الجريمة؟

أشاح ريكو بنظره بعيدًا وهو يحرك علبة السجائر بأصابعه في توتر.

- أجل، لا أعرف.. أظن كان بإمكانهم أن يفعلوا.

- حسنًا.

كتم فولك ابتسامته، قد ارتدى ريكو زيَّه الرسمي ويقوم بالتحقيق، ولكنَّ فولك رجل مخضرم كفاية ليدرك الأدلة والاحتمالات غير المطروحة في الأوراق عندما يلاحظها.

- من الممكن أن لوك قد أحضر بضع طلقات خِصِّيصَى من أي مكان.

اقترح فولك.

- أجل، وارد بالطبع أنه قد فعل.

- أو كانت تلك هي آخر الطلقات في العلبة ثم ألقاها بعد ذلك.

- أجل، على الرغم من عدم وجود أي دليل على ذلك في مخلَّفات المنزل أو في شاحنته، وصدقني..

ضحك ريكو ضحكة قصيرة.

- لقد تفحصتها.

- أين الأماكن التي لم تبحث فيها بعد؟

أشار ريكو برأسه نحو لوح الطقس الذي رفعاه قبل قليل.

- في هذا المنزل؟ أعتقد أنني الآن قد بحثت رسميًّا في كل مكان.

تجهم فولك.

- يبدو هذا غريبًا.

- أجل، هذا ما ظننته أيضًا.

لم يزد فولك شيئًا، وأخذ ينظر إليه فقط، كان ريكو يتصبب عرقًا ووجهه وذراعاه وملابسه مغطاة بالطين والغبار من النبش في الأرض والحرارة الحارقة.

- وماذا غير ذلك؟

كان الصمت هو الجواب.

- ماذا تقصد؟!

- كل هذه الجهود، وأنت رابض على ركبتيك ويديك النهار بطوله في مخزن رجل ميت وتحت هذه الحرارة الحارقة، بالتأكيد يوجد شيء آخر، أو على الأقل تظن ذلك.

ساد الصمت لهُنَيهَة قطعها ريكو بتنهيدة عالية:

- أجل.. توجد أشياء أخرى.

الفصل الخامس

جلسا لبعض الوقت بجانب المنزل مستندين بظهريهما إلى الحائط بالقرب من اللوح المخلخل والعشب الجاف ينخس أرجلهما، يدققان في أصغر طرف خيط، بينما أخذ ريكو في عرض الحقائق وقد بدأ بمن له أقل قدر من شبهة والذي سبق أن قال كل شيء.

- مضى على ذلك أسبوعان..

قال وهو يُهوِّي على نفسه بشكل ما بالمجلة الجنسية المتآكلة.

- مندوب توصيل هو مَن وجد كارن وأجرَى مكالمة الطوارئ التي تمت في غضون الساعة الخامسة وأربعين دقيقة.

- جاءت إليك؟

- وإلى كلايد والطبيب العام المحلي، أخبرنا المندوب جميعًا. كان الطبيب هو الأقرب لذا كان أول من وصل إلى مسرح الجريمة، الطبيب باتريك لي، هل تعرفه؟

هز فولك رأسه نافيًا.

- على أي حال.. كان هو أول الحاضرين، ثم أنا من بعده بدقيقتين، كنت أركن السيارة وكان الطبيب مقرفصًا بجوار كارن في الصالة يفحص وظائفها الحيوية أو شيئًا من ذاك القبيل.

توقف ريكو لهُنَيهَة يحدِّق نحو الأشجار دون أن يركز نظره على شيء محدد.

- لم أقابلها قط، لم أعرف حتى مَن كانت هي حينها، ولكنه كان يعرفها وكان دمها يغطي يديه، وأخذ يصيح، بل ويصرخ في وجهي، تخيل: «إن لديها أطفالًا، يمكن أن يكون هناك أطفالٌ».

- إذن...

تنهد ريكو وفتح علبة سجائر لوك العتيقة، أخذ واحدة ووضعها بين شفتيه وقدم العلبة إلى فولك الذي فاجأ نفسه وأخذ واحدة. لم يستطع تذكر متى كانت آخر مرة دخن فيها، التي من الوارد جدًّا أنها كانت في المكان ذاته مع صديقه القديم جالسًا بجواره. لسبب لا يعلمه إلا الله، بدا أَخْذُ فولك للسيجارة في هذا الوقت أمرًا صحيحًا، انحنى ناحية ريكو ليشعل السيجارة له، مع أول نفس أخذه فولك تذكر على الفور لماذا تمكّن من الإقلاع عن هذه العادة بسهولة، لكنه عندما تنفس بعمق واختلطت رائحة التبغ برائحة أشجار الأوكالبتوس القوية، غلبه شعور عنيد مثل اندفاع النيكوتين بأنه في السادسة عشرة من عمره.

- إذن، على أي حال...

كان صوت ريكو أكثر هدوءًا الآن.

- كان الطبيب يصرخ وأنا أخذت أتفحص المنزل، ليس لدي فكرة عمَّن يوجد بالداخل، وماذا سأجد، وعمَّا إذا كان هناك أحد مختبئ خلف الأبواب وعلى وشك الظهور فجأة حاملًا بندقية، أريد أن أنادي على الأطفال، ولكنني لا أعرف أسماءهم حتى، فأخذت أصيح: «الشرطة هنا، ليس هناك ما يدعو للقلق، بإمكانكم الخروج المكان آمن»، وأشياء مثل هذه، ولكن لم أكن أعلم حتى إذا كان هذا حقيقيًّا.

أخذ نفسًا طويلًا محاولًا التذكر.

- وفجأة سمعت صوت هذا البكاء – كان شيئًا أقرب للنحيب – تبعت الصوت لست عارفًا ماذا ينتظرني، قادني الصوت حتى بلغت غرفة الأطفال ورأيت الطفلة الصغيرة في سريرها، تصرخ معلنة عن جريمة قتل رهيبة، لم يسبق أن شعرت بذلك السرور لرؤية طفلة تكاد أن تنفلق من النحيب.

نفث ريكو سحابة من الدخان في الهواء.

- لأنها كانت بخير، لم أكن أصدق، كانت خائفة بكل تأكيد، ولكنها لم تُصَب بسوء كما رأيت، وأتذكر أنني فكرت لحظتها أن كل شيء لا يزال

على ما يرام، بالتأكيد إن موت الأم لأمر مؤسف، بل مأسوي، ولكن حمدًا لله، على الأقل كان الأطفال بخير، ولكن بعد ذلك وأنا أتفحص المكان رأيت بابًا مواربًا.

بحرصٍ أطفأ السيجارة في التراب دون أن ينظر نحو فولك، شعر فولك بالفزع يتسرب إليه؛ حيث كان يعلم ما هو مقبل عليه.

- ورأيت غرفة طفل آخر، مطلية باللون الأزرق بالكامل، وملصقات لسيارات، أتعلم؟ غرفة فتى، ولا يوجد أي صوت يصدر من تلك الغرفة، مشيت عبر الصالة ودفعت الباب لأفتحه ثم لم يكن الأمر جيدًا على الإطلاق.

توقف.

- كانت تلك الغرفة كمشهد من الجحيم، تلك الغرفة هي أبشع ما رأيت في حياتي.

جلسا صامتين حتى تنحنح ريكو.

- قُمْ معي.

قال وهو ينتصب واقفًا ويهز ذراعيه في محاولة لتبديد الذكرى، قام فولك وتبعه نحو مقدمة المنزل.

- بعد ذلك بقليل وصلت فرق الاستجابة من كلايد.

تابع ريكو في أثناء سيرهما.

- الشرطة، المسعفون.. كانت الساعة السادسة والنصف تقريبًا عندما وصلوا، بحثنا في بقية المنزل ولم يكن هناك أي أحد آخر، حمدًا لله، لذا كنا جميعًا نحاول يائسين الوصول إلى لوك هادلر، في البداية كان الجميع قلقًا حول كيفية إبلاغه بخبر كهذا كما تعلم، ولكن بمرور الوقت دون أي إجابة وسيارته ليست موجودة ولم يعد إلى المنزل، عندها تحوّل الجو العام فجأة إلى النقيض.

- ماذا كان لوك يفعل في ذلك الوقت؟

- يوجد شابان متطوعان من فرقة البحث والإنقاذ، وأصدقاء لـلوك كذلك، قالوا إنه كان يساعد أحد الأصدقاء في قتل الأرانب في مزرعته تلك

الظهيرة، شاب اسمه جايمي ساليڤان. اتصل أحدهم به وأكد ساليڤان أنه كان معه، ولكن قال إن لوك قد غادر مزرعته مبكرًا بساعتين من وقت الجريمة.

وصلا للباب الأمامي وأخرج ريكو مجموعة من المفاتيح.

- عندما لم نجد أي إشارة عن مكان لوك، ولا استطعنا أن نصل إليه عن طريق الهاتف، استدعينا المزيد من فرق البحث والإنقاذ، وكونًا فِرَقًا للبحث برفقة ضباط الشرطة، مرت ساعتان كالجحيم، كان لدينا أيضًا جوَّالة غير مسلحين بحثوا في الحقول والغابة ليسوا متأكدين مما سيجدونه، هل سيجدون لوك ميتًا؟ حيًّا؟ بلا أدنى فكرة عن الحالة التي سنجد لوك عليها، كنا جميعًا مرتعبين مخافة أن نجده مختبئًا في مكان ما ويحمل سلاحًا وينتظر أن يلقى حتفه، وأخيرًا مر أحد الباحثين بجوار شاحنته بمحض الصدفة البحتة، وُجِدت مركونة في منطقة منعزلة تبعد نحو ثلاثة كيلومترات، في النهاية لم يكن هناك داعٍ للقلق، وُجِد لوك مقتولًا في الخلف ووجهه مشوه، ولا تزال بندقيته المرخصة والقانونية تمامًا في يده.

دفع ريكو باب المنزل ليفتحه.

- بدا الأمر وكأنه قد انتهى، كلُّ شيءٍ حُلَّ وكل الأسئلة أُجِيبَت، هنا...

تنحى جانبًا ليتمكن فولك من كشف المدخل جيدًا.

- حيث بدأ كل شيء يصبح غريبًا.

كان المدخل رطبًا وحارًّا ويعبق برائحة المطهرات النتنة، كانت توجد أكوام من الفواتير والأقلام مبعثرة بفوضوية على طاولة جانبية تميل ناحية حائط بعيد؛ حيث دُفعَت بقوة بعيدًا عن موضعها الأصلي. وكانت الأرضية المبلطة نظيفة بقدر يثير الخوف، فقد نُظِّف المدخل وصولًا إلى طبقة الطلاء الداخلية.

- لقد تغلغلت فيها المنظفات الصناعية فلن تجد أي مفاجآت مقرفة، لم يتمكنوا من الحفاظ على سجادة غرفة الأطفال، لا أعني أنك كنت تود أن يفعلوا.

كان هناك الكثير من الصور العائلية معلقة على الحوائط، بدت وضعياتهم المتجمدة في الصور مألوفة له نوعًا ما فأدرك فولك أنه قد رأى معظمهم في الجنازة، المشهد كله بدا وكأنه محاكاة ساخرة مشوهة لمنزل العائلة الدافئ الذي عرفه من قبل.

- عُثِر على جثة كارن هنا تمامًا في المدخل، الباب كان مفتوحًا لذا تمكن المندوب من رؤيتها على الفور.

- هل كانت تحاول الهرب من الباب؟

حاول فولك أن يتخيل لوك مُطارِدًا زوجته داخل منزلهما.

- لا.. ما حدث أنها فتحت الباب، وأيًّا كان الشخص الذي عند الباب هو مَن أطلق النار عليها، اتضح ذلك من وضع الجثة على الأرض، ولكن أخبِرني، هل تستقبلك زوجتك عند الباب عندما تعود ليلًا؟

- أنا لست متزوجًا.

- حسنًا.. أنا متزوج، بإمكانك أن تقول إنني متحرر، ولكنني أمتلك مفتاحًا لبيتي الخاص.

تفهَّم فولك ما يرمي إليه.

- ربما أراد أن يفاجئها بضربته؟

قال وهو يتخيل المشهد في عقله.

- ولمَ قد يفعل؟ يأتي الأب ملوحًا ببندقيته المعبأة بالذخيرة، أظن أن الفكرة ستجعلهم يفاجؤون قليلًا أيضًا بحق الجحيم، ولكنّ هما الاثنين موجودان داخل المنزل، وهو يملك مفتاحًا ويعرف كيف سيدخل، هذا سهلٌ للغاية.

اتخذ فولك موضعًا بداخل المنزل وفتح الباب وأغلقه عدة مرات، عندما فتحه كان مدخل الباب على شكل مستطيل يُدخِل الكثير من الضوء الساطع مقارنة بالظلام الذي بالداخل، تخيل كارن وهي تفتح الباب، ربما كانت مشوشة قليلًا، أو غاضبة بسبب الإزعاج، استغرقت ثوانيَ لتفتح عينيها في مواجهة الضوء الساطع وكانت تلك الثواني هي الوقت الذي استغرقه القاتل ليشهر سلاحه أمامها.

- إنني أستغرب هذا الأمر، قتْلُها أمام الباب كان كفيلًا بإعطاء الولد وقتًا كافيًا للتبول في سرواله وأن يفر هاربًا، هذا التسلسل ليس بضرورة.

نظر ريكو خلف فولك.

- وهنا نأتي للنقطة التالية، عندما تكون مستعدًا.

أومأ فولك وتبعه حتى منتصف الردهة.

بمجرد أن أشعل ريكو أضواء الغرفة الصغيرة المطلية باللون الأزرق، داهم فولك شعورٌ بأن أحدًا ما يقوم ببعض التجديدات. أحد ما قد دفع سرير الأطفال بعيدًا نحو الحائط في إحدى الزوايا وقد أُزيل مفرش السرير. الألعابُ مجموعةٌ بداخل صناديق ومكدسة عشوائيًا أسفل ملصقات لاعبي كرة القدم وشخصيات عالم ديزني، كانت السجادة ممزَّقة وتكشف عن الألواح الأرضية غير المطلية.

ترك حذاء فولك آثارًا على طبقة من نشارة الخشب على الأرض، كانت هناك بعض الألواح الخشبية المصقولة بإفراط في أحد الأركان، ولكن لم يكن هذا كافيًا ليزيل بقعة ما، ظل ريكو واقفًا بالقرب من الباب.

- لا يزال عسيرًا عليَّ أن أكون هنا.

قال ريكو بوهن.

كان فولك يعلم أن هذه الغرفة كانت غرفة جميلة في الماضي، فقد كانت غرفة لوك الخاصة منذ عشرين عامًا، وقد قضى فولك نفسه بعض الليالي فيها، يهمس بعد أن تُطفَأ الأنوار ويَكتُم نفسه ويمنع ضحكاته بينما تنادي بارب هادلر عليهما وتأمرهما أن يناما ويكفّا عن الكلام، كان ينام متدثرًا في حقيبة النوم غير بعيد عن ألواح الأرض الخشبية ذات البقع البشعة، كانت هذه الغرفة مكانًا جميلًا في الماضي، ولكن الآن أصبحت –مثل الردهة– تعبق برائحة المطهرات.

- هل يمكننا فتح النافذة؟

- من الأفضل ألا نفعل، يجب أن نُبقِيَ الستائر مغلقة، أمسكت من قبل ببعض الأطفال يحاولون التقاط الصور بعد الحادثة بفترة قليلة.

أخرج ريكو جهازه اللوحي وضغط عليه عدة ضغطات ثم أعطاه لـفولك، على الشاشة كان يوجد معرض للصور.

- جثة الطفل قد أزيلت، ولكن هذا هو الحال الذي وجدت عليه الغرفة.

في الصور كانت الستائر مفتوحة على وسعها وتسكب الضوء على المشهد المُفزِع أسفلها، كانت خزانة الملابس مفتوحة على مصراعيها والملابس مبعثرة في جميع أنحاء الغرفة، وصندوق ألعاب مقلوب رأسًا على عقب، على السرير كان يوجد غطاء مطبوع بالعديد من السفن الفضائية مطويًّا بفوضوية على أحد جوانبه كأنما قد أُلقِيَ بعد التفتيش تحته، كان أغلب السجادة باللون الأبيض ما عدا أحد الجوانب؛ حيث سالت بركة من اللون الأحمر القاتم تسرب من وراء سلة ملابس كبيرة.

حاول فولك للحظة أن يتخيل اللحظات الأخيرة لـبيلي هادلر، مختبئًا خلف سلة الملابس وخيط من البول الساخن ينسال على قدميه في أثناء محاولته المستميتة في التحكم بأنفاسه المتسارعة.

- هل لديك أطفال؟

هز فولك رأسه نافيًا.

- هل لديك أنت؟

- أنتظر طفلًا في الطريق، فتاة صغيرة.

- أهنئك.

- ومع ذلك نحن لدينا جيش من أبناء الإخوان والأخوات، إنهم ليسوا هنا، ولكن في جنوب أستراليا موطننا الرئيسي، بعضهم في نفس عمر بيلي، واثنان منهم أصغر قليلًا.

قال ريكو وهو يأخذ الجهاز اللوحي ويتصفح الصور.

- والمهم في الأمر هو أن أشقائي يعرفون المخابئ السرية لأبنائهم، يمكنك إرسالهم إلى غرف نومهم معصوبي العينين وسيجدونهم في غضون ثوانٍ.

وأخذ يضغط على الشاشة.

- لقد تفحصتُ تلك الصور بكل الطرق الممكنة، كأنني أقوم ببحثٍ، أحدهم لا علم له بأماكن اختباء بيلي، أخذ يبحث عنه بحثًا منهجيًّا: هل هو موجود في خزانة الملابس؟ كلّا. هل هو تحت السرير؟ كلّا. إن الأمر يبدو وكأن أحدهم كان يطارد الفتى.

أخذ فولك يحدق بشدة إلى أثر البقعة التي كانت في وقت ما هي بيلي هادلر.

- أرني أين وجدت تشارلوت.

كانت غرفة الأطفال في الجانب الآخر من الردهة مطلية باللون الأصفر، كانت هناك لعبة موسيقية متدلية من السقف ولا يوجد شيء أسفلها.

«جيري وبارب أخذا سرير الأطفال»، وضَّح ريكو.

نظر فولك إلى الغرفة من حوله، بدت مختلفة كثيرًا عن البقية: لا يزال أثاثها وفرشها سليمًا، لا تعبق بروائح المطهرات الحادة، كانت تبدو كالملاذ، لم يَمسّسها كل الشر والرعب المنتشر خارج حدود بابها.

- لماذا لم يقتل لوك تشارلوت؟

- تأنيب الضمير وشعور الذنب المألوفان لجرائم المال.

خرج فولك من الغرفة واتجه نحو غرفة بيلي، توقف عند بقعة الدم في الزاوية واستدار مئة وثمانين درجة واتجه مباشرة عبر الردهة إلى غرفة تشارلوت مرة أخرى.

- ثماني خطوات، ولكنني طويل القامة لذا سنعتبرها تسع خطوات لمعظم الناس، تسع خطوات من جثة بيلي إلى حيث كانت تشارلوت نائمة كالحمل الوديع، وكان الأدرينالين لا يزال يجري ساخنًا ويندفع في شرايين لوك، فقط تسع خطوات. السؤال هنا: هل هذا يعد وقتًا كافيًا ليتحول كليًّا وينصت لقلبه؟

- لا تبدو كذلك بالنسبة إليّ.

فكر فولك في الرجل الذي يعرفه، ما كان واضحًا كالشمس بالنسبة إليه، أصبح مشوشًا خاليًا من الملامح.

- هل قابلت لوك من قبل؟

- لا.

- إن مزاجه متقلب بسرعة تقلُّب العملة المعدنية، تلك التسع خطوات يمكنها أن تحوي ثماني خطوات زائدة عما يحتاجه بالفعل ليغير رأيه.

للمرة الأولى منذ عودته إلى كيوارا أحس فولك بوخزة شك.

من المفترض أن يكون ذلك شهادة، أليس كذلك؟ شيءٌ من هذا القبيل، إنها مسألة شخصية. لقد قتل عائلته بأكملها، هذا ما تريد أن يقوله الجميع؟ زوجة لوك لمدة سبع سنوات غارقة في دمها في الصالة واستغرق فقط كم؟ دقيقتين؟ ثلاث دقائق؟ ليقلب غرفة النوم رأسًا على عقب ليقتل ابنه الوحيد، بينما يخطط أن يقتل نفسه عندما ينتهي من قتلهم جميعًا، إذن لو كان لوك من فعل –تردد قليلًا عندما قال لوك– كيف نجت ابنته من الموت؟

توقفا لهُنَيهَة يحدق كلاهما إلى لعبة سرير الأطفال المعلقة ومساحة السرير الفارغة تحتها، لِمَ يقتل العائلة كلها بتلك الوحشية ما عدا البنت؟ ظل فولك يقلبها في عقله من جميع النواحي حتى تمكن من الوصول إلى بعض الأسباب، ولكنّ هناك سببًا وحيدًا قويًا بالنسبة إليه.

- ربما أيًا مَن كان هنا ذاك اليوم فإنه لم يقتل الطفلة؛ لأنه لم يكن بحاجة إلى قتلها.

قال فولك أخيرًا.

- ليس هناك أمر شخصي بهذا، لا يهم مَن تكون، ولكن طفلة تبلغ من العمر ثلاثة عشر شهرًا لن تشكل تهديدًا أمام الشرطة.

الفصل السادس

- لم يكترثوا كثيرًا بقدومي إلى هنا عمومًا.

قال ريكو بمسحة من الندم وهو يضع زجاجتين من البيرة على طاولة الحانة، ترنحت قليلًا بسبب الوزن وسُكِبت بضع قطرات من السائل على السطح المملوء بالخدوش، كان قد ذهب إلى منزله ليبدل زيه الرسمي وعاد حاملًا ملفًّا سميكًا تحت ذراعه مكتوب عليه **هادلر**.

- إن طبيعة بيئة العمل لا تناسبني، الجميع يحب أن يتباهى باستعراض مفاتيح سيارته أمام الناس وما شابه من تلك المظاهر.

وجّها نظرهما إلى نادل الحانة، كان نفس الرجل ذو اللحية الكثيفة من الليلة الماضية، وكان يراقبهما من وراء الجريدة.

- في صحة رجال الشرطة.

رفع فولك كأسه وأخذ رشفة طويلة، لطالما كان قادرًا على التحكم في نفسه أمام الخمر، ولكنه كان ممتنًا لها في تلك اللحظة، كان الجو هادئًا في هذا الوقت المبكر من الليل في الحانة، وكانا جالسين في إحدى الزوايا بمفردهما، في الجانب البعيد من الغرفة كان هناك ثلاثة رجال يحدقون بتبلد ولا مبالاة إلى سباق كلاب الصيد في التلفاز، لم يتمكن فولك من التعرف عليهم وقد تجاهلوه هم بدورهم، كانت ماكينات القمار تدور وتصفر، ومكيف الهواء يحول الغرفة إلى قطعة من القارة القطبية.

أخذ ريكو رشفة.

- والآن ماذا؟

- الآن ستخبر مركز شرطة كلايد أن لديك شكوكًا.

- أذهب إلى شرطيي كلايد الآن، وأقول لهم أن يحموا ظهورهم من الآن؟

قال في تهكم.

- هل تعلم ماذا يمكن أن يحدث إذا ظنوا أنهم تعاملوا مع هذا الأمر باستهانة؟ سيكونون فريقًا من المحترفين الذين لن يهدأ لهم بالٌ إلا بعد أن يثبتوا أن تحقيقهم كان دقيقًا، أنا متأكد من ذلك.

- لا أظن أن لديك خيارًا آخر، إن هذا الأمر ليس بشيء يمكن لرجل واحد القيام به.

- يوجد لدينا بارنز.

- مَن؟

- شرطي آخر في مركز الشرطة، أصبحنا الآن ثلاثة.

- أصبحتما اثنين فقط يا صديقي.

قال فولك موضحًا.

- لا يمكنني البقاء.

- ظننت أنك قطعت وعدًا لعائلة هادلر.

فرك فولك مقدمة أنفه، بدأت أصوات لاعبي البوكر في الارتفاع وكأن تلك الضوضاء تعتمل في رأسه.

- وعدتهما بالبقاء ليومين، أعني يومًا أو اثنين على الأكثر وليس مدة تحقيقٍ كاملٍ، كما إنه ليس بتحقيق رسمي، أنا لدي عمل لأعود إليه.

- حسنًا.

أجاب ريكو باستسلام.

- ابقَ ليومين إذن، ليس ضروريًا أن يكون شيئًا ضمن التحقيقات، افعل ما قلت إنك ستفعله بشأن الأمور المالية، وبمجرد أن نصل إلى شيء ملموس سوف أذهب إلى كلايد.

لم يضف فولك شيئًا، أخذ يفكر بشأن صناديق الكشوفات البنكية والأوراق التي أخذها من بيت عائلة هادلر والموجودة على سريره بالأعلى.

لوك كذب. وأنت كذبت.

التقط الزجاجتين الفارغتين وأعادهما إلى البار.

- أتريد زجاجتين أُخريين؟

سحب نادل الحانة جسمه الضخم عن الكرسي وأنزل جريدته، إنه الشخص الوحيد الذي رآه فولك يعمل في هذا المكان منذ البارحة.

- اسمع.

قال فولك بعد أن وقعت عيناه على زجاجة نظيفة تحت الصنبور.

- هل من الممكن أن تظل الغرفة التي أجلس فيها متاحة لمزيد من الوقت؟

- على حسب.

وضع النادل زجاجة بيرة على الطاولة.

- لقد سمعت بعض الأشياء عنك يا صديقي.

- حقًا!

- حقًا، وأنا عندما أرحب بالعمل فإنني لا أرحب بالمتاعب، أتفهم؟ يكفيني منها إدارة هذا المكان كما هو عليه.

- المتاعب لا تأتي بسببي.

- أتأتي بصحبتك فقط؟

- هذا أمر ليس بيدي، وإنني شرطي كما تعلم، صحيح؟

- سمعت بهذا أيضًا، ولكن هنا، في الريف وفي منتصف الليل وبوجود بعض الرفاق الثملين الذين يفتشون عن المتاعب، فإن تلك الشارات لا تمثل سوى العدم، أتفهم ما أعنيه؟

- حسنًا إذن، كما تشاء.

لم يكن ليرجوه.

ابتسم النادل نصف ابتسامة ووضع الزجاجة الثانية على الطاولة.

- لا عليك يا صديقي، لا تعبس، لا فرق بين جودة أموالك وأموال الزبون الذي سيأتي بعدك، الأمر سيان بالنسبة إليّ.

أعطى فولك الباقي وعاد إلى جريدته، بدا أنه كان يعمل على حل الكلمات المتقاطعة.

- يمكنك أن تُعِد هذا تحذيرًا وديًا، أحيانًا يكونون مرحين، إذا تسببت في المتاعب فلن تجد يدًا ممدودة للمساعدة.

نظر إلى فولك مباشرة:

- برغم ما سمعته بشأنك، أظن أنك لا تحتاج إلى أن أخبرك بهذا.

أخذ فولك الزجاجتين إلى طاولتهما، كان ريكو يحدق بلا مبالاة إلى حصيرة مشبعة بالبيرة.

- من الأفضل أن تنتبه وتطلعني على البقية.

دفع ريكو الملف بيده على الطاولة.

- لقد جمّعتُ هذا الملف من كل الأشياء التي توصلت إليها.

أخذ فولك يجيل نظره في الحانة التي ما زالت فارغة تقريبًا ولم يكن هناك أحد بالقرب منهما، فتح الملف ووجد في الصفحة الأولى صورة لشاحنة لوك وهي محمولة من مكان بعيد وبركة من الدم متجمعة عند العجلات الخلفية ومن ثم أغلق الملف.

- فقط أطلِعْني على الأجزاء المهمة الآن، ما هي معلوماتنا عن المندوب الذي وجدهم؟

- يبدو نظيفًا كما تود أن يكون، يعمل في شركة توصيل معروفة منذ سنتين، كان يوصّل كتبَ وصفاتٍ للطبخ كانت كارن طلبتها على الإنترنت. كان الفتى يجري متأخرًا لتوصيل آخر طلبية في اليوم وكانت هي الأولى له في كيوارا، يقول إنه طرق الباب فوجد كارن ممددة أمام الباب؛ فألقى غداءه بسبب التوتر في الحديقة، وقفز إلى شاحنته وأجرى مكالمة الطوارئ في طريقه على الطريق الرئيسي.

- وترك تشارلوت في المنزل؟

- أغلب الظن أنه لم يسمعها، ربما لم يسمعها، لقد ظلت وحدها لفترة، من المحتمل أنها بدأت تصرخ بعد برهة.

فتح فولك الصفحة الأولى مجددًا وتركها مفتوحة هذه المرة، كان دائمًا يفترض أنه عُثِر على لوك في مقعد السائق الخاص بالشاحنة، ولكن الصور توضح أن جثته كانت ممددة في الصندوق الخلفي للشاحنة، باب الصندوق كان مفتوحًا وأرجل لوك تتدلى منها كما لو أنه كان جالسًا على حافتها،

وُجِدت البندقية بالقرب منه مشيرةً إلى الفوضى العارمة التي كانت من قِبَل رأسه، وجهه بالكامل لم يكن موجودًا.

- هل أنت بخير؟

كان ريكو يشاهده من قرب.

- أجل.

أجاب فولك وأخذ رشفة كبيرة من البيرة خاصته، كان الدم منتشرًا في جميع أنحاء صندوق الشاحنة حتى تسرب إلى الأسفل وصولًا إلى العجلات.

- هل وجد الطب الشرعي أيَّ شيء ذا قيمة في صندوق الشاحنة؟

نظر ريكو إلى دفتر ملاحظاته.

- دون الكثير من الدماء –دم لوك كله–، لا يوجد أي شيء، كما إنني لست متأكدًا إلى أي مدى قد بحثوا، وجدوا السلاح، والسيارة كانت لا تزال تعمل، كل شيء كان موجودًا بالخلف.

نظر فولك مجددًا إلى الصورة وركز على المنطقة المحيطة بالجثة، كان هناك أربعة خطوط أفقية بالكاد تُرَى على طول المدخل الأيسر، بدا أنهم حديثون، اللون البني الفاتح مقابل الدهان الأبيض المغبر، كان أطول خط لا يتعدى ثلاثين سنتيمترًا، والخط الأقصر نصف ذلك تقريبًا، كانت الخطوط في شكل ثنائيات، وكل خطين يبعدان عن غيرهما مسافة متر ولم تكن مرسومة بشكل منتظم كثيرًا، كانت الخطوط على الجانب الأيمن أفقية في حين كانت الخطوط على الجانب الأيسر ذات ميل طفيف.

- ما هذا؟!

سأل فولك فاقترب منه ريكو.

- ليس لدي فكرة كما قلت لك مسبقًا، كانت الشاحنة تحوي كل شيء.

- أما تزال الشاحنة هنا؟

هز ريكو رأسه نافيًا.

- لقد أُرسلت إلى ملبورن لتُنظَّف؛ إما من أجل البيع وإما للتخلص منها على حسب ظني.

تجول فولك بين الصور آملًا أن يحصل على رؤية أوضح، ولكنه لم يوفق في ذلك، أخذ يراجع بقية الملاحظات، بدا كل شيء عاديًّا، كان لوك رجلًا صحيًّا بغض النظر عن الجرح الذي في مقدمة رأسه، ازداد وزنه كيلوين عن الوزن المثالي والكوليسترول مرتفع، وكان جسمه نظيفًا من الكحوليات والمخدرات.

- ماذا عن البندقية؟

- مؤكد أن سلاح لوك هو السلاح المستخدم لقتل ثلاثتهم، سلاح مسجل ومرخص، والبصمات الوحيدة عليه هي بصماته.

- أين كان يضعه عادةً؟

- في صندوق محكم الغلق موجود في المخزن بالخلف، وكانت الذخيرة -على الأقل ذخيرة الوينستر التي وجدتها- موضوعة في مكان منفصل، كان شديد الاهتمام بالأمان على ما يبدو.

أومأ فولك بغير كامل تركيز؛ إذ كان منشغلًا بالاطلاع على تقرير البصمات الخاص بالبندقية، ست بصمات عبارة عن دوائر وخطوط ضيقة، اثنتان منهم كانتا غير واضحتين قليلًا، ولكن لم يخفِ هذا كونهما بصمتَي الإبهام الأيسر والخنصر اليمنى لـلوك هادلر.

- إن تقرير البصمات نظيفٌ.

لاحظ ريكو نبرة صوته ونظر إلى ملاحظاته.

- أجل، دقيقة حقًّا، لم يحتج الناس الكثير من الإقناع بعد رؤية هذا.

- دقيقة جدًّا.

أكد فولك ومرر التقرير إلى ريكو عبر الطاولة.

- ربما بالغ الدقة، من المفترض أن الرجل كان قد قتل عائلته للتو، لا بد أنه كان يرتجف ويتعرق كالمدمنين، لقد مر عليَّ أسوأ من هذا التقرير ليؤخذ كدليل إدانة.

- تبًّا.. أجل، ربما.

تجهم ريكو وهو ينظر إلى البصمات.

قلب فولك الصفحة..

- ماذا وجد الطب الشرعي بالمنزل؟

- لقد وجدوا شيئًا، يبدو أن نصف الناس كانوا يأتون إلى هنا من حين إلى آخر، توجد نحو عشرين بصمة مختلفة، غير الجزيئات والخيوط الموجودة في كل مكان، لا أعني أن كارن لم تكن تحافظ على نظافة المكان، ولكنها كانت مزرعة بها أطفال.

- والشهود؟

- الشخص الأخير الذي رأى لوك قبل وفاته كان أحد رفاقه، جايمي ساليڤان، يمتلك مزرعة في شرق المدينة وكان لوك عنده يساعده في اصطياد الأرانب، قابله بعد الظهيرة نحو الساعة الثالثة، وحسبما قال ساليڤان، فقد غادر نحو الساعة الرابعة والنصف. دون ذلك فلا يوجد حول المزرعة سوى جارٍ واحد الذي لم يكن ليتمكن من رؤية أي شيء، كان موجودًا في بيته حينها.

مد ريكو ذراعه ليأخذ التقرير، وشعر فولك بثقل في معدته.

- إن جاره رجلٌ غريب على كل حال.

استدرك ريكو.

- عجوز أخرق عنيف، لا يُكِنُّ الكثير من المحبة للوك، برغم أن ذلك كان يستحق، ولم يكن متحمسًا كثيرًا لمساعدة الشرطة في تحرياتها.

- مال ديكون.

قال فولك محاولًا جعل صوته متزنًا.

نظر إليه ريكو مندهشًا.

- هذا صحيح، أتعرفه؟

- أجل.

انتظر ريكو مزيدًا من التوضيح، ولكن فولك لم يزد شيئًا وساد الصمت.

- حسنًا، على أي حال إنه يعيش في ذلك البيت مع ابن أخيه، جرانت دو، الذي لم يكن بالمنزل في ذلك الوقت، يزعم ديكون أنه لم يرَ أي شيء، ربما سمع صوت إطلاق النار، ولكن لم يكترث له، ظن أنه شيء متعلق بالمزرعة.

رفع فولك حاجبيه لا أكثر.

- الأمر هو أن ما رآه وما لم يرَه سيان، لا يهم على أي حال.

قال ريكو موضحًا وأخرج جهازه اللوحي وضغط على الشاشة، ظهرت صورة ذات جودة منخفضة، كان كل شيء ساكنًا لدرجة أن فولك لم يلحظ أنه كان فيديو وليس صورة.

أعطى ريكو الجهازَ اللوحي لفولك.

- لقطات كاميرات الأمن من مزرعة عائلة هادلر.

- أنت تمزح.

قال فولك وهو ينظر فاغرًا فاه إلى الشاشة.

- ليس شيئًا فاخرًا، مجرد لقطات مُسرَّعة مأخوذة من كاميرا صغيرة متخفية في الواقع، ثبّتها لوك بعد عدة محاولات للسرقة كانت تحدث هنا منذ سنة، بعض الفلاحين لديهم مثلها أيضًا، تسجّل تلك الكاميرات على مدار اليوم، وتحفظ التسجيلات على جهاز المنزل وتظل موجودة حتى تُمسَح تلقائيًا بعد أسبوع ما لم يحفظها أحدٌ فعليًا.

كانت الكاميرا مثبتة فوق المخزن الكبير وموجهة ناحية الفناء لتكشف من يدخل ويخرج من المزرعة، كانت الكاميرا تكشف أحد جوانب المنزل، وفي أعلى الشاشة تكشف إحدى الزوايا جزءًا صغيرًا من المدخل، أخذ ريكو يمرر التسجيلات حتى وصل إلى اللقطة التي يبحث عنها ومن ثَمَّ توقف.

- ها نحن أولاء، تلك هي لقطات الظهيرة، بإمكانك مطالعة اليوم بأكمله في وقت لاحق متى أردت، ولكن باختصار فإن العائلة تغادر واحدًا تلو الآخر صباحًا، ينطلق لوك بشاحنته بعد الخامسة صباحًا متوجهًا إلى حقوله على حد علمي، ومن بعده بقليل بعد الساعة الثامنة يتجه كل من كارن، وبيلي، وتشارلوت إلى المدرسة، كانت كارن تعمل هناك بوقت جزئي بإحدى الوظائف الإدارية وتبقى تشارلوت في حضانة رعاية الأطفال حتى نهاية الدوام.

ضغط ريكو على الشاشة ليبدأ عرض التسجيل وأعطى فولك سماعات الأذن وأدخلها في الجهاز اللوحي، لم يكن الصوت بغاية الوضوح، بل كان مشوشًا كأن الرياح تعصف بداخل السماعات.

- لا يحدث أي شيء خلال النهار، صدقني، فقد رأيت كل ذلك على أرض الواقع، لا ذهاب ولا إياب حتى الساعة 4:04 مساءً عندما تعود كارن والأولاد إلى البيت.

ظهرت سيارة زرقاء في زاوية الشاشة ثم اختفت، كانت قادمة بزاوية ويظهر منها فقط الجزء الأمامي والعجلات، تمكن فولك من الحصول على أرقام اللوحة الأمامية.

- يمكنك قراءة ذلك إذا أوقفت الصورة وكبرتها، من المؤكد أنها سيارة كارن.

سمع فولك صوتًا مكتومًا لباب سيارة يُغلق بقوة وسط صوت التشويش الإلكتروني، وبعد ثوانٍ سمع الصوت مرة أخرى، ضغط ريكو على الشاشة مرة أخرى فظهرت الصورة.

- من هنا يسود الهدوء لمدة ساعة تقريبًا -مرة أخرى، لقد تفحصت ذلك- حتى... هنا: 5:01 مساءً.

ضغط ريكو زر التشغيل وترك فولك يشاهد، ظل الوضع ساكنًا لثوانٍ طوال ثم ظهر شيء ما في زاوية الشاشة، كانت الشاحنة الفضية أكثر طولًا من السيارة الزرقاء ويمكن فقط رؤية مصباحيها الأماميين بالأسفل بالإضافة إلى لوحة الأرقام. مجددًا، ظهرت العربة واختفت في أقل من ثانية.

- إنها شاحنة لوك.

سكنت الصورة تمامًا على الشاشة برغم أن الفيديو لا يزال جاريًا، سمع الصوت المكتوم لباب السيارة غير المرئية مرة أخرى ثم ساد صمت معذب لمدة عشرين ثانية، جفل فولك بعدما سمع صوت دوي يهدر في أذنه فجأة، كارن.. شعر أن قلبه سينفجر بين أضلاعه.

ساد الصمت مجددًا بينما استمر المؤقت بالعد، مرت ستون ثانية، ثم تسعون، فأدرك فولك أنه كان يحبس أنفاسه على أمل أن يتغير القدر وتحدث نهاية مختلفة، كان ممتنًا لجودة الصوت المنخفضة برغم أنها أصابته بالتوتر في الوقت ذاته، ستظل صرخات بيلي هادلر تطارده منذ هذه اللحظة، تنفس فولك الصعداء بعدما سمع الطلقة الثانية.

لم تَصدُر أي حركة، ظهرت الشاحنة في زاوية الشاشة مجددًا مبتعدة بعد ثلاث دقائق وسبع وأربعين ثانية من ظهورها أول مرة، ظهر كل من العجلات الخلفية وصندوق الشاحنة ولوحة الأرقام بوضوح.

- لن يأتي أحد أو يذهب حتى يصل مندوب شركة الشحن بعد خمس وثلاثين دقيقة.

قال ريكو وأعطى فولك الجهاز اللوحي له، ولكن ظل صوت الطلقات يتردد في أذنه.

- هل تشك في الأمر حقًا بعد رؤية ذلك؟

- إنها شاحنة لوك، ولكن لا يمكنك أن ترى من يقودها، بالإضافة إلى الذخيرة، وقَتْلِه لـكارن أمام الباب وبحثه في غرفة بيلي.

نظر فولك إليه شزرًا.

- أنا لا أفهم، لمَ أنت مقتنع لهذه الدرجة أن لوك ليس من فعلها؟ أنت لم تكن تعرفه حتى.

رفع ريكو كتفيه في استسلام.

- لقد وجدت الطفلين، رأيت كيف بدا بيلي هادلر بعد أن قتله وحشٌ ما، ولن أتمكن أبدًا من التظاهر بأنني لم أرَ ذلك. أود أن أتأكد بما لا يخالطه الشك مَن الذي فعلها. انظر، أنا أعلم أن هذا يبدو جنونيًّا، وأن كل الاحتمالات تشير إلى أن لوك هو الذي فعلها على الأرجح.. أعترف بذلك، ولكن لو كان هناك بصيص أمل أن أحدًا آخر من ارتكب هذه الجريمة وهرب...

هز ريكو رأسه وتجرع الكثير من البيرة.

- أتعلم، عندما أنظر إلى لوك من الخارج، أرى أنه كان لديه كل شيء: زوجة رائعة، طفلان، ومزرعة جيدة بما يكفي، ومكانة مرموقة في المجتمع، ما الذي يدفع رجلًا مثله إلى تدمير عائلته فجأة؟ لا يبدو هذا منطقيًّا. أنا فقط لا أستطيع أن أستوعب كيف لشخص مثله أن يقدم على شيء مثل ذلك.

أخذ فولك يدلك ذقنه بيده، كان ملمسها خشنًا وتحتاج إلى أن تُحلَق.

- ريكو، هناك أمر يجب أن تعرفه عن لوك.

*****

الفصل السابع

- في طفولتنا أنا ولوك.. حسنًا، لم نكن أطفالًا بالضبط، أكبر قليلًا، تحديدًا في السادسة عشرة...

توقف عن الكلام بغتة عندما شعر بحركة خفيفة في الناحية الأخرى من البار، لقد ازدحم المكان دون أن يلاحظ فولك ذلك، وعندما دقق النظر لاحظ بعض الوجوه المألوفة، لم يشعر بالضوضاء من حوله سوى قبل رؤيتها بلحظة واحدة، كان السكارَى خافضين أبصارهم ويجرون أقدامهم بلا مبالاة، كمن يسيرون وسط جمع غفير من الناس. بالأمام كان يوجد رجل بدين ذو شعر بني قاتم يلبس نظارة، شعر فولك بالبرد يتسرب إليه من أحشائه، محتمل أنه لم يلحظ جرانت دو في الجنازة، ولكن لا مجال لأن يخطئه الآن، هو ابن عم إيلي، كان لديهما نفس العينين، ولكن كان فولك يدرك تمام الإدراك أنه لا يشبهها مطلقًا. توقف دو أمام طاولتهما وحجبت هيئته الهزيلة رؤيتهما، تشبه ملامحه ملامح الخنزير؛ صغيرة ومتلاصقة في منتصف وجهه، ولحيته مبعثرة على ذقنه البدين، وقد كست ملامحه نفس النظرة الجامحة التي استخدمها ليُخْضِع كل المعزين في اجتماع التأبين. رفع كأسه في تحية زائفة لفولك وعلى وجهه بدا شبح ابتسامة.

- هل تجرؤ على المجيء إلى هنا؟ سأبرحك ضربًا، ما رأيك يا عم مال؟ أأبرحه ضربًا، هه؟

التَفَّ دو فظهر رجل عجوز كان يقف خلفه، فخطا خطوة للأمام ليصبح فولك للمرة الأولى منذ عشرين سنة أمام والد إيلي وجهًا لوجه، شعر بشيء ما يجثم على صدره ووجد نفسه يبتلع ريقه خوفًا.

أصبح مال ديكون محدودب الظهر الآن، ولكنه لا يزال ذا قامة طويلة وذراعين طويلتين وكفين عريضتين في آخرهما، أمسك ظهر كرسي ليعينه على الوقوف فبدت أصابعه مجعدة ومتورمة وباردة، حفرت التجاعيد أخاديد على جبهته جعلته دائم العبوس، وتناثرت بضع شعيرات رمادية على فروة رأسه المكشوفة التي بدا من خلالها أن دمه كان يغلي من الغضب.

تأهب فولك لمواجهة سَوْرَة الغضب المتوقعة، ولكن ما حدث هو أن تبدلت ملامح ديكون إلى نظرة ارتباك، هز رأسه هزة خفيفة تسببت في احتكاك جلد رقبته المتدلي المترهل بياقة قميصه القذرة.

- لماذا عُدت؟

كان صوت ديكون بطيئًا وقاسيًا، ظهرت أخاديد عميقة على جانبي فمه وهو يتكلم، لاحظ فولك أن جميع من كانوا في الحانة تعمدوا النظر بعيدًا عنهما، وحده النادل من تابع المواجهة باهتمام حتى إنه وضع الكلمات المتقاطعة جانبًا.

- هه؟

ضرب ديكون ظهر الكرسي بيده المجعدة بعنف فانتبه الجميع.

- لماذا.. عُدت؟ ظننتُ أنك تلقيت الرسالة بالوضوح الكافي، هل أحضرتَ الولد معك أيضًا؟

هنا كان دور فولك لينظر في حيرة.

- ماذا؟

- ابنك اللعين، لا تتظاهر بالغباء معي، ذلك الحقير، هل عاد هو أيضًا؟ ولدك ذاك؟

أشاح فولك بناظريه، إن ديكون يعتقد أنه يتحدث إلى والد فولك وليس فولك نفسه. أخذ يحدق إلى وجه العجوز، عبس ديكون مجددًا، ولكن غضبه كان مثيرًا للشفقة على نحو ما.

تقدم جرانت دو ووضع يده على كتف عمه، بدا لوهلة أنه بصدد أن يشرح لعمه ما يحدث، ولكنه هز رأسه بعصبية وأجلس عمه على كرسي.

- أحسنت أيها الأبله، لقد أثرت غضبه الآن. سأسألك سؤالًا يا هذا، أتعتقد أن هنا هو المكان الأفضل لتوجد فيه؟

أخذ ريكو شارته من جيب بنطاله الجينز ولطمها على الطاولة بقوة.

- بإمكاني أن أوجِّه لك السؤال نفسه يا جرانت، أتظن أن هنا هو المكان الأفضل لك الآن؟

رفع دو كفيه ورسم على وجهه ملامح البراءة.

- حسنًا.. حسنًا، ليس هناك داعٍ لهذا، أنا وعمي فقط جئنا من أجل أن نشرب، إنه ليس بخير، يمكنك أن ترى ذلك بنفسك، كما أننا لسنا نحن من نثير المتاعب، إنه هو...

نظر مباشرة نحو فولك.

- هو مَن يبحث عنها ويطاردها كالكلب.

تعالَى همسٌ مبهم في أنحاء الغرفة، كان فولك يدرك أن القصة ستنكشف عاجلًا غير آجلٍ، تبدل حاله حيث كان جميع من في المكان يحدقون إليه.

* * * *

كانوا يشعرون بالضجر والحر في أثناء تمشيتهم، انطلق البعوض في حملة شرسة بالخارج، وكان السير بجانب نهر كيوارا أبطأ كثيرًا مما توقعوا؛ حيث خاض ثلاثتهم في الوحل في شكل طابور منتظم، تعلو أصواتهم على صوت مياه النهر المتلاطمة وهم يتشاجرون، اصطدم الشخص الثاني في الصف بصدره أولًا بحقيبة ظهر قائد المجموعة؛ فوقعت زجاجة المياه المفتوحة على صدره، كان مستثمرًا بنكيًّا في السابق ثم انتقل إلى الريف من أجل صحته، ويقضي كل يوم محاولًا إقناع نفسه أنه لا يكره كل دقيقة فيه، رفع قائد المجموعة يده وكظم غيظه وأشار بيده إلى مياه النهر الموحلة، فالتفت الجميع وحدقوا.

- ما هذا بحق الجحيم؟!

***

- حسنًا، لا نريد أيًّا مِن هذا هنا، نشكركم على ما وصلنا إليه.

صاح نادل الحانة من خلف الطاولة، وقف على قدميه مُسنِدًا أصابعه إلى الطاولة، كان يبدو أنه يعبس تحت لحيته البرتقالية الكثيفة.

- هنا حانة عامة، الجميع يمكنه أن يأتي إلى هنا، هو يمكنه أن يأتي، أنت يمكنك أن تأتي، إما أن تقبل هذا وإما لا تقبله، الأمر سيان.

- وما هو الخيار الثالث؟

قال دو متهكمًا، وهو يبيِّن أسنانه الصفراء وينظر إلى رفاقه الذين أخذوا يضحكون بدورهم.

- الخيار الثالث هو أنك ستُمنع من الدخول، الاختيار لك إذن.

- نعم، تقول ذلك الكلام دائمًا على كل حال، أليس كذلك؟

نظر دو إلى نادل الحانة شزرًا، تنحنح ريكو مذكرًا بوجوده، ولكن دو لم يُقِم له وزنًا. ترددت كلمات النادل في ذهن فولك: «في هذا المكان، لا تمثل تلك الشارات سوى العدم».

- ليست المشكلة وجوده في الحانة.

عَمَّ الصمت فجأة في أرجاء الغرفة عندما تكلم مال ديكون.

- بل وجوده في كيوارا كلها.

رفع إصبعًا متورمة وأشار بها بين عينَي فولك.

- عليك إدراك هذا الأمر، وأن تخبر ابنك أنه لا يوجد شيء هنا سوى أناس يتذكرون جيدًا ما فعله ابنك بابنتي.

***

تقيأ المستثمر البنكي شطائر البرجر خاصته بجوار إحدى الشجيرات، كان هو ورفيقاه الاثنان مبللين بالماء، ولكنه بالكاد استطاع أن يدرك ذلك.

كان جسد الفتاة مستلقيًا الآن على الأرض وبركة من الماء تتسرب من حولها، كانت نحيفة، لكن بالرغم من ذلك احتاج الأمر إلى ثلاثتهم ليتمكنوا من سحبها إلى ضفة النهر، كان جلدها أبيض بشكل غير مألوف، وقد سقطت خصلة من الشعر في فمها، جعل منظر خصلة الشعر وهي مختفية بين شفتيها الباهتتين المستثمر البنكي يتقيأ مجددًا، كانت شحمتا أذنيها

حمراوين كالدم حول قرطيها، فقد اغتنم السمك فرصته، أيضًا وجدت نفس العلامات على فتحتي أنفها وأظفارها المطلية.

كانت بكامل ملابسها وبدت يافعة عندما أزالت المياه مستحضرات التجميل من على وجهها، كان قميصها شفافًا تقريبًا إذ كان ملتصقًا بجسدها مبينًا حمالة صدرها ذات القماش المخرم أسفله، كان حذاؤها المسطح لا يزال متشابكًا ببقايا الطحالب التي قيَّدت جسدها حيث كانت، كان كلٌّ من حذائها وجيبَيْ بنطالها ممتلئين عن آخرهم بالأحجار.

* * * *

- هذا كلام فارغ، ليس لدي أي علاقة بما حدث لإيلي.

لم يستطع فولك منع نفسه، ولكنه شعر بالندم فور انتهائه من قول ذلك، عض على لسانه، لا تتدخل.

- مَن قال؟

كان جرانت دو واقفًا وراء عمه وكانت ابتسامته الباردة قد اختفت.

- مَن ذا الذي قال إن لك علاقة بما حدث؟ لوك هادلر؟!

بمجرد نطقه للاسم شعر وكأن الهواء قد سُحِب تمامًا من الحانة.

- الأمر وما عليه أن لوك ليس هنا ليقول أي شيء مرة أخرى.

* * * *

انطلق الأكثر لياقة للمساعدة، وجلس المستثمر البنكي على الأرض بالقرب من بركة القيء خاصته، كان يشعر بالأمان هناك وهو منغمس في الرائحة النتنة أكثر من قربه من ذاك الجسد الأبيض المفزع، جاء قائد المجموعة مسرعًا، كانت قدماه موحلتين.

تمكنوا من التعرف عليها، فقد كانت صورتها منتشرة في الجرائد منذ ثلاثة أيام، إيلينور ديكون، ستة عشر عامًا، مفقودة منذ ليلة الجمعة عندما لم تتمكن من العودة للمنزل، تركها والدها لليلة حتى يهدأ اندفاعها المراهق الذي يجعلها تبتعد عنه، أبلغ عن اختفائها عندما لم تعد يوم السبت.

استغرق الأمر دهرًا حتى وصول موظفي الطوارئ إلى النهر، نُقلت جثة الفتاة إلى المشفى، أُرسِل المستثمر البنكي إلى بيته، وفي غضون شهر واحد كان قد رجع إلى المدينة، جاء تقرير الطبيب عن جثة إيلي ديكون أن سبب الوفاة

هو الغرق، كانت رئتاها متشبعتين بمياه النهر؛ حيث اتضح أنها بقيت في الماء لعدة أيام، كما قال الطبيب، منذ يوم الجمعة تقريبًا، أضاف في تقريره وجود بعض الكدمات على صدرها وكتفيها، وجروح على يديها وذراعيها، ناهيك بما سببه الحطام المندفع مع تيار النهر، وجدوا كذلك بعض الجروح القديمة على ساعدها كدليل على محاولة إيذاء نفسها، ولم تكن... قال بعد تردد: «عذراء».

***

علت الجلبة في أنحاء الغرفة عندما ذُكِر اسم لوك، حتى إن دو أحس أنه قد سبق الأحداث كثيرًا.

- كان لوك صديقي، وإيلي أيضًا كانت صديقتي.

بدا صوت فولك غريبًا في أذنيه.

- كلاهما مهمٌّ بالنسبة إليّ، لذا توقف.

انتصب ديكون واقفًا فجأة مما جعل كرسيه يصدر صريرًا على الأرض.

- إياك وأن تحدثني عن اهتمامك بإيلي، هي مسألة دم بالنسبة إليّ.

كانت يداه ترتعشان بينما هو يصرخ موجهًا إصبع الاتهام نحو فولك، لمح فولك بطرف عينه كلًّا من ريكو ونادل الحانة يتبادلان النظرات.

- أنت تدَّعي أنك وولدك ليس لكما علاقة بما حدث لإيلي، ما قولك إذن بشأن الملاحظة، أيها الكاذب النذل؟

لقد قال ذلك بثقة، كالورقة الرابحة التي ستجعله يفوز بالجدال.

أحس فولك أن الهواء قد اختفى من رئتيه، بدا منهكًا. ظهرت على ديكون ملامح الانتصار وبجواره ابن أخيه يضحك، كان يشتم رائحة الدم.

- ليس لديك ما تجيب به على ذلك، أليس كذلك؟

أجبر فولك نفسه ألا يهز رأسه، يا للهول، تلك الملاحظة اللعينة.

* * * *

استغرق رجال الشرطة قرابة ساعتين في تفتيش غرفة نوم إيلي ديكون، أخذت الأصابع الضخمة تعبث بأدراج الملابس الداخلية وعلب المجوهرات. كانوا على مقربة من ألا يجدوا الملاحظة، كانت مجرد ورقة ممزقة مأخوذة

من أحد دفاتر المدرسة العادية، وُجِدت مطوية طية واحدة وموضوعة في جيب أحد البناطيل، كُتِب على الورقة بالقلم الحبر وبخط يد إيلي تاريخ اليوم الذي اختفت فيه، ولا يوجد شيء آخر سوى الاسم الذي كُتِب بالأسفل: **فولك.**

- اشرح ذلك، إذا استطعت.

قال ديكون، ساد الصمت في الحانة.

لم ينبس فولك ببنت شفة، لم يقدر، وكان ديكون يعرف أنه لا يقدر.

هشَّم النادل كأسًا بالطاولة.

- كفى.

حدَّق بشدة إلى فولك بالذات، وظل ريكو ممسكًا بشارته بوضوح في يده، رفع حاجبيه وهز رأسه هزة خفيفة، بدّل النادل نظره إلى دو.

- أنت وعمك، اخرجا ولا تعودا إلى هنا ليومين، شكرًا. أما الجميع، فمن يريد يمكنه أن يأخذ مشروبًا أو يغرب عن هنا.

* * * *

وُلِدت الشائعات صغيرة ثم أخذت تكبر حتى نهاية اليوم، جلس فولك ذو الستة عشر عامًا خائفًا في غرفته بصحبة آلاف الأفكار الصاخبة التي تعتمل بداخله، فزع عندما سمع صوت طرقة على إطار النافذة، فظهر وجه لوك كالشبح الأبيض وسط ظلام الليل.

- إنك متورط في مشكلة يا صديقي.

قال هامسًا.

- سمعت أمي وأبي يتحدثان، الناس يتحدثون، ماذا كنت تفعل حقًّا يوم الجمعة بعد المدرسة؟

- لقد أخبرتك، كنت أصطاد.. عند النهر. أقسم لك إنني كنت على بعد أميال.

جثم فولك بجوار النافذة وشعر أن قدميه لم تكونا معه لتعيناه على النهوض.

- هل سألك أي أحد حتى الآن؟ الشرطة أو أي أحد؟

- لا، ولكنهم سيفعلون على أي حال. إنهم يظنون أنني كنت أقابلها أو شيئًا من هذا النوع.

- ولكنك لم تفعل.

- كلا، بالتأكيد لا، ولكن ماذا إذا لم يصدقوني؟

- أنت لم تقابل أيَّ أحد مطلقًا؟ لم يرك أيُّ أحد؟

- لقد كنت بمفردي، ألم أكن؟

- حسنًا، استمع إليَّ يا آرون.. يا صديقي، هلَّا انتبهت إليَّ؟ حسنًا، عندما يسألك أيًا كان، ستقول إننا كنا نصطاد الأرانب معًا في الحقول الخلفية.

- ليس بالقرب من النهر.

- كلا، إن الحقول خارج طريق كوران، بعيدة تمامًا عن النهر، قضينا الليلة كلها، اتفقنا؟ كنا نتسكع هنا وهناك كالعادة، فقط اصطدنا واحدًا أو اثنين، فلنقل اثنين.

- أجل، اتفقنا.. اثنين.

- لا تنسَ، لقد كنا معًا.

- نعم، أعني لا.. لن أنسى.. يا إلهي، إيلي.. لا يمكنني.

- قل.

- ماذا؟

- قل ذلك الآن، تدرب على قول ما كنت تفعله حينها.

- كنا نصطاد الأرانب أنا ولوك.

- مرة أخرى.

- كنت مع لوك هادلر.. نصطاد الأرانب البرية.. في الحقول التي بالخارج على طريق كوران.

- استمر في تكرارها حتى تعتاد عليها، ولا تخطئها.

- لا.

- أنت تفهم كل ذلك، هه؟

- أجل يا صديقي، شكرًا لك يا لوك.. شكرًا.

الفصل الثامن

حين كان فولك في الحادية عشرة من عمره، رأى مال ديكون وهو يحول قطيع الماشية الخاص به إلى مهزلة دموية وفوضى عارمة باستخدام المقصات ومجزات الصوف بطريقة وحشية، أحس فولك بألم يعتمل في صدره بينما يشاهد هو ولوك وإيلي الخراف واحدًا تلو الآخر يُسحَبون إلى أرض مخزن مزرعة ديكون بعنف وتُجَز فروتهم حتى أقرب نقطة من الجلد.

لقد ولد فولك وتربى في مزرعة، مثله مثل أصدقائه، ولكن ذلك كان شيئًا مختلفًا، كانت أقل صرخة من أصغر ماشية تصيبه بضيق تنفس، لم يَطُل هذا المشهد كثيرًا حيث جذبته إيلي من كمه مبتعدة، نظرت إليه مليًا وهزت رأسها هزة لائمة.

كانت إيلي فتاة هزيلة حادة الطباع آنذاك، وتصاب بنوبات طويلة من الصمت، فوجد آرون، والذي يميل بطبعه إلى الهدوء، ذلك مناسبًا له، واعتادا أن يكلِّفا لوك بالتكلم.

بالكاد رفعت إيلي رأسها عندما تعالت الأصوات من الحظيرة إلى حيث يجلس ثلاثتهم في الرواق الخارجي للمنزل، كان فولك فضوليًا لمعرفة ما يجري، ولكن لوك هو الذي أصر على ترك واجباتهم المنزلية والذهاب لاستطلاع الأمر، والآن وبعد أن سمعوا بآذانهم نحيب الماشية وبعد أن ظهر على وجه إيلي تعبيرٌ لم يره من قبل، أدرك آرون أنه ليس وحده من يتمنى أنهم لم يفعلوا.

التفتوا عائدين فتفاجأ فولك عندما رأى والدة إيلي واقفة أمام باب الحظيرة تراقب في صمت، كانت مستندة إلى إطار الباب بداخل سترة بنية اللون ليست على مقاسها وتوجد عليها بقعة شحم، أخذت رشفة من كأسٍ تحتوي سائلًا

أصفر اللون دون أن تزيل نظرها عن عملية القص، كانت ملامح وجهها تشبه ملامح ابنتها، تتشارك كلٌّ منهما في العينين الداكنتين العميقتين، البشرة الشاحبة والفم الواسع، الفرق أن والدة إيلي قالت لآرون أن عمرها يبلغ المئة سنة، مضت سنوات منذ ذلك اليوم إلى أن أدرك أنها لم تكن قد بلغت الأربعين من عمرها حتى.

كان يراقبها عندما أغلقت والدة إيلي عينيها وأمالت رأسها إلى الخلف بحدة، وتنفست نفسًا عميقًا فتجعدت ملامحها، ثبتت نظرها على زوجها عندما فتحت عينيها مجددًا، ظلت تحدق إليه بنظرة في غاية النقاء والعذوبة، جعلت آرون مرتعبًا من أن يلتفت ديكون ويراها بنفسه.. كانت نظرة ندم.

زاد طقس تلك السنة من صعوبة الأمر على الجميع في أثناء عملهم، فانتقل جرانت دو ابن أخ ديكون بعد شهر للعيش في بيت المزرعة وتقديم بعض العون، غادرت أم إيلي بعد يومين من ذلك، على الأغلب كان ذلك مثل القشة التي قسمت ظهر البعير، فرجل غاضب واحد كان كافيًا أشد الكفاية للجميع.

ألقت بحقيبتَي ملابس وحقيبة زجاجات تقرقع بعضها ببعض في سيارة قديمة وحاولت بقلب فاتر أن تمنع دموع ابنتها بوعود واهية بعودتها قريبًا من أجلها، لا يعلم فولك كم عامًا استغرقت إيلي لتتوقف عن انتظارها، كان يتساءل عمَّا إذا كان هناك جزءٌ بداخلها ظل مؤمنًا بعودتها حتى اليوم الذي ماتت فيه.

* * * *

يقف فولك الآن في الشرفة مع ريكو بينما أشعل الرقيب سيجارة، قدَّم واحدة لفولك لكنه رفض، قضى ما يكفي من الوقت لليلة واحدة في مطاردة شريط الذكريات.

- اختيار ذكي، أحاول الإقلاع عن التدخين من أجل الطفل.

- صحيح، خيرًا تفعل.

دخن ريكو ببطء وأخذ ينفث الدخان إلى سماء الليل الحارة، تعالت الأصوات القادمة من الحانة، مضى وقت كافٍ منذ غادر كلٌّ من ديكون ودو لكن ظلت بقايا حملتهما العدوانية معلقة في الهواء.

- كان عليك إخباري من قبل.

قال ريكو وهو يأخذ نفسًا من السيجارة وكتم كحته.

- معك حق، أنا آسف.

- هل لك أي علاقة بهذا الأمر؟ وموت تلك الفتاة؟

- كلا، ولكنني لم أكن بصحبة لوك عندما حدث هذا الأمر، أي ليس كما قلنا.

توقف ريكو.

- إذن كنت تكذب بشأن ادعائك، وأين كان لوك؟

- لا أعرف.

- ألم تسأل قط؟

- بالطبع سألت، ولكنه...

توقف فولك عن الكلام في محاولة أن يتذكر.

- كان دائمًا يصر على الالتزام بقصتنا، دائمًا، حتى عندما نكون بمفردنا، قال إنه من الأكثر أمانًا أن نلتزم بذلك، فلم ألحّ. كنت ممتنًا له، أتفهم؟ كنت أظن أن ذلك كان من أجلي.

- مَن أيضًا على علم بأنها كذبة؟

- البعض كان لديهم شكوك: مال ديكون، بالتأكيد، وآخرون. لكن لا أحد يعرف حقيقة الأمر، على الأقل هذا ما ظننته دومًا، لكنني الآن لست متأكدًا، فقد اكتشفت أن جيري هادلر كان يعرف طوال الوقت، ربما ليس هو الوحيد الذي يعرف.

- هل تعتقد أن لوك هو من قتل إيلي؟

- لا أعرف.

أخذ يحدّق إلى الشارع الفارغ.

- إنني أريد أن أعرف.

- هل في رأيك أن كل ذلك متصلٌ ببعضه؟

- أتمنى حقًّا ألا يكون كذلك.

تنهد ريكو وفرك سيجارته بحرص وأطفأ نهايتها المشتعلة برشة بيرة.

- حسنًا يا رفيق، سرُّك في أمان معي، حاليًا، ما دمت لم أضطر لإفشائه، وفي تلك الحالة ستكون بمفردك وأنا لم أعلم أي شيء عن هذا الأمر، اتفقنا؟

- نعم، شكرًا لك.

- قابلني غدًا في المحطة في الساعة التاسعة صباحًا، سنذهب لنتكلم مع صديق لوك، جايمي ساليڤان، الشخص الأخير الذي يعترف أنه رآه قبل موته.

نظر إلى فولك واستدرك.

- إذا كنت لا تزال في المدينة.

لوح بيده وذهب في ظلام الليل.

استلقى فولك على سريره عندما عاد إلى غرفته وأخرج هاتفه، أمسك به في يده، ولكن لم يتصل. لقد اختفى العنكبوت من فوق المصباح، وحاول ألا يفكر أين هو الآن.

«*إذا كنت لا تزال في المدينة*»، هكذا قال ريكو، كان فولك مدركًا أنه هنا بمحض إرادته، سيارته مركونة بالخارج، يمكنه أن يحزم حقيبته ويدفع لنادل الحانة ذي اللحية، ويكون في طريقه إلى ملبورن في غضون خمس عشرة دقيقة.

من الممكن أن يشك ريكو، وأن يحاول جيري هادلر الاتصال به، ولكن ماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟ لن يكونوا سعداء بذلك، لكن هذا لا يهمه، بارب أيضًا –يمكنه تخيل خيبة الأمل على وجهها–، ستحزن بارب كثيرًا، ولم يكن متأكدًا بالضبط إذا كان ذلك لا يهمه أيضًا، تقلب فولك بغير راحة بعد تلك الفكرة، بدت الغرفة خالية من الهواء بسبب الحر.

لم يعرف أمه قط، فقد ماتت على إثر نزيف حاد غارقة في دمها بعد ساعة فقط من ولادته، لقد حاول والده جاهدًا أن يعوض غيابها، لكن كل شعور بالأمومة شعر به فولك في حياته، كل كعكة دافئة خرجت لتوها من الفرن، كل

عناق يعبق برائحة العطر، كان من بارب، ربما كانت هي والدة لوك، ولكنها دومًا ما أعطته من وقتها.

وقد قضى هو وإيلي ولوك في بيت هادلر وقتًا أكثر مما قضوه في بيت أي منهم، كان بيت فولك صامتًا وفارغًا دائمًا، فقد كان والده ينشغل لساعات طوال بمتطلبات الأرض، وكانت إيلي تهز رأسها علامة للرفض عند اقتراح الذهاب إلى بيتها قائلة: «ليس اليوم». وعندما يصر هو ولوك من أجل التغيير، كان فولك دائمًا ما يشعر بالندم، لذلك فبيت إيلي كان فوضويًا وبه كثير من الزجاجات الفارغة.

بيت عائلة هادلر به حياة وتملأ جنباته أشعة الشمس، تأتي من المطبخ أشياء لذيذة، وتعليمات واضحة لعمل الواجبات المنزلية ومواعيد النوم، وإصدار الأوامر بغلق ذلك التلفاز اللعين والحصول على بعض الهواء المنعش. لطالما كانت مزرعة هادلر كالجنة حتى أسبوعين فقط، عندما تحولت إلى مسرح لجريمة من أبشع الجرائم.

ظل فولك راقدًا على السرير بلا حركة، مرت خمس عشرة دقيقة، كان بإمكانه أن يكون في طريقه الآن، ولكنه ما زال هنا بدلًا من ذلك.

تنهد ونهض، أخذت أصابعه تحوم حول الهاتف بينما يفكر عمَّن يحتاج إلى إخباره، تخيل شقته في سانت كلدا، الأنوار مطفأة والباب الأمامي مقفل بإحكام، شقة كبيرة كفاية من أجل اثنين، ولكن للسنوات الثلاث الماضية كانت من أجله هو فقط، لم يعد هناك أحد ينتظره، ليس هناك أحد يخرج منتعشًا بعد أخذ حمام، مع موسيقى في الخلفية وزجاجة نبيذ أحمر تنتظره على طاولة المطبخ، ليس هناك أحد يتلهف على أن يجيب على الهاتف ويهمه أن يعرف لماذا سيغيب لبضعة أيام أخرى.

كان معتادًا على ذلك طيلة الوقت، ولكن في تلك اللحظة التي يستلقي فيها على سرير في حانة في كيوارا، تمنى لو كان أسس بيتًا كبيت بارب وجيري هادلر بدلًا من بيتٍ كبيت والده.

من المفترض أن يعود إلى عمله بحلول يوم الاثنين، ولكنهم على علم بأنه يحضر جنازة، وقد تجنب ذكر جنازة مَن كانت، كان يعرف أن بإمكانه البقاء، بإمكانه أن يبقى لأيام قليلة، من أجل بارب، من أجل إيلي، وحتى من أجل لوك.

قد أعطته قضية بيمبرلي رصيدًا كافيًا من الوقت الإضافي والسمعة الحسنة مما يستطيع الاستفادة به، لقد كان تحقيقه الأخير سبقًا حقيقيًا في مهنته.

فكر في الأمر مليًّا، وها قد مرت خمس عشرة دقيقة أخرى، التقط أخيرًا الهاتف وترك رسالة إلى سكرتيرة الأقسام المالية المسكينة، يخبرها فيها أنه سيأخذ إجازة لمدة أسبوع لأسباب شخصية تبدأ من الآن.

من الصعب أن نجزم مَن منهما دهِشَ أكثر مِن الآخر.

الفصل التاسع

ظل جايمي ساليڤان منهمكًا في العمل لأربع ساعات حتى مجيء فولك وريكو يتسكعان في حقوله، كان جالسًا على ركبة واحدة ويده العارية منغمسة بعمق في التربة الجافة ليتفحصها فحصًا علميًا دقيقًا.

- سندخل إلى البيت.

هكذا قال عندما أخبره ريكو أن لديهما أسئلة عن لوك.

- أود الاطمئنان على جدتي على كل حال.

أخذ فولك يتفحص ساليڤان وهما يتبعانه إلى المبنى الحجري المنخفض: في أواخر العشرينيات، كان يومًا ما ذا شعر أشقر قد ذهب به الصلع الوراثي كليًا إلا من بقايا خفيفة لتدل على وجوده مسبقًا، كان هزيل البدن والساقين عدا ذراعيه القويتين كمكبس حديدي مما جعله يبدو كالمثلث المقلوب.

أخذهما ساليڤان إلى ردهة مزدحمة داخل المنزل، خلع فولك قبعته وجاهد ألا تظهر نظرة الدهشة على وجهه، سمع ريكو من خلفه يلعن بعد أن ارتطمت قصبة ساقه بمسند قدم كان كامنًا قرب الباب، كانت الردهة عارمة بالفوضى، لم يخلُ أي سطح من زينة وزخارف تجمع الكثير من الغبار، دوى صوت التلفاز من مكان ما بالمنزل.

- هذه كلها لجدتي.

أجاب ساليڤان على السؤال الذي لم يستطع أحدهما أن يسأله بصوت عالٍ.

- إنها تحبهم لأنهم يجعلونها تشعر أنها.. (فكر قليلًا) موجودة.

قادهما عبر الردهة إلى المطبخ حيث كانت تقف امرأة هزيلة كالعصفور عند الحوض، تظهر عروق يديها الزرقاء التي أخذت ترتعش وهي تحمل غلاية ممتلئة.

- هل أنت بخير يا جدتي؟ هل تودين كوبًا من الشاي؟ دعيه لي.

أخذ ساليڤان الإناء منها بسرعة. كان المطبخ نظيفًا لكن ليس منظمًا، وثمة بقعة شيء محترق كبيرة على الحائط فوق الموقد. والدهان متقرحٌ وقد أخذ في التقشر مُخلفًا منظرًا غير محبب، حدقت السيدة ساليڤان إلى ثلاثتهم ثم حولت نظرها نحو الباب.

- متى سيعود والدك إلى البيت؟

- لن يعود يا جدتي، لقد توفي، هل تذكرين؟ مرت ثلاث سنوات الآن.

- أجل، أعلم.

كان من المستحيل معرفة ما إذا كانت قد تفاجأت بالخبر أم لا، نظر ساليڤان إلى فولك وأشار برأسه ناحية الباب.

- هل يمكنك أن تأخذها إلى الداخل؟ سأتبعك خلال دقيقة.

استطاع فولك أن يشعر بالعظام من خلال جلد السيدة العجوز المترهل عندما مالت نحوه، بدا جو غرفة المعيشة خانقًا بعد ضوء المطبخ الساطع، الكثير من الأكواب نصف الفارغة متناثرة في كل مكان ومتجمعة حول تماثيل صغيرة من الخزف ذات عيون بيضاء. اصطحب فولك المرأة إلى كرسيٍّ ذي ذراعين بالٍ بالقرب من النافذة.

جلست السيدة ساليڤان مرتجفة تتنهد في انزعاج.

- أنتما هنا أيها الشرطيان من أجل لوك هادلر، أليس كذلك؟ لا تلمسا ذلك.

قالت وهي تجذب من ريكو بعض الصحف مطوية الزوايا التي حاول ريكو أن يحركها عن الكرسي، حمل نطقها لمحة من اللكنة الأيرلندية.

- لا حاجة إلى أن تنظر إليَّ بهذا الشكل، فأنا لم أجن كليًّا بعد، هذا الصديق لوك كان بالجوار ثم غادر وذهب فقتل عائلته، أليس كذلك؟ لماذا يمكن أن تكونا هنا سوى من أجل ذلك؟ إلا إذا قام ابننا جايمي بشيء لم يكن يجب أن يفعله.

بدت ضحكتها كصوت بوابة صدئة.

- لا نعلم بالتأكيد.

قال فولك وهو يتبادل نظرة مع ريكو.

- هل كنتِ تعرفين لوك معرفة جيدة؟

- لم أكن أعرفه على الإطلاق، لا أعرف سوى أنه صديق لابننا جايمي، كان يأتي إلى هنا بين الحين والآخر ليساعده في المزرعة.

جاء ساليڤان حاملًا صينية شاي متجاهلًا اعتراضات جدته، أفسح بعض المساحة على الصوان ليتمكن من وضعها، وأشار لـفولك وريكو ليجلسا على الأريكة البالية.

- أعتذر عن هذه الفوضى.

قال ساليڤان وهو يناولهما الأكواب.

- الأمر يبدو شائكًا...

حدّق نحو جدته ثم بدل نظره إلى إبريق الشاي، لاحظ فولك أن لديه هالاتٍ سوداء تحت عينيه جعلته يبدو أكبر سنًّا، ولكنه كان يثق به، الطريقة التي فكر بها في الموقف وإدارته للغرفة، جعلت فولك يتخيله بعيدًا عن كل ذلك، جالسًا على مكتب في مكان ما في المدينة مرتديًا بدلة، يحقق أرباحًا من ذات الستة أصفار وينفق نصفها في شراء أغلى أنواع النبيذ.

انتهى ساليڤان من تمرير المشروبات وجذب كرسيًّا خشبيًّا رخيصًا.

- والآن ما الذي تودان معرفته؟

- نحن نحاول حل بعض الألغاز.

- من أجل عائلة هادلر.

- حسنًا، لا مشكلة، ما دام من أجل بارب وجيري.

- ولكن انظر، الشيء الذي أود قوله بادئ ذي بدء، والذي قلته لشرطيي كلايد، هو أنني لو كنت أعلم –لو كان هناك أي شيء يشير إلى أن لوك كان ذاهبًا ليفعل ما فعله– لم أكن لأدعه يذهب قط، أريد أن أقول ذلك بمنتهى الوضوح.

نظر نحو الأسفل وحرك أصابعه بقلق على الكوب.

- بالطبع يا رجل، لا أحد يقول إنك كان باستطاعتك أن تمنع ما حدث.

- ولكن إذا أمكنك التحدث بشأن الموضوع مرة أخرى سيكون ذلك مفيدًا، ومن ثَم نسمع بأنفسنا.. تحسبًا.

أرانب، هذا ما أخبرهما به ساليڤان، كانت تلك هي المشكلة، أو على الأقل واحدة من المشكلات، من الصعب أن يواجهوا هذا الجفاف دون أن يفتكوا بكل ما يمكن أكله، كان يشتكي من هذا الأمر في الليلة الماضية في الحانة وحينها عرض عليه لوك بعض المساعدة.

- هل سمعكما أي أحد وأنتما تعقدان هذا الاتفاق؟

- من المحتمل، لا أتذكر بالتحديد، ولكن المكان كان مزدحمًا، من الممكن أن أحدًا قد سمعنا إذا انتبه إلينا.

* * * *

توقف لوك هادلر عند مدخل الحقل وترجل من شاحنته، كان قد جاء مبكرًا بخمس دقائق، ولكن كان جايمي ساليڤان هناك بالفعل، لوح كلٌّ منهما بيده في تحية للآخر، أحضر لوك بندقية الصيد خاصته من صندوق الشاحنة وأخذ الذخيرة التي أعطاها له ساليڤان.

- هيا بنا، لنقضي على أرانبك الحمقى أولئك.

قال لوك وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

* * * *

- أنت من أحضرت الذخيرة؟ من أي نوع كانت؟

- وينستر، لماذا؟

تبادل ريكو نظرة مع فولك، ليست ذخيرة الريمنغتون المفقودة إذن.

- هل أحضر لوك أيًا من ذخائره؟

- لا أظن ذلك، لقد كانت أرانبي.. رصاصاتي.. فكرتي الخاصة، لماذا تسأل؟

- مجرد سؤال، كيف بدا لك لوك؟

- لا أعلم بالضبط، ظللت أفكر في هذا الأمر منذ ذلك الحين، ولكنني أظن إن بإمكاني القول إنه بدا بخير، بدا عاديًا.

فكر ساليڤان لدقيقة قبل أن يقول:

- حتى غادر على الأقل.

* * * *

كانت الطلقات الأولى للوك طائشة، مما جعل ساليڤان ينظر له مستغربًا، كان لوك يعض على الجلد حول إبهامه، لم يقل ساليڤان شيئًا، وأطلق لوك مجددًا فلم يصب.

- هل كل شيء على ما يرام يا صديقي؟

سأل ساليڤان دون حماس، كانا ينويان هو ولوك الوثوق ببعضهما بعضًا بالقدر ذاته الذي يمنحه ساليڤان لكل واحد من أصدقائه، أي يمكننا أن نقول إنه قدرٌ ضئيلٌ للغاية. ومن ناحية أخرى لم يكن لديه اليوم بطوله لينتهي من أمر تلك الأرانب وقد غربت الشمس من وراء ظهريهما.

- بخير.

هز لوك رأسه في تشتت.

- وأنت؟

- أجل، وأنا أيضًا.

تردد ساليڤان، كان بإمكانه أن يتوقف عند هذه النقطة. حاول لوك الإطلاق مجددًا وأخطأ الهدف مجددًا، فقرر ساليڤان أن يتجاذب أطراف الحديث مع الرجل.

- إن جدتي أصبحت ضعيفة هذه الأيام.. بعض الشيء.

- هل هي بخير؟

سأل لوك دون أن يبعد نظره عن جحر الأرانب.

- أجل، الأمر فقط أن الاعتناء بها يكون صعبًا في بعض الأوقات.

أومأ لوك بشرود فأدرك ساليڤان أنه لم يكن يستمع إليه بكامل تركيزه.

- أولئك النساء الملعونات، على الأقل امرأتك لا يمكنها أن تحوم هنا وهناك وتفعل أشياء لا يعلم ماهيتها إلا الله.

عانى ساليڤان، وهو الذي لم يسبق ولو لمرة في حياته أن أعدَّ جدته مصنفة في خانة «النساء»، كي يفكر في شيء ليرد به.

- لا، لا أظن ذلك.

شعر بطريقة ما أنهما قد ضلا السبيل في عرض المحيط بلا بوصلة.

- هل كل شيء على ما يرام مع كارن؟

- آه.. أجل، لا توجد مشكلة.

رفع لوك سلاحه وضغط على الزناد، لقد أصاب هذه المرة.

- أتعلم؟ كارن هي كارن، دومًا هناك شيء يحدث.

تنفس كأنما كان على وشك أن يستدرك كلامه، ولكنه توقف.. غيَّر رأيه.

ارتاب ساليڤان، إنه تائه مما لا شك فيه.

- حسنًا.

حاول أن يفكر في شيء آخر ليضيفه لكن عقله كان فارغًا. نظر إلى لوك شزرًا، الذي كان قد أنزل بندقيته واكتفى بمراقبته، التقت أعينهما للحظة، أصبح الجو غير مريحٍ تمامًا، فالتفت كلا الرجلين مجددًا نحو جحر الأرانب.

* * * *

- «دومًا هناك شيء يحدث»، ماذا يعني ذلك؟

نظر ساليڤان إلى الطاولة وحالته مزرية.

- لا أعلم، أنا لم أسأل، كان يجب عليّ أن أسأل، أليس كذلك؟

«بلى»، هكذا فكر فولك.

- لا. (هكذا أجاب).

- لم يكن سؤالك ليغير شيئًا.

لم يكن يعلم إذا كان ذلك صحيحًا أم لا.

- هل قال لوك أي شيء آخر عن هذا الأمر؟

هز ساليڤان رأسه نافيًا.

- لا، التزم كلٌّ منا الصمت.. كالمعتاد.

* * * *

بعد مرور ساعة تمطّى لوك.

- أعتقد أن ذلك قد أرعبهم.

تفحص ساعته.

- فليحاول أحدهم فقط أن يأتي بحركة واحدة.

أعطى الذخيرة المتبقية إلى ساليڤان وتمشيا معًا حتى الشاحنة وقد تبدد أي توتر كان موجودًا قبل قليل.

- أنشرب بيرة سريعًا؟

قال ساليڤان وهو يخلع قبعته ويمسح وجهه بساعده.

- لا، يجب أن أعود إلى المنزل، هناك أشياء يجب إنجازها كما تعلم.

- حسنًا، شكرًا على المساعدة.

- لا مشكلة.

قال لوك بلا مبالاة.

- تمكنت أخيرًا من التصويب، على الأقل.

وضع سلاحه الفارغ في دواسة مقعد الراكب في الشاحنة وقفز بداخل السيارة، الآن بعد أن قرر الذهاب كان يبدو على عجلة من أمره كي يغادر. أنزل زجاج النافذة ولوح بيديه وهو يتحرك بالشاحنة.

ظل ساليڤان واقفًا وحده في الحقل الفارغ وشاهد الشاحنة الفضية وهي تختفي.

* * * *

أخذا يفكران في هذا السيناريو في صمت، كانت السيدة ساليڤان جالسة بالقرب من النافذة وفنجان الشاي خاصتها يهتز في طبقه حيث وضعته على كومة من الروايات فأخذت تنظر إليه في سخط.

- ماذا حدث إذن؟

- بعد فترة من الوقت جاءني اتصال من شرطة كلايد بحثًا عن لوك، أخبرتهم أنه قد غادر قبل ساعتين، انتشرت الأخبار في كل مكان بعد ذلك.

- أظن في نحو الساعة السادسة والنصف.

- هل كنت هنا؟

- أجل.

- وماذا كنت تفعل قبل ذلك، بعد أن غادر لوك؟

- لا شيء، كنت أعمل هنا في المزرعة، عندما أنهيت العمل بالخارج، تناولت الطعام مع جدتي.

نظر فولك خلسة حيث لمح حركة صغيرة بطرف عينه.

- كنتما فقط أنتما الاثنان هنا؟

أبقى فولك صوته هادئًا.

- لم تغادر مطلقًا؟ لم يمر أحد إليكما؟

- كلا.. فقط نحن.

كان من السهل عدم ملاحظة ذلك، ولكن عندما فكر فولك فيما بعد، كان متأكدًا، لقد لمح فولك بطرف عينه السيدة ساليڤان وهي تحدق بنظرة باهتة مرتعشة تحت وطأة المفاجأة، حدقت إلى حفيدها قرابة نصف الثانية قبل أن تنظر إلى الأسفل مرة أخرى. حاول فولك أن يراقب من قرب، ولكنها لم ترفع بصرها مرة أخرى، لقد بدت وكأنها نائمة طوال المدة القصيرة الباقية من زيارتهما.

الفصل العاشر

- سأخبرك أمرًا، إنني سأفقد عقلي بحق الجحيم.

كان ريكو يرتجف حنقًا خلف عجلة القيادة، كان يوجد بالخارج سلك شائك رفيع يحيط بحقل شجيرات ذابلة مرُّوا عليه بلمح البصر، وكانت الحقول من خلفهم صفراء وبنية.

- يعيش في مكان قفر، لا زرع.. لا ماء.. لا بشر سوى المرأة العجوز، ذلك المنزل كان كمتحف غريب.

- ألا تعجبك تماثيل الملائكة الخزفية؟

- يا صديقي، إن جدتي كاثوليكية أكثر من البابا، إذا تكلمنا عن الزخارف الدينية، يمكنني أن أريك وأراهنك، الأمر فقط أن تلك لا تبدو حياة مناسبة لشاب في مثل سنه.

مرًّا بعلامة تحذير من وجود حريق على جانب الطريق، كان مستوى الخطر مرتفعًا على أشده منذ وصول فولك، كان السهم يشير مُركِّزًا على جزء نصف الدائرة البرتقالي لخطة النجاة من حرائق الغابات، استعد.. نفِّذ.. حافظ على حياتك.

- أتظن أنه كان صادقًا معنا؟

وضح له فولك كيف كانت ردة فعل جدة ساليڤان على ادعائه أنه كان في المنزل في تلك الليلة.

- هذا مثير للاهتمام، ولكنها ليست متزنة كثيرًا، أليس كذلك؟ كما أنها تبدو قاسية بعض الشيء، لا يوجد أي شيء في التحقيقات يشير إلى أن ساليڤان لم يكن بالمنزل، ولكن هذا لا يعني أي شيء جديًا، على

الأرجح لم يتم التحري عنه على نحو كافٍ، هذا إذا كان قد تم التحري عنه أصلًا.

- الأمر هو أنه...

مال فولك ناحية مكيف الهواء وحركه بأصابعه.

- لو كان ساليفان يريد أن يقتل لوك لكان الأمر سهلًا، لقد ظلوا معًا وبصحبتهم أسلحة الصيد لأكثر من ساعة في مكان معزول تمامًا، ظروف مناسبة تمامًا لارتكاب حادث مدبَّر، كان من الممكن أن تفعلها جدته هناك.

فقد فولك الأمل في مكيف الهواء وأنزل النافذة قليلًا لتسمح بدخول تيار من الهواء الحارق، ثم سارع بإغلاقها مجددًا.

ضحك ريكو.

- وأنا الذي ظننت أن الحرارة كانت لا تُحتَمل في أديليد، لقد كنت هناك؟ ما الذي أتى بك كل تلك المسافة إلى هنا؟

- أول فرصة لتعيين رقيب، بدت فرصة جيدة لإدارة مركزي الخاص، لقد كنت قرويًا على كل حال، هل عملت دائمًا في ملبورن؟

- تقريبًا، لقد أقمت هناك دائمًا.

- هل تحب عملك في الأمور المالية؟

ابتسم فولك في نفسه لنبرة ريكو، كانت نبرة مهذبة، ولكن تحمل عدم تصديق تام بأنه من الممكن أن يختار أحدٌ هذا الطريق، ردة فعله مألوفة، لطالما ذهل الناس لمعرفتهم أن كثيرًا من قضايا الأموال التي استلمها كانت ملوثة بالدم.

- إنها تناسبني، بالحديث عن ذلك، لقد بدأتُ مراجعة السجلات المالية لعائلة هادلر الليلة الماضية.

- هل وجدت أيَّ شيء مهمًا؟

- ليس بعد.

تثاءب فولك، لقد ظل لوقت متأخر من الليل يدرس الأوراق تحت الإضاءة الفقيرة لمصباح الغرفة الرئيسي.

– الشيء الوحيد الذي توضحه الأوراق هو أن المزرعة كانت تمر بأزمة مالية بكل وضوح، لكنني لست متأكدًا ما إذا كانت حالتها أسوأ من المزارع الأخرى بالجوار، على الأقل كانوا يقومون ببعض التخطيط من أجلها، يحتفظون بجزء من المال بعيدًا في الأوقات الجيدة، لم تكن وثيقة التأمين على الحياة خاصتهم مهمة كثيرًا، فقط الأساسيات المتصلة بمشرفهم.

- لمن ستذهب تلك الوثيقة؟

- تشارلوت، عن طريق والدَي لوك، هذا أقل شيء تقريبًا، على الأغلب ستغطي الرهن العقاري ليس إلا، أعتقد أنها ستحصل على المزرعة، سواء أعجبها ذلك أم لا، إلى الآن لا توجد أي مشكلات.

الشيء الأبرز الذي أدركه فولك بعد تلك الدراسة هو أن كارن هادلر كانت مسؤولة حسابات ماهرة ودقيقة، كان إعجابه بها يزداد كلما تابع أرقامها المنظمة وعلاماتها الدقيقة بالقلم الرصاص.

تباطأ ريكو عندما اقترب من مفترق طرق مقفر وتفحص ساعته.

- مرت سبع دقائق.

كانا يتبعان نفس الطريق الذي سلكه لوك وهو عائد إلى منزله من مزرعة ساليڤان، انحرف ريكو يسارًا في الطريق إلى بيت مزرعة عائلة هادلر، كان الطريق ممهدًا، ولكن ليس بالقدر الجيد: كانت ثمة شقوق عميقة على الأسفلت الذي أخذ ينكمش من الجفاف ويتموج تبعًا لمواسم المحاصيل.

عمليًا كان هذا الطريق ذا حارتين، ولكنه بالكاد يتسع لسيارتين لتمرّا منه جنبًا إلى جنب، بحيث تخيل فولك أنه إذا التقت سيارتان وجهًا لوجه ستضطر إحداهما أن تنحرف خارج الطريق إلى الدغل، ولكن لم تحالفه الفرصة ليشهد ذلك عمليًا، لأنهما لم يقابلا سيارة واحدة على طول الطريق.

- أربع عشرة دقيقة تقريبًا، إنهما جاران.

قال فولك بينما توقف ريكو أمام مدخل مزرعة هادلر.

- حسنًا، لنرَ أين وجدت جثة لوك.

كانت مجرد قطعة أرض فارغة في الغابة دون أشجار.

مر ريكو بعيدًا عن النقطة فأخذ يسب في سره وهو يوقف السيارة، رجع للخلف بضعة أمتار وتوقف بجانب الطريق، ترجلا من السيارة غير مهتمين بغلق الأبواب من خلفهما، لم يكن يوجد أحد غيرهما بالجوار، مشى ريكو حتى بلغ مكانًا شاغرًا وسط صف الأشجار.

- ها هنا.

خيم صمت مخيف حيث سكنت بعض الطيور المتخفية فورًا على إثر صوته، كانت مساحة صغيرة تكفي لكي تمر خلالها سيارة لكنها لن تتمكن من أن تنعطف، توقف فولك في منتصفها، كان الجو ألطف هناك بعض الشيء؛ حيث تظللها أشجار الأوكالبتوس[1] الحارسة من جميع الجهات، كان الطريق مخفيًا كليًا بواسطة الأشجار الكثيفة، أصدر شيءٌ ما بداخل الشجيرات حفيفًا ثم أسرع مبتعدًا، كانت الأرض الصفراء مستوية تمامًا ولا توجد أي آثار أو علامات لعجلات.

في منتصف قطعة الأرض، تحديدًا حيث يقف فولك، كانت هناك بقعة من الرمال غير متجانسة مع بقيتها، تنحى جانبًا فور أن أدرك ما الذي قد وُضِعت هنا لتغطيه، لقد وطأت عشرات الأحذية تلك المنطقة مؤخرًا، عدا ذلك كان مكانًا مهجورًا.

- يا له من مكان تعيس لقضاء آخر لحظات حياتك.

- هل كان هذا المكان يعني أي شيء بالنسبة إلى لوك؟

هز ريكو كتفيه.

- كنت آمل أن تكون لديك أي فكرة عن هذا الأمر.

حاول فولك استرجاع بعض لقطات الذاكرة لرحلات التخييم القديمة ومغامرات الطفولة، لكن لم تكن محاولاته مثمرة.

- هل مؤكد أنه قد مات هنا؟ خلف الشاحنة؟ ألا يوجد أي احتمال أنه تحرك بعد أن أُطلِق عليه النار في مكان آخر؟

- غير ممكن، كانت بقع الدماء حاسمة.

---

(1) شجرة الأوكالبتوس، أو كما يُطلق عليها «شجرة الصمغ الشبحية»: هي رمزٌ مهمٌ لشعور الأمان والعودة إلى الوطن بعد سفر طويل في أستراليا، وهي شجرة معمرة.

حاول فولك أن يرتب تسلسل الأحداث في رأسه: لقد غادر لوك منزل جايمي ساليڤان في نحو الساعة الرابعة والنصف، ثم ظهرت الشاحنة مجددًا في كاميرات مزرعة هادلر بعد مرور نحو ثلاثين دقيقة، لقد استغرق وقتًا أطول مما استغرقاه –ريكو وفولك– لقيادة المسافة ذاتها، طلقتان، أربع دقائق مرت ثم غادرت الشاحنة.

- لقد قاد عائدًا إلى منزله، وقد سلك الطريق ذا المناظر الخلابة لأي سبب كان، قتلهم ثم قاد شاحنته حتى هذا المكان.

- أجل، كما أن الأمر يزداد تعقيدًا باحتمال أنه كان شخصًا آخر، يجب أن يكون القاتل بداخل شاحنة لوك بعد مغادرته مزرعة ساليڤان بمدة قصيرة لأن سلاح الجريمة كان بصحبة لوك، مَن ذا الذي قادها إلى المزرعة إذن؟

- وإذا لم يكن لوك هو من قاد الشاحنة، أين كان بحق الجحيم بينما تُقتل عائلته؟ هل كان جالسًا في المقعد الأمامي يشاهد ذلك وهو يحدث؟

هز ريكو كتفيه.

- ربما كان هناك؟ أعني، هذا احتمال وارد هذا يعتمد على من هو ذلك الشخص الآخر، وما الشيء الذي يمكن أن يكون قد استخدمه في الضغط عليه؟

نظرا لبعضهما بعضًا نظرة عرف منها فولك أن ريكو أيضًا يفكر في ساليڤان.

- أو يمكن أن القاتل أجبره بالقوة.

استدرك ريكو.

- ربما تطلب ذلك جهدًا، ولكن بعض الناس يمكنهم فعل ذلك. لقد رأيتَ ذراعَي ساليڤان، إنهما كالجورب المعبَّأ بالجوز.

أومأ فولك وعاد بذهنه يسترجع تقرير جثة لوك، لقد كان حجمه مناسبًا كرجل، كانت صحته جيدة، بعيدًا عن جرح الرصاصة، لا توجد أي علامات للمقاومة على يديه، لا شيء يشير إلى أنه كان مربوطًا أو أي علامة تقييد أخرى، تذكر صورة جثة لوك مستلقية على ظهرها في صندوق الشاحنة،

غارقًا في بركة من الدماء من حوله والأربعة الخطوط الغامضة على جانب الصندوق المعدني.

- «النساء اللعينات».

قال فولك بصوت مسموع.

- برأيك ماذا يقصد بذلك؟

- ليس لدي فكرة.

قال ريكو وهو ينظر في ساعته.

- ولكننا بصدد مقابلة شخص ربما يعرف بعد الظهر، فكرت أن الاطلاع على ما كانت كارن هادلر تخفيه في درج مكتبها قد يكون مفيدًا.

الفصل الحادي عشر

بدا طوق الزرع أقل ذبولًا بمجرد أن وُضِع على الأرض، ولكن ليس كثيرًا، وكان الأطفال يقفون في زيهم المدرسي ينظرون نحوه متحيرين؛ حيث كان محاطًا بنشارة الخشب، وكان الأساتذة وأولياء الأمور يقفون في مجموعات متفرقة وقد أطلق بعضهم لدموعه العنان.

استسلمت بعض براعم الطوق الصفراء المجعدة على الفور وتناثرت على الأرض واستقرت بجوار لوحة تذكارية قد نقشت حديثًا:

«ذكرى وفاة بيلي هادلر وكارن هادلر، اللذين تحبهما أسرة مدرستنا وتفتقدهما كثيرًا».

فكر فولك أنه لم يكن لشتلات الزرع الصغيرة أي فرصة؛ إذ كان يشعر بالحرارة تتسلل من نعل حذائه.

كان فولك مصدومًا تحت وطأة شعور أنه قد عاد بالزمن ثلاثين سنة على أرض مدرسته الابتدائية القديمة، بدا الملعب الأسفلتي كنسخة مصغرة من ذاك الذي يتذكره، وبدت نوافير المياه منخفضة على نحو غريب، ولكنها سرعان ما بدت مألوفة وعكست صور لأضغاث ذكريات لوجوه وأحداث كان قد نسيها لدهور.

كان لوك فيما مضى من أفضل الأصدقاء، واحدًا من أولئك الأولاد ذوي الابتسامة الهادئة والذكاء الحاد، ممن يمكنهم اجتياز الأولاد المتنمرين في الملعب بسهولة، كانت كلمة جذاب لتصبح الوصف الأمثل له إذا كانوا يعرفونها في ذلك الوقت، كان سخيًا بوقته ومزاحه ومتعلقاته ووالديه، ويحظى بترحاب الجميع من عائلة هادلر، كان وفيًا إلى درجة هائلة، عندما ضربت كرة طائشة

وجه فولك ذات مرة، اضطر أن يجذب لوك من فوق الولد الذي ركلها، كان فولك وقتها طويلًا وأخرق ويدرك دائمًا حقيقة أنه محظوظ لوجود لوك بجانبه.

أوشكت المراسم أن تنتهي فشعر فولك بالقلق.

- سكوت ويتلام، مدير مدرسة.

قال ريكو وأومأ ناحية رجل حسن المظهر يرتدي ربطة عنق وقد انسحب بطريقة مهذبة من حشد أولياء الأمور. اقترب ويتلام ومد يده.

- أعتذر عن التأخير.

قال بعد أن قدّم ريكو فولك.

- الجميع يريد أن يتكلم في وقت كهذا.

كان ويتلام في أوائل الأربعينيات ويتحرك بسلاسة طاقة بطلٍ رياضي متقاعد، عريض الصدر وذا ابتسامة واسعة، ظهرت نصف بوصة من شعره البني النظيف من أسفل قبعته.

- كانت فكرة جيدة.

قال فولك فالتفت ويتلام ناظرًا إلى شتلات الزرع.

- إن هذا ما كنا نحتاجه.

قال بصوت خفيض.

- مع هذا ليس هناك أمل للشجر في الحياة في هذا الجحيم، الله وحده يعلم ماذا يجب أن نقول للأولاد عندما تموت، على أي حال..

أومأ ناحية المبنى ذي الأحجار الصفراء.

- لقد قمنا بجمع كل المتعلقات الخاصة بـكارن وبيلي، كما طلبت، أخشى أنها ليست كثيرة، ولكنها موجودة بالمكتب.

تبعاه عبر الفناء، دوى صوت الجرس من مكان ما بعيدًا معلنًا نهاية اليوم الدراسي، بدت المباني والألعاب القريبة منهم ذات مظهر كئيب، تقشر الدهان من على كل الأسطح وحوّل الصدأ لون كل شيء معدني إلى اللون الأحمر، كانت الزلاجة البلاستيكية ممتلئة بالشقوق والعمود الآخر من أعمدة لعبة كرة

السلة بلا طارة أهداف، كانت علامات الفقر المدقع بادية في كل ركن في المكان.

- إنه التمويل.

قال ويتلام عندما رآهما ينظران حولهما.

- لم يكن كافيًا على الإطلاق.

كانت بعض الخراف التعيسة تقف خلف مبنى المدرسة وسط حقل بني ذابل، وقد ارتفعت الأرض على مد البصر ارتفاعًا حادًّا مكونة سلسلة من التلال تغطيها الغابات.

- هل ما زلتم تدرسون مهارات الزراعة هذه الأيام؟

تذكر فولك أنه فحص مياهًا مشابهة ذات يوم.

- بعض الشيء، ولكننا نحاول أن نجعله شيئًا خفيفًا ممزوجًا ببعض المرح، يجد الأولاد ما يكفي من الحقائق المؤلمة في بيوتهم.

- هل أنت من تُدرِّسها؟

- يا إلهي، كلا، إنني رجل مدني متواضع، لقد جئنا من ملبورن منذ ثمانية عشر شهرًا وبالكاد تعلمت التمييز بين مؤخرة البقرة ووجهها، تخيَّلَت زوجتي أن ترى مناظر طبيعية عن تلك التي في المدينة.. لدينا منظر جيد.

دفع بابًا ثقيلًا انفتح على ممر يعبق برائحة الشطائر، كانت رسومات الأطفال ولوحاتهم مثبتة على طول جدرانه.

- رباه، تلك الصور في غاية الكآبة.

استطاع فولك أن يرى ما يعنيه، كانت هناك رسومات لعائلات على هيئة خطوط رفيعة وأفواههم تنظر إلى الأسفل في حزن. ولوحة لبقرة ذات جناحي ملاك تحت عنوان صادم: «بقرتي توفيت في الجنة». وكانت الحقول يكسوها اللون البني في كل محاولة لرسم منظر طبيعي.

- ليتك ترى ما لم نُعلّقه.

قال ويتلام وتوقف عند باب المكتب.

- إن الجفاف سيقضي على تلك البلدة.

أخذ حزمة ضخمة من المفاتيح من جيبه وأدخلهما إلى مكتبه وهو يشير لهما ليجلسا على كرسيين لم يكونا في أفضل حالة، ثم اختفى بداخل دولاب تخزين، مرت ثانية حتى ظهر وهو يحمل صندوقًا كرتونيًا محكم الغلق.

- كل شيء هنا، متعلقات مكتب كارن وبعض متعلقات بيلي المدرسية معظمها عبارة عن لوحات وواجبات على ما أظن.

- شكرًا.

أخذهما ريكو منه.

- إننا نفتقدهما كثيرًا.

استند ويتلام إلى مكتبه.

- كلاهما، لا نزال جميعًا نتألم.

- إلى أي مدى كنت أنت وكارن مقربين في العمل؟

- على النحو المعقول، نحن لدينا طاقم صغير فقط، وهي كانت بارعة في الاهتمام بالأمور المالية والمحاسبة، كانت جيدة في هذا أيضًا، في الواقع كانت أذكى كثيرًا من أن تقوم بعمل كهذا، ولكن أعتقد أنه كان يناسبها مع العناية بطفل وتلك الأمور.

كانت النافذة مفتوحة قليلًا تنبعث الأصوات القادمة من الملعب من خلالها.

- انظرا، هل يمكنني أن أسأل لماذا أنتما هنا؟ ظننت أن هذا الأمر قد انتهى.

- لقد تضمن الأمر ثلاثة أفراد من نفس الأسرة، مع الأسف أشياء كهذه لا يمكن القطع بشأنها أبدًا.

- صحيح.. بالطبع.

بدا ويتلام غير مقتنع.

- الأمر وما فيه أن مِن واجبي تحقيق الأمان لطاقم العمل والطلاب، لذلك إذا...

- نحن لم نقل إن هناك أي شيء لتقلق بشأنه يا سكوت، إذا كان هناك شيء يجب أن تعرفه، سنحرص على أن نخبرك إياه.

- حسنًا، وصلت الرسالة، كيف يمكنني أن أساعدكما؟

- أخبرنا عن كارن.

* * * *

طرق الباب طرقة خفيفة وصارمة في الوقت ذاته، نظر ويتلام من مكتبه عندما فُتح الباب فظهرت فتاة شقراء تتلفت حولها.

- هل يمكنني أن آخذ دقيقة من وقتك يا سكوت؟

دخلت كارن هادلر إلى مكتبه، لم تكن تبتسم.

* * * *

- لقد مرت لتتحدث معي، قبل أن تُقتل هي وبيلي بيوم واحد، كانت مضطربة بالطبع.

- لماذا «بالطبع»؟

- آسف، لا أقصد أن يبدو ذلك ساخرًا، لكنك رأيت ما قد رسمه أولئك الأطفال على الحائط، كنت أقصد أن الجميع خائف ولا سيما الكبار.

فكر لثوانٍ.

- إن كارن كانت حقًا عضوًا مهمًا في الفريق، لكنها أصبحت مضطربة تمامًا في الأسابيع الأخيرة: كانت حادة الطباع، وهو أمر غير اعتيادي، مشوشة كليًا، وقد أخطأت في بعض الحسابات، ليست بالشيء الخطير، تمكنّا من ملاحظتها، ولكن مجددًا، ذلك لم يكن من عادتها، كان ذلك يزعجها، لطالما كانت شديدة الدقة، لذا أتت لرؤيتي بهذا الخصوص.

* * * *

أغلقت كارن الباب من خلفها، جلست على المقعد الأقرب لمكتب ويتلام، جلست بظهر مستقيم، تتقاطع ساقاها بأناقة عند الكعبين، وترتدي فستانًا ملفوفًا مُغرِيًا لكنه محتشمٌ ذو طبعة صغيرة لتفاحات بيضاء على خلفية حمراء، كانت كارن امرأة من النوع الذي يتبدل مظهرها الحسن في شبابها تحت وطأة السن والولادة إلى شكل أقل تناسقًا، ولكنه يظل جذّابًا بطريقتها الخاصة، كان بإمكانها أن تظهر في تلك الإعلانات ذات عنوان: «السوبر ماما»

في مراكز التسوق، الجميع كان يثق في نوع المنظفات أو حبوب الفطور التي ترشحها كارن هادلر.

كانت الآن تمسك بحزمة صغيرة من الأوراق على ركبتيها.

- سكوت...

بدأت بالكلام ثم توقفت، انتظر أن تكمل، أخذت نفسًا عميقًا.

- سكوت.. بصراحة أنا لم أكن متأكدة بشأن المجيء إليك من أجل هذا، إن زوجي...

نظرت كارن إليه، لكن ويتلام شعر أنها تجبر نفسها.

- لوك، حسنًا.. انظر، لن يكون سعيدًا بذلك.

* * * *

مال ريكو للأمام.

- هل بَدَت خائفة من زوجها؟

- لم يتبادر ذلك إلى ذهني وقتها.

حك ويتلام مقدمة أنفه.

- ولكن عندما عرفت بما حدث في اليوم التالي أدركت أنني لم أستمع إليها كما يجب، أخشى أنني تجاهلت الإشارات، ظللت أسأل نفسي عن ذلك طوال اليوم، لكنني أود أن أوضح أنني لو علمت أنهما في خطر، لم أكن بكل تأكيد لأتركها هي وبيلي يعودان إلى المنزل.

بدت كلمات ويتلام كتلك التي قالها جايمي ساليڤان عن غير عمد.

* * * *

كانت كارن تحرك خاتم زواجها.

- لقد عملنا أنت وأنا معًا لمدة كافية، عملنا معًا جيدًا يمكن أن أقول...

نظرت إليه فأومأ ويتلام.

- أشعر أنني يجب أن أقول شيئًا.

توقفت مجددًا وأخذَت نفسًا عميقًا.

- إنني أعلم أن هناك خطبًا ما مؤخرًا، متعلقًا بي وبعملي.. بعض الأخطاء هنا وهناك.

- ربما واحد أو اثنان، ولكن لم يتسبب ذلك في أي ضرر يا كارن، أنتِ مجتهدة في عملك، والجميع بإمكانه أن يرى ذلك.

أومأت مرة واحدة ونظرت للأسفل، وعندما نظرت للأعلى مجددًا كان وجهها جامدًا.

- شكرًا لك.. لكن هناك مشكلة، وأنا لا يمكنني أن أتظاهر بعدم رؤيتها.

* * * *

قالت إن المزرعة تمر بظروف صعبة، قالت كارن إن أمامهم ستة أشهر أو ربما أقل، وقالت إن لوك لم يصدقها، يبدو أنه كان متأكدًا من أن الأمور ستتحسن، ولكن تمكنت كارن من رؤية الحقيقة، كانت قلقة.. في الحقيقة لقد اعتذرت لي.

تنهد ويتلام بصوت عالٍ في غير تصديق.

- الأمر يبدو غير معقول الآن، لقد اعتذرت عن كونها مشتتة كثيرًا، وقد طلبَت مني ألا أخبر لوك أنها تكلمت معي، ليس لأنني كنت سأقول بالطبع، لكنها قالت إنه سينزعج إذا علم أنها تنشر الأمر في البلدة.

عض ويتلام ظفر إبهامه.

- أظن أنها كانت بحاجة إلى أن تُزيل هذا الثقل عن صدرها، أحضرت لها كأسًا من الماء واستمعت إليها قليلًا، طمأنتها أنها لن تخسر وظيفتها وشيء من هذا القبيل.

- هل كنت تعرف لوك هادلر جيدًا؟

- ليس جيدًا، لقد قابلته بضع مرات بالطبع في اجتماعات أولياء الأمور، كنت أراه عند الحانة بالصدفة، لكن لم يحدث وتبادلنا أي أحاديث، كان مع ذلك يبدو لطيفًا كفاية، وأبًا نشيطًا أيضًا، لم أستطع أن أصدق أذني عندما أتتني تلك المكالمة، إنه أمر في غاية السوء أن تفقد أحد أفراد طاقم العمل، ولكن أن تفقد طالبًا.. هذا أسوأ كوابيس المعلم.

- مَن الذي أخبرك بما حدث؟

- اتصل شخصٌ من شرطة كلايد بالمدرسة، أغلب الظن لأن بيلي كان تلميذًا بها، كان الوقت متأخرًا حينها، نحو السابعة، كنت على وشك الخروج ليلًا لكنني أذكر أنني جلست هنا بدلًا من ذلك أحاول أن أستوعب الأمر، وأحاول التفكير فيما سأقوله للأولاد في اليوم التالي.

رفع كتفيه في حزن.

- ليست هناك أي طريقة جيدة، لقد كان بيلي وابنتي صديقَين مقربين، أتعلم؟ لقد كانا في الصف ذاته، لهذا السبب كان خبر تورط بيلي في الأمر صادمًا للغاية.

- ماذا تعني؟

- لأنه كان من المفترض أن يأتي بيلي إلى منزلنا ظهيرة ذلك اليوم.

قال ويتلام ذلك كأنما كان شيئًا واضحًا، أخذ ينظر جيئة وذهابًا إلى وجهي ريكو وفولك الخالية من التعبير، ورفع يديه في ارتباك.

- أعتذر، اعتقدت أنكما تعرفان، لقد أخبرت ضباط كلايد، كان من المفترض أن يأتي بيلي ذاك اليوم ليلعب، لكن كارن اتصلت بزوجتي وألغت ذلك في آخر لحظة، قالت إن بيلي ليس على ما يرام.

- لقد كان بخير بما يكفي ليذهب إلى المدرسة مع ذلك، هل صدقتماها أنت وزوجتك؟

سأل فولك وهو يميل نحوه، أومأ ويتلام.

- أجل، وما زلنا نصدقها، بالمناسبة. كانت هناك حشرات ناقلة للمرض بالخارج، ربما قررت أنه يحتاج أن يذهب للنوم مبكرًا، أظن أن الأمر قد حدث بمحض تلك الصدف التعيسة.

فرك عينيه بيده ثم أردف:

- لكنّ أمرًا كهذا، أن تعرف أنه كان من الوشيك ألا يكون هناك وقتها، يتركك مع ألف سؤال بـ «ماذا لو؟!».

الفصل الثاني عشر

- كنا سنعرف ذلك إذا كنا على اتصال بشرطة كلايد.

قال فولك ذلك بعد أن خرجا، حملَ صندوق متعلقات كارن وبيلي تحت ذراعه، والتصق الورق المقوى بطريقة مزعجة بجلده المتعرق.

- أجل، حسنًا، لم يحدث ضرر، واكتشفنا الأمر على أي حال.

- أخيرًا، لا أعلم، أظن أنه الوقت المناسب لنشركهم في الأمر.

نظر ريكو إليه.

- هل أنت واثق حقًّا أننا لدينا ما يكفي لنجري تلك المكالمة معهم؟ هل أنت مدرك كيف سيكون رد فعلهم؟

فتح فولك فمه ليجيب عندما سمعا صوتًا ينادي عبر الملعب.

- آرون، آرون! انتظر.

التفت فولك فرأى غريتشن شونر وهي تركض، أحس أن مزاجه تحسن نوعًا ما، كانت قد بدلت ملابس الحداد إلى سروال قصير وقميص أزرق ضيق رفعت أكمامه حتى الكوع، لاحظ فولك أنه كان يليق بها كثيرًا، أخذ ريكو الصندوق منه.

- سأقابلك عند السيارة يا صديقي.

قال بلباقة وأومأ لـغريتشن في أدب، وقفت مواجهة لفولك ورفعت نظارتها الشمسية للأعلى وشبكتها بين خصلات شعرها الأشقر على رأسها، لاحظ فولك أن قميصها الأزرق أبرزَ لون عينيها.

- يا هذا، ما الذي ما زلت تفعله هنا؟ ظننت أنك غادرت.

كانت تعبس وتبتسم في الوقت ذاته، اقتربت منه وهي تتحدث وتضع يدها على كوعه، شعر فولك بتأنيب الضمير، كان عليه أن يخبرها.

- كنّا نتكلم مع سكوت ويتلام، مدير المدرسة.

- أجل، أعلم من يكون سكوت، أنا أعمل في المدرسة، أنا أعني ماذا تفعل في كيوارا؟

نظر فولك خلفها، كانت هناك مجموعة من الأمهات يوجهن رؤوسهن نحوهما وأعينهن مغطاة بنظارات الشمس؛ جذب ذراع غريتشن وأعطيا ظهريهما لهن.

- إن الأمر معقدٌ قليلًا، لقد طلبت عائلة هادلر مني التحقيق فيما حدث للوك.

- أنت تمزح.. لماذا؟ هل اكتشفتم أي شيء؟

شعر فولك برغبة ملحة تجتاحه ليخبرها بالقصة كاملة: يخبرها عن إيلي والادعاء والأكاذيب، وعن الذنب، لقد كانت غريتشن واحدة من الأربعة، كانت كنقطة الاتزان، كالنور لظلمة إيلي، ومهدئًا لجنون لوك، هي ستفهم، كانت الأمهات لا يزلن يراقبن من خلفها.

- إنه بشأن المال.

قال فولك وهو يتنهد، لقد أخبرها بنسخة مخففة من شكوك بارب هادلر. مسألة الديون التي تفاقمت للأسوأ.

- يا رباه!

أغمضت عينيها وجمدت في مكانها تحاول استيعاب الفكرة.

- هل تعتقد أن هناك شيئًا مثل هذا في الأمر؟

أجاب فولك برفع كتفيه، فمحادثتهما مع ويتلام ألقت بعض الضوء على هذا الاحتمال.

- سوف نرى، ولكن اصنعي لي معروفًا ولا تخبري أيَّ أحد بذلك حاليًا.

تجهمت غريتشن.

- ربما فات الأوان لذلك، تناثرت الأخبار حول زيارة بعض رجال الشرطة لـجايمي ساليفان مؤخرًا.

- يا إلهي، كيف تسرب هذا الخبر في الأصل؟

سأل فولك رغم معرفته بالإجابة، مدينة صغيرة تعني سرعة انتشار الأخبار لكثرة القيل والقال، لم تجب غريتشن على السؤال، اقتربت منه وأشاحت ذبابة كانت تقف على كتف فولك.

- إن الجميع مستنفرون في الوقت الحالي، سيكون من السهل لأي شيء أن يثيرهم.

أومأ فولك.

- شكرًا، فهمت ذلك.

- على أي حال...

توقفت غريتشن؛ حيث رأت حشدًا من الأولاد يَعْدون مسرعين في لعبة كرة قدم عشوائية، وقد اختفى بالفعل ثقل حفل التأبين من على كواهلهم الصغيرة باقتراب نهاية الأسبوع، ظللت عينيها بيدها ولوحت للأولاد، حاول فولك أن يستخرج ابنها من بينهم لكنه لم يفلح، عندما التفت نحوها مجددًا كانت غريتشن تراقبه.

- إلى متى تظن أنك ستظل هنا؟

- لأسبوع.

قال فولك بتردد.

- ليس أكثر من ذلك.

- جيد.

بدا شبح ابتسامة على وجهها، لقد مضت عشرون سنة تقريبًا.

غادرت غريتشن بعد بضع دقائق وتركت في قبضة فولك قصاصة من الورق عليها رقم هاتفها وملاحظة بأنهما سيتقابلان في اليوم التالي، مكتوبين بخط يد غريتشن الرديء والمميز.

- هل ذهبت وكونت أصدقاء جددًا مع نفسك يا رجل؟

قال ريكو بصوت هادئ عندما صعد فولك إلى السيارة.

- إنها صديقة قديمة، شكرًا.

أوضح فولك، لكن لم يستطع منع نفسه من أن يبتسم.

- ماذا تريد أن تفعل إذن؟

قال ريكو بشيء من الجدية وأومأ إلى الصندوق الكرتوني في المقعد الخلفي.

- هل تريد أن تتصل بشرطة كلايد وتضيع الوقت في إقناعهم أنهم ربما لم يقوموا بعملهم كما يجب، أو تود أن تذهب إلى مركز الشرطة وتكتشف ماذا يوجد بالصندوق هناك؟

حدق فولك إليه للحظة وأخذ يفكر في أمر المكالمة الهاتفية.

- أجل، حسنًا، نذهب إلى مركز الشرطة ونفحص الصندوق.

- قرار جيد.

- فقط قُد.

كان مركز الشرطة عبارة عن مبنى منخفض من الطوب الأحمر في أقصى نهاية طريق كيوارا الرئيسي، المحال على جانبي الطريق قد أغلقت إلى الأبد ونوافذها فارغة، لم يكن الوضع مختلفًا على طول الطريق، فقط متجر الحليب ومتجر بيع النبيذ بدا أنهما يتمتعان ببعض الحركة التجارية.

- يا إلهي، إن الحياة منعدمة كليًا في هذا المكان.

- هكذا هي المشكلات المالية، إنها كالعدوى سريعة الانتشار، الفلاحون لا يملكون المال ليضعوه في المتاجر، لذا تتدهور الأحوال في المتاجر، ويصبح الناس لا يملكون مليمًا لينفقوه في المتاجر، على ما يبدو أنهم كانوا يتساقطون كقطع الدومينو واحدًا تلو الآخر.

توقف ريكو أمام باب مركز الشرطة، كان مغلقًا، أخذ يسب وأخرج مفاتيحه، كانت هناك ملاحظة على الباب بساعات عمل المركز:

«من الاثنين إلى الجمعة، من الساعة التاسعة صباحًا وحتى الخامسة مساءً، وإشارة إلى ضحايا الجرائم بالتواصل مع شرطة كلايد خارج ساعات العمل الرسمية»، نظر فولك في ساعته، كانت الساعة الرابعة وواحدًا وخمسين دقيقة مساءً، كان يوجد رقم هاتف محمول مكتوب بقلم حبر لحالات الطوارئ، راهن فولك على أنه رقم ريكو.

- هل انتهى عملنا مبكرًا؟

صاح ريكو عندما ولجا إلى الداخل والحنق واضح في نبرة صوته.

رفعت موظفة الاستقبال -وهي امرأة في عقدها السادس شعرها فاحم السواد غير معقود كشعر إليزابيث تايلور وهي صغيرة- ذقنها بتحدٍّ.

- لقد جئتَ مبكرًا.

قالت وهي متخشبة قليلًا في مكانها خلف المكتب، كانت ترتدي حقيبة اليد حول كتفها كسلاح جندي، قدمها ريكو باسم ديبورا، لم تصافح يد فولك.

بداخل المكتب من خلفها، نظر الشرطي إيفان بارنز نظرة إحساس بالذنب وهو يحمل مفاتيح سيارته في يده.

- مساء الخير يا سيدي، لقد أوشك الوقت، أليس كذلك؟

كان صوته غير رسمي وأخذ ينظر نظرة مطولة في ساعة يده.

- آهه، نعم، لا تزال هناك بضع دقائق على المغادرة بعد.

رجل ضخم ذو بشرة نضرة وشعر مموج تناثرت منه بعض الخصلات المتشابكة، جلس مجددًا على مكتبه وأخذ يعبث في الأوراق، أشاح ريكو بنظره.

- يا إلهي، هيا انهبا، اغربا من هنا.

قال وهو يرفع حاجز مكتب الاستقبال.

- استمتعا بعطلة نهاية الأسبوع، علينا فقط أن نتمنى ألا تحترق المدينة بأكملها قبل الساعة الخامسة بدقيقة واحدة، أليس كذلك؟

انتصبت ديبورا بظهر مستقيم كامرأة مطمئنة مدركة أنها على حق طوال الوقت.

- وداعًا إذن.

قالت لـريكو، أومأت لفولك إيماءة صغيرة مقتضبة وهي تنظر بصرامة إلى جبهته بدلًا من عينيه.

أحس فولك بشيء ما في قرارة نفسه يفهم ما حدث، هي تعرف، لم يكن متفاجئًا، إذا افترض أن ديبورا ولدت وعاشت في كيوارا، فعلى الأغلب ستكون في عمر مناسب لتتذكر إيلي ديكون، لقد كان ذلك هو الشيء الأكثر مأسوية

الذي حدث في كيوارا، على الأقل حتى مقتل عائلة هادلر، من المحتمل أنها كانت محتقنة وهي تحتسي قهوتها بينما تقرأ مقالات الجرائد أسفل صورة إيلي ديكون بالأبيض والأسود، وتبادلت أطراف النميمة مع الجيران، وربما كانت تعرف والده قبل حدوث ذلك بالتأكيد، لم تكن لتعترف بمعرفتها بعائلة فولك بعد ذلك.

* * * *

مضت ساعات بعد مغادرة لوك من النافذة، كان آرون مستلقيًا على السرير، مر شريط الأحداث في رأسه بلا فواصل: إيلي، النهر، صيد السمك، الملاحظة.. ولوك وأنا كنا نصطاد الأرانب معًا.

ظل منتظرًا طوال الليل، ولكن عندما طرق الباب، لم تكن تلك الطرقة من أجله، كان فولك يراقب في رعب صامت أباه الذي اضطر إلى أن يخرجه من الصورة وذهب بصحبة ضباط الشرطة إلى المركز، الاسم الذي كُتب على الملاحظة لم يحدد أي فولك، هكذا قالوا، وفي عمر السادسة عشر فإن فولك الصغير كان لا يزال طفلًا بالفعل.

إريك فولك، رجل ممشوق القوام ومتحامل، تُحفِّظَ عليه في مركز الشرطة لخمس ساعات.

هل كان يعرف إيلي ديكون؟ أجل بالتأكيد، فهي ابنة أحد الجيران، وكانت صديقة لابنه، وهي الفتاة المفقودة.

لقد سُئل عمَّا كان يفعله في يوم وفاتها، كان بالخارج في فترة الظهيرة يشتري بعض المستلزمات، في المساء ذهب إلى الحانة، وقد رآه عشرات الأشخاص في عدة أماكن مختلفة، أمرٌ محكم كفاية، بل أمرٌ لا مجال للشك فيه، من ثَمَّ استمرت الأسئلة. نعم، سبق أن تكلم مع الفتاة في الماضي، لعدة مرات؟ نعم، لمرات كثيرة؟ ربما، ولكن لا، لم يستطع أن يفسر سبب وجود ملاحظة مع إيلي ديكون واسمه مكتوبٌ عليها في تاريخ يوم موتها.

ولكن فولك لم يكن اسمه هو فقط، أليس كذلك؟ أشار الضباط إلى ذلك، وهنا التزم والد فولك الصمت، أحجم ورفض التفوُّه بأي كلمة أخرى.

أطلقوا سراحه ومن ثَمَّ جاء دور فولك الصغير.

* * * *

- إن بارنز منتدب من ملبورن.

قال ريكو بينما يتبعه فولك أسفل الحاجز إلى المكتب، وأغلق باب المركز من خلفهما وأصبحا بمفردهما.

- حقًّا؟

كان فولك متفاجئًا، إن بارنز كان ذا مظهر يوحي بأنه ولد ريفي حتى النخاع.

- أجل، إن والديه مع ذلك مزارعان، ليسا هنا، في مكان ما بالغرب. أظن أن ذلك هو ما جعله الاختيار الأمثل لهذا المنصب، إنني أشفق على هذا الرجل حقًّا، لم يكد يثبِّت قدمه في المدينة حتى أرسلوه إلى هنا، إذا قلنا إن...

نظر ريكو نحو باب المركز المغلق ثم أعاد التفكير.

- لا عليك.

استطاع فولك أن يخمِّن، كان من النادر أن ترسل قوات المدينة أفضل ضباطها في انتداب إلى الريف، بالأخص إلى مكان مثل كيوارا، لم يكن بارنز هو الأفضل على الإطلاق، ربما كان ريكو شديد التهذيب ليقول ذلك مباشرة، ولكن الأمر كان واضحًا، إنه يتعامل بمفرده تقريبًا في هذا المركز.

وضعا صندوق متعلقات كل من كارن وبيلي على مكتب شاغر وفتحاه، كانت المصابيح تطن فوق رأسيهما، وأخذت ذبابة تسحق نفسها بشكل متكرر على زجاج النافذة.

* * * *

جلس آرون على كرسي خشبي، كان يشعر باضطراب وألم في مثانته، وظل ملتزمًا بالخطة، *لقد كنت مع لوك هادلر.. نصطاد الأرانب، اثنان.. لقد اصطدنا اثنين.* نعم، *إيلي تكون -كانت، أقصد- صديقتي.. أجل، لقد رأيتها في المدرسة ذلك اليوم. كلا! لم نتشاجر، لم أرها بعد ذلك حتى، لم أعتدِ عليها، لقد كنت مع لوك هادلر.. كنا نصطاد الأرانب، لقد كنت مع لوك هادلر.*

اضطروا إلى أن يدعوه يذهب.

اتخذت بعض الإشاعات شكلًا آخر فيما بعد، لم تكن جريمة قتل، ربما، ولكن كان انتحارًا. كانت قصة الفتاة المسكينة التي اقتادها ذاك الولد فولك إلى النهر هي الأكثر تداولًا، وقصة أخرى عن أبيه غريب الأطوار الذي سعى خلفها واستغلها. مَن الذين قالوا بأنه فعلها؟ في كلتا الحالتين، فيما بينهم كان كلٌّ منهما مناسبًا لقتلها، انتشرت الشائعات بقوة بواسطة والد إيلي، مال ديكون، وازدادت قوة وصلابة، ترسخت وتبرعمت وأصبحت ضد النسيان.

ذات يوم أُلقيَ حجر على النافذة الأمامية لبيت فولك، بعدها بيومين، طُرد والد آرون من المتجر مجبرًا على الخروج فارغ اليدين وعيناه تستشيطان غضبًا ومشترياته مبعثرة على طاولة المتجر. في ظهيرة اليوم التالي، وصل فولك إلى المنزل يتبعه ثلاثة رجال في شاحنة، كانوا يتسللون خلفه بينما يقود دراجته أسرع فأسرع، ويرتجف رعبًا في كل مرة يحاول استراق النظر من خلف كتفه، كان بإمكانه سماع أنفاسه المتلاحقة بأذنيه.

* * * *

أفرغ ريكو محتويات الصندوق ورتبها على هيئة صفٍّ على المكتب.

كان هناك كوب قهوة، ودباسة أوراق مكتوب عليها اسم «كارن» باللون الأبيض، وسترة ثقيلة محاكة، وزجاجة عطر صغيرة من نوع سبرينج فلينج، وصورة مؤطَّرة لـبيلي وتشارلوت، كانت أشياء تافهة لا فائدة لها.

فتح فولك إطار الصورة ونظر خلفها.. لا شيء، أعاده كما كان. أخذ ريكو زجاجة العطر وفتح غطاءها ونثر بضع بخات في الهواء فصار عابقًا بشذى زهر الليمون الخفيف، لقد أحبه فولك.

انتقلا إلى متعلقات بيلي: ثلاث لوحات لسيارات، زوج صغير من الأحذية الرياضية، كتاب قراءة للمبتدئين، وعلبة أقلام تلوين خشبية، أخذ فولك يقلب صفحات الكتاب بغير هدى عما يبحث بالضبط.

* * * *

كان ذلك في الوقت الذي أدرك فيه أن أباه يراقبه، عبر الغرفة، خلال نافذة، أو من فوق جريدته. كان آرون يشعر بعينيه وهي تراقبه من خلف رقبته

ويشيح بنظره. أحيانًا كان إريك يشيح بنظره بسرعة، وأحيانًا لم يفعل، كان يتأمله في هدوء وصمت، ظل آرون ينتظر السؤال الذي لم يأتِ قط.

ذات يوم تُرك عجلٌ ميت على باب منزلهم، قُطعت رقبته لدرجة أن رأسه كان شبه مفصول تمامًا. في الصباح التالي جمع الأب وابنه كل ما أمكنهما جمعه في شاحنتهما، ودَّع آرون غريتشن وداعًا سريعًا، ووداعًا آخر أطول للوك، لم يسأل أحدهما لماذا يغادر. كان مال ديكون يتبعهما بشاحنته البيضاء حتى أصبحا خارج حدود كيوارا بمسافة مئة كيلومترٍ.

لم يعودا قط.

* * * *

- لقد جعلت كارن بيلي يعود إلى المنزل تلك الظهيرة.

قال فولك بعد أن استمر في التفكير بهذا الأمر منذ أن غادرا المدرسة.

- كان من المفترض أنه يلعب بالخارج مع صديقته، ولكنها أبقته في المنزل في ذات اليوم الذي قُتل فيه، ما هو شعورك عندما تعتبر ذلك محض مصادفة؟

- ليس جيدًا.

- وأنا كذلك.

- ولكن إذا كانت تعلم بما سوف يحدث، مؤكد أنها كانت ستحرص على إبقاء الطفلين في أبعد مكان ممكن.

- ربما كانت تتوجس شيئًا ما لكن لم تكن تعرف ما هو، أو إلى أي حد سيئ.

التقط فولك كوب القهوة الخاص بـكارن ووضعه مجددًا، أخذ يتفحص الصندوق ويتحسس حافاته، لقد كان فارغًا.

- كنت آمل في شيء أكثر من هذا.

- أنا أيضًا.

ظلّا يحدقان إلى الأشياء لوقت طويل، ثم إلى كل قطعة على حدة ومن ثَمَّ يضعانها مجددًا.

الفصل الثالث عشر

أخذت الببغاوات الأسترالية تصيح بصوت عالٍ فوق الأشجار عندما خرج فولك من مركز الشرطة، ينادون بعضهم بعضًا إلى أعشاشهم بصوت يصم الآذان بحلول ظلام الليل، كان الجو مشبَّعًا بالرطوبة وشعر فولك بخط من العرق يجري على ظهره.

قرر أن يمشي في الشارع الرئيسي، غير متعجل للوصول إلى الحانة التي توجد في نهايته، لم يكن الوقت متأخرًا، لكن كان هناك أناس قليلون بالمكان، أمعن فولك النظر إلى المحال التجارية المهجورة مسندًا جبهته مقابل الزجاج، لا يزال بإمكانه أن يتذكر كيف اعتادت أن تكون: المخبز، محل بيع الكتب، والكثير مما قد اختفى كليًا، من المستحيل أن يخمن أحد كم ظلت فارغة.

توقف عندما مر بمحل خردوات يعرض صفًّا من القمصان القطنية للبيع في نافذة العرض، كان هناك رجل ذو شعر رمادي يرتدي قميصًا تحت مئزر مثبت عليه شارة تحمل اسمه، ويقف خلف الزجاج واضعًا يده على علامة مفتوح المعلقة على الباب، وانتظر دون أن يقلبها بعد أن رأى فولك يُقيّم بضاعته المعروضة.

تفحص فولك القميص الذي يرتديه، كان القميص ذاته الذي ارتداه في الجنازة وقد صار متيبسًا من كثرة ما غُسل في حوض الحمام وملتصقًا بإبطيه، نزل من السيارة ودخل إلى المتجر.

تحولت ابتسامة الرجل المرحبة تدريجيًا إلى تكشيرة تحت ضوء المتجر الضعيف بعد أن استغرق ثواني للتعرف على الشخص الذي أمامه، تجولت عيناه حول المتجر المهجور الذي شك فولك أنه كان فارغًا هكذا طوال اليوم، تردد للحظات ثم عادت ابتسامته مجددًا. من السهل أن تكون ذا مبادئ عندما يكون درج النقود ممتلئًا، عرض صاحب المتجر مجموعة الملابس المحدودة

في المتجر بدقة خياط رجالي أنيق، اشترى فولك ثلاثة قمصان إذ بدا الرجل في غاية الامتنان لمجرد أنه كان سيشتري واحدًا.

خرج فولك مجددًا إلى الشارع وطوى كيس المشتريات تحت ذراعه واستمر في السير. لم يمش طويلًا، مر بمتجر بيع مأكولات جاهزة بدا أنه يقدم كل المأكولات المقلية من جميع أنحاء العالم أو أي شيء يُحضًر في ماكينة الشطائر، عيادة طبيب، صيدلية، مكتبة صغيرة، ومتجر متعدد الأقسام بدا أنه يبيع كل شيء بدءًا من طعام الحيوانات وحتى كروت الهدايا، مر بعدة واجهات لمحلات حتى عاد إلى الحانة. كان ذلك المكان يعد المركز الرئيسي لجميع الأنشطة في كيوارا. نظر وراءه يقلب فكرة أن يستمر في المشي، ولكنه لم يشعر بأنه متحمسٌ كفاية.

تمكن من رؤية بضعة رجال يحدقون في التلفاز بغير مبالاة من خلال نافذة الحانة، كانت غرفته الخاوية هي كل ما يوجد بانتظاره أعلى الحانة، أدخل يده في جيبه فتحسس مفاتيح سيارته، كان قريبًا من منزل لوك هادلر دون أن يدرك ذلك.

كانت الشمس تهبط من السماء عندما أوقف فولك سيارته أمام باب منزل عائلة هادلر في نفس المكان المعتاد، كان الشريط الأصفر لا يزال معلقًا على الباب، تجاهل هذه المرة المنزل واتجه مباشرة نحو الحظيرة الأكبر في المزرعة، أخذ ينظر مليًّا إلى كاميرا المراقبة المثبتة أعلى الباب، كانت تبدو رخيصة وعملية، من السهل عدم ملاحظتها ما لم تكن تعلم بوجودها كونها مصنوعة من البلاستيك الرمادي الباهت وبها ضوء أحمر واحد مضيء.

تخيَّل فولك لوك وهو يصعد على الدرج ويُثبتها في الحائط ويوجهها ناحية اليمين، كانت موضوعة بحيث تلتقط معظم المداخل إلى الحظائر والمخزن الذي تُخزن فيه معدات المزرعة القيمة. لم يكن المنزل ضمن الأماكن المراقبة، حتى الجزء البسيط من الممر التُقِط بمحض الصدفة؛ لن تتأزم المزرعة إذا سرق اللصوص تلفازًا عمره خمس سنوات، ولكن خسارة جهاز تنقية المياه من الحظيرة أمر آخر.

إذا كان أحدٌ آخر قد أتى في ذلك اليوم، هل كان على علم بوجود الكاميرا؟ تساءل فولك، هل كان هنا من قبل ويدرك ما الذي يُصوَّر بالضبط؟ أم فقط حالفه الحظ؟

كان لوك سيدرك أن لوحة أرقام شاحنته ستُسجَّل إذا كان هو من كان يقودها، فكر *فولك*، ولكن في هذه الحالة، من المحتمل أنه لم يكن يكترث. تجول فولك في أنحاء الفناء وقام بدورة كاملة من الخارج حول المنزل، كان ريكو يعمل دوره على أكمل وجه في إبعاد المتطفلين، كل الستائر كانت مسدلة وكل الأبواب أُغلقت بإحكام، لم تكن الرؤية ممكنة.

كان فولك بحاجة إلى تصفية ذهنه، ابتعد عن المنزل ومشى عبر الحقول، تقع المزرعة على نهر كيوارا، وبالأعلى تمكن من رؤية تجمُّعٍ من الأشجار تمثل الحدود، كانت شمس الصيف أوشكت على الغروب بلونها البرتقالي في السماء.

لطالما كان تفكيره أفضل بينما هو واقف على قدميه، عادة كان ذلك يشمل السير في الشوارع حول مبنى مكتبه في المدينة، بينما يتفادى السياح وخطوط سير الترام، أو يحسب الوقت الذي سيقطع فيه الكيلومترات حول الحدائق النباتية، أو عند الشاطئ عندما يكون متوترًا جدًّا.

لم يشعر فولك بالوحشة في الحقول طوال حياته، ولكن الأمر الآن بدا مختلفًا للغاية، ما زال رأسه مزدحمًا، كان يستمع لصوت خطواته على الأرض الصلبة ونداءات الطيور تتردد من فوق الأشجار، كانت الأصوات أكثر صخبًا في ذاك المكان.

قد بلغ الحدود تقريبًا عندما بدأ يُبطئ من حركته ثم توقف فجأة، لم يكن يعلم ما الذي جعله يتردد، لا يزال صف الأشجار أمامه واقفًا كالظل، لم يتحرك أي شيء. تسلل شعورٌ سيئ إلى فولك أحس به يجثم فوق كتفيه ورقبته، حتى إن الطيور بدا وأنها صمتت فجأة، شعر بقليل من البلاهة وهو ينظر من فوق كتفه. الحقول فارغة تمامًا ومزرعة هادلر مقفرة تخلو من الحياة على امتداد البصر. لقد سار كل تلك المسافة بمفرده، هكذا فكر ليطمئن نفسه، لا يوجد أحد هناك، لم يتبقَ أي أحد في هذا المكان.

التفَّ عائدًا باتجاه النهر وهو لا يزال متوجسًا شيئًا في صدره، عندما جاءته الإجابة، تسللت إليه ببطء ثم اكتملت الصورة في عقله فجأة، يجب أن يسمع فولك صوت تدفق المياه من حيث يقف الآن، ذاك الصوت المميز لمياه النهر وهي تشق طريقها عبر البلدة، أغلق عينيه وأنصت محاولًا التقاطه، يود

لهذا الصوت أن يتجسد ويصبح حقيقة، لم يكن هناك سوى صوت الفراغ المفزع، فتح عينيه وانطلق يعدو.

دخل إلى صف الأشجار وهو يجري مسرعًا على طول الطريق البالي، متجاهلًا ضربات ووخزات فروع الأشجار المترامية، بلغ ضفة النهر وهو منقطع الأنفاس وتوقف على الحافة مباشرة، ولكن لم تكن هناك أي حاجة إلى أن يفعل ذلك.

لم يكن النهر العظيم سوى حفرة من التراب على سطح الأرض، امتد مجرى النهر طويلًا وجافًا في كلا الجانبين، ظهرت منحنياته المتعرجة التي تكونت تبعًا لمسار تدفق المياه في الماضي، تحول التجويف المحفور على مدى قرون من الزمان إلى أجزاء مرقّعة من الصخور والطحالب النهرية، انتشرت جذور الأشجار الميتة على طول ضفتي النهر كشِبَاك العنكبوت. كان منظرًا مرعبًا.

في محاولة مضنية لتصديق ما تراه عيناه، تسلق فولك بكثير من الجهد إلى تجويف النهر بكثير من الجروح في يديه وركبتيه بسبب الاحتكاك بضفة النهر المتيبسة. توقف في مركز النهر الميت، في الفراغ الواسع حيث كان شريط المياه الكثيف ذا عمق كافٍ لكي يبتلع رأسه ذات يوم.

نفس الماء الذي اعتاد هو ولوك أن يغوصا فيه كل صيف، يلعبان ويرشان بعضهما بالماء بعد أن تكيَّفا مع برودته، الماء الذي حدق إليه لساعات في أوقات الظهيرة المشرقة، وخيوط صيد السمك المتدلية في استسلام بينما يسنده أباه ببنيته القوية على كتفيه، الماء الذي أغرق إيلي ديكون، وملأ كل ثنايا جسدها حتى لم يعد هناك مساحة للفتاة نفسها.

حاول فولك أن يتنفس بعمق، ولكن الهواء كان ذا مذاق حار ومسكر في فمه، سخر من نفسه لسذاجته كمن أصابه الجنون، كيف أمكنه تخيل أن هناك ماءً عذبًا يجري خلال تلك المزارع بينما الحيوانات ميتة في الحقول؟! كيف أومأ برأسه كالغبي عندما سمع كلمة الجفاف تتردد من حوله، ولم يدرك قط أن هذا النهر قد جف.

بالكاد استطاع الوقوف على قدميه المرتجفتين، كانت رؤيته مشوشة بينما تدور الببغاوات من حوله تصرخ تحت قيظ السماء المحترقة. وحيدًا في هذا الفراغ الهائل، أحاط فولك وجهه بكفيه، ولمرة واحدة، أخذ يصرخ هو أيضًا.

الفصل الرابع عشر

ظل فولك جالسًا على ضفة النهر لوقت طويل، تلفه حالة من اللاشعور بينما كانت الشمس المتثاقلة آخذةً في الهبوط. أجبر نفسه أخيرًا على النهوض قبل أن يحل الظلام كليًا. كان يعلم إلى أين سيذهب الآن، ولكنه لم يكن متأكدًا إذا كان سيستطيع أن يجده بعد حلول الظلام.

أدار ظهره للطريق المؤدي إلى مزرعة هادلر وسلك الاتجاه الآخر بدلًا من ذلك، منذ عشرين عامًا، كان يوجد مجرى نهري صغير، كان على فولك الآن أن يعتمد على ذاكرته وهو يشق طريقه بين الجذور المكشوفة والنباتات الجافة.

أبقى رأسه منخفضًا مركزًا على ألا يضيّع طريقه؛ بسبب غياب تدفق النهر العظيم بجانبه كمنارة، ضل فولك طريقه عدة مرات، أصبح كل ما يحيط به غريبًا الآن، وكل العلامات التي كان يألفها لم تفلح في الظهور، بعد أن ساوره القلق بأنه ذهب بعيدًا جدًّا، وجد ما يبحث عنه، شعر بالارتياح يتدفق بداخله، لقد كانت على بُعد مسافة صغيرة من ضفة النهر تغزوها الشجيرات، أحس بسعادة غامرة تملؤه وهو يشق طريقه بين الشجيرات، وأحس لأول مرة منذ قدومه إلى كيوارا بشعور العودة إلى الوطن، مد يده نحوها، كانت لا تزال موجودة، لا تزال كما هي.. إنها شجرة الصخرة.

* * * *

«تبًا، أين ذهبت؟».

تجهمت إيلي ديكون، وركلت كومة من أوراق الشجر برقة بإصبع من حذائها الجميل.

- إنها هناك بمكان ما بالأسفل، لقد سمعت صوت ارتطامها بالأرض.

اندفع آرون نحو شجرة الصخرة، انحنى وأخذ يثير التراب ويفتش في أوراق الشجر الجافة عن مفاتيح منزل إيلي، وضعت يدها على عينيها وقلبت حجرًا صغيرًا بقدمها بفتور.

* * * *

تحسس فولك شجرة الصخرة بيده وابتسم كأنه يبتسم لأول مرة منذ أيام، لقد بدت بالنسبة إليه كمعجزة من معجزات الطبيعة عندما كان طفلًا، شجرة أوكالبتوس هائلة قد نمت وتفرعت فوق جلمود صخر صلد، يلتف جذعاها محتضنًا كلٌّ منهما الآخر في عناق شديد التشابك.

لم يستطع فولك في شبابه أن يفسر جيدًا مدى نقص افتتان الآخرين بالشجرة، كان المتنزهون يمرون كل أسبوع ولا يكلفون أنفسهم أكثر من نظرة، وحتى بالنسبة إلى الأطفال الآخرين، لم تكن أكثر من كونها علامة مميزة وغير معتادة، ولكن فولك في كل مرة يراها كان يتساءل عن كم استغرقت شجرة الصخرة من سنوات ليتشكل كل جزء صغير منها، أعطاه ذلك شعورًا بالسفر بخياله وبأنه نفسه ما هو إلا نقطة ضئيلة بالنسبة إلى الزمن، وقد أعجبه ذلك، وبعد مرور عشرين عامًا، كان ينظر إلى شجرة الصخرة ويحس بذلك الشعور يتجدد.

* * * *

كان آرون بمفرده بصحبة إيلي ذلك اليوم، وقد كان ذلك بالنسبة إلى فتى في عمر السادسة عشر هو أمر يطمح إليه ويخشاه في نفس الوقت، ظل يثرثر بلا توقف ويسبب الإزعاج حتى لنفسه.

لكن الحديث كان ينقلب إلى صمت رهيب فجأة كأنما قد وقعا في حفرة بمنتصف الطريق، لم يكن ذلك بشيء معتاد الحدوث بينهما، ولكن مؤخرًا بدا وكأن هناك حاجزًا زجاجيًا من الصمت يعوق تواصلهما.

وجد آرون نفسه يدور باحثًا عن شيء ما يقوله ليغتنم منها ردًا أبعد من رفعة حاجب أو إيماءة، كان الحظ يحالفه بين الفينة والفينة ويلمح زوايا ثغرها تنظر إلى السماء.

لقد أحب تلك اللحظات، ود لو يدوِّن ما قاله ويحفظه في خلايا عقله ليتمكن من تحليله فيما بعد، كان يأمل أن يجد طريقة يبني بها ذاكرة من

النكات والمزحات التي تبتسم لسماعها، كانت محاولاته عشوائية بشكل مخيب للآمال حتى الآن.

أمضيا الكثير من وقت الظهيرة وهما جالسان تحت ظلال شجرة الصخرة، بدت إيلي مشوشة أكثر من المعتاد، فقد حدث لمرتين في ظهيرة ذاك اليوم أن وجَّه لها سؤالًا عن شيء ما وأحس أنها لم تسمعه حتى، بالنهاية خشي أن يُضْجِرها فاقترح أن يبحثا عن لوك أو غريتشن، ولحسن حظه هزت رأسها رافضة.

- لا أظن أن بإمكاني تحمل أي صخب في الوقت الحالي، من الجيد أننا فقط معًا، أليس كذلك؟

- أجل، بالتأكيد.

بالطبع كذلك، حاول ألا تفضح نبرة صوته فرحته.

- ما الذي تنوين فعله الليلة؟

تجهم وجهها وهي تقول: «سوف أعمل».

كانت تعمل في وظيفة بوقت جزئي منذ السنة الماضية، تظل واقفة يلفها الملل خلف منضدة بيع الحليب.

- ألم تعملي البارحة؟

- الحليب يُباع كل يوم يا آرون.

- أنا أعرف، لكن...

كان العمل أكثر من المعتاد، لا يدري لِمَ، ولكنه تساءل إذا كانت تكذب عليه وأحس بعدها بالسخف، ليست مضطرة إلى أن تفعل.

كان يراقبها وهي تلقي بمفاتيحها في الهواء وتلتقطها بتكاسل عدة مرات، وطلاء أظفارها البنفسجي اللامع يعكس أشعة الشمس، يحاول أن يبث قدرًا من الشجاعة في نفسه ويخطف المفاتيح منها بينما هي معلقة في الهواء، ود لو يشاكسها قليلًا كما يفعل لوك. وبعد ذلك، حسنًا لم يكن آرون يعرف ماذا بعد ذلك، أراحته المفاتيح عندما ألقتها إيلي عاليًا جدًّا فمرت من فوق رأسيهما وسقطت وراءهما، أصدرت المفاتيح رنينًا في أثناء سقوطها على الصخور وسمعا صوت ارتطام المعدن وهي تسقط على الأرض.

* * * *

جثم فولك على ركبتيه بجوار شجرة الصخرة وبدل عدة وضعيات حتى توصل إلى الزاوية المناسبة، أصدر صوتًا خافتًا يشبه نخير الخنزير لدهشته وسروره أنه وجدها أخيرًا.. الحفرة.

* * * *

- آه، انظري إلى هذا.

أخذ آرون ينحني جيئة وذهابًا في المكان الذي كان جاثمًا فيه على ركبتيه، أخذ تجويف عميق في قلب شجرة الصخرة بالظهور والاختفاء كلما تحرك إلى زاوية مختلفة قليلًا، لم يسبق أن لاحظه قط؛ مكان واحد جميل حيث يتقوس جذع الشجرة إلى الخارج بدلًا من أن يلتحم بالصخرة، كانت كالخدعة البصرية، مختفية تقريبًا ولا يمكن رؤيتها سوى من زاوية واحدة فقط، دقق آرون نظره في تلك المساحة المظلمة، كانت كبيرة بما يكفي ليُدخِل ذراعه وكتفه ورأسه فيها إذا أراد ذلك، رأى ما يبحث عنه موجودًا بداخل الفتحة مباشرة بدلًا من ذلك، فأخذ مفاتيح إيلي وأغلق يده حولها في انتصار.

* * * *

دقق فولك النظر بداخل الحفرة، لم يتمكن من رؤية شيء قط من سطح الحفرة، أخذ حجرًا صغيرًا وألقاه بداخلها وأنصت جيدًا إلى صوت القعقعة الصادر، لم يجرِ أي شيء أو ينزلق إلى الخارج مجددًا، تردد فولك قبل أن يجذب كمه نحو الأسفل بقدر المستطاع ثم حشر يده داخل الفتحة السوداء كالحبر، لمست أطراف أصابعه شيئًا ما -صغيرًا ومربعًا وليس مألوفًا- والتقطه بيده، بمجرد أن فعل ذلك أحس بشيء يجري مسرعًا عبر ساعده فخطف يده خارجًا على الفور. انتصب واقفًا وهو يضحك من شدة خفقان قلبه.

فتح فولك راحته وارتجّ عندما تعرف على ذلك الشيء، كانت قداحة سجائر معدنية صغيرة بالية ومنصهرة بفعل عوامل الطقس، ولكن كانت لا تزال تعمل، ابتسم فولك وقلبها رأسًا على عقب وهو يعلم جيدًا ما سيجده، كان هناك نقش بنسخة قديمة لخط يده للحروف الأولى: «آ. ف».

لم يكن مدخنًا قط، كانت معه من أجل التباهي ليس إلا، وفي نهاية أحد الأيام أخفاها بدلًا من أن يمسك به والده وهي معه. فتحها فولك، ولكنه لم يجرؤ على إشعالها، ليس في تلك الظروف، فرك راحة يده في الجزء المعدني

وتردد في أن يضع القداحة في جيبه، لكنه شعر أنها في وقت ما أصبحت تنتمي إلى هذا المكان، مرت لحظة ثم مد يده داخل الفتحة ووضعها مجددًا.

* * * *

جثمت إيلي على ركبتيها، شعر بحرارة يدها الساخنة التي وضعتها على كتفه وهي تتمايل حتى استقرت في جلستها، كانت قريبة لدرجة أنه تمكن من رؤية الكحل الذي يغلف كل رمش من رموشها على حدة عندما ضيقت عينيها لتدقق النظر، كان كتفها مغروزًا بشكل مؤلم في كتفه؛ حيث كانت تمد يدها في تردد ناحية الفتحة لتستكشف حجمها.

- هذا مذهل.

قالت دون أن يبدو على وجهها أي تعبير، كان من العسير أن يجزم أنها كانت تعني ذلك.

- لقد وجدتُ مفاتيحكِ.

قال آرون وهو يمسك بها للأعلى، التفتت لتنظر إليه، تمكن من رؤية البقع الصغيرة في زوايا عينيها حيث ذاب كحل عينيها، لقد بدأت مؤخرًا في التقليل من شرب الخمر فبدت بشرتها صافية ونضرة من قرب.

- أجل.. لقد فعلت، شكرًا لك يا آرون.

- على الرحب والسعة يا إيلي.

قال مبتسمًا، كان يحس بأنفاسها تلامس خديه، لم يكن متأكدًا إذا كان قد حرك رأسه بالفعل أم إنه فقط أراد أن يفعل، ولكن فجأة أصبح وجهها أقرب فأقرب وكانت تُقبّله، تضغط شفتاها الورديتان بقوة على شفتيه، كان أحمر شفتيها له مذاق الكرز والتصق بشفتيه في انسجام. وجد الأمر أجمل بكثير مما كان يتخيل، ظل يضمها إليه يريد أن يتذوق أكثر وفيضان من السعادة الخالصة يجيش في صدره.

وضع يده على شعرها اللامع لكن عندما لمست يده رأسها من الخلف بنعومة شهقت قليلًا، ثم جذبت نفسها بعيدًا، ارتطمت بالأرض وهي تجلس مجددًا ووضعت أصابعها على شفتيها أولًا ثم على شعرها. تجمد آرون في

مكانه وربض بجانبها على الأرض ولا يزال طعم شفتيها على فمه الذي ظل مفتوحًا؛ إذ تسلل الرعب إلى أوصاله، كانت تنظر إليه.

- أنا آسف يا إيلي، أنا...

- لا، أنا الآسفة، لم أقصد أن...

- آسف. إنه خطئي، ظننت أنك تودين...

- آرون، كلا، حقًّا لا يوجد شيء. الأمر فقط...

- ماذا؟

تنفستْ.

- فاجأني.

- أوه، هل أنت بخير؟

- أجل.

فتحت فمها كما لو كانت على وشك أن تقول شيئًا إضافيًّا، ولكن التزمت الصمت، داهمه شعور مميت بأن هناك دموعًا في عينيها، ولكنها اختفت بعد أن أغمضت عينيها وفتحتها.

وقف آرون ومد لها يده ليساعدها على النهوض من الأرض، ارتعب عندما ظن للحظة أنها ربما لن تأخذها قبل أن تلمس راحة يدها يده وسحبت نفسها للأعلى، رجع خطوة للخلف ليتيح لها بعض المساحة.

- أنا آسف.

قال مكررًا.

- رجاءً لا تقل ذلك.

- حسنًا، هل نحن على ما يرام؟

فاجأته عندما اتخذت خطوة للأمام نحوه وتجاوزت المسافة التي بينهما، قبل أن يدرك ما كان يحدث لثمت شفتاها شفتيه بنعومة وبسرعة، وتذوق طعم الكرز مجددًا.

- نحن على ما يرام.

ابتعدت بنفس سرعة اقترابها.

- أخبرتك، لقد تفاجأت.

أخيرًا تمكن عقل فولك من تصديق أن الأمر قد انتهى، كانت منحنية للأسفل وتنفض التراب عن بنطالها.

- من الأفضل أن أذهب، ولكن شكرًا.

لم تنظر له.

- أعني من أجل العثور على مفاتيحي.

أجابها بإيماءة.

- آرون...

قالت إيلي وهي على وشك المغادرة.

فلنبقِ ذلك بيننا فقط، لا نخبر أحدًا شيئًا.

- أي شيء؟! الفتحة أم...

ضحكت.

- الفتحة.

نظرت إيلي إليه من وراء كتفها.

- لكن ربما الشيء الآخر أيضًا، في الوقت الحالي، على أي حال.

ظهر شبح ابتسامة على شفتيها؛ حيث تحركت زاويتا فمها للأعلى قليلًا.

لم يكن متأكدًا تمامًا، ولكنه كان يومًا جيدًا على نحو ما بالنسبة إليه.

* * * *

لم يخبر فولك أيَّ أحد بأمر الفتحة قط، ولا عن قبلتهما، وكان شبه متأكد أن إيلي لم تفعل أيضًا، ليس لأنها كان لديها وقت طويل لحفظ السر، فبعد ثلاثة أسابيع وعلى بعد عشرين مترًا من حيث كان يقف، أُخرجت جثة إيلي المنتفخة من النهر، لم يقرب فولك ذلك المكان مجددًا بعد إيجاد إيلي، لم تكن لديه فرصة ليفعل، حتى لو أراد ذلك؛ خلال شهر واحد كان هو ووالده في ملبورن على بعد مسافة خمسمائة كيلومترٍ.

كان دومًا ما يشعر بالسعادة لأنهما -هو وإيلي- اكتشفا الفتحة وقتها، هما الاثنان فقط. كان لديهم بعض الفرص عندما كانوا صغارًا متجمعين

حول شجرة الصخرة كثلاثي مترابط هما ولوك، ولكن في ذلك الحين، وكالعادة، كانت لتصبح اكتشاف لوك الخاص، ففي سن الثانية عشرة، كان يفرض سيطرته الكاملة إذ شق كلٌ من الثلاثة طريقه الخاص بعد البلوغ.

لم يدرك أيٌ منهم ذلك إلا متأخرًا جدًا، دخلت إيلي تدريجيًا إلى عالم الفتيات العجيب والتنانير وحلاقة الأيدي والمحادثات التي تجعل آرون ولوك يتبادلان نظرات الارتباك، كانت فترة انتقالية بطيئة، نظر آرون حوله ذات يوم فلم يجد سوى لوك وكانا هما الاثنان فقط لمدة شهور، بالكاد لم يدركا نقطة مهمة، وهي أنها فقط فتاة، على الأغلب لأنها لم تكن تتبع مسارهما.

اختفت إيلي من فكرهما بسهولةٍ يجدها فولك الآن غريبة، ولكن لثلاث سنوات يمكنه بالكاد تذكر أنه فكر بها مرة واحدة، كان يراها في المناسبات التي لا يمكنهما الفرار منها، ولكن عندما دخلت حياته مرة أخرى في الخامسة عشرة، كانت وكأنها وُلدت من جديد: مكتملة التكوين، تحمل بداخلها سحرًا وجاذبية كالعطر.

* * * *

قضى كل من لوك وآرون ليلة سبت أخرى وهما جالسان خلف أحد المقاعد في منتزه سنتري، أقدامهما موضوعة على المقاعد إثباتًا لتمردهما الحقيقي، يراقبان الشرطي المحلي كأنهما ولدان ريفيان حقيقيان.

سمعا صوت وطء أقدام على الحصى ولمحا ظلًا متحركًا، وإذا بـإيلي ديكون تظهر كأنما خرجت من العدم، كان شعرها الآن مصبوغًا باللون الأسود الفاحم، تكاد أطرافه المتقصفة تصل إلى كوعيها، يلمع لمعة باهتة تحت أضواء المنتزه البرتقالية، كانت بمفردها.

كانت تمشي بتؤدة في بنطال من الجينز الضيق، وحذاؤها ملمع ببراعة، وحمالة صدر من الدانتيل تظهر من فتحة قميصها الواسعة. ألقت نظرة بعينيها المكحلتين عليهما بينما كانا يحدقان إليها بدورهما، وكلٌ منهم تقف الكلمات حبيسة وراء شفاهه شبه المفتوحة، رفعت إيلي أحد حاجبيها وهي تنظر إلى علبة البيرة الساخنة التي كانا يتشاركانها وأخرجت من حقيبتها المصنوعة من الجلد المزيف زجاجة فودكا ممتلئة.

- هل يوجد مكانٌ لشخص إضافي؟

كانا سيسقطان من مقعدَيْهما وهما يعتدلان بسرعة ليفسحا لها المجال، تبخرت سنوات الغياب وهم يتشاركون الفودكا وبمرور الوقت كانوا قد صنعوا انبعاجًا في الزجاجة وها قد لُمَّ شمل ثلاثتهم.

لكن ظهرت بعض الاختلافات في صداقتهم أخذوا يكتشفونها شيئًا فشيئًا، اتخذت أحاديثهم منحى جديدًا، استمر الولدان في قضاء بعض الوقت بمفردهما بين الحين والآخر، لكن آرون وجد نفسه يبذل جهدًا كبيرًا ليتجنب كل فرصة يترك فيها لوك وإيلي وحدهما دون حضوره، لم يتكلم مع لوك قط بخصوص ذلك، ولكن معدل محاولاته المحبَطة للانفراد بها جعلته يشك في أن صديقه يدبر تدابير خفية مثله. تبدلت أحوال المجموعة تبدلًا ضئيلًا لكن ملحوظًا، لم يتمكن أحدهم من التأكد في أية نقطة يقفون الآن.

لم تفسر إيلي سبب عودتها للأولاد قط، عندما سألها آرون ذات مرة وجهت عينيها إلى السماء.

- حفنة من العاهرات، لا يهتممن بأي شيء لا يشمل استعراض مظهرهن أمام الجميع، على الأقل أنتما لا تهتمان إذا لم أفعل ما يعجبكما.

أشعلت سيجارة ونظرت إليه كأنما قد شرحت كل شيء بصراحة، وربما قد فعلت.

كانت صداقتهم لا تزال تتوطد عندما واجهت أول اختبار حقيقي لها. بدأت شرارة ذلك بشكل غير متوقع، من كعب حذاء غريتشن شونر الوردي.

حتى في كيوارا كانت الطبقية تشكل فارقًا، وكانت غريتشن تُرى معظم الأحايين وهي ترمي بشعرها الذهبي خلف ظهرها وتضحك وسط حشد ممن يتبعونها، لذا كان كلٌّ من آرون وإيلي جالسين فاغرين فاهَيهما عندما رقص لوك ذات ليلة في منتزه سنتري بينما تحتضن ذراعه كتفَي الفتاة.

أصبح لوك بسرعة متزايدة ذا مكانة أعلى قليلًا من معظم رفاقه في الفصل، ظهرت على كتفيه وصدره بالطريقة الصحيحة.

في تلك الليلة في المنتزه الظليل، شعر غريتشن الذي ينسدل على كم معطفه كستارٍ مبعثر وخطوته المختالة، جعل آرون يدرك للمرة الأولى كم أن صديقه قد أصبح رجلًا.

كانت غريتشن خجلة وتضحك بينما كان يقدمهما إلى بعضهما، لمح عيني لوك وهو ينظر إلى رأسها وبدت على عينيه ملامح دهشة ليست ببسيطة، أومأ آرون وملامح الانبهار لا تزال بادية عليه، كانت هناك آلاف الأماكن التي يمكن لغريتشن شونر الوجود فيها في ليالي السبت وبالفعل كانت هناك، بصحبة لوك.

نادرًا ما واتت آرون الفرصة ليتجاذب أطراف الحديث مع غريتشن في السابق، لذا كان متفاجئًا بحق، كانت ساحرة وحادة الذكاء على نحو غير متوقع، ودودة في حديثها حتى إنها تجعله يضحك في ثوانٍ. أدرك حينها السبب وراء احتشاد الناس من حولها، كانت تشع طاقةً يودُّ الجميع التمتع بها.

إيلي كانت تقف وراء آرون، تنحنحت بصوت خفيض، فأدرك فجأة أنه قد نسي تقريبًا أنها موجودة، نظر لها عندما التفت إليها نظرة استهجان، وليست نظرة اندهاش، وكأنما هو ولوك قد رسبا في اختبارٍ لم يكن يُتوقع لهما النجاح فيه. انتقلت عيناه من ابتسامة غريتشن إلى ملامح إيلي الباردة، فارتفعت الرايات الحمراء عالية وظاهرة، لكن بعد فوات الأوان، استرق النظر إلى لوك وهو يتوقع رؤية نفس الإدراك بادٍ على وجهه، لكنه كان ينظر في اندهاش مشبع بالفضول، لم ينبس أحدهم ببنت شفة للحظات ثقيلة.

ظهرت على وجه غريتشن فجأة ابتسامة متآمرة للفتاة الأخرى، وألقت تعليقًا وقحًا بشكل لا يصدق على أحد أصدقاء إيلي القدامى. سادت لحظات من صمتٍ ذي مغزى، ثم أصدرت إيلي صوتًا بأنفها بدا أنه ضحكٌ، أنهت غريتشن الموقف بتمرير سجائرها على الجميع، كان هناك مكان مخصص لها على مقاعد المنتزه في تلك الليلة، وكل ليالي السبت وحتى السنة التالية.

- رباه، إنها كحمام من الفقاقيع على هيئة إنسان.

همست إيلي لآرون بذلك في إحدى الليالي فيما بعد، لكنها لم تتمكن من إخفاء ابتسامتها الضئيلة وهي تتحدث، كانوا يضحكون جميعًا على قصة غريتشن عن ولد كبير طلب مواعدتها عن طريق نقش الكلمات بين المحاصيل، مخربًا حقل أبيه كله في أثناء ذلك. كانت هي ولوك منسجمين للغاية في أثناء الحديث، ورأساهما مقتربان للغاية، كانا متلامسين تقريبًا. أطلقت غريتشن ضحكةً لعوب ووجهت عينيها نحو الأسفل حيث همس لها لوك بشيء لم تتمكن أُذنَي آرون من التقاطه، التفت مجددًا نحو إيلي.

- يمكننا أنا وأنتِ الذهاب إلى أي مكان آخر إذا كانت تزعجك، لسنا مضطرين إلى البقاء هنا.

نظرت إليه إيلي خلال سحابة من الدخان للحظة ثم هزت رأسها.

- كلا، إنها لطيفة، تبدو معتوهة قليلًا، ولكنها لا تسبب لي إزعاجًا.

- هذا جيد.

تنهد آرون في صمت وتناول منها سيجارة، التفت ليشعل السيجارة فرأى لوك وهو يحيط كتفي غريتشن بذراعه ويقترب منها في قبلة سريعة، عندما اعتدل لوك في جلسته، استرق النظر من فوق رأس غريتشن نحوهما، لم تبدِ إيلي أي ردة فعل حيث كانت تتفحص طرف سيجارتها المشتعل بعينين شاردتين.

لمح آرون نظرة العبوس التي ظهرت على وجه صديقه ثم اختفت في لمح البصر، لقد حدث له أنه لم يكن الوحيد الذي بذل جهدًا كبيرًا بعض الشيء؛ حيث بدت الفتيات منسجمات بشكل جيد جدًّا.

الفصل الخامس عشر

جلس فولك مسندًا ظهره إلى شجرة الصخرة يحدق إلى الأسفل نحو النهر الجاف، كان كل من منزل عائلة هادلر وسيارته في نهاية الطريق على يساره، وعلى يمينه يوجد بداية طريق مهجور يقود بعيدًا عن النهر في أعماق الأدغال. لقد اختفى تمامًا خلال العشرين عامًا الماضية لكنه كان بالنسبة إلى فولك كالوشم على سطح الأرض، لقد سلك هذا الطريق قرابة ألف مرة، ظل واقفًا لوقت طويل يتناقش مع ذاته، وأخيرًا خطا خطوة نحو اليمين، لا ضير في المرة الأولى بعد الألف.

استغرق الأمر بضع دقائق حتى بلغ نهاية الطريق، عندما دخل فولك بين الأشجار كانت السماء بالفعل تكسوها زُرقة شديدة، ظهر منزل ريفي باهت وقت الشفق في حقلٍ، عبر فولك الحقل كما اعتاد أن يفعل دومًا، كانت خطواته تتباطأ كلما اقترب حتى توقف على بعد عشرين مترًا من المبنى، ظل محدقًا إلى ما كان منزل طفولته ذات يوم.

لاحظ بشيء من السخط أن لون باب الشرفة الذي كان أصفر في الماضي أصبح ذا لون أزرق باهت، كان مشوهًا بفعل الطلاء المتقشر، تمكن من رؤية بعض البقع الصفراء تحت الطلاء المتقشر، كانت تبدو كالبقع الدهنية العنيدة، وقد أصبح الدرج الخشبي الذي اعتاد أن يجلس عليه ويلعب بألعابه والكروت الرياضية متهالكًا بفعل الزمن، بالأسفل كانت هناك علبة بيرة فارغة مختبئة بين العشب الذابل.

حارب رغبة مفاجئة في التقاطها ووضعها في سلة مهملات، في طلاء الخشب، وإصلاح السلالم. في النهاية قرر أن يظل حيث يقف، كانت الشبابيك كلها منسدلة الستائر ما عدا واحدة كان يتوهج من خلالها ضوء أزرق لتلفاز.

شعر بحنين بالغ إلى الماضي يضرب أعماقه، كان يرى والده واقفًا عند الباب الواقي كل مساء، رجل فارع الطول تحيط به هالة من نور المنزل، يناديه ليترك ألعابه ويأتي إلى الداخل: «*حان وقت العشاء يا آرون، فلتأخذ حمامًا وتذهب للنوم، هيا إلى الداخل يا بني، حان وقت العودة إلى البيت*». نادرًا ما كان والده يتحدث عن والدة آرون، ولكن آرون عندما كان أصغر كان يتظاهر بأنه يشعر بوجودها في المنزل، كان يمرر أصابعه على الأشياء التي يعلم أنها كانت لتلمسها؛ صنابير المطبخ، متعلقات الحمام، الستائر، ويتخيلها واقفة في نفس المكان.

لقد كانوا سعداء هنا ذات يوم، كان فولك يعرف ذلك، على الأقل هو وأبوه كانا كذلك. شعر وهو ينظر إلى المنزل الآن أنه كان مجرد محطة في حياته، علامة موضحة لما كان قبلًا وما أصبح عليه الآن. اندفعت موجة غضب في كل خلية من خلاياه، لم يكن يعرف لماذا جاء إلى هنا، اتخذ خطوة إلى الوراء، كان مجرد مبنى آخر في حاجة للإصلاح. لم يكن هناك أي شيء متبقٍ منه أو من والده في ذاك المكان.

التفت ليغادر عندما سمع صوت صرير الباب الواقي وهو ينفتح، خرجت امرأة أحاط توهج التلفاز هيئتها الهزيلة بهالة من النور، شعرها الكستنائي الباهت كان مجموعًا إلى الخلف على هيئة ذيل حصان، ووركاها يطلان من أعلى حزام خصرها مختنقين، وجهها ذو لون أرجواني يدل على أنها امرأة تفرط في السُّكر إفراطًا خطيرًا، أشعلت سيجارة وتنفست بعمق بينما تحدق إلى فولك في صمت بارد.

- هل أساعدك يا رفيق؟

قالت وهي تنفث الدخان الذي ارتفع إلى وجهها وجعلها تضيق عينيها.

- كلا، أنا...

توقف، تضطرب أنفاسه، يجب أن يفكر في شيء ما، عذر كافٍ لوقوفه أمام منزل أحد لا يعرفه بحلول الليل، درس تعبيرات وجهها جيدًا، كانت تشك به، ولكنها لم تتعرف عليه، لم تكن تعرف من كان، هذا جيد. فكر أن يقول الحقيقة ولغى الفكرة في اللحظة ذاتها، يمكنه أن يخرج شارته دائمًا، سيفعل إذا كان مضطرًّا، ولكن حتى فولك الشرطي كان محرجًا لوجوده هناك.

- أعتذر، كنت أعرف الناس الذين عاشوا هنا في السابق.

لم تجب المرأة بشيء، وأخذت نفسًا آخر من السيجارة، أدخلت يدها الفارغة من الخلف وجذبت سروالها الداخلي بإمعانٍ من بين ردفَيها، لم تشح بعينيها الضيقتين عن فولك قط.

- فقط أنا وزوجي نقيم هنا، نعيش هنا منذ خمس سنوات، وكانت والدته تمتلك المنزل من قبلنا بخمسة عشر عامًا تقريبًا.

- كان منذ ذلك الوقت تقريبًا، الناس الذين كانوا هنا من قبلها.

- لقد رحلوا.

قالت بلهجة تقريرية لشيء جلي الوضوح، أدخلت إصبعيها السبابة والإبهام إلى لسانها وأزالت قطعة تبغ.

- أعرف.

- إذن؟

كان سؤالًا جيدًا، ولم يكن فولك يملك أي إجابة عليه، التفتت المرأة حولها عندما سمعت صوت جلبة آتية من داخل المنزل، فتحت الباب الواقي بما يكفي لتقحم رأسها إلى الداخل.

- نعم يا حبيبي.. سأهتم بالأمر، لا مشكلة، لا أحد.. عُد إلى الداخل.. لا، فقط عُد إلى الداخل، ممكن؟

سمعها فولك وهي تقول، انتظرت المرأة لحظة ثم عادت مجددًا، بوجه متجهم يبدو عليه الغضب، عادت إلى فولك ونزلت من الشرفة ووقفت على بعد أمتار قليلة منه.

- عليك أن تغادر في الحال، إذا كنت أدرى بمصلحتك.

كان صوتها هادئًا وعدائيًا.

- لقد انتظر بما فيه الكفاية ولن يكون سعيدًا أبدًا إذا خرج إلى هنا، مفهوم؟ ليس لدينا أي فكرة لعينة عن أي شيء حدث هنا فيما سبق، مفهوم؟ ليس لدينا على الإطلاق، ولا أمه كذلك، لذا ما رأيك أن تأخذ تصريحك الصحفي أو رشاش الطلاء أو حقيبة براز الكلب خاصتك أو أيًا كان ما جئت من أجله واغرب عن هنا، واضح؟

- انظري، أنا آسف...

اتخذ فولك خطوة للخلف كاشفًا راحتيه، لا يشكل أي تهديد.

- لم أقصد إزعاجكِ، أو إزعاج أي منكما.

- نعم، حسنًا، لقد أزعجتنا، هذا منزلنا، مفهوم؟ تم بيعه وشراؤه، وسأمزق من يتحرش بنا، لقد مر عشرون عامًا. ألم تسأم من ذلك الأمر أيها الأخرق حتى الآن؟

- انظري، هذا يكفي.. أنا ذاهب.

خطت خطوة واحدة للأمام تشير إلى البيت بيد وتمسك هاتفها النقال في الأخرى.

- أصح شيء ستفعله، وإلا لن أتصل بالشرطة، بل سأتصل به في الداخل وببعض أصدقائه ممن سيكونون في غاية السعادة ليوصلوا الرسالة جيدًا، أتسمعني؟ اغرب.. عن.. هنا.

تنفست نفسًا عميقًا وقد ارتفع صوتها أكثر.

- ويمكنك مشاركة تلك المعلومة مع كائنٍ من كان في حاجة إلى معرفتها، ليس لدينا أي صلة بمن عاشوا هنا في الماضي، لا صلة لنا بأولئك المسوخ.

بدت الكلمة وكأنها ترددت عبر الحقول، تجمد فولك للحظة قبل أن يلتفت مبتعدًا بلا أي رد.. لم ينظر خلفه لمرة واحدة.

الفصل السادس عشر

كان شعر غريتشن الأشقر يتمايل وسط الحانة المزدحمة، أحسَّ فولك بوخزة امتنان خاطفة لأنه لم يستسلم لرغبته الملحَّة لإلغاء الزيارة.

عندما غادر بيته القديم الليلة الماضية، مشى مباشرة حتى وصل إلى سيارته وظل واقفًا هناك لوقت طويل، يقاتل رغبته الملحة في أن يركب سيارته ويقودها عائدًا إلى ملبورن. بعد قضاء ليلة مؤرقة، قضى النهار مختبئًا في غرفته يتأمل كومة الأوراق التي أخذها من مزرعة هادلر، لم يكن بحثًا مثمرًا للغاية، ولكنه استمر في العمل بشكل منهجي، مستخرجًا كل شيء يلفت انتباهه في ملحوظات خارجية، رأسه منخفض، ينجز هذه المهمة. كان يخرج لفترة قصيرة ليحضر شيئًا يأكله فقط، تجاهل زحام نهاية الأسبوع في الشارع، وشعر للحظة بالذنب قبل أن يجعل هاتفه في الوضع الصامت عندما اتصل به جيري، سوف يفعل فولك ما وعد بأن يفعله، وذلك لا يعني أنه يود التحدث بشأنه.

والآن، في الحانة بالأسفل، وللمرة الأولى طوال اليوم لم يشعر أنه في عجلة من أمره ليغادر هذا المكان، وجدته غريتشن جالسًا على طاولة محشورة في الزاوية الخلفية وقبعته مسحوبة إلى الأمام، كانت ترتدي الأسود مجددًا، لكنها ترتدي فستانًا هذه المرة، كان قصيرًا ومبطنًا ويكشف ساقيها العاريتين وهي تمشي، ويناسبها أكثر بكثير من ملابس الجنازة، التفتت الكثير من الرؤوس من بين حشد ليلة السبت بينما كانت تمر، لاحظ فولك أنهم لم يكونوا كُثُرًا كأيام المدرسة الثانوية، ولكنهم كانوا كُثُرًا.

- تبدين رائعة.

بدت غريتشن مسرورة وأعطته قبلة سريعة على خده عندما قام ليحضر المشروبات، كانت رائحتها زكية كالورد.

- شكرًا، وأنت كذلك، أحببت قميصك، أحدث صيحات الموضة في كيوارا.

أومأت إلى مشترياته الجديدة فابتسم لها، دخلت على مهلٍ وجلست على المقعد الذي في الزاوية.

- هل كانت هذه الطاولة الوحيدة الفارغة، أم أنك تود الاختباء؟

- الاختباء.. نوعًا ما.

قال وهو يجبر نفسه على الابتسام.

- لقد ذهبت إلى منزلي القديم ليلة البارحة.

رفعت حاجبيها.

- ثم؟

- لم يكن قريبًا مما توقعت.

- لم يكن كذلك قط.

ذهب إلى منصة المشروبات وجعل نادل الحانة ذا اللحية يصب له كأسًا من البيرة وشيئًا يشبه النبيذ الأبيض إلى حد ما، عندما عاد رفعت غريتشن كأسها.

- بصحتك، تتذكر عندما لم نكن نستطيع الانتظار حتى نتمكن من أن نصبح زبائن هنا وتُقدَّم لنا المشروبات؟ كل تلك الليالي في المنتزه كنا نتناول أي شيء تصل إليه أيدينا.

فتحت عينيها على اتساعهما في غير تصديق وهي تشير لكل ما هما محاطان به الآن.

- انظر إلينا الآن، ها هو الحلم يتحقق.

ضحك فولك والتقت أعينهما بينما يتذكران الماضي، عرف فولك أن شفاه غريتشن اللامعة وأطرافها الطويلة في أثناء سنوات المراهقة أعطياها وفرة من التمتع بالشباب، تعتمد عليها أكثر من الجميع، ولكن رؤيتها الآن مرتدية فستانًا جعلته يفكر جديًا أن تلك السنوات، قبل وفاة إيلي وقبل أن يتغير كل شيء، كانت أسعد سنوات حياتها، تمنى ألا يكون ذلك صحيحًا، تمنى أنها عاشت سنوات سعيدة أكثر، عبس وجهه مكرهًا وانتهت اللحظة.

اقتربت غريتشن منه.

- اسمع، عليك أن تعرف، أصبح الجميع يعرف الآن بكل تأكيد، يُذاع في البلدة أنك تقحم نفسك فيما حدث لعائلة هادلر، أنت والرقيب.

- لا يوجد شيء رسمي.

- هل تعتقد أن ذلك يهم؟

أومأ فولك مؤمنًا.

- وما الرأي السائد؟

- هذا يعتمد على مَن تسأله، بعض الناس يعتقدون أن ذلك أنسب شيء يُفعَل، وآخرون في غاية الإصرار إنك دونًا عن كل الناس يجب أن تهتم بشؤونك.

أخفضت صوتها.

- والجميع يلوم نفسه عما إذا كان أحدٌ آخر هو من قتلهم.

اجتاح فولك شعورٌ بالذنب بسبب مكالمات جيري هادلر الفائتة التي وجدها على هاتفه، قرر أن يكون أول شيء يفعله في الصباح هو الاتصال به.

- ما رأيك في ذلك الأمر؟

سألها بفضول.

- أعتقد أن عليك توخي الحذر.

كانت تعبث بكأس النبيذ خاصتها.

- لا تُسِئ فهمي، إنني حقًا أحب أن أعرف أن لوك ليس هو من فعلها.

- أتعتقدين أنه من فعل؟

تقطب وجهها، فكرت قبل أن تجيب.

- لا أعلم، لم أستطع أن أصدق عندما سمعت الأخبار، ولكن ما لم أستطع تصديقه أكثر هو أن شيئًا كهذا قد حدث على الإطلاق، بناءً على كل ما سمعناه، لم يكن هناك مجال للشك، لم أتوقف من أجل التفكير إذا كان لوك هو المسؤول بالفعل أم لا، أتفهمني؟

- لم يفكر أحد في ذلك، حتى أنا.

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

- لم أكن لأقول ذلك لأي أحد سواك، ولكن ذلك كان خطأ لوك إلى حد ما لأنه كان وغدًا.

* * * *

كانت الحقول في الأسفل تلمع باللون الفضي تحت ضوء القمر، وبدا بيت المزرعة واقفًا كالبقعة على سطح الأرض، جلس أربعتهم على حافات النتوءات الصخرية وأقدامهم متدلية من الحافة، كان لوك أول من تسلق السياج وركل لافتة «*ممنوع الدخول*» بقدمه وهو يفعل، تعمد ألا يحلق ذقنه في الأيام الأخيرة، لاحظ آرون ذلك في انزعاج، وكان لديه بعض الشعيرات المتناثرة على ذقنه كحبات الغبار، كانت ظاهرة أكثر تحت ضوء القمر وهو واقف بالقرب من الحافة الصخرية فاردًا ذراعيه على اتساعهما يستمتع بالمنظر.

شعر آرون بألم في معدته عندما رأى الحافة غير المؤمّنة، لكنه رفع نفسه من فوق السياج دون النظر إلى الآخرين، كانت إيلي خلفه مباشرة، استعرض لوك وهو يمد ذراعه ليساعد غريتشن، لم تكن بحاجة إلى مساعدته، ولكنها أمسكت به وهي تبتسم، الآن هم جالسون يتحدثون ويضحكون، يدفئون أنفسهم بالزجاجة نصف الفارغة التي يمررونها لبعضهم بعضًا، فقط إيلي من رفضت عندما أتت الزجاجة إليها، أخذها كلٌّ منهم بالدور وتحدوا بعضهم بعضًا أن يميل للأمام ويحدق للأسفل من حافة الجرف، الكثير من الثرثرة والهراء، شيء مخيف، ولكنهم ليسوا خائفين.

* * * *

ارتفع حاجبا فولك قليلًا، ولكنه لم يعترض.

- هناك فرق كبير بين كونه وغدًا وقاتلًا.

أومأت غريتشن.

- واسمعي، أنا لا أقول إنه فعلها، ولكن هل كان قادرًا على فعلها؟

تلفتت غريتشن حولها تتفحص الغرفة كأن لوك سيحضر ويسمع ما ستقوله.

- إن ذلك سؤالٌ مختلف تمامًا.

* * * *

كان لوك يحيط خصر غريتشن بذراعه، تمكن آرون من ملاحظة ذلك بطرف عينه، اقترب لوك منها وهمس بشيء ما، نظرت غريتشن إلى الأسفل بخجل لسماعه، كانت رموشها تعكس ظلًا باللون الأزرق على خديها.

شعر آرون بوجود إيلي بجواره، ولكنه لم يتحرك، كانت هذه المرة الأولى التي يراها فيها منذ قبلتهما قبل أسبوع من الآن عند شجرة الصخرة، وكان لا يزال يشعر بالإحراج، لقد قالت إنها كانت تعمل كل ليلة، سمح لنفسه بالذهاب إليها في المتجر لمرة واحدة فقط، لوحت له بيدها من وراء ماكينة النقود، ولكنه لم يكن مكانًا مناسبًا لأن يتحدثا.

توقف خلفهم في أثناء صعودهم إلى الأعلى على أمل أن يسرق بضع دقائق معها بمفردهما، ولكن لوك كان ملتصقًا به بشكل لا يُطاق، لم يبدُ على إيلي أنها تفكر فيما حدث عند الشجرة، عندما وصلوا إلى قمة التل، شعر آرون أنه كان يتخيل الأمر برمته.

كانوا يسيرون ببطء طوال الطريق، استمع آرون بغير انتباه إلى القصص التي كان يلقيها لوك بصوت عالٍ، وجهت إيلي نظراتها إليه فجأة ولمحت نظرته المثبتة على رأس لوك، أبعدت ناظريها في عناء بالغ، ثم ابتسمت ابتسامة عذبة، متفهّمة وسرية، كانت من أجله هو فقط.

كان آرون الآن غارقًا في الذكرى، اعتدل في جلسته محاولًا الاقتراب منها قليلًا، ما كاد يلتفت حتى توقف في الحال، وتجمدت حركته قبل أن تبدأ حتى، كان الضوء ضعيفًا أعلى التل، ولكنه كان مضيئًا بشكل كافٍ لآرون لكي يرى بعض الأشياء بوضوح، من ضمنها عينا إيلي وكيف كانتا مركزتَين على لوك هادلر وهو يهمس في أذن غريتشن.

* * * *

- إن لوك يمكنه أن يكون أنانيًا أحيانًا.

قالت غريتشن، مررت إصبعها على دائرة الماء التي تكونت أسفل كأسها وخربت شكلها.

- كان يضع نفسه أولًا، وثانيًا وثالثًا دون حتى أن يدرك ذلك، ألم يكن يفعل؟ لست وحدي من ترى هذا؟

بدت مسرورة عندما أومأ فولك.

- آسفة، إنني غير قادرة على الفصل بين لوك الذي عرفته عن الذي يتحدث عنه الناس ولوك الذي ظننت أني أعرفه، على أي حال.

- لقد ظننت دومًا أن لوك كان شخصًا واضحًا عندما كنا صغارًا، كان منفتحًا جدًّا، يقول ما يفكر به، ربما لم تحبي ذلك طوال الوقت، ولكن على الأقل كنت تعرفين أين أنت معه بالضبط.

- والآن؟

- لا أعلم، كان تظاهره بالشجاعة يثير جنوني، ولكن كنت أشعر خلف كل ذلك بأنه كان شخصًا جيدًا.

- حسنًا، لنأمل ذلك.

حركت غريتشن عينيها في كل الاتجاهات.

- كم أكره التفكير في أنه لم يكن يستحق.

- ماذا تعنين؟

- أوه، لا شيء.

بدا عليها الإحراج.

- ليس شيئًا ذا أهمية، قصدت فقط صداقتي له منذ البداية، وأنت وإيلي، لقد غيرت الكثير بالنسبة إليّ، أولاد لم أكن لأعيرهم اهتمامًا في يومي، أصبحوا يتجنبونني بعد موت إيلي، كأنني أصبحت منبوذة بسبب معرفتي بكم، ولكنها كانت مجرد مشكلات مراهقة غبية مقارنة بكل شيء آخر، ليست أشياء تستحق القلق بشأنها.

لم تتمكن مطلقًا من إخفاء نبرة الحزن في صوتها، فكر فولك في دائرتها الاجتماعية التي أخذت تضيق عندما أصبحت عضوًا رسميًّا في الرباعي تعيس الحظ، لقد حدث له للمرة الأولى أنْ فكّر أنَّ من دونه هو وإيلي لربما وجدت غريتشن ذات الشعر الذهبي نفسها وحيدة، لم يسبق أن فكر في ذلك الاحتمال من قبل، مد يده وربت على ذراعها.

- أنا آسف لأنني لم أتمكن من البقاء على تواصل معك، لم يكن الأمر أنني لم أكن أهتم، الأمر فقط أن...

توقف.

- لم أظن.. أنني كان يجب عليَّ أن أفعل.

ابتسمت غريتشن ابتسامة خفيفة.

- انسَ الأمر، لم أكن أفضل منك في شيء، أنا ألقي اللوم على العمر والهرمونات، لقد كنا جميعًا أغبياء في ذلك الوقت.

* * * *

قام لوك وتمطى بمبالغة.

- سأذهب لأتبول.

قال معلنًا، كانت أسنانه تلمع بياضًا تحت الظلال.

- لا تفتعلوا مشكلة بينما أنا لست موجودًا.

اختفى وسط الشجيرات، وجلس البقية ثلاثتهم كتفًا إلى كتف، مرر آرون وغريتشن الزجاجة بينهما وتمكن من سماعها تدندن مع نفسها دندنة بلا نغمة، كانت إيلي على الجانب الآخر منه، مثبتة ناظريها نحو الأفق على بعد ألف ياردة.

كُسرت حالة السكون تلك بصوت ارتطام ثقيل وصراخ عالٍ تردد صداه خلال الصمت، نظر ثلاثتهم إلى بعضهم بوجوه بيضاء مصدومة، انتصب آرون على قدميه وأخذ يجري نحو الصوت بساقين كالمطاط بفعل الفودكا، توقف على بعد خطوات من الفتاتين، تمكن من سماع صوت أنفاس إحداهما المرتعبة من خلفه. انزلق فجأة حتى توقف حيث كان على وشك السقوط المحتم من الحافة، كانت الأشجار مقطوعة ومستوية على قطعة صلبة من الأرض، والفروع التي بجانب الحافة كانت مكسورة تمامًا.

- لوك!

ظهرت غريتشن بجانبه وصرخت في الفراغ، تردد صدى صوتها مكررًا اسمه عدة مرات، لم يأتِ أي جواب في المقابل، نزل فولك على يديه وقدميه وزحف حتى الحافة، استرق النظر نحو الأسفل خائفًا مما سيراه، كان على ارتفاع أكثر من مائة متر، وكان الأسفل لا يُرى في الظلام.

- لوك، يا صديقي، هل يمكنك سماعي؟

صاح فولك.

كانت غريتشن تبكي حتى سالت زينتها، جاءت إيلي خلفها واقتربت شيئًا فشيئًا من الأشجار، كانت تمشي، وليست تجري، سمع فولك صوت أنفاسه المتلاحقة كزئير الأسد في أذنيه، أخذت إيلي تحدق بنظرة متزنة متسائلة إلى الشجيرة المنسحقة، التفتت وأجالت بصرها في الغابة من خلفهم، وأخذت تمسح بعينيها ظلال الأشجار، خطت بالقرب من حافة المنحدر واسترقت نظرة واحدة إلى الهاوية. نظرت مباشرة إلى آرون ورفعت كتفيها باستهجان.

- لفّق الأخرق الأمرَ.

التفتت والتقطت شيئًا غير مرئي من أحد أظفارها.

* * * *

- كنت حقًّا أتساءل إذا أنتِ ولوك ستبقيان معًا، لقد كان أنانيًّا لكن لطالما كان لكِ مكانة خاصة وحقيقية لديه.

ضحكت غريتشن ضحكة من لا يطيق ما يسمعه.

- وأصبحُ جزءًا من استعراض لوك طوال الوقت؟! لا، شكرًا.

تنهدت، وفقد صوتها حدته.

- بالفعل حاولنا لمدة سنتين، بعد مغادرتك، بدا الأمر جادًّا لبعض الوقت، كنا لا نزال أطفالًا، هذه حقيقة. إنني حقًّا أظن أننا كنا فقط نحاول الحفاظ على أربعتنا معًا بشكل ما، ومع ذلك لقد تفرقنا، بالطبع.

- نهاية سيئة؟

- أوه، كلا.

رفعت نظرها وابتسمت ابتسامة واثقة.

- ليس تمامًا، ليست أسوأ من العادي، على أي حال. نحن فقط كبرنا، هو تزوج، وأنا أصبح لدي لاكي، على أي حال لم يكن لوك قط مناسبًا لي، أدركُ ذلك الآن.

أغمضت عينيها.

- أعني، حتى من قبل ما حدث لكارن وبيلي.

سادت لحظة صمت أخرق.

- إذن لم يتكلم لوك عني قط؟ أعني، بعدما غادرت.

لم تستطع لهجة غريتشن المحايدة أن تخفي فضولها.

تردد فولك.

- لم نتحدث كثيرًا عن شؤون كيوارا بقدر المستطاع، كنا نشير إليها فقط نوعًا ما، سألت عن أخبارك بالطبع، وكان يقول إنك بخير، كان ذلك كل ما يعرفه بشأنك، وأشياء من ذاك القبيل، ولكن...

أردف، مراعيًا ألا يجرح شعورها. في الواقع، لم يكن لوك يأتي بذكر غريتشن إلا لمامًا، تفاجأ فولك الآن لمعرفته أنهما استمرا في المواعدة لأكثر من بضعة شهور، قد جعل لوك دومًا علاقتهما تبدو كشيء انتهى حديثًا.

- لقد تفاجأت إلى حدٍّ ما بأن لوك استقر في كيوارا، بعد أن غادرت، كل ما كان يتحدث عنه هو الانتقال، كان يخطط للذهاب إلى ملبورن ودراسة الهندسة والعمل على مشاريع ضخمة.

- حقًّا؟

كان ذلك جديدًا بالنسبة إلى فولك، لم يسبق أن ذكر لوك ذلك قط، لم يطلب منه المساعدة ولو لمرة واحدة، بشأن فرصة عمل أو مكان ما لينزل فيه في المدينة.

- لماذا لم يذهب؟

أجابت غريتشن بأن رفعت كتفيها.

- أعتقد أنه كان قد قابل كارن. لطالما كان من العسير معرفة ما الذي ينويه لوك حقًّا، مع ذلك...

توقفت، بدلت موضع كأس النبيذ خاصتها على الطاولة.

- أتعلم، إنني أخمن لو أنها عاشت، كان لوك بالفعل سينفصل عن إيلي، لقد كانت تناسبه أكثر مني، على الأرجح إنها كانت تناسبه أكثر من كارن حتى، من أجل ذلك.

ارتشف فولك رشفة من شرابه وتساءل إذا كان ذلك حقيقة.

كانت غريتشن هستيرية.. كان لونها محتقنًا، وشعرها مبلل بالعرق. أدرك فولك أنها كانت ثملة أكثر مما يبدو عليها.

* * * *

كان رأسه يدور، استمر في الزحف والنظر إلى الأسفل وهو يصرخ باسم لوك.

- هلَّا رجعت من عندك؟

نادته إيلي؛ حيث كاد أن يفقد توازنه للمرة الثالثة.

تمنى آرون لو بإمكانه أن يصبح هادئًا مثلما كانت هي، لقد شعر في البداية ببصيص من الأمل أنها قد تكون على حق، من الممكن أن لوك يلفق الأمر، ولكنه بمرور الوقت كان يفقد إحساسه ذلك شيئًا فشيئًا، كان لوك يعرف طريقه جيدًا، ولكن المنحدرات كانت مشهورة بكونها زلقة، لقد حُذِّروا بأن قيل لهم ذلك لكي يبقوا بعيدًا، ولأكثر من مرة، وقد كان الخمر الذي تناولوه يعيث في معداتهم عبثًا، ربما كانت إيلي محقة، ولكن ماذا لو...؟ انبثق وجهَا جيري وبارب في عقله فلم تتمكن فكرته من الاكتمال.

- يجب علينا... بحق السماء، غريتشن، فلتصمتي لثانية، يجب أن نذهب ونبحث عن المساعدة.

رفعت إيلي كتفيها بلا مبالاة، سارت حتى المنحدر ووقفت واضعة أطراف حذائها مباشرة على الحافة، ألقت نظرة للحظة مطولة ثم خطت خطوة للوراء، رفعت ذقنها قليلًا.

- هل تسمع ذلك يا لوك؟

نادت بصوت واضح تردد صداه وارتد بين الصخور.

- نحن سنتجه للأسفل، وكل منا يلعن نفسه.. فرصتك الأخيرة.

خُيِّل إلى آرون أن شيئًا لم يحرك ساكنًا بينما كان يكتم أنفاسه وينتظر، استمر الصمت يعم أرجاء المرصد.

- حسنًا إذن.

صاحت إيلي، وبدا صوتها حزينًا بدلًا من كونه غاضبًا.

- لقد اتخذت قرارك، أتمنى أنك سعيد.

ترددت اللهجة الاتهامية عبر الوادي بالأسفل، حدق إليها آرون للحظة، مباشرة إلى نظرتها الباردة، ثم جذب غريتشن من يدها وأخذا يجريان نحو الأسفل.

* * * *

- يبدو لي أحيانًا أنك كنت الشخص الوحيد الذي أخلص له لوك، الطريقة التي وقف بها إلى جانبك في موت إيلي، لقد عانى حزنًا بالغًا لذلك بعد ذهابك، ولم يرضخ لكل محاولات الناس لاستمالته لتغيير شهادته، وأن يتخلى عنك.

أنهت كأس النبيذ ونظرت إلى فولك مليًّا من فوق حافته.

- لم يكن ليفعل قط.

تنهد فولك، لقد حان الوقت الآن لكي يخبرها.

لوك كذب، وأنت كذبت.

- غريتش، استمعي إليَّ، بشأن ذلك...

- لقد كنتَ محظوظًا حقًّا.

قاطعته وقد انخفض صوتها قليلًا.

- يا لك من محظوظ لكونك معه، بادئ ذي بدء. لكن مقدار النقد اللاذع الذي تعرض له هنا، كان من الأسهل له أن ينقلب ويغير شهادته، أكاد أجزم أن من دون لوك كانت شرطة كلايد ستلقي الأمر برمته عليك بلا شك.

- أجل، أنا أعلم، لكن استمعي إليّ يا غريتش...

أخذت تتفحص الحانة، كانت هناك بعض الوجوه المراقبة التفتت بعيدًا بسرعة.

- انظر، كان لوك عالقًا بأسلحته، عالقًا بك، حقًّا.. لعشرين عامًا.

قالت وقد أصبح صوتها أهدأ.

- إن ذلك على الأغلب هو الشيء الوحيد الذي يقف بينك وبين الكثير من المشكلات هنا، لذلك كلمة من يعقل، كان يجب أن استمسك جيدًا بقول الشيء ذاته.

* * * *

لم يستطع آرون التصديق بعد أن تجولوا في جميع الأركان بأسفل التل، ثم تمكن فورًا من التصديق، كان لوك متكئًا على إحدى الصخور في تمام الصحة، وابتسامة ترتسم على شفتيه وسيجارة في يده.

- أنتم...

قال ضاحكًا.

- ما الذي جعلكم تستغرقون كل ذلك الوقت يا رفاق، إنكم...

اندفع آرون نحوه.

* * * *

- رباه يا غريتشن، إنني...

قال فولك، محاولًا أن يحافظ على هدوء لهجته، لكن كانت رسالتها واضحة.. لا تسأل، لا تخبر.

- ولمَ لا أكون؟

أخذا يحدقان إلى بعضهما بعضًا للحظة، ثم أسندت غريتشن ظهرها في مقعدها وابتسمت له، تقريبًا.

- حسنًا، لا يوجد سبب على الإطلاق، فقط أردت أن أتأكد من أنك تعقل الأمور، من الأفضل أن تتوخى الحذر بدلًا من الندم.

رفعت كأس النبيذ، تذكرت أنه كان فارغًا فوضعته مجددًا، أفرغ فولك كأسه واتجه إلى الحانة ليحضر كأسين أخريين.

- إذا كان الجميع واثقًا من أمري هكذا.. فإنني متفاجئ أنهم لم يطردوا لوك من البلدة أيضًا.

قال عندما رجع.

تناولت غريتشن الكأس وقد تلاشت ابتسامتها.

- أتعلم، لقد حاول البعض.. في البداية، يا له من أمر صعب، ولكنك تعلم كيف كان لوك، لقد واجه الأمر بتحدٍّ، لم يتردد ولم يهتز، حتى تقبل الجميع ذلك في النهاية، لقد اضطروا إلى ذلك إلى حد كبير.

تفحصت الحانة بنظرها مرة أخرى، كانت هناك وجوه أقل تراقبهما الآن.

- انظر، لو كانوا صادقين مع أنفسهم لعلم معظم الناس أن إيلي قد قتلت نفسها، لقد كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها وكانت في حاجة إلى دعمٍ من الجلي أنها لم تحصل عليه، وأجل.. علينا جميعًا أن نشعر بالذنب لأجل ذلك، لكن الناس لا يفعلون ذلك عامةً بأن يُشعروا أنفسهم بالذنب، وفي نهاية الأمر لقد كان اسمك موجودًا على الملاحظة، لم يكن هناك تبرير واضح لذلك قط.

توقفت ورفعت حاجبها قليلًا.

أجاب فولك بهزة خفيفة من رأسه، لم يتمكن من التفسير قبلًا، كما لم يتمكن من التفسير الآن، لقد ظل عقله يعذبه طوال تلك السنوات، كان يسترجع محادثاته الأخيرة مع إيلي محاولًا حل أية شفرة والوصول إلى رسالة أو معنى مبطن، لقد كان بالنسبة إليها آرون وليس فولك، ما الذي كان يدور في عقلها عندما كتبتها؟ لم يكن متأكدًا في معظم الأحيان عما يُقلقه أكثر: ما سببته من مشكلات، أم حقيقة أنه لم يدرك قط لماذا.

- حسنًا، لا يهم حقًّا. لقد كانت تفكر بك بشكل ما في الوقت الذي ماتت فيه، وبالنسبة إلى كل من يوجه إليك إصبع الاتهام كان ذلك كافيًا، صدق أو لا تصدق، لقد كان لوك شخصية مهمة، وكان عضوًا فعالًا في المجتمع، لقد أصبح قائدًا نوعًا ما في هذه البلدة، ونحن لم يكن في استطاعتنا أن نفقد الكثير منهم، بالتفكير في الأمر برمته أعتقد أن الناس فقط اختاروا ألا يشغلوا بالهم بالأمر.

رفعت كتفيها في حيرة.

- لهذا السبب ذاته يدعمون أغبياء مثل دو وديكون.. هذه كيوارا.. قاسية، ولكننا جميعًا معًا في ذلك، أنت غادرت ولوك بقي، إذن فاللوم يقع عليك.

* * * *

اندفع آرون نحوه فتراجع لوك إلى الخلف.

- انظر...

قال لآرون الذي جذبه من كتفيه، تعثرت أرجلهم وسقطوا على ظهورهم على الأرض، أصدر سقوطهما على الأرض صوت ارتطام وأفلتت سيجارة لوك من بين أصابعه، دهست إيلي عليها وأطفأتها بالأرض.

- انظر إلى الشرر، هلا نظرت؟ لقد أخفتهم بالفعل، حاول ألا تجعلنا نموت محترقين أيضًا.

شعر آرون بلوك وهو متسمرٌ أسفله؛ حيث كان يضغط عليه بكل وزنه عندما سمع نبرة صوتها، كانت النبرة ذاتها التي سمعها تستخدمها مع حيوانات المزرعة.

- رباه يا إيلي، ما هي مشكلتك؟ ألا يمكنك تقبل المزاح لمرة واحدة؟

حاول لوك أن يتظاهر بالشجاعة قليلًا لكنها لم تدم طويلًا، كان آرون يشتم رائحة الكحول تنضح من عرقه.

- ألم يخبرك أي أحد بهذا؟

داهمته إيلي.

- المزاح يفترض أن يكون مضحكًا.

- يا إلهي، ما خطبك بحق الجحيم هذه الأيام؟ لا تودين الشرب، لا تودين الضحك، بالكاد تخرجين معنا، تعملين طوال الوقت بذلك المتجر الغبي، لقد أصبحتِ مملة للغاية يا إيلي، ربما عليكما أنتِ وآرون أن تبقيا معًا فقط وتستمتعان بذلك، تلِيقان ببعضكما للغاية.

ممل.. وقعت كلمة لوك على آرون وقع الصاعقة، كان يحدق إلى صديقه بغير تصديق، فجذبه من مقدمة قميصه ودفعه بعيدًا بقوة لدرجة أن ارتطمت رأس لوك بالأرض، ابتعد من فوق لوك، أنفاسه غير منتظمة ولا يثق بنفسه لينظر.

نظرت إيلي إلى لوك الممدد في التراب وعلى وجهها شيء أسوأ من الغضب، بدا المحيط ساكنًا.

وقفت بالقرب منه.

- أهذا ما تظنه؟ أتعتقد أن أصدقاءك مملون لأنهم أوفياء لك؟ لأنهم يتصرفون ببعض العقل أحيانًا؟ النكتة الوحيدة هنا الآن هي أنت يا لوك، وحقيقة أنك ترى إنه من العادي استخدام الناس في سبيل تسليتك.

- اغربي من هنا، أنا لا أفعل ذلك.

- بل تفعل، وتفعل ذلك معنا جميعًا. أنا، آرون، وصاحبتك التي تقف هناك، أتظن أنه شيء طبيعي إخافة الناس الذين يهتمون لأمرك؟ وأن توقع الناس بعضهم في بعض.

هزت رأسها.

- والأمر كله بالنسبة إليك مجرد لعبة كبيرة، إن ذلك أكثر شيء مرعب فيك.

لم ينبس أحدهم ببنت شفة للحظة طويلة، بقيت الكلمات عالقة بينهم في الهواء كالضباب بينما تحاشى كلٌّ منهم النظر إلى الآخر. تحركت إيلي أولًا والتفتت بصرامة وغادرت من دون نظرة أخرى، حدق آرون ولوك إليها وهما على الأرض ثم نهضا على أقدامهما، ولا يزال آرون غير قادرٍ على تمالك نفسه والنظر إلى لوك.

- عاهرة.

سمع لوك يتفوه بذلك من خلف إيلي.

- أنت.. لا تدعوها بذلك.

قال آرون بصوت حاد.

لم تبدِ إيلي من أمامهما أي علامة على أنها سمعت أيًّا منهما وتابعت السير بخطوات واثقة، التفت لوك ولف ذراعه حول غريتشن التي تحول نحيبها إلى صمت.

- أنا آسف إذا أخفتك قليلًا يا عزيزتي، إنك تعلمين أنني ما كنت أقصد بهذا غير المرح، أليس كذلك؟

أدار رأسه وطبع بشفتيه قبلة على خدها، كان وجهه يتصبب عرقًا ويشتعل غضبًا.

- لكنّ هذا عادلٌ بما فيه الكفاية، ربما ذهبت الأمور إلى أبعد مما يجب، تفوهتُ بعدة أشياء ما كان يجب عليَّ التفوه بها، ربما أنا مدين لكم باعتذار يا رفاق.

بدا عليه أنه لم يكن يعني أي شيء.

- بالتأكيد أنت مدين لهم بشيء.

تردد صوت إيلي في هواء الليل.

لم يأتِ أحدهم بذكر هذا الجدال مرة أخرى، ولكنه ظل يلازمهم كالحرارة، لم تتحدث إيلي مع لوك إلا عند الضرورة، ودائمًا بنفس اللهجة المهذبة والبعيدة، وكان آرون يشعر بالحرج من إيلي وغاضبًا من لوك ومن نفسه أكثر قليلًا، وجدت غريتشن نفسها تلعب دور الوسيط وتظاهر لوك بأن شيئًا لم يتغير.

كان آرون يقول لنفسه إنه من الممكن لكل ذلك أن يمر، ولكن من داخله لم يكن متأكدًا، باتت الشقوق بينهم واضحة للعيان وكانت أعمق مما كان يدرك، لم يتمكن من التأكد عما إذا كان محقًا أم لا. فلم يكن لدى إيلي سوى أسبوعين فقط على قيد الحياة.

* * * *

مدت غريتشن ذراعها على امتداد طاولتهما الحزينة وربتت بيدها على أطراف أصابع فولك، خفتت ضوضاء الحانة شيئًا قليلًا في الخلفية، كانت يداها ذابلتين مرهقتين، وأظفارها نظيفة غير مطلية، وجلد أطراف أصابعها خشنًا مقارنة ببشرته المعتادة على الجلوس في المكتب.

كان فولك يدرك أن إيلي لم تكن محقة في الحكم عليها؛ لم تكن غريتشن ساذجة يومًا، بل عاشت أشياء أقسى كثيرًا من ذلك، ظلت واقفة وتحملت مسؤولية أفعالها وتلقت اللوم بشجاعة، لقد أنشأت لنفسها حياةً في مجتمع يستغل الإنسان ويفرض سيطرته عليه، ولا سيما هو نفسه ومن الممكن لوك هادلر الآن، كانت غريتشن قوية.. كانت مقاتلة.. وكانت تبتسم في وجهه.

- أعلم أنه لم يكن سهلًا عليكَ المجيء إلى هنا مجددًا، ولكنني ممتنة لرؤيتك حقًا، لقد كنت الوحيد دومًا الذي لديه بعض العقل من بيننا، أتمنى...

توقفت عن الكلام، استهجنت ورفعت كتفًا واحدة قد أسمرّ لونها بفعل الشمس تجاه حمالة فستانها.

- أتمنى لو كان بإمكانك البقاء، لربما كان كل شيء مختلفًا.

ظلَّا ينظران لبعضهما حتى شعر فولك بالحرارة تجتاحه حتى صدره وصولًا إلى رقبته، تنحنح وهو لا يزال يفكر في إجابة عندما توقف شخص ما أمامه فجأة.

الفصل السابع عشر

وضع جرانت دو زجاجة بيرة نصف ممتلئة على الطاولة بينهما بصرامة أصدرت صوتًا، كان يرتدي السروال القصير والقميص الذي عليه شارة بيرة جزيرة بالي نفسهما منذ اليوم الماضي، تأفف فولك متململًا.مكتبة

- لقد ظننت أنك كنت ممنوعًا من الدخول.

قال محاولًا الحفاظ على صوته هادئًا بقدر ما استطاع.

- إنني أجد أن ذلك مجرد اقتراح ليس إلا على الأغلب.

نظر فولك خلف دو حيث يقف نادل الحانة ينظر خاضعًا، رفع فولك حاجبيه، ولكن النادل رفع كتفيه في استسلام فقط، ماذا ستفعل؟ نظرت غريتشن إلى عيني فولك عبر الطاولة، هزت رأسها هزة خفيفة، كان صوتها خافتًا عندما تكلمت.

- ماذا تريد يا جرانت؟

- سأخبرك بما تريدينه أنتِ يا غريتشن، إنك تحتاجين أن تتوخي مزيدًا من الحذر عند اختيارك لأصدقائك.

لاحظ فولك أن دو كان يمتلك بعضًا من تكبر مال ديكون، ولكنه كان حامي الدماء بكل تأكيد مقارنة بدناءة عمه الخبيثة والباردة.

بالأعلى، كان وجهه يستشيط غضبًا كأن شرايينه قد انفجرت وارتفع ضغط دمه.

- إن الفتيات اللواتي يصاحبن هذا الرجل ينتهي بهم الحال جثثًا هامدة.

كان رفاقه يضحكون من ورائه ساخرين، بدا رد فعلهم متأخرًا قليلًا، لم يكن فولك متأكدًا إذا كان أولئك هم العصابة نفسها التي كانت معه في الليلة الماضية، لم يكونوا مألوفين بالنسبة إليه.

- أشكرك يا جرانت، ولكنني امرأة ناضجة يمكنني اتخاذ قراراتي بنفسي، لذا إذا كنت قد انتهيت من قولك لم لا تذهب وتستمتع بليلتك وتتركنا لنستمتع بليلتنا أيضًا.

قهقه دو كاشفًا عن أسنانه المهملة وانطلقت رائحة أنفاسه المشبعة بالكحول نحو فولك.

- إنني أراهنك جيدًا يا غريتشن.

قال لها وهو يغمز بعينه.

- تبدين متأنقة بشكل خاص الليلة، إذا أمكنني قول ذلك؛ فنحن لا نراكِ في كامل أناقتك هكذا عادة.

وجه نظره نحو فولك.

- لا بد وأن ذلك الفستان من أجلك خِصِّيصَى أيها الأخرق، أتمنى أن تقدّر ذلك.

تلون خدًا غريتشن وتحاشت النظر إلى فولك، قام فولك وخطا خطوة تجاه دو، كان يراهن على أن رغبة دو في تجنب إزعاج إلقاء القبض عليه سيكبت رغبته في لكمه، تمنى أن يكون محقًّا، كان فولك يعلم أنه رجلٌ ذو مهارات، ولكنّ قتالًا في الحانة لم يكن من ضمن مهاراته.

- ما الذي تريده بالضبط يا جرانت؟

سأله فولك بهدوء.

- ما حدث هو، أعتقد أن الأمور سارت على نحو خاطئ بيننا الليلة الماضية، لذا فقد جئت لأمنحك الفرصة لتُصلح الأمر بعض الشيء.

- بشأن ماذا؟

- أنت تعرف ماذا.

أخذا ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر، كان جرانت دو دومًا الأكبر سنًّا والأضخم والأقوى، يبحث طوال الوقت عن أي سبب للغضب، ويجعل الناس يَعدُون هاربين إلى الطرف الآخر من الطريق عند رؤيته بالقرب. والآن، حيث صار أكبر، أكثر بدانة وتبدو عليه نفحة خافتة لمرض مزمن، كان الألم باديًا على كل ملامحه.

- هل ذلك كل شيء؟

- كلا، ليس ذلك كل شيء بحق الجحيم. استمع إلى نصيحتي، استمع إلى نصيحة عمي، ما الذي ستصل إليه من بقائك هنا، فلترحل.

كان صوت دو خفيضًا.

- إن هادلر اللعين ذلك لا يستحق كل تلك المتاعب التي ستلقاها هنا، فلتأخذ كلامي بعين الاعتبار.

نظر دو من فوق كتفه إلى رفاقه، كان المكان خارج الحانة ساكنًا في ظلام الليل، وكان فولك يدرك أنه لا يوجد بنهاية الطريق الرئيسي سوى بلدة مهجورة كليًّا. في هذا المكان، فإن تلك الشارات لا تعني شيئًا كبيرًا، ربما هي كذلك، ولكنها لا تزال تعني شيئًا ما.

- سأغادر بعدما نصل إلى شيء واضح بشأن قضية مقتل عائلة هادلر، وليس قبل ذلك.

- سيُعرِّضك ذلك إلى الكثير من المتاعب.

- تَعرُّض عائلة للقتل في مدينة صغيرة كهذه المدينة، برأيي إن ذلك أمرٌ يُعنى به الجميع، ويبدو أن لديك بضعة أشياء قوية لتضيفها بخصوص هذا الأمر، لذا فربما نبدأ بك، ولنجعل هذا أمرًا رسميًّا، ماذا تظن في رأيك؟

أدخل فولك يده في جيبه وأخرج منه دفترَ ملاحظاتٍ صغيرًا وقلمَ رصاصٍ، وكتب أعلى الصفحة تحقيق هادلر، كتب بالأسفل مباشرة اسم دو بأحرف كبيرة ليتمكن الرجل من رؤيتها.

- حسنًا، اهدأ أيها الأخرق.

أصبح صوته مُحشرَجًا، تمامًا كما توقع فولك، لطالما كانت رؤية الاسم على الورق بمعنى «ضمن التحقيقات» قادرة على تغيير الموقف.

- أعطني عنوانك.

- أنا لن أعطيك عنواني.

- لا مشكلة.

لم يتأثر فولك.

- لحسن الحظ، إنني أعرفه.

وأخذ يكتب على الورقة عنوان مزرعة دو مفصلًا، وجه نظره خلف دو ناحية مجموعة رفاقه، الذين ابتعدوا خطوة متحاشين النظر.

- وسآخذ أسماء رفاقك أيضًا، إذا كنت مصرًّا جدًّا على إقحام نفسك.

نظر جرانت حوله، تبدلت تعبيرات عصابته الساخرة وكانوا يحدقون إليه.

- أتحاول التلاعب بي وقلب الموقف لصالحك؟ تحاول أن تجد لنفسك كبش فداء؟

- جرانت...

قال فولك محاولًا كظم غيظه.

- أنت الذي أتيت ووقفت أمام طاولتنا.

نظر إليه دو من أعلاه إلى أسفله، كان تعبير وجهه منذرًا بالشر، يضغط قبضته اليمنى كما لو أنه يحاول أن يقرر إذا كان الأمر يستحق أم لا، استرق النظر من فوق كتفه، كان نادل الحانة لا يزال يراقبهم مسندًا يديه إلى الطاولة، نظر إلى دو نظرة قاسية وأومأ برأسه ناحية الباب، لم يعد هناك المزيد من المشروبات من أجلهم الليلة.

فك دو قبضته وخطا مبتعدًا في هدوء كما لو أن الأمر لا يستحق أن يبذل جهدًا لأجله.

- إنك ممتلئ بالكذب والهراء كما كنت دومًا. حسنًا، إنك في حاجة إلى أن تكون كذلك، ربما يتسبب لك ذلك في نشوب قتال هنا.

تبعه أتباعه إلى خارج الحانة بهزة قوية من رأسه، بدأ مستوى الصوت في الحانة، الذي كان قد خفت في أثناء المواجهة، في الرجوع إلى الطبيعي.

اتخذ فولك مجلسه مجددًا، كانت غريتشن تراقبه فاغرة فاهها بعض الشيء، ابتسم لها، ولكنه عندما وضع دفتر الملاحظات بعيدًا أبقى يده في جيبه حتى توقفت عن الارتجاف.

هزت غريتشن رأسها في غير تصديق.

- رباه.. مرحبًا بعودتك، أحسنت صنعًا.

غمزت له بعينها.

- لقد أخبرتك، إنك أنت الوحيد من لديه بعض العقل.

قامت وأحضرت كأسين أخريين.

لاحقًا، في أثناء غلق الحانة، اصطحبها فولك حتى السيارة، كان الشارع ساكنًا، وكان شعر غريتشن يلمع كهالة مقدسة تحت أضواء الشارع، ظلّا واقفين هناك على بعد خطوة من بعضهما يتبادلان النظرات، كانت كل خطوة تثير الريبة والتفكير حتى ضحكت أخيرًا ووضعت يديها على كتفيه، اقتربت منه وطبعت قبلة على خده بالقرب كثيرًا من زاوية شفتيه، أحاطها بذراعيه وعانقا بعضهما عناقًا حميميًا للحظة، مضيفين مزيدًا من الدفء إلى هواء الليل الدافئ.

تنهدت أخيرًا وهي تبعد نفسها، ركبت سيارتها وغادرت وهي تودعه بابتسامة وتلويحة بيدها، وقف فولك وحيدًا تحت تجمعٍ من النجوم يفكر، في كل شيء عن جرانت دو، لقد تفوه الرجل بالكثير من الهراء بكل تأكيد، ولكنه قال شيئًا واحدًا جذب انتباه فولك وبقي عالقًا في عقله، وأخذ الآن يفكر فيه جيدًا ويقلبه في عقله كمن اكتشف شيئًا.

«لا بد وأن ذلك الفستان من أجلك خصيصًى أيها الأخرق».

ظل مبتسمًا طوال الطريق وهو عائد إلى الحانة.

وضع فولك قدمًا واحدة على الدرج في طريقه إلى غرفته عندما سمع صوت نادل الحانة يناديه.

- تعالَ إلى هنا لدقيقة يا رفيق، إذا لم تمانع.

تنهد فولك ويده على درابزين السلم، نظر نظرة طويلة إلى السلم بالأعلى، كانت هناك لوحة ذات إطارٍ رديء للملكة تحدق إلى الأسفل بلا شفقة، التفت وتوجه مجددًا نحو الحانة. كان المكان فارغًا الآن، انبعثت رائحة حمض الليمون لسائل التنظيف حيث مسح نادل الحانة الطاولة باستخدام قطعة قماش.

- مشروبًا؟

- ظننت أنك قد أغلقت!

جذب فولك كرسيًّا وجلس عليه.

- لقد أغلقتُ بالفعل، لكن هذه ضيافة.

وضع النادل زجاجة بيرة أمام فولك ثم صبَّ كأسًا له.

- اعتبره عربون شكرٍ.

- من أجل ماذا؟

- لقد رأيت جرانت دو وهو يتحرش بالعديد من الناس، وفي كل مرة تقريبًا كان الأمر ينتهي وأنا أُنظِّف دماء أحدهم؛ ولأن ذلك لم يحدث الليلة، يمكنني أن أستمتع قليلًا وأتناول مشروبًا باردًا بصحبتك.

مد إليه يدًا.

- دايفيد ماكمردو.

- في صحتك!

تجرع فولك بعض البيرة متفاجئًا كيف ابتلعها بسهولة بالغة، لقد شرب في هذا الأسبوع أكثر مما اعتاد أن يشربه في شهر.

- أعتذر عن كل ذلك، أعلم أنني قلت لن تكون هناك أي متاعب.

- يا صديقي، إذا سُيطر على كل المتاعب بهذه الطريقة، فسأصبح حينها رجلًا سعيدًا.

قال ماكمردو وهو يعبث بلحيته.

- من المؤسف أنهم في هذا المكان لا يميلون إلا لاستخدام العنف بدلًا من ذلك.

- منذ متى وأنت في البلدة؟

- منذ نحو عشر سنوات، ومعظمهم لا يزال يعاملني وكأنني وصلت البارحة، هذه هي كيوارا، إما أن تكون ولدت وكبرت هنا، وإما ستظل غريبًا إلى الأبد.

- كونك ولدت وكبرت هنا ليس امتيازًا أيضًا.

قال فولك ذلك بابتسامة متجهمة.

- كيف تمكنت من البقاء هنا طوال هذه المدة على أي حال؟

توقف ماكمردو عن الكلام، ولف لسانه فوق أسنانه.

- برأيك أنت ما السبب لمغادرة كيوارا؟

- فرص العمل.

قال فولك بلهجة جافة.

- حسنًا، لنفكر أنني سأقول الشيء ذاته وندع الأمر عند هذا الحد.

أشار ماكمردو إلى الحانة الفارغة وغمز بعينه.

- على كل حال، يبدو أن ذلك كان في صالحك جيدًا، لأكون صريحًا معك، كان بإمكان صديقك لوك الاستعانة ببعض نصائحك في التعامل مع دو، فات أوان ذلك الآن بالتأكيد.

- هل كانا يتنازعان؟

- بلا انقطاع، كان قلبي يتوقف في كل مرة يكون أحدهما هنا وإذ بالآخر يأتي هو أيضًا، لقد كانا مثل -لا أدري-؛ قطبَي مغناطيس، توأم ملتصق، غريمين غيورَين، شيء من هذا القبيل، لم يكن ممكنًا لأي منهما أن يترك الآخر وشأنه.

- ما الذي كان يجعلهما يتشاجران؟

- ما الذي لم يكن يفعل؟ سمِّه أنت؛ الطقس، لعبة الكريكيت، ألوان جواربهما اللعينة، لأي سبب، كانا دومًا يتقاتلان.

- كيف كان قتالهما؟ لكمات وما شابه؟

- من حين إلى آخر، أحيانًا كانت تصبح عنيفة جدًّا، ولكن لم تكن كذلك مؤخرًا، لم يصل الأمر إلى أكثر من اشتباكات وصراعات محتدمة، لا تسئ فهمي، ولكنهما لم يكرها بعضهما، ولكنهما كانا يستمتعان بذلك بشكل ما؛ يتصارعان لينفسا عن طاقتَيهما ويستمتعا.

- لم أستطع فهم ذلك.

- ولا أنا، إنني أفضل أن أتناول مشروبًا عن نفسي، لكن يجب أن يفلح هذا مع بعض الرجال.

مسح الطاولة كرجلٍ يعلم أن مراقبي الصحة لا يشاهدونه.

- لأكون عادلًا في حق دو، إن العناية بعم مثل عمه ذاك ليس بالشيء اليسير.

تذكر فولك كيف أخطأه مال ديكون وظن أنه أبوه.

- هل تعلم ما به؟

- إنه ليس بكامل عقله هذه الأيام، ربما يكون بسبب الخمر أو شيء صحي آخر، لا أستطيع أن أجزم، إنه يتردد إلى هنا ويجلس لتناول مشروب، أو يتسكع في البلدة ويتحرش بالناس بكلبه ذاك، ذلك كل شيء.

- لا يبدو جرانت دو ممرضًا على الإطلاق، هل كان يهتم بعمه طوال الوقت؟

ابتسم ماكمردو متهكمًا.

- رباه، كلا. إنه يعمل، يقوم بأعمال مختلفة: السباكة، يعمل بالبناء قليلًا، أي شيء يدرُّ له المال، لكن من المدهش حقًا هو ما يفعله الكسب السهل غير المتوقع، أتدري؟ سيترك ديكون له المزرعة، أو هكذا يقولون على كل حال، قد تكون لا تساوي الكثير بالنسبة إلى أولئك المستثمرين الآسيويين الذين يحومون في الأرجاء من أجل الأراضي، على ما يبدو أن الجفاف لن يدوم للأبد.

أخذ فولك رشفة، هذا مثير للاهتمام؛ إن أرضَ عائلة هادلر خلف مزرعة ديكون مباشرة، لم تكن لديه فكرة عن أسعار السوق، ولكنّ قطعتين معًا ستكونان غنيمة ثمينة بالنسبة إلى المشتري المناسب، بالطبع إذا عُرِضت مزرعة هادلر للبيع.

كان هذا احتمالًا ضئيلًا للغاية عندما كان لوك على قيد الحياة ومسؤولًا عن كل شيء أكثر مما هو الآن، ترك فولك هذه الفكرة إلى تصاريف المستقبل.

- إذن هل ما يُشاع عن كونك تحقق في مقتل عائلة هادلر صحيحًا؟

- ليس رسميًا.

قال فولك ذلك، للمرة الثانية تلك الليلة.

- فهمت.

قال ماكمردو بابتسامة من كان يعرف.

- يبدو أن هذه هي الطريقة المُثلى لفعل أي شيء هنا على كل حال.

- بالمناسبة، هل حدث أي شيء يجب عليّ معرفته؟

- أتعني هل تشاجر لوك مشاجرة كبيرة في الليلة التي سبقت موته؟ هل أعلن جرانت دو أمام كل من في الحانة أنه سيطلق النار على العائلة بدم بارد؟

- سيكون هذا مفيدًا.

- آسف لإحباطك يا صديقي.

كشف ماكمردو عن فمٍ ممتلئ بالأسنان الصفراء.

- قال جايمي ساليڤان إنه كان هنا بصحبة لوك في الليلة قبل الحادثة، يخططان لصيد الأرانب.

- إن ذلك يبدو صحيحًا.

- هل كان دو هنا أيضًا؟

- أجل بالطبع، إنه هنا في معظم الليالي؛ لذلك لا يحب أن يُمنع من الدخول، بقدر ما يسببه ذلك لي من راحة، فإنه يسبب له إزعاجًا أكثر بكثير من أي شيء، وهو يعلم أنه ليس بإمكاني منعه بالقوة، كلما حاولت كان يأتي هو ورفاقه المعتوهون ويجلسون بالخارج في المدخل ومعهم كومة من الصفيح يصدرون بها ضوضاء، فتقع كل المتاعب على رأسي على أكمل وجه، هل تفهم ما أعنيه؟ على أي حال.

هز ماكمردو رأسه.

- إجابةً على سؤالك، لقد كان جرانت دو هنا في الليلة الأخيرة التي كان لوك هنا فيها، بجانب الجميع من دونه تقريبًا، لا تنسَ ذلك، كانت مباراة الكريكيت تُعرض على التلفاز لذا كان المكان محتشدًا.

- رأيتَه يتحدث مع لوك؟ أو يتواصلان بأي شكل؟ غير أنهما يتعاركان مع بعضهما بعضًا؟

- لا أتذكر بالضبط، ولكن كما سبق وقلت، كانت ليلة مزدحمة حقًا، لقد كنت أعمل بلا توقف.

فكر ماكمردو قليلًا وهو يبتلع آخر رشفة من البيرة وكتم جشأةً صغيرة.

- ولكن مَن يستطيع فهم هذين الاثنين؟ لا يمكنك التنبؤ أبدًا بما سيحدث بين ليلة وما بعدها، أنا أعلم أن لوك كان صديقك وأن دو أخرق، ولكنهما كانا متشابهين في أشياء كثيرة؛ كلٌّ منهما متعصب، ذو شخصية قوية تلفت الأنظار إليها ولديه مزاج سيئ، وجهان لعملة واحدة، كما تعلم!

أومأ فولك، كان يعلم ذلك. أخذ ماكمردو الكؤوس الفارغة ففهم فولك أنه يشير إليه ليغادر، نهض عن كرسيه وقال له: «*ليلة سعيدة*»، وترك النادل ليغلق الأضواء ويُعمَّ الطابق السفلي بالظلام. بينما كان فولك يبذل جهدًا في السير بالأعلى وكان شبه يترنح، أضاءت شاشة الهاتف معلنة وصول رسالة صوتية، انتظر حتى دخل غرفته وتسطح على سريره قبل أن يضرب على الأزرار بحماقة، أغلق عينيه عندما سمع صوتًا مألوفًا ينبعث من الهاتف.

- آرون، هلا أجبت على هاتفك؟

تتابعت كلمات جيري هادلر في أذنيه.

- انظر، لقد كنت أفكر مطولًا بخصوص اليوم الذي ماتت فيه إيلي.

توقف طويلًا.

- مُرَّ على المزرعة غدًا إذا استطعت، هناك شيء يجب أن تعرفه.

فتح فولك عينيه.

الفصل الثامن عشر

بدت مزرعة هادلر مختلفة عندما توقف فولك بسيارته، لقد أُزيل لاصق مسرح الجريمة الأصفر البالي، كانت الستائر وحاجبات الضوء مسحوبة تمامًا وكل الشبابيك مفتوحة جزئيًّا.

شمس منتصف النهار حامية الوطيس، بحث فولك عن قبعته بمجرد أن خطا خارج سيارته، تأبط صندوق المتعلقات المدرسية الخاص بكارن وبيلي وسار في الطريق، كان الباب الأمامي مفتوحًا، ورائحة المنظفات قد هدأت قليلًا بالداخل.

وجد فولك بارب تبكي في غرفة النوم الرئيسية، جالسة على حافة سرير لوك وكارن الكبير، جمعت كل محتويات وحدة الأدراج في كيس لحاف أخضر مهترئ، جوارب مكورة وسراويل داخلية مجعدة ومختلطة مع عملات معدنية مبعثرة وأغطية أقلام، جرت الدموع على خدي بارب وسقطت على قطعة ورق ملونة في حجرها، انتفضت عندما طرق فولك الباب بهدوء، وتمكن عندما اقترب منها من رؤية أنها تمسك بطاقة معايدة لعيد الأب مصنوعة يدويًّا، مسحت وجهها بكُمها ووجهت البطاقة باتجاه فولك.

- تنكشف جميع الأسرار مع التنظيف العميق، أليس كذلك؟ تبين أن بيلي كان سيئًا في الإملاء كوالده.

حاولت أن تصحب ذلك بضحكة، ولكن صوتها تقطع، أحس فولك بكتفيها ترتفعان وهي تتنهد بعد أن جلس وأحاطها بذراعه، كان جو الغرفة حارًّا خانقًا؛ حيث انبعث هواءٌ ساخن من الشبابيك المفتوحة، لم يقل أي شيء. إن ما تسمح تلك الشبابيك المفتوحة بخروجه من هذا البيت كان أكثر أهمية مما تسمح بدخوله.

- طلب مني جيري المجيء.

قال فولك عندما هدأ نحيب بارب قليلًا، فأجهشت.

- نعم يا عزيزي، لقد أخبرني. أعتقد أنه ينظف الحظيرة الكبيرة.

- وهل أخبرك ما الموضوع؟

قال فولك، متسائلًا متى سيأتمن جيري زوجته على الأسرار، هزت بارب رأسها نافية.

- لا.. ربما يود أن يعطيك شيئًا من أشياء لوك، لا أدري. كانت فكرة التنظيف تلك فكرته منذ البداية، قال إن الوقت قد حان لمواجهة الأمر.

لقد تاهت الجملة الأخيرة تقريبًا؛ إذ التقطت زوج جوارب للوك وبدأت دموعها تنهمر من جديد.

- كنت أحاول أن أفكر إذا كان هناك أي شيء ربما تحبه تشارلوت، إنها متلهفة للغاية.

كان صوت بارب مشوشًا خلف المنديل.

- لا يبدو أن شيئًا مما نفعله يساعدها، لقد تركناها مع جليسة أطفال، لكن جيري كان يرى أن نجلبها معنا لنرى إذا كان وجودها وسط الأشياء القديمة يهدئها، قلت له إنني لا أسمح بذلك مطلقًا، يستحيل أن أحضرها مجددًا إلى هذا المنزل بعدما حدث هنا.

ربت فولك على ظهرها، وأجال نظره حول الغرفة بينما كانت تبكي. كانت نظيفة وأنيقة بغض النظر عن طبقة من الغبار، لقد حاولت كارن أن تُبقي كل شيء منظمًا، ولكن كانت هناك عدة لمسات شخصية تجعل الغرفة جذابة.

ثمة صور طفل مؤطرة موضوعة فوق وحدة أدراج بدت ذات جودة عالية، لكن مستخدمة قبلًا لفترة طويلة، يتضح أن كل المال المخصص للديكورات قد أُستثمِر في غرف الأطفال، تمكن فولك من رؤية صفوف من الملابس معلقة على علّاقات بلاستيكية من خلال فتحة في الدولاب، يوجد على اليسار قطع علوية سادة معلقة بجانب البلوزات وبناطيل عمل، وفستان صيفي وحيد، كانت بناطيل لوك وقمصانه محشورة بقليل من الاهتمام على اليمين.

بدا على جانبي السرير أثر النوم المعتاد، هناك لعبة إنسان آلي، وعلبة كريم ليلي، ونظارة قراءة موضوعة فوق مجموعة كتب فوق كومودينو كارن، شاحن موصل بالكهرباء على كومودينو لوك، بجانب كوب قهوة متسخ، ملون يدويًا ومكتوب عليه كلمة: *«أبي»* بحروف عنكبوتية. آثار الرؤوس لا تزال بادية على أكياس الوسائد، فكر فولك أيًا ما كان لوك هادلر يفعله في الأيام التي سبقت موته هو وعائلته فإنه لم يقضِها في النوم على الكنبة، كانت هذه غرفة ينام بها شخصان بكل تأكيد.

تخيل فولك صورة غرفة نومه في عقله، كان معتادًا على النوم وسط السرير هذه الأيام، وكان غطاء سريره هو نفس الغطاء الكحلي وهو مراهق، لا أحد ممن رأوه في السنوات الأخيرة شعر بما يكفي من الراحة ليقترح شيئًا مناسبًا للجنسين، كان يعلم أن ممثلي خدمة التنظيف الذين يزورون شقته مرتين في الشهر لا يجدون الكثير لعمله. لم تكن لديه مؤونة، ولم يكن يمتلك الكثير لأسباب عاطفية واكتفى بما بقي له من أثاث منذ ثلاث سنوات، عندما تحولت شقة شخصين إلى شقة لواحد فقط.

«إنكَ كتابٌ مغلق».

قالت للمرة الأخيرة قبل أن تغادر، لقد قالتها مرارًا طوال السنتين اللتين كانا فيها معًا.

أول الأمر قالتها بافتتان، ثم بانزعاج، وأخيرًا باتهام. لماذا لم يستطع أن يشركها في أمره؟ لماذا لم يُرد أن يشركها في أمره؟ ألم يكن يثق بها؟ أم لم يحبها بما يكفي؟ أدرك متأخرًا جدًا أن إجابته عن هذا السؤال لم تأتِ بالسرعة الكافية، مرت لحظة صمت كانت طويلة بما يكفي لكلٍّ منهما ليسمعا ناقوس الخطر، منذ ذلك الحين لم يوضع شيء على كومودينو فولك سوى مجموعة كتب، منبه، وبين الحين والآخر، علبة أوقية ذكرية عاشت معه زمنًا طويلًا.

أجهشت بارب بصوت عالٍ جعله يرجع إلى الغرفة، أخذ فولك بطاقة عيد الأب من حجرها ونظر حوله على أي مكان ليضعها فيه، ولكن بلا طائل.

- أتَرى؟! تلك هي المشكلة بالضبط.

قالت بارب وهي تنظر له بعينيها الحمراوين.

- ماذا يفترض بي أن أفعل بكل متعلقاتهم بحق السماء؟ يوجد الكثير منها ولا يوجد مكان لأضعهم فيه، لا يمكنني وضع جميعها في منزلنا، ولا يمكنني التفريط بها وكأنها ليست أشياء ذات أهمية...

كان صوتها عاليًا عندما أخذت تلتقط قطعًا عشوائية في متناول يدها وتجمعهم إلى صدرها؛ ملابس داخلية من على السرير، لعبة الإنسان الآلي، نظارة كارن، التقطت الكتب الموضوعة على الكومودينو وأطلقت سبابًا عاليًا.

- آه، بحق الله، وتلك الكتب اللعينة المستعارة من المكتبة، إلى متى سيظل إرجاعها متأخرًا؟

التفتت إلى فولك بوجه محتقن وغاضب.

- لا يقول أي أحد إن الأمور ستكون على هذا النحو، أليس كذلك؟ أوه نعم، إنهم جميعًا يشعرون بالأسف لخسارتك، الجميع مهتم للغاية بالتردد بالجوار ويلتقط النميمة عندما تحدث، لكن لا يذكر أحد أن عليك أن تفرغ أدراج ابنك الميت وتُرجع كتبهم المستعارة، هل يفعل أحدهم؟ لا أحد يخبرك كيف تتعامل مع ذلك؟

تذكر فولك صورة صندوق المتعلقات الإضافي لكارن وبيلي الذي تركه خارج باب غرفة النوم بشيء من الشعور بالذنب، أخذ الكتب من يد بارب ووضعها تحت ذراعه وقادها بحزم إلى خارج غرفة النوم.

- يمكنني الاعتناء بذلك بدلًا عنكِ، هيا فقط...

قادها بعيدًا عن غرفة بيلي وببعض الراحة دخلا إلى المطبخ المضيء.

- لنحضر لكِ كوبًا من الشاي.

أنهى جملته، وأخذ يفتح الدواليب القريبة منه. لم يكن لديه أدنى فكرة عما سيجده هناك، ولكن حتى مطابخ مسرح الجريمة يكون بها أكواب عادةً.

راقبته بارب لدقيقة، تململت وقامت من مجلسها، وربتت على ذراعه.

- اسمح لي، أنا أعرف مكان كل شيء.

استقرا في النهاية على تناول القهوة سريعة الذوبان، سوداء، لم تُفرَّغ الثلاجة لمدة أسبوعين.

- لم أشكرك قط يا آرون.

قالت بارب بينما تنتظر غلاية الماء لتنتهي.

- من أجل مساعدتك لنا، وفتحك تحقيقًا لما حدث.

- بارب.. إنني لم أفعل أي شيء مثل ذلك، إنك تعلمين أن ما أقوم به مع الرقيب ريكو ليس بشكل رسمي، أليس كذلك؟ نحن فقط نطرح بضعة أسئلة، لا شيء رسمي.

- آه نعم.. بالتأكيد، إنني أدرك ذلك تمامًا.

قالت ذلك بطريقة جعلته متأكدًا من أنها لا تفعل.

- لكنّ هناك أناسًا تتساءل، ذلك يصنع كل الفرق، لقد ظهر كل شيء إلى النور.

مرت صورة إيلي في عقل فولك، وتمنى ألا يأتي وقت وتندم بارب على ذلك.

- لقد كان لوك ممتنًا دومًا لأنه صديقك.

قالت وهي تصب الماء المغلي في ثلاثة أكواب.

- شكرًا لكِ.

أجاب ببساطة، ولكن بارب أخذت تبحث عن شيء في نبرة صوته.

- لقد كان.

قالت بارب بإصرار.

- أعلم أنه لم يكن بمقدوره قول ذلك، ولكنه كان بحاجة إلى شخصٍ مثلك في حياته، شخص هادئ، برأس يفكر ويعقل فوق كتفيه. اعتقدت دومًا أن ذلك ما جذب لوك في كارن نوعًا ما، لقد رأى نفس النوع من الصفات بها.

فتحت الدرج الصحيح بشكل آلي وأخذت ملعقة.

- هل سبق وقابلتَ كارن من قبل؟

هز فولك رأسه نافيًا.

- هذا مؤسف، أظن أنك كنت ستحبها حقًا، إنها تذكرني -كانت تذكرني- بك كثيرًا، أعتقد أنها كانت قلقة أحيانًا من أن تكون إلى حد ما.. لا أدري،

متبلدة ربما، وأنها كانت الشيء الوحيد الذي يقف بين لوك وأفكاره الجامحة، لكنها لم تكن كذلك، لقد كانت ثابتة، وذكية بحق.. تلك الفتاة. وكانت ما يحتاجه بالضبط؛ لقد جعلت ابني عاقلًا، أنتما الاثنان فعلتما.

نظرت بارب إلى فولك لهُنَيهة وقد مال رأسها جانبًا بحزن.

- كان عليك أن تحضر حفل زفافهما، أو في أي وقت.. لقد اشتقنا إليك.

- إنني...

شرع في قول إنه كان لديه عمل، لكنّ شيئًا في تعبيرات وجهها جعل الكلمات تتوقف على شفتيه.

- بصراحة، لم أشعر أنني مرحب بي.

خطت بارب هادلر خطوتين واسعتين عبر المطبخ تشبه خطواتها القديمة في الماضي، مدت يديها وجذبت فولك بين ذراعيها، حضنته بقوة حتى شعر بالضغط الكامن بداخله بدأ بالتلاشي.

- إنك يا آرون، مرحب بك دومًا في عائلتي، لا تسمح لنفسك بالتفكير بعكس ذلك أبدًا.

ابتعدت وبدت للحظة بارب القديمة، وضعت كوبين من قهوة يتصاعد منهما البخار بين يديه، وأخذت الكتب المستعارة من تحت ذراعه وأومأت ناحية الباب الخلفي إيماءة مصحوبة بنظرة أمومية في عينيها.

- لنأخذ هذه خارجًا إلى زوجي، لأتمكن من إخباره بأنه إذا أراد تنظيف هذا المنزل يمكنه التوقف عن الاختباء بالحظيرة وينظفه بنفسه.

تبعها فولك إلى الخارج عبر الباب الخلفي إلى ضوء الشمس المتقد، مضيقًا عينيه محاولًا تجنب سكب القهوة على معصمه بينما يمر بجانب مضرب كريكت متروك على الأرض.

أهكذا ما كانت ستصبح عليه حياته؟ توارد هذا إلى ذهن فولك فجأة، مضارب كريكت للأطفال وقهوة في مطبخ منزل مزرعة؟ حاول أن يتخيل ذلك؛ يعمل جنبًا إلى جنب مع والده في الهواء الطلق، وينتظر اللحظة التي سيهز فيها والده المسن رأسه ويوكل مسؤولية العمل له، ويقضي ليالي السبت بصحبة لوك في الحانة، ويشاهد مجموعة المواهب ذاتها التي لا تتغير

حتى تمل عيناه من المشاهدة، حفل زفاف سريع لكن جميل، ومولد الطفل الأول بعد انتظار تسعة شهورٍ، ثم بعد ذلك بسنة. كان يعلم أن دوره كأب لن يأتي بشكل طبيعي كليًّا له، ولكنه كان سيبذل جهدًا لأجل ذلك، إنهم يقولون إن الجميع له وضع مختلف عن سواه.

حتمًا كان أطفاله سيصبحون أصدقاء لابن لوك، كان سيتعين عليهم جميعًا أن يأخذوا كل فرصهم من مدرسة ريفية فوضوية.. صحيح، ولكن كان سيظل لديهم مساحات شاسعة من الأرض لينطلقوا فيها.

كان العمل في الأرض سيكون شاقًّا طوال النهار.. بالتأكيد، ولكن الليالي في المنزل ستكون دافئة ومليئة بالضوضاء والفوضى والضحك، والحب. كان سيجد أحدًا هناك في انتظاره دائمًا وأضواء البيت مفتوحة، تُرى من كان من الممكن أن يكون هذا الشخص؟ فكّر.. إيلي؟

تشوشت الصورة وتلاشت على الفور، لو عاشت، ولو لم يرحل هو. لو كان كل شيء مختلفًا.. كانت الفكرة محض خيال خالص؛ لقد كان هناك العديد من الفرص الضائعة لتلك الرؤية لكي تصبح حقيقة.

لقد اختار فولك حياته في ملبورن وكان سعيدًا بها، هكذا فكر. كان يحب فكرة أنه يستطيع أن يمشي في الشارع محاطًا بالكثير من الناس ولا يوجد شخص يعرفه، كان يستمتع بالعمل الذي يتطلب مجهودًا ذهنيًّا من عقله وليس بقصم ظهره.

كانت الحياة أخذًا وعطاءً؛ ربما كانت شقته فارغة وساكنة عند عودته من العمل في نهاية كل يوم، لكنه لم يكن تحت أعين الناس المُراقِبة التي تتلصص عليه لتعرف آخر أخباره، لم يصدر جيرانه الأحكام عليه، أو يتحرشوا به ويروجوا الشائعات عن عائلته، ولم يتركوا جيف الحيوانات أمام بابه، فقط تركوه وشأنه.

كان يدرك أن لديه عادة أن يُبقي الناس بعيدين عنه طولَ ذراعٍ، وجمع المعارف بدلًا من الأصدقاء المقربين، لكن أفضل شيء على الإطلاق أن أحدهم لن تطفو جثته المتورمة ممتلئة بالكسور على سطح أحد الأنهار على مقربة من منزل العائلة، وأجل، لقد قاتل في انتقاله اليومي لمسافة طويلة من وإلى العمل، وقضى الكثير من أيامه تحت أضواء الفلورسنت في مكتبه، ولكن على

الأقل لم تكن حياته معلقة بخيط رفيع على نزوة من نزوات الطقس، على الأقل أنه ليس مضطرًا إلى أن يعايش هذا القدر من الخوف واليأس بفعل السماء المحترقة، حتى إن إمكانية أن ينهي الإنسان حياته بمسدس هي بمكانة رد فعل طبيعي.

من الممكن أن لوك هادلر كان لديه نور مضاء في انتظار عودته إلى المنزل، لكنّ شيئًا آخر من هذا المجتمع التعيس واليائس قد تسرب من ذلك الباب الأمامي إلى داخل منزله، وظل حتى أصبح متعفنًا وثخينًا وأسود بما يكفي ليطفئ هذا الضوء إلى الأبد.

أصبح مزاج فولك متعكرًا عندما وصلا إلى جيري، والذي كان مستندًا إلى مكنسة خارج إحدى الحظائر، نظر إليهما نظرة متفاجئة عندما اقتربا منه، ورمى زوجته بنظرة حانقة.

- لم أكن أعلم بوصولك.

قال بينما يناوله فولك أحد الأكواب.

- لقد كان يساعدني بالداخل.

- حسنًا، شكرًا.

بدا جيري غير متأكدٍ.

- ما زال هناك القليل يجب فعله، عندما تُنهي ما تعبث به هنا بالخارج.

قالت بارب وهي تبتسم لزوجها.

- يبدو أنك حتى لم تنجز نصف ما أنجزته أنا.

- أعلم، أنا آسف.. إن الوجود هنا أصعب مما كنت أتوقع.

التفت جيري نحو فولك.

- كنت أظن أننا تمكنًا من مواجهة الأمر، وتحدينا الأشياء.

وحوّل نظره نحو المنزل.

- انظر، هل يوجد أي شيء بالداخل تود الاحتفاظ به؟ صور أو ما شابه؟ يمكنك ذلك.

لم يستطع فولك تخيل أنه من الممكن أن يأخذ تذكارًا واحدًا من ذلك البيت الفظيع إلى حياته الخاصة، هز رأسه نافيًا.

- إنني على ما يرام، شكرًا لك يا جيري.

أخذ رشفة كبيرة من القهوة وابتلعها بسرعة لدرجة أنه كاد يختنق. شعر أنه راغب في الهروب من ذلك المكان، ودَّ لو تغادر بارب ليتمكن من التحدث مع جيري بمفردهما.

ابتلعهم الصمت جميعًا بدلًا من ذلك وهم ينظرون إلى الأفق، تمكن فولك من تحديد مزرعة مال ديكون تجثم بقبح وتحتل الأرض على بُعد بجانب التل، تذكر قول نادل الحانة إن مزرعة ديكون ستنتقل إلى ابن أخيه.

- ما الذي تنوي فعله بهذا المكان؟

سأل فولك، نظر جيري وبارب إلى بعضهما بعضًا.

- إننا لم نقرر بعد، سنضطرُّ إلى عرضه للبيع على ما أظن، إن أمكننا ذلك، ولكن المال سيُودَع من أجل تشارلوت، من المحتمل أن نزيل المنزل أيضًا، لنبيعه كقطعة أرض فقط.

همهمت بارب باستهجان، فنظر جيري إليها.

- أجل، أعلم يا عزيزتي.

بدت نبرة صوته مستسلمة.

- ولكنني لا أريد رؤية أي أحد يأتي راغبًا في العيش في هذا المنزل بعد كل هذا، هل بإمكانك ذلك؟ كما أن الغرباء لا يقفون طابورًا ويودون الانتقال إلى هنا.

- هل ذكر دو أو ديكون أي شيء بخصوص الالتحاق بالجيش؟ أو بيع الأراضي إلى المستثمرين الآسيويين؟

التفتت بارب نحوه وعلى وجهها أشد تعابير الاشمئزاز.

- إننا لا نبيع هذين الاثنين ورقة نقدية بخمسة دولارات مقابل عشرة دولارات، ناهيك بالعمل معهم، أليس كذلك يا جيري؟

أجاب زوجها بهزة رأس نافية، ولكن فولك شعر أن لديه وجهة نظر أكثر واقعية عن سوق العقارات في كيوارا.

- لم نحصل على شيء سوى ثلاثين سنة من العذاب من ناحيتهم.

تابعت بارب وقد تعالَى صوتها أكثر.

- إننا لن نساعده الآن، لقد اعتاد مال ديكون على التسلل في أثناء الليل ليزيل الحواجز، هل كان لديك علم بذلك؟ وكأننا أغبياء لدرجة ألا نلاحظ، وكان يأخذ أي شيء يجده غير مثبت بالمسامير، لقد كنت أعلم أنه هو من دعس كلب لوك طوال كل تلك السنوات الماضية مهما استمر في إنكار ذلك، هل تتذكر ذلك؟

أومأ فولك، كان لوك يحب ذلك الكلب، كان في الرابعة عشرة من عمره وكان يبكي دون انقطاع بينما يسحبه إلى جانب الطريق.

- وكان لديه حشد من رجال البلدة يتسكعون طوال اليوم عندما كان شابًا، أليس صحيحًا يا جيري؟ يسكرون ويخوضون أرجاء الشوارع بشاحناتهم، ويشغلون الموسيقى بأعلى صوت وهو يعلم أن علينا أن ننهض من طلعة الفجر للاعتناء بالمزرعة.

- لقد مر وقت طويل على ذلك الآن يا حبيبتي.

قال جيري فالتفتت بارب نحوه.

- هل تدافع عنه؟

- كلا.. رباه، لا. أنا فقط أوضح حقيقة الأمر، إنه لم يصبح قادرًا على فعل أي شيء من هذا القبيل منذ مدة طويلة، أليس صحيحًا؟ أنت تعلمين ذلك.

فكر فولك في مواجهته الغريبة مع ديكون في الحانة.

- يبدو أنه مصاب بشيء من الجنون.

تهكمت بارب.

- أهذا ما يطلقون عليه؟ حياة بائسة من الأفعال السيئة تلحق بوغد سكير، إذا سألتني.

تناولت رشفة من القهوة ونظرت نحو أرض ديكون، عندما تكلمت مرة أخرى أحس فولك بنبرة ندم.

- لقد شعرت بالأسف من أجل إيلي، على الأقل كان بإمكاننا أن نغلق الباب في وجهه، ولكن الفتاة المسكينة كانت مضطرة إلى العيش معه، أظن أنه كان يعتني بها بطريقته، ولكنه كان شديد الحماية، أتذكر الحقل العلوي يا جيري؟

- لم نستطع إثبات أنه كان هو.

- كلا، ولكنه كان هو. ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟

التفتت بارب نحو فولك.

- حدث ذلك عندما كنتم أنتم الأولاد في سن الحادية عشرة، كان لم يمر وقت طويل على هروب والدة إيلي، وأنا لا ألومها. الفتاة المسكينة لقد كانت بائسة، أليس كذلك يا جيري؟ كانت شديدة النحافة ولم تكن تأكل كما يجب، وكانت لديها تلك النظرة في عينيها، كما لو أن نهاية العالم قد اقتربت، نهاية الأمر ذهبتُ إلى مال لأخبره أن ذلك ليس صحيحًا وأنه يجب أن يفعل شيئًا، وإلا فإنها سوف تمرض تحت وطأة كل ذلك القلق.

- وماذا قال لكِ؟

- حسنًا، لقد أشار إلى الباب قبل أن تخرج الكلمات من فمي، تمامًا كما توقعت، ثم بعد ذلك بأسبوع كان حقلنا الخلفي ميتًا، هكذا فجأة بلا شيء. أجرينا بعض الاختبارات وكانت حموضة التربة خاطئة تمامًا.

تنهد جيري.

- أجل، إن ذلك ممكن الحدوث، لكن...

- ولكنه يحدث بسهولة أكبر عندما يضخ جارك الكيماويات على الأرض، لقد كلَّفنا ذلك آلاف الدولارات في تلك السنة، لقد عانينا لنحافظ على وضعنا، ولم تتعافَ الأرض جيدًا قط.

تذكر فولك ذلك الحقل، وتذكر المحادثات المحتدة حول طاولة عشاء عائلة هادلر طوال تلك السنة.

- لماذا كان يفلت دومًا بفعلته؟

- لم يكن هناك دليل أنه هو مَن فعل.

قال جيري مرة أخرى.

- ولكن...

رفع يده؛ إذ أوشكت بارب أن تقاطعه.

- ولكن أنت تعلم كيف هو الحال هنا يا صديقي، إن الناس يستغرقون وقتًا طويلًا حتى يحركوا ساكنًا، كان هكذا من قبل مثلما هو الآن، كنا جميعًا بحاجة إلى بعضنا لكي نتدبر الأمر، عمِل مال ديكون مع الكثير منّا وعملنا نحن جميعًا معه، وكان هو يقدم الكثير من الخدمات حتى تزداد الديون ويصبح متحكمًا في الناس، إنك إذا وقعت مع ديكون فإنك لم تقع معه وحده، فجأة يتحول جلوسك في عملك بينما تتناول علبة بيرة في سلام في بلدتك إلى جحيم ومن الصعب القيام به، كانت الحياة صعبة بما يكفي منذ البداية.

حدقت إليه بارب.

- لقد كانت الفتاة تعيسة للغاية حتى أغرقت نفسها يا جيري.

جمعت فناجينهم الفارغة معًا مصحوبة بصوت اصطدام السيراميك.

- دعك من العمل والبيرة، كان علينا جميعًا أن نفعل أكثر من ذلك، سأراك بالداخل؛ فلدينا آلاف الأشياء لنقوم بها عندما تكون مستعدًا.

التفتت وتوجهت ناحية المنزل، كانت تمسح وجهها بكمها وهي تمشي.

- إنها محقة.

قال جيري وهو يتابعها بعينيه.

- أيًا كان ما حدث، فإن إيلي كانت تستحق أفضل من ذلك.

التفت إلى فولك وقد امتلأت عيناه بالتأثر، كأنه قد أحرق كل السنين الماضية واختزلها في الأسابيع القليلة الأخيرة.

- شكرًا لبقائك بجانبنا، سمعنا أنك كنت تطرح أسئلة عن لوك.

- لقد بدأت أفعل.

- هل يمكنني أن أسأل عما تعتقده؟ هل قتل لوك كارن وبيلي؟

- أعتقد...

قال فولك بحذر.

- هناك احتمال أنه لم يفعل.

- رباه، هل أنت متأكد؟

- كلا، لقد قلتُ احتمالًا.

- ولكن هل تظن أن هناك أحدًا آخر محتملًا أن يكون متورطًا؟

- ربما، نعم.

- هل الأمر مرتبط بما حدث مع إيلي؟

- إنني لا أعلم حقًّا يا جيري.

- ولكن ربما؟

- ربما.

عمَّ الصمت.

- رباه.. اسمع، هناك شيء كان عليَّ إخبارك به منذ البداية.

* * * *

كان جيري هادلر يشعر بالحر لكنه لم يكن منزعجًا من ذلك، كان يخبط على عجلة القيادة في لحنٍ خفيف ويدندن مع نفسه، أدفأت شمس المساء ساعده عبر النافذة بينما كان يقود على الطريق الفارغ وحده، كانت الغابات المطيرة مزدهرة ذلك العام، وكان يعجبه ما يراه بعيدًا عن المزرعة في تلك الأيام، يحدق إلى زجاجة النبيذ الفوارة الملقاة على المقعد بجانبه، كان قد زار البلدة ليحضر بعض المستلزمات وخطف زيارة خاطفة إلى الخمارة، أخذها إلى المنزل ليفاجئ بارب، وكان يتمنى أنها كانت مشغولة في إعداد يخنة لحم الماعز، الخاص بيوم الجمعة، خاصتها، فتح جيري الراديو، انبعثت منه أغنية لم يتعرف عليها، ولكنه أحب إيقاع الجاز بها، أومأ برأسه فجأة وضغط بقدمه على الفرامل حيث ظهر أمامه مفترق طرق.

* * * *

- إنني أعلم أنك أنت ولوك كنتما تكذبان بخصوص شهادتكما يوم وفاة إيلي ديكون.

كان صوت جيري الآن هادئًا لدرجة أن فولك اضطر إلى أن يصغي جيدًا ليسمعه.

- الأمر هو أنني أظن أنني لست الوحيد مَن يعلم ذلك.

* * * *

كان جيري لا يزال على بعد عشرين مترًا من مفترق الطرق عندما ظهر شخص مألوف له عبر الطريق يقود دراجة، كان رأس ابنه متدليًا نحو الأسفل ويقود الدراجة باهتياج، لاحظ جيري بشرود أن شعر لوك بدا أملس إلى الوراء ولامعًا في ضوء الشمس الخافت، على عكس شعره المنسدل عادةً، لم يكن يليق به كثيرًا، زاد لوك سرعته عبر مفترق الطرق دون حتى أن ينظر نظرة واحدة لأيٍّ من الاتجاهين. تنهد جيري مستهجنًا، كان ينبغي له أن يتكلم مع هذا الفتى، لحُسن الحظ أن الطرق كانت فارغة معظم الأوقات، ولكن ذلك بالطبع لا يعني أنها آمنة، سيتسبب لوك في قتل نفسه إذا استمر يتصرف هكذا.

* * * *

- لقد كان قادمًا من الجنوب، من اتجاه النهر، أبعد ما يكون عن الحقول التي ادَّعيتما أنكما كنتما فيها أيها الأولاد، أنت لم تكن معه، وبندقية الصيد خاصته لم تكن معه.

- النهر ليس المكان الوحيد بالجنوب، هناك مزارع لأحدنا، ومسار دراجات للآخر.

هز جيري رأسه نافيًا.

- لم يكن لوك على مسار الدراجات، لقد ارتدى قميصه الرمادي المفضل وقتها، هل تعرفه؟ ذاك القميص البشع اللامع ذو الأزرار المفتوحة الذي كان يرتديه في المناسبات الخاصة دائمًا، أعتقد أنه كان متأنقًا للغاية في ظهيرة ذلك اليوم، كما لو أنه كان متجهزًا لموعد أو شيء مثل ذلك، كان شعره مصففًا للخلف، قلت لنفسي في ذلك الوقت إنه ربما يجرب قصة شعر جديدة.

وضع جيري يده على عينيه للحظات طويلة.

- ولكنني كنت أعلم طيلة الوقت أن شعره كان مبللًا.

* * * *

كان لوك بحالٍ جيدة في الطريق عندما أوقف جيري سيارته؛ أوقفها ليتفحص كلا الطريقين كأنما ليثبت نظرية ما. على اليمين، أخذ ظِل ابنه يتضاءل، وعلى اليسار، تمكن فقط من رؤية أبعد ما تصل إليه عيناه من الطريق الفارغ. الطريق فارغ تمامًا، وضع جيري قدمه على دواسة الوقود وانطلق بسيارته وألقى نظرة على مرآة الرؤية الخلفية.

انعكست صورة في المرآة واختفت في أقل من ثانية. بل اختفت بمجرد أن رآها: شاحنة بيضاء مرت خلال مفترق الطرق، وقد سلكت الطريق الأيسر، متبعة الاتجاه الذي رجع منه ابنه.

* * * *

ظل فولك صامتًا للحظات طويلة.

- ألم ترَ مَن الذي كان يقود الشاحنة؟

قال فولك وهو ينظر إليه من قرب.

- لا.. لم أستطع التحديد، لم أكن منتبهًا، وقد مرت بسرعة شديدة فلم أستطع أن أرى، ولكنّ كائنًا مَن كان، إنني أجزم أنه رأى لوك.

لم يكن جيري ينظر إلى فولك.

- لقد أخرجوا جسد الفتاة من النهر بعد مرور ثلاثة أيام، ولقد كان ذلك أسوأ يوم في حياتي.

ضحك ضحكة صغيرة غريبة.

- حسنًا، حتى الوقت الحالي. كانت صورتها في كل مكان، هل تتذكر؟

أومأ فولك، كانت صورة إيلي تبدو وكأنها تحدق بعينين فارغتين ومشوشة إلى صفحات الجرائد لأيام، كانت بعض المتاجر تضع الصورة كملصق مؤقت لجمع المال من أجل نفقات الجنازة.

- لقد عشت في خوف لمدة عشرين عامًا؛ خِيفة أن يظهر ذلك السائق فجأة ليكشف الحقيقة، يذهب ليطرق باب قسم الشرطة ويقول إنه رأى لوك في ذلك اليوم.

- ربما لم يره أحدٌ فعلًا.

- ربما.

نظر جيري ناحية منزل ابنه.

- أو ربما أيضًا أنه عندما قرر أن يطرق بابًا، لم يكن باب قسم الشرطة.

الفصل التاسع عشر

كان فولك جالسًا في سيارته على جانب الطريق، يفكر فيما قاله جيري، إن الشاحنات البيضاء تُعد ولا تحصى في كيوارا، سواء في وقتها أو الآن، يمكن ألا يكون هناك شيء، فكر فولك أنه إذا كان هناك أحدٌ قد رأى لوك عائدًا من اتجاه النهر ذاك اليوم، فما الذي منعه إذن من أن يتكلم في حينها؟ مَن الذي سيستفيد من إبقائه سرًّا لعشرين عامًا؟

أخذت فكرة واحدة تزعجه كحكَّةٍ في جلده؛ إذا كان سائق الشاحنة قد رأى لوك، أليس من الممكن أن يكون لوك قد رأى السائق؟ ربما -تزايدت الفكرة وجذبت المزيد من الانتباه- ربما يكون الأمر على العكس، ربما كان لوك من كتم سر شخص آخر، وربما -لسبب ما- نفد صبر لوك.

أخذ فولك يحدق إلى الحقل المكفهر وهو يقلب الفكرة في عقله جيئة وذهابًا. أخيرًا، تنهد وأخرج هاتفه، سمع خشخشة الأوراق عبر سماعة الهاتف عندما أجاب ريكو.

- هل أنت في القسم؟

كان يوم أحد جميلًا بالخارج، تساءل عما ستفعله زوجة ريكو من أجل ذلك.

- أجل.

تنهد.

- أعمل على بعض الأوراق الخاصة بقضية هادلر، وكأن هناك فائدة منها، وأنت؟

أخبره فولك بكل ما قاله له جيري.

- حسنًا.

زفر ريكو.

- وماذا تظن أنت؟

- لا أدري، يمكن أن يعني ذلك شيئًا، ويمكن كذلك ألا يعني أي شيء، هل ستظل هناك لوقت أطول؟

- أنا آسف لقول إنني سأظل هنا لوقت طويل جدًا.

- أنا قادم إليك.

لم يكد فولك أن يضع هاتفه حتى أخذ يهتز مجددًا، تحولت ملامحه العابسة إلى ابتسامة خفيفة عندما فتح الرسالة ورأى مَن أرسلها.

«*هل أنت مشغول؟*»، كتبت غريتشن، «*جائع؟ سأتناول الغداء مع لاكي في سنتري بارك*».

فكر فولك في ريكو، فتسارعت الأفكار إلى عقله وهو في القسم يتجول بين التقارير، والقهوة التي تحرق معدته منذ مغادرته منزل عائلة هادلر، وتذكر ابتسامة غريتشن عندما تركته واقفًا تحت النجوم خارج الحانة.. «*لا بد وأن ذلك الفستان من أجلك خِصِّيصًى أيها الأخرق*».

في الطريق، كتب إليها، وفكر للحظة. ولكن لا أستطيع البقاء طويلًا، لم ينجح ذلك في تسكين الشعور بالذنب، ولكنه لم يهتم.

كان سنتري بارك هو المكان الوحيد الذي رآه فولك في كيوارا يبدو أنه محط اهتمام وأنه قد استُثمِرَت فيه بعض الدولارات؛ فقد كانت البساتين جديدة مزروعة بعناية بنبتات الصبار الجذابة التي تحتمل الجفاف، أعطت بدورها مظهرًا بديعًا للمنتزه، شعر فولك أنه لم يره لأسابيع.

لم يعد المقعد الذي اعتادوا قضاء ليالي عطلاتهم عليه موجودًا، شعر بالأسف عند ملاحظة ذلك، كانت هناك ألعاب أنيقة تلمع بالألوان البراقة بدلًا من ذلك، كانت ممتلئة بالأطفال، وكل الطاولات التي تحيط بالمكان مشغولة، تصادمت عربات الأطفال لتحصل على مساحة وسط صناديق التبريد بينما يتجاذب الآباء أطراف الحديث، لا يُقطع حديثهم إلا لتوبيخ وإطعام صغارهم.

رأى فولك غريتشن قبل أن تراه هي، وتوقف للحظة يشاهد من بعيد، كانت تجلس وحدها على طاولة في الطرف، جالسة على أحد المقاعد وساقاها

الطويلتان ممدودتان أمامها، ومسندة كوعيها إلى مسند المقعد من خلفها، تجمع شعرها الأشقر في كعكة عشوائية أعلى رأسها، وعليها نظارة الشمس. كانت تراقب الأطفال وهم يلعبون بنظرة دهشة تكسو وجهها، شعر فولك بلمسة أُلفة دافئة. في ضوء الشمس، على بعد مسافة، كانت تبدو وكأنها في السادسة عشرة مجددًا.

لا بد وأن غريتشن أحست بعينيه تنظران نحوها لأنها نظرت إليه فجأة، ابتسمت ولوحت له بيدها ثم ذهبت نحوه، حيته بقبلة على خده وقدمت له علبة طعام مفتوحة.

- تناول شطيرة، لن يقربها لاكي أبدًا.

أخذ واحدة باللحم وجلسا بجانب بعضهما على المقعد، مدت ساقيها مجددًا، فشعر بسخونة فخذها الملتصق بفخذه، كانت تنتعل حذاءً مكشوفًا في قدميها وأظفار أصابع قدميها تلمع باللون الوردي.

- حسنًا، لا يبدو أي شيء كما أتذكره، هذا رائع.

قال فولك وهو ينظر نحو الأطفال وهم يلعبون.

- من أين لهم بالمال لينشئوا كل ذلك؟

- أنا أعلم، كان مقدمًا من جمعية خيرية خاصة بالقرى، كان الحظ حليفنا منذ عامين مع بعض تبرعات فاعلي الخير، لا يجب عليَّ أن أسخر، إنه شيء رائع حقًا. أفضل مكان في البلدة حاليًا، وهو مزدحم طوال الوقت، الأطفال يحبونه، حتى لو أحزنني إزالة مقعدنا القديم.

ابتسمت وهي تراقب طفلًا يدفع صديقه في حفرة الرمال.

- ولكنه أمر عظيم للأولاد الصغار، الله يعلم أنهم لا يملكون الكثير غير هذا المكان هنا.

استرجع فولك صورة الطلاء المتقشر وطوق كرة السلة الوحيد في فناء المدرسة.

- تبدو كتعويض عن المدرسة في رأيي، لقد بدت آيلة للسقوط أكثر مما أتذكر.

- أجل، شيء آخر يمكنك أن تشكر الجفاف عليه.

فتحت غريتشن زجاجة ماء وارتشفت منها رشفة واحدة، أمالت الزجاجة ناحيته بنفس الطريقة التي استخدمتها لتعرض عليه الفودكا. بحميمية هادئة، تناول الزجاجة.

- لا يوجد مال من أجل التطويرات الاجتماعية، كل المال الذي تخصصه الحكومة من أجل البلدة يذهب إلى الدعم الزراعي، لذا لا يتبقى أي شيء من أجل الأولاد، ولكننا محظوظون أن سكوت هو من يدير المدرسة، على الأقل يبدو أنه يحاول أن يفعل شيئًا حقًّا، لكن لا يوجد الكثير مما يمكن صُنعه مع حساب بنكي فارغ، وليس بإمكاننا أن نُثقل كاهل الآباء بأي شيء إضافي.

- ألا يمكن الاستعانة بفاعلي الخير أولئك مرة أخرى؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة.

- لقد جربنا ذلك بالفعل، كنا نعتقد أننا بصدد الحصول على الكثير من المال هذا العام، رغم أن تلك كانت مجموعة مختلفة عن أصحاب الملعب؛ كانت مؤسسة خاصة، جمعية كروسلي التعليمية، هل سمعت بهم من قبل؟

- لا أظن ذلك.

- ذلك النوع من الناس الذين يبالغون في إظهار اهتمامهم وانشغالهم بالتعليم في القرى الفقيرة، بدا ذلك مناسبًا جدًّا لنا، من المفترض أنهم يقومون بإمداد المدارس الريفية الفقيرة بالموارد المادية، ولكن من الواضح أن هناك مدارس أخرى أكثر منا فقرًا وتأخرًا إذا أمكنك تصديق ذلك، فليكن الله بعونهم.

توقفت لتلوح لابنها الذي كان واقفًا أعلى زلاقة محاولًا جذب انتباههما إليه، انزلق على الزلاجة بينما ينظران.

- إن لاكي سعيد هناك حاليًا، ذلك شيء ما على الأقل.

مدت يدها إلى علبة الطعام عندما اقترب الولد منهما، أخذت شطيرة من العلبة، ولكن لم يكترث لها ابنها وأخذ يحدق إلى فولك بدلًا من ذلك.

- مرحبًا يا صديقي.

مد فولك يده.

- أنا آرون، لقد تقابلنا مسبقًا، هل تذكر؟ لقد كنا أنا وأمك أصدقاء في صغرنا.

صافحه لاكي وابتسم للموقف الجديد عليه.

- هل رأيتني وأنا على الزلاجة؟

- لقد رأيناك.

أجابت غريتشن، على الرغم من أن السؤال لم يكن موجهًا إليها، وأومأ فولك مؤمنًا.

- لقد كنت شجاعًا بحق أيها الصديق، لقد كانت مسافة مرتفعة كثيرًا.

- يمكنني القيام بذلك مرة أخرى، انظر.

انطلق لاكي عدوًا، كانت غريتشن تراقبه وهو يجري بابتسامة مرحة على وجهها، انتظر الفتى حتى ولاه فولك كامل انتباهه قبل أن ينزلق، ثم انطلق مباشرة ليقوم بفعلها ثانية، رفع فولك إبهاميه له عاليًا.

- شكرًا، إنه مولع بالرجال الكبار في الوقت الحالي، أعتقد أنه بدأ يلاحظ الأولاد الآخرين مع آبائهم و ... حسنًا، كما تعلم.

رفعت كتفيها متحاشية النظر إلى عيني فولك.

- على كلٍّ، تلك هي الأمومة، أليس كذلك؟ ثمانية عشر عامًا تحت وطأة الشعور بالذنب.

- ألا يتدخل والده أبدًا؟

سمع فولك نبرة الفضول التي تغلف صوته، وكذلك لاحظتها غريتشن وابتسمت عن قصد.

- كلا، بإمكانك أن تسأل، لا بأس. لقد رحل والده، ليس أحدًا تعرفه، إنه ليس من البلدة، كان عاملًا مر من هنا لفترة، لا أعلم أي شيء عنه سوى أنه ترك لي هذا الفتى الرائع. وأجل، أعرف كيف يبدو ذلك الأمر.

- لا يبدو كأي شيء، يبدو أن لاكي محظوظ أنك أمه.

- شكرًا، لا يبدو الأمر كذلك دومًا، أتساءل أحيانًا عما إذا كان عليَّ أن أبذل جهدًا للتعرف على أحدهم، من أجل كلينا، محاولة لمنح لاكي شعور العائلة، كي أجعله يرى كيف يكون شعور أن يكون لديه أمٌّ ليست متوترة ومرهقة طوال الوقت، لا يهم كيف يبدو ذلك. ولكنني لست أعلم...

توقفت عن الكلام وابتسمت له ابتسامة خفيفة، فخشي فولك أن تكون قد شعرت بالإحراج.

- إن فرص المواعدة في كيوارا تكاد تكون منعدمة، شيء مثير للاشمئزاز.

ضحك فولك.

- لم تتزَوجي قط إذن؟

هزت غريتشن رأسها.

- نعم، لم أتزوج قط.

- وأنا أيضًا.

تجعدت عينا غريتشن في حماس.

- أجل، أعلم ذلك.

لم يكن فولك يعلم السبب إطلاقًا وراء أن النساء يتمكنَّ من معرفة ذلك دومًا.

نظر كل منهما جانبًا وابتسما لبعضهما، تخيل فولك غريتشن ولاكي وهما يعيشان وحدهما في منزل كيلرمان الضخم الذي اشترته غريتشن، وتذكر العزلة المخيفة التي تخيم على أرجاء مزرعة هادلر، حتى فولك الذي يعتز بمساحته الخاصة أكثر من الجميع بدأ يتوق إلى الصحبة خلال ساعتين من البقاء وسط الحقول المنعزلة.

- لا بد وأنك تشعرين بالوحدة في المزرعة وأنت وحدك.

قال وشعر أنه يود أن يعض لسانه ندمًا.

- آسف، لقد كان سؤالًا عاديًا ولست أقصد أي شيء من ورائه.

ضحكت غريتشن.

- أعلم ذلك، يمكنك فعل الكثير بتلك الكلمات هنا أكثر مما تظن.

تجهم وجهها.

- ولكن أجل، يمكن أن يمثل ذلك مشكلة، ليس لافتقاد الصحبة فحسب، ولكن الشعور بالعزلة الذي يجتاحني، لا أحصل على خدمة إنترنت جيدة وحتى شبكة الهاتف ليست جيدة كفاية، ناهيك بأنه ليس هناك طوابير من الناس يحاولون الاتصال بي على كل حال.

توقفت وضمت شفتيها في خط رفيع.

- أتعلم، إنني لم أدرِ بما حدث للوك حتى صباح اليوم التالي.
- حقًا؟

كان فولك مصدومًا.

- نعم، لم يخطر على بال أي أحد أن يتصل بي، لا جيري ولا بارب.. لا أحد. على الرغم من كل شيء قد مررنا به، أعتقد أنني...

هزت كتفيها هزة خفيفة.

- أعتقد أنني لم أكن من أولوياتهم، في ظهيرة يوم الواقعة، أخذت لاكي من المدرسة، ذهبنا إلى المنزل، وتناولنا العشاء، خلد هو إلى النوم وجلست أنا أشاهد فيلمًا مسجلًا، لقد كان كل شيء عاديًا ومملًا لأقصى حد، ولكن اتضح أنها كانت آخر ليلة طبيعية، هل تفهم؟ لا شيء مميز، ولكنني على استعداد أن أضحي بأي شيء من أجل أن أعود إلى ذلك، لم أكن حتى صباح اليوم التالي على بوابة المدرسة لأكتشف أن الجميع يتحدثون عن الأمر، كان الجميع يعرف و...

انزلقت دمعة إلى أنفها.

- ولم يتكبد أيٌّ منهم عناء إخباري بمكالمة هاتفية، لم أستطع أن أصدق.. أعني، لم أستطع حقًا أن أصدق أننيَّ، قدت سيارتي متجهة إلى مزرعته، ولكنني لم أستطع أن أصل إلى هناك تمامًا، كان الطريق مقفلًا وضباط الشرطة في كل مكان، فعدت إلى المنزل. بعد ذلك ظهر الخبر في الأخبار بكل تأكيد، إذن سيصل الأمر إلى مسامع الجميع.

- أنا آسف جدًا يا غريتش.

قال فولك وهو يضع يده على كتفها.

- إذا كان ذلك سيشكل فرقًا، فأنا أيضًا لم يتصل بي أيُّ أحد، لقد علمت بالأمر عندما شاهدت صورته على موقع أخبار.

كان فولك لا يزال يحس بالصدمة التي أحس بها عندما رأى تلك الوجوه المألوفة له ملحقة بذلك العنوان الإخباري الفظيع.

أومأت غريتشن، وتركز بصرها فجأة على شيء ما خلفه، تجهم وجهها ومسحت دموعها بسرعة.

- رباه، انتبه.. خلفك، ماندي ڤيسر هل تذكرها؟ كان اسمها ماندي مينتل حينها. يا إلهي، لا ينقصني سوى إزعاج هذه المرأة الآن.

التفت فولك، تذكر ماندي، تلك الفتاة ذات الملامح الصارمة والشعر الأحمر قد تحولت إلى امرأة أنيقة وضئيلة وذات شعر أحمر قصير، كانت تحمل طفلًا رضيعًا معلقًا إلى صدرها بواسطة حمالة رُضّع مربوطة وبدت كأنها مصنوعة من أقمشة طبيعية ويتم الترويج لها على أنها «*خالية من الألياف الصناعية*». كان وجهها لا يزال صارمًا بينما كانت تمشي عبر الحشائش الصفراء.

- لقد تزوجت بتيم ڤيسر، لقد كان يكبرنا بعام أو عامين.

كانت غريتشن تهمس بينما اقتربت المرأة.

- لديها طفلان في المدرسة، دائمًا ما تكون منشغلة؛ إذ عينت نفسها متحدثة رسمية لمجموعة الأمهات التعيسة.

توقفت ماندي أمامهما، بدلت نظرها بين فولك وشطيرة اللحم التي كان يمسك بها وجعدت شفتيها في نفور.

- مرحبًا يا ماندي.

كان واضحًا أنها تجاهلته وهي تتظاهر بأنها تطوق رأس صغيرها بيدها لتتحاشى تحيته.

- آسفة لمقاطعتك يا غريتشن.

لم تكن تبدو أنها كذلك.

- هل بإمكانكِ المجيء إلى طاولتنا لثانية؟ كلمة واحدة فقط.

نظرت إلى فولك شزرًا ثم أشاحت بنظرها.

- ماندي...

قالت غريتشن بضجر.

- هل تذكرين آرون؟ من أيام الطفولة؟ لقد أصبح محققًا فيدراليًا الآن.

شددت على كلماتها الأخيرة.

تذكر فولك أنه تبادل قبلة هو وماندي من قبل، في مرقصٍ شبابي، على حد تذكره، كانت بعمر الرابعة عشرة عندما فاجأته وهي تقبّله بشراهة بينما تلتمع الأضواء الملونة على جدران قاعة المدرسة وصوت الموسيقى يصدح من إحدى الزوايا. كان يتساءل عما إذا كانت تذكر ذلك، تأكد أنها تذكر من الطريقة التي عقدت بها حاجبها متحاشية اتصال أعينهما.

- مسرور لرؤيتكِ مجددًا.

مد فولك يده، ليس تحديدًا لأنه أراد مصافحتها، ولكن لأنه كان يعلم أن ذلك سيجعلها تضطرب، حدقت إلى يده الممدودة وهي تبذل جهدًا واضحًا لمقاومة رد الفعل التلقائي المهذب، نجحت في ذلك وتركته ويده معلقة في الهواء، ولقد احترمها قليلًا من أجل ذلك.

- غريتشن، أتسمحين بكلمة؟

كان صبرها ينفد.

نظرت غريتشن في عينيها مباشرة، لم تحرك الأخرى ساكنًا.

- كلما أسرعتِ في قول ما تريدين قوله يا ماندي، كنت أسرع في إخبارك ألا تتدخلي فيما لا يعنيكِ ومن ثَم يستكمل كل منا عطلته.

تجمدت ماندي، نظرت من فوق كتفها إلى حيث تجلس مجموعة من الأمهات لديهن نفس قصة الشعر ويراقبن من خلف نظاراتهن الشمسية.

- حسنًا.. حسنًا، إنني.. إننا لا نشعر بالراحة لوجود آر... لوجود صديقك بالقرب من أولادنا.

وجهت نظرها مباشرة نحو فولك.

- إننا نريدكَ أن تغادر.

- وصلت الرسالة.

قالت غريتشن.

- إذن هل سيغادر؟

- كلا.

قال فولك وغريتشن معًا.

في الواقع فكر فولك أن الوقت قد حان ليتجه إلى القسم لمقابلة ريكو، ولكنه لم يقبل أن يُجبر على المغادرة من قبل ماندي مينتل عليها اللعنة. ضيقت ماندي عينيها واقتربت منه.

- اسمع، حتى هذه اللحظة نطلب منك أنا والأمهات بكل تهذيب، لكن من الممكن بكل سهولة أن يأتي الآباء ويطلبون منك المغادرة ولن يكونوا مهذبين كثيرًا إذا كنت لن تفهم سوى بهذه الطريقة.

- ماندي، بحق الله، إنه شرطي. هل تسمعين ما أقوله؟

- أجل، كما أننا جميعًا سمعنا بما فعله بإيلي ديكون.

كان الآباء يراقبون من جميع أنحاء الملعب.

- حقًا يا غريتشن، لا يمكنك أن تكوني متهورة إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟ أتفرطين بابنك هكذا؟ إنكِ أمٌّ الآن.. عليك أن تتصرفي كأم.

تذكر فولك أن الرجل الذي انتهى به الحال ليصبح زوجًا لـماندي، كان قد كتب قصيدة وألقاها أمام الجمهور من أجل غريتشن في عيد الحب، لا عجب أن المرأة كانت تستمتع بسيطرتها لمرة واحدة.

- إذا كنتِ ستقومين بقضاء وقتك مع هذا الـ ... شخص يا غريتشن، فإنني أفكر في إبلاغ الخدمة الاجتماعية، من أجل مصلحة لاكي.

- أنتِ...

تكلم فولك، ولكن قاطعته غريتشن.

- ماندي ڤيسر.

كانت غريتشن تتحدث بصوت بارد كالمعدن.

- هل تعتقدين أنك تعرفين كل شيء؟ إذن ما رأيك أن تفعلي شيئًا ذكيًا لمرة واحدة في حياتك، التفتي واغربي عن هنا.

استقامت المرأة في وقفتها لا تنوي الرضوخ.

- ويا ماندي! انتبهي إلى تصرفاتك، إذا قمت بأي شيء قد يخسر بسببه ابني دقيقة واحدة من راحة نومه أو يُدمِع عينيه دمعةً واحدة...

لهجة غريتشن الباردة لم يسمعها فولك من قبل، لم تنهِ جملتها وتركتها معلقة في الهواء.

كانت عينا ماندي مفتوحتين على وسعهما.

- هل تهددينني؟ إن ذلك أسلوب عنيف، وإنني لآخذ ذلك على محمل التهديد، لا يمكنني أن أصدقك، بعد كل ما مرت به هذه البلدة.

- إنكِ أنتِ من تهددينني! الخدمة الاجتماعية، هذا لا يُصدق.

- إنني أحاول أن أجعل كيوارا مكانًا آمنًا لأولادنا، هل ذلك كثير؟ ألم نمر بما يكفي من الأحداث السيئة؟ إنني أعلم أنك لم تقضي وقتًا كبيرًا مع كارن، ولكن على الأقل اظهري بعض الاحترام يا غريتشن.

- هذا يكفي يا ماندي، بحق الله، اخرسي واتركينا بهدوء.

قال فولك بحدة.

وجهت ماندي إصبعها نحو فولك.

- كلا، أنت من سيغادر.

التفتت واسترقت النظر بعيدًا.

- إنني أتصل بزوجي.

ترددت كلماتها عبر الملعب عقب ذلك.

كانت غريتشن تستشيط غضبًا فتناولت رشفة ماء، لاحظ فولك يديها ترتجفان، اقترب منها ليربت على كتفها، ثم توقف عندما أدرك أن الناس يراقبونهم، لم يرد أن يزيد الأمر سوءًا.

- أنا آسف، لم يكن عليَّ مقابلتك هنا.

- لستَ أنت السبب، التوتر شديد والحرارة تزيد كل شيء سوءًا.

تنفست نفسًا عميقًا وابتسمت لفولك ابتسامة مرتعشة.

- كما أن ماندي لطالما كانت حقيرة.

أومأ فولك موافقًا.

- هذا صحيح.

- ولمعلوماتك، أنا لم أكن أكره كارن، إننا فقط لم نكن مقربتين، هناك الكثير من الأمهات في المدرسة، لا يتمكن المرء من مصادقتهن جميعًا بالتأكيد.

أشارت برأسها نحو ماندي.

أوشك فولك أن يجيب فقاطعه هاتفه وهو يهتز، تجاهله فابتسمت غريتشن.

- لا بأس، أجب عليه.

لوى قسمات وجهه معتذرًا وفتح الرسالة النصية، لم يستطع تمالك نفسه عندما أنهى قراءة الرسالة.

خمسُ كلمات كتبها ريكو: *«جايمي ساليڤان كذب، تعالَ فورًا».*

الفصل العشرون

- إنه بالداخل.

نظر فولك مليًّا عبر زجاج الباب السميك إلى داخل حجرة التحقيق الوحيدة في القسم، كان جايمي ساليڤان جالسًا على الطاولة ويحدق في يأس إلى كوب ورقي، بدا المزارع أصفر مما كان عندما كانا جالسين في بيته بشكل ما.

كان فولك يشعر بتأنيب الضمير لأنه ترك غريتشن بمفردها في المنتزه، كان مترددًا حتى نظرت في عينيه وأخبرته أن لا بأس، لم يكن يصدقها، فابتسمت له ودفعته تجاه سيارته.

- اذهب، كل شيء على ما يرام، اتصل بي.

فذهب.

- ماذا وجدت؟

سأل فولك ريكو.

أخبره حضرة الرقيب فأومأ فولك في إعجاب.

- لقد كان كل شيء أمام ناظرينا طوال الوقت، إننا فقط لم نتمكن من ملاحظته بين كل شيء آخر حدث في ذلك اليوم.

- أجل، حسنًا، لقد كان يومًا مزدحمًا، وبالأخص لـجايمي ساليڤان على ما يبدو.

انتفض رأس ساليڤان عاليًا لدخولهما، كانت أصابعه مطبقة على الكوب بإحكام.

- حسنًا يا جايمي، أود أن أوضح لك أنك لست مقبوضًا عليك، ولكننا بحاجة إلى توضيح بعض الأشياء التي تحدثنا بشأنها ذاك اليوم، أنت تذكر الضابط الفيدرالي فولك إننا نود أن نستضيفه خلال هذه المحادثة، إذا كنت تنوي ذلك؟

ابتلع ساليڤان ريقه وأجال بصره جيئة وذهابًا غير متأكدٍ من الإجابة الصحيحة.

- أفترض ذلك، إنه يعمل من أجل جيري وبارب، صحيح؟
- ليس بصورةٍ رسمية.
- هل موقفي في حاجة إلى وجود محامٍ؟
- إذا أردت.

ساد صمتٌ، فكر فولك أن محامي ساليڤان، إذا كان لديه واحد في الأساس، قد قضى تقريبًا خمسين أسبوعًا في السنة في التعامل مع قضايا إثبات الملكية والثروة الحيوانية، ستكون هذه القضية بمكانة تجربة جديدة بالنسبة إليه، ناهيك بأتعابه في الساعة الواحدة، بدا ساليڤان قد استنتج النهاية نفسها.

- أنا لست مقبوضًا عليَّ؟
- لا.
- حسنًا إذن، فقط مجرد سؤال، يجب أن أعود.
- جيد، لقد زُرناك منذ يومين يا جايمي، للتحدث معك بشأن يوم مقتل كل من لوك وكارن وبيلي هادلر.
- أجل.
- كان العرق يلتمع على شفة ساليڤان العلوية.
- وخلال زيارتنا أخبرتنا أن بعد مغادرة لوك هادلر مزرعتك في نحو الساعة الرابعة والنصف مساءً بقيت أنت في المنزل، لقد قلت...

راجع ريكو دفتر ملاحظاته.

- «لقد بقيت في المزرعة، قمت ببعض الأعمال، تناولت العشاء مع جدتي».

لم ينبس ساليڤان ببنت شفة.

- هل لديك أي شيء تود قوله لنا بخصوص ذلك الآن؟

بدل ساليڤان عينيه بين فولك وريكو، وهز رأسه نافيًا.

- حسنًا.

قال ريكو ذلك ثم وضع ورقة على المكتب.

- هل تعلم ما هذا؟

اندفع لسان ساليڤان خارج فمه ومر على شفتيه الجافتين، مرتين.

- إنه تقرير من هيئة إطفاء الحرائق بالمدينة.

- نعم، بإمكانك أن ترى على تاريخ الختم هنا أنه كان اليوم نفسه الذي قُتلت فيه عائلة هادلر، في كل مرة تُستدعى سيارة الإطفاء يُسجل واحدٌ مثل هذا، معنى ذلك أنهم جاؤوا استجابةً لبلاغ حالة طوارئ، بإمكانك رؤية ذلك هنا.

أشار ريكو إلى سطور مكتوبة على الورقة.

- وبالأسفل يوجد العنوان الذي استُدْعُوا إليه، هل يمكنك التعرف على العنوان؟

- بالتأكيد.

توقف طويلًا.

- إنه عنوان مزرعتي.

التقط ريكو التقرير.

- كما ورد في الملخص، لقد استُدعِيَ طاقم الإطفاء إلى مزرعتك في الساعة الخامسة وسبعٍ وأربعين دقيقة مساءً، أُرسِل البلاغ تلقائيًّا عندما فعّلت جدتك زر الطوارئ، عندما وصلوا وجدوا جدتك بمفردها في المنزل وكان الموقد مشتعلًا، يقول التقرير ها هنا إنهم أطفأوا الموقد وهدَّأوا روعها، حاولوا الاتصال بك، ولم تُجب، ولكنك عدت بعد ذلك إلى المنزل، كان ذلك في الساعة السادسة وخمس دقائق مساءً، كما هو مذكور هنا.

- لقد كنت في الحقل.

- لم تكن هناك، لقد اتصلت بالرجل الذي كتب التقرير، إنه يذكر رؤيتك آتيًا من الطريق الرئيسي.

حدق جميعهم إلى بعضهم بعضًا، أشاح ساليڤان بنظره أولًا ونظر إلى الأسفل نحو الطاولة كأن إجابة ما ستظهر عليها، كانت هناك ذبابة وحيدة تحوم حول رؤوسهم مصدرة أزيزًا حادًا.

- لقد كنت في الحقل أولًا بعد مغادرة لوك، ولكن بعد ذلك تجولت قليلًا بالشاحنة.

- أين؟

- ليس مكانًا محددًا، بالجوار فقط.

- كن محددًا.

قال فولك.

- كنت جالسًا في أحد الأماكن، لكنه ليس بالقرب من مزرعة هادلر، كنت أريد بعض المساحة للتفكير.

نظر فولك إليه، حاول ساليڤان أن يبادله النظر.

- مزرعتك، كم تبلغ مساحتها؟

تردد ساليڤان وكان يحس بأنه فخ.

- مئتا فدان.

- إنها كبيرة للغاية إذن.

- بما يكفي.

- أخبرني إذن ما الذي يجعل رجلًا يقضي نحو اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة يوميًا وسط حقول تبلغ مساحتها مئتي فدان.. يحتاج إلى أي مساحةٍ إضافية للتفكير؟!

أشاح ساليڤان بنظره.

- أنت تقول إذن إنك ذهبت في جولة بالسيارة، بمفردك. ما الذي دفعك إلى إخفاء ذلك؟

سأل ريكو.

حدق ساليڤان إلى سقف الحجرة، وأخذ يفكر في إجابته الأولى وينبذها، ثم وضع يديه على الطاولة ونظر إلى أعينهما جيدًا للمرة الأولى.

- إنني أعلم كيف يبدو ذلك الأمر وأنا لم أرد التسبب بالمتاعب، لأكون صريحًا، كنت آمل ألا تكتشفا ذلك.

شعر فولك لأول مرة أنه يقول الحقيقة، كان قد عرف من الملف أن ساليڤان في الخامسة والعشرين من عمره، وأنه انتقل إلى كيوارا منذ عشر سنوات مع أبيه المتوفى وجدته، قبل حادثة غرق إيلي بأكثر من عقد وحتى يومنا هذا. سأله:

- ما الذي تعرفه عن إيلي ديكون؟

ظهرت على وجه ساليڤان نظرة خاطفة لم يتمكن فولك من قراءتها؛ إذ وجَّه ساليڤان نظره للأعلى.

- أعرف أنها ماتت منذ سنوات كثيرة، وأعرف...

أومأ إلى فولك.

- أعرف أنك ولوك كنتما صديقَيْها، هذا كل ما أعرفه.

- هل حدثك لوك عنها من قبل؟

هز ساليڤان رأسه نافيًا.

- لم يحدثني أنا، لقد أتى بذكرها مرة أو مرتين، قال إنه كانت لديه صديقة وإنها غرقت، لكنه لم يتحدث كثيرًا عن الماضي.

أخذ فولك يقلب صفحات الملفات حتى وجد الصورة التي كان يبحث عنها ووضعها أمامه على الطاولة، كانت صورة مقربة لصندوق شاحنة لوك من الداخل، مركزة بشدة على الأربع العلامات العرضية بالقرب من جثته.

- هل لديك أي فكرة عن ماهية ذلك؟

أمعن ساليڤان النظر فيهم، أربعة خطوط؛ صفَّان كلٌّ منهما يتكون من خطين على الجانب الداخلي من الصندوق ويبعد كلٌّ منهما عن الآخر نحو مترٍ، لم يلمس ساليڤان الصورة، فقط مرت عيناه على الصورة كأنه يحاول فك شيفرة ما.

- هل بفعل الصدأ؟

قال مجربًا حظه، لم يكن مقتنعًا بما يقول ولا مُقنِعًا حتى.

- حسنًا.

أخذ فولك الصورة مجددًا.

- اسمع، أنا لم أقتلهم.

أصبحت نبرة صوته أعلى.

- كان لوك صديقي، كان صديقًا جيدًا لي.

- ساعدنا إذن.. ساعد لوك، لا تضيع وقتنا بالانشغال بك بينما يجب أن نصبَّ تركيزنا في مكان آخر.

تكونت بقعُ عرقٍ دائرية تحت ذراعي قميص ساليڤان أزرق اللون، وانبعث خيطٌ من رائحة جسمه عبر الطاولة، عم الصمت لفترة.

جازفَ فولك:

- جايمي، أعدك أن زوجها لن يعرف.

نظر إليه ساليڤان وظهر على وجهه شبح ابتسامة لثانية.

- أتظن أني أواعد زوجة أحدهم؟

- إنني أقول لو أن هناك أيَّ أحد يمكنه تأكيد أين كنت، فيجب عليك إخبارنا الآن.

لم يحرك ساليڤان ساكنًا. وظل كلٌّ منهما منتظرًا، ثم هزّ المزارع رأسه هزة صغيرة نافية.

- لا يوجد أحدٌ.

شعر فولك أن ذلك ليس صحيحًا تمامًا، ولكنه أيضًا أحس أنه ليس خطأ تمامًا

- ما أسوأ من أن يُتهم المرء في جريمة قتل ثلاثة أشخاص؟

قال فولك بعد مُضي نصف ساعة وهما يشاهدان ساليڤان داخل شاحنته وهو ينطلق، دارت المقابلة بلا طائل حتى طوى ساليڤان ذراعيه، وامتنع عن

قول كلمة واحدة وأصر على أن يذهب لتفقد جدته أو أن يتصل بأحدهم ليفعل بدلًا عنه.

- أجل، هناك شيء ما يخيفه، ماذا يكون بالضبط؟ تلك هي المسألة.

- سنستمر في تتبعه، سأرجع إلى الحانة لبعض الوقت وسأدرسُ بقية ملفات عائلة هادلر.

كان معلم فولك عندما تتعقد القضية دائمًا يقول: «*تتبع المال*»، لقد كانت تلك نصيحته. أشعل ريكو سيجارة وصحبه حتى سيارته المركونة في مكان ما خلف القسم، بمجرد أن عبرا زاوية المبنى تجمد فولك في مكانه كالميت، ظل واقفًا وهو يحدق، بانتظار أن يتمكن عقله من استيعاب ما تراه عيناه.

- كانت الرسالة منحوتة بإتقان على الطلاء، على الأبواب وغطاء محرك السيارة، كانت الحروف تلمع كاللجين تحت ضوء الشمس.

«سنقضي عليك أيها القاتل الحثالة».

الفصل الحادي والعشرون

توقفت غريتشن عن الكلام فبقيت كلمات لم يحالفها الحظ أن تتحرر من بين شفتيها حيث ظهر فولك بسيارته الخربة متجهًا بها إلى موقف سيارات الحانة. كانت تتكلم مع سكوت ويتلام على الرصيف بينما يلعب لاكي حولهما، تمكن فولك من رؤيتهما في مرآة السيارة وهما ينظران نحوه.

«داعر». قال ويتلام في سره.

كانت الحانة تبعد مسافة مئات قليلة من الأمتار فقط من قسم الشرطة، لكنها بدت كرحلة طويلة عبر مركز المدينة، ترجل من السيارة فعاكسته النقوش الفضية على الطلاء عندما دفع الباب بقوة.

جرت غريتشن نحوه ولاكي في ذيلها.

- يا إلهي، متى حدث ذلك؟

لوح الفتى الصغير إلى فولك قبل أن تتحول عيناه المفتوحتان تجاه السيارة، مد إصبعًا يتحسس الأحرف المنحوتة، ارتعب فولك عندما بدأ ينطق الكلمة الأولى بصوت عالٍ قبل أن تجذبه غريتشن بعيدًا بسرعة، أرسلته ليلعب في الجانب الآخر من موقف السيارات، ذهب الفتى على مضض وبدأ في ضرب وإفساد ما يقابله.

- من فعل هذا؟

- لا أدري.

أصدر ويتلام صفيرًا خفيضًا مشفقًا وهو يلف ببطء حول السيارة.

- أحدهم فعل ذلك بإتقان محكم، ما الشيء الذي استخدمه؟ سكين أو مفك أو شيء من ذاك القبيل؟

- أجل، أنا حقًا لا أعلم.

- حفنة من الأوغاد.

قال ويتلام.

- يا لهذا المكان، إنه يصبح أحيانًا أسوأ من المدينة.

- هل أنت بخير؟

ربتت غريتشن على كوع فولك.

- أجل، أفضل حالًا من السيارة على أي حال.

كان يشعر بالغضب؛ لقد امتلك هذه السيارة لأكثر من ست سنوات، ليس لفخامتها، ولكن لم تسبب له أي نوع من المتاعب قط، لم تكن تستحق أن تُخرّب بواسطة قروي أبله.

سوف نقضي عليك.

التفت فولك إلى ويتلام.

- إنه بشأن شيء من الماضي، هذه الفتاة التي كانت صديقتنا.

- لا بأس، لقد سمعت القصة.

أومأ ويتلام متفهمًا.

مررت غريتشن إصبعًا على العلامات.

- اسمع يا آرون، عليك أن تتوخى الحذر.

- سأكون بخير، هذا أمر مزعج، ولكن...

- كلا، الأمر أكثر سوءًا من ذلك.

- نعم، على أي حال، ما الذي ينوون فعله أكثر من ذلك حقًا؟ هل سيقتلونني؟

- لست أدري، انظر لما حدث لعائلة هادلر.

- ذلك أمر مختلف قليلًا.

- هل أنت واثق من هذا؟ أعني، إنك لا تعرف حقًّا.

نظر فولك إلى ويتلام ليدعمه لكن مدير المدرسة رفع كتفيه في حيرة.

- إن العيش في هذا المكان صعبٌ للغاية يا صديقي، تتضخم الأشياء الصغيرة أسرع مما تتوقع، يجب فقط أن تعرف ذلك، ولا ضير من توخي بعض الحذر؛ خصوصًا أن الأمرين حدثا في اليوم نفسه.

حدق إليه فولك.

- الأمران؟

نظر ويتلام إلى غريتشن نظرة خاطفة، التي تبدلت ملامحها في غير ارتياح.

- أنا آسف، لقد ظننت أنك قد رأيتها حتى ذلك الوقت.

- رأيت ماذا؟

لم يُجب أيٌّ منهما، نظر فولك إليهما مستفهمًا.

- حسنًا؟

- كل تلك المنشورات، إنها في كل أنحاء البلدة.

كانت الحانة مزدحمة، مع ذلك تمكن فولك من سماع صياح ماكمردو القوي يتعالَى على خليط الأصوات الصاخبة في المكان، توقف عند المدخل خلف ويتلام.

- أنا لا أنوي الدخول في مشاجرة معك يا صديقي.

قال ماكمردو من خلف المَشْرَب.

- انظر حولك، هذه حانة وليست دولة ديمقراطية.

كان ممسكًا بكومة من المنشورات في قبضته الكبيرة، كانت تشبه تلك التي تحترق في جيب فولك فاضطر إلى أن يقاوم رغبته؛ أخذها من يده والنظر إليها مجددًا، كانت جودتها سيئة، على الأغلب طبعها أحدهم خمسمائة مرة في مكتبة البلدة الصغيرة.

كُتبت بضع كلمات في الأعلى بالبنط العريض: «*إيلي ديكون، 16 عامًا، رحمها الله*». وبالأسفل صورة لوالد فولك عندما كان في أوائل الأربعينيات، كان يوجد بجانبها صورة التُقطت بعجالة لفولك نفسه ويبدو أنها قد التُقطت وهو يغادر الحانة، التُقطت الصورة من أحد الجوانب، وتجمدت نظرة عابسة لحظية على وجهه.

كُتب بخط أصغر أسفل الصور: «*هذان الرجلان متهمان في مقتل إيلي ديكون غرقًا، نحتاج المزيد من المعلومات، احموا مدينتنا! حافظوا على أمن كيوارا!*».

كانت غريتشن قد عانقته قبل قليل في موقف السيارات وهمست في أذنه:

- ما أولئك سوى حفنة من الحمقى، ولكن انتبه على نفسك مع ذلك.

جذبت لاكي المحتج وغادرت، وسهّل ويتلام مرور فولك إلى الحانة وسط حشد كارهيه.

- إنهم كأسماك القرش هنا يا رفيقي، ينقضون بمجرد ظهور قطرة دم. أفضل ما يمكنك أن تفعله هو أن تجلس معي بالداخل وتشرب بيرة باردة وممارسة الحق الذي منحنا الله إياه كرجال ولدوا في الجنوب.

يقف كلٌّ منهما الآن في المدخل، كان هناك رجلٌ ضخم محتقن الوجه، تذكر فولك أنه أعطى ظهره لإريك فولك ذات يوم في الشارع، يتجادل مع ماكمردو عند المشرب، كان يشير بإصبعه إلى المنشورات وقال شيئًا ما، لم يتمكن فولك من التقاطه، هز النادل رأسه نافيًا.

- ليس لدي أي فكرة يا صديقي، إذا أردت أن تقدم شكوى على شيء، فأحضِر قلمًا وورقة واكتب إلى الشرطة العسكرية خاصتك، ولكن هذا المكان ليس بمكان يمكنك أن تفعل ذلك فيه.

تقدم وألقى المنشورات في سلة القمامة، لمح عيني فولك تتفحص الغرفة وهز رأسه هزة خفيفة.

- فلنذهب.

قال فولك لويتلام وابتعد عن المدخل.

- شكرًا على أي حال، ولكنها ليست فكرة جيدة.

- أعتقد أنك محق.. مع الأسف، رباه، إن الخروج من هذا المكان يعد خلاصًا أحيانًا، ماذا تنوي أن تفعل؟

- أفترض أنني سأظل في غرفتي بالأعلى سأطالع بعض المستندات، أتمنى أن أنهيها.

- دعك من ذلك، تعالَ لنشرب شيئًا في منزلي.

- لا.. مع ذلك شكرًا، ولكن من الأفضل أن أستلقي قليلًا.

- لا، لا يبدو ذلك أفضل على الإطلاق، هيا، ولكننا سنأخذ سيارتي، حسنًا؟

أخرج ويتلام مفاتيحه من جيبه وهو يبتسم.

- سيكون من الجيد أن تقابل زوجتي، قد يساعدها ذلك على أن تطمئن قليلًا.

كان على وجهه شبح ابتسامة، ثم اتسعت وهو يقول:

- وعلى كلٍّ، هناك ما أود أن أريك إياه.

راسل ويتلام زوجته وهو في السيارة، لم يتكلم أيٌّ منهما طوال الطريق حتى كسر فولك الصمت أخيرًا.

- ألست قلقًا عما إذا رآني أحدهم في منزلك؟

كان قد تذكر ما حدث في المنتزه.

- لن يعجب ذلك أمهات المدرسة.

- دعك منهن.

أجاب ويتلام وعيناه على الطريق.

- ربما يعلمهن ذلك شيئًا: «*لا تحكم على غيرك مخافة أن يحكم عليك مجموعة من البلهاء*». أو كيفما كانت تُقال، على كلٍّ، مَن في رأيك الذي يوزع تلك المنشورات؟

- من المحتمل أن يكون مال ديكون، أو جرانت ابن أخيه.

تجهم ويتلام.

- أعتقد أن جرانت هو أكبر احتمال، من الواضح أن ديكون ليس هنا هذه الأيام؛ أعني أنه ليس بكامل وعيه. إنني حقًّا لا أعلم، أنا لا أختلط بهذين الرجلين؛ تجنبًا للمتاعب.

- ربما تكون محقًّا.

كان فولك يحدق من النافذة في كآبة، يفكر في السيارة وفي الحروف الفضية المحفورة على طلاء السيارة.

- ولكن مع ذلك لا أستبعد أيًّا منهما من أن يكون وراء هذا.

نظر ويتلام إليه يحاول أن يزن إجابة فولك، ثم هز كتفيه في غير علم. كان قد انحرف عن الطريق الرئيسي ويقود عبر منطقة مزدحمة، أقرب ضواحي كيوارا، بدت البيوت زاهية ومتراصة مقابل البيوت الريفية المترامية، وبعض مروج الحشائش خضراء حقًا، فكر فولك أنها حشائش صناعية بكل وضوح، أوقف ويتلام السيارة في ساحة ممهدة خارج منزل عائلي أنيق.

- مكان جميل.

ابتسم له ويتلام.

- ضاحية في بلدة ريفية، أسوأ شيء في الوجود. إن معظم المنازل متجاورة، هذا ليس بشيء جيد، غير آمن بالمرة، أتفهمني؟ هناك الكثير من الأولاد يلعبون بالجوار، ولكن كل واحد يهتم بزراعة أرضه ورعايتها، ولا يوجد الكثير في البلدة ليجذب أي أحد إليها –هز كتفيه مستهجنًا– على كل حال، إننا فقط نستأجره، سنرى إذن.

اصطحب فولك إلى مطبخ رائع ومضيء حيث كانت زوجته تُعِد قهوة ذات رائحة زكية وغنية على ماكينة معقدة. ساندرا ويتلام امرأة ذات قوام ممشوق وبشرة شاحبة وعينين واسعتين خضراوين تعطيانها ملامح مندهشة دائمًا، قدّم ويتلام كلًّا منهما إلى الآخر وصافحت ساندرا يده بنظرة توحي بالارتياب، ولكنها دعته للجلوس على كرسي مطبخ مريح.

- أتشرب بيرة يا صديقي؟

دعاه وهو يفتح الثلاجة.

كانت ساندرا تضع ثلاثة فناجين مطبوعة على الطاولة، وتوقفت فجأة.

- ألم تَعُد لتوّك من الحانة؟

بدا صوتها هادئًا، ولكنها لم تلتفت لكي تنظر إلى زوجها وهي تتحدث.

- أجل، ولكن.. لم نتمكن من الدخول في النهاية.

قال ويتلام وهو يغمز لفولك، ضمت ساندرا شفتيها.

- إن القهوة جيدة، شكرًا لكِ، إن رائحتها زكية.

ابتسمت له ساندرا ابتسامة مقتضبة، وهز ويتلام كتفيه وأغلق الثلاجة. صبت فنجانًا لكل منهم وسارت حول المطبخ في صمت، وأخذت ترص قطع

الجبن والبسكويت في طبق، أخذ فولك رشفة من قهوته ولمح صورة عائلية بداخل برواز بجانب كوعه، كانت صورة للزوجين بصحبة فتاة شقراء.

- ابنتك؟

سأل فولك ليكسر الصمت.

- دانييل.

أمسك ويتلام بالصورة.

- لا بد وأنها في مكان ما بالجوار.

نظر نحو زوجته، التي كانت قد توقفت في منتصف عملها عند الحوض بمجرد أن سمعت اسم ابنتها الصغيرة.

- إنها تشاهد التلفاز في الغرفة الخلفية.

قالت ساندرا.

- هل هي بخير؟

أجابت ساندرا بهزة من كتفيها، فالتفت ويتلام مجددًا نحو فولك.

- إن دانييل مشتتة بعض الشيء في الواقع، لقد أخبرتك أن بيلي هادلر كان صديقها، ولكنها لا تفهم ما حدث تمامًا.

- حمدًا لله.

قالت ساندرا وهي تطوي منشفة المطبخ على شكل مربع في غضب واضح.

- إنني أتمنى ألا تفهم شيئًا فظيعًا كذلك الشيء أبدًا، إنني في كل مرة أفكر بما حدث، أشعر بالقرف. ما هذا الذي فعله ذاك الوغد بزوجته وابنه؟ إن الجحيم أقل ما يستحقه.

اقتربت من الطاولة وقطعت شريحة رفيعة من الجبن، دفعت السكين بقوة في قالب الجبن حتى ضرب لوح التقطيع بقوة.

تنحنح ويتلام قليلًا.

- لقد كان آرون يعيش هنا في البلدة، كان هو ولوك هادلر أصدقاء في صغرهما.

- حسنًا، ربما كان مختلفًا في ذلك الحين.

رفعت حاجبيها وهي تحدث فولك.

- لقد كبرت هنا في كيوارا إذن؟ لا بد وأن ذلك منذ سنوات عديدة.

- كانت لحظات سعيدة في بعض الأحيان، ألستِ سعيدة هنا إذن؟

ضحكت ساندرا باقتضاب.

- لم تكن بالضبط البداية الجديدة التي كنا نتوقعها.

تقطع صوتها.

- من أجل دانييل، ولا لأي منا.

- لا.. على كلٍّ، أنا لست أفضل شخصٍ ليدافع عن هذا المكان، ولكن تعرفين مع ذلك أن ما حدث لعائلة هادلر هي حادثة لا تحدث سوى مرة واحدة في العمر.

- ربما يكون كذلك، ولكنها الطريقة التي يتعاملون بها هنا هي ما لا يمكنني فهمه، إنني أسمع بعض الناس الذين يتعاطفون مع لوك هادلر، ويقولون لا بد وأنه كان يمر بأشياء في غاية الصعوبة، إنني أود أن أصفعهم، أعني.. إلى أي حد يمكنك أن تصبح غبيًّا؟ لا يهم ما كان لوك هادلر يمر به، من يهتم؟ أيمكنك أن تتخيل كيف كانت اللحظات الأخيرة لبيلي وكارن؟ ولكن هذا -لا أدري- شفقة تنم عن غبائهم ومحدودية تفكيرهم، و...

أشارت بإصبع مطلي نحو فولك.

- لا يهمني إذا كان قد قتل نفسه أيضًا، إن قتلك لزوجتك وطفلك هو أقصى حد للعنف المنزلي، لا أكثر ولا أقل.

ساد الصمت للحظات طويلة في المطبخ ولم يُسمع سوى صوت ماكينة القهوة تضخ البخار على الطاولة اللامعة.

- لا بأس يا عزيزتي، أنت لست الوحيدة التي تفكر بهذه الطريقة.

قال ويتلام ثم اقترب من طاولة المطبخ وربت بيده على يد زوجته. كانت عيناها ترفان بسرعة شديدة، وتلطخت حافات عينيها بالكحل. أبقت يديها أسفل يد زوجها للحظة قبل أن تسحبها لتأتي بمنديل.

التفت ويتلام إلى فولك.

- لقد كان أمرًا فظيعًا علينا جميعًا: فقدنا تلميذًا، وفقدت دانييل صديقها الصغير، وساندرا تضع نفسها مكان كارن بالطبع.

شهقت ساندرا شهقة خفيفة.

- لقد قلت إن بيلي كان من المفترض أن يأتي ليلعب في اليوم الذي مات فيه.

قال فولك متذكرًا المحادثة التي دارت في المدرسة.

- أجل.

نظفت ساندرا أنفها، وألهت نفسها في صب المزيد من القهوة بينما كانت بالكاد تستجمع نفسها.

- كان معتادًا أن يأتي إلى هنا باستمرار، والعكس صحيح، كانت دانييل تزوره في منزله أيضًا.

- لقد كانا منسجمين معًا كثيرًا، كان ذلك لطيفًا جدًا حقًا، إنها تشتاق إليه كثيرًا، لا يمكنها أن تستوعب أنه لن يأتي مجددًا.

- إذن كان ذلك يحدث بانتظام؟

- ليس بانتظام، ولكنه بالتأكيد لم يكن شيئًا غير معتاد، لم أرتب أي شيء مع كارن خلال ذلك الأسبوع، ولكن فيما بعد وجدت دانييل تلك اللعبة تنس الريشة، كنا اشتريناها لها في عيد ميلادها الأخير، كان مستواها هي وبيلي بشعًا فيها، ولكنهما كانا يحبان اللعب بها، لم تكن دانييل معتادة عليها لفترة لكنها أصبحت متعلقة بها كثيرًا فجأة -أنت تعرف كيف هم الأولاد- وأرادت أن يأتي بيلي بأسرع ما يمكن ليلعب بها معها.

- متى إذن تحدثتِ مع كارن لترتبا ذلك؟

- قبل الحادث بيوم على ما أظن، أليس كذلك؟

نظرت ساندرا إلى زوجها الذي هز كتفيه.

- حسنًا، أعتقد أنه كذلك، لأن، هل تذكر، لم تنفك دانييل تلح عليك أن تضع شبكة لعبة تنس الريشة في الحديقة؟ على كلٍّ، لقد قمت بالاتصال

بكارن في تلك الليلة وسألتها إذا كان بيلي يود أن يزور دانييل في البيت في اليوم التالي، قالت: «أجل، حسنًا»، ذلك كل شيء.

كانت ساندرا متجهمة كأنها تؤدي اختبارًا.

- حسنًا، لقد ظننت كذلك، من الصعب التذكر، ربما... مشوشة قليلًا، لقد كانت محادثة قصيرة مع ذلك، وكان الوقت متأخرًا لذا لم نتحادث، سألتها، وهي وافقت ليس أكثر من ذلك.

- حتى؟

- حتى اتصلت بي في اليوم التالي، قبل موعد الغداء بالضبط.

* * * *

ساندرا ويتلام تتحدث..

- مرحبًا يا ساندرا، أنا كارن.

- آوه، مرحبًا، كيف حالك؟

أتى صمت لفترة تبعه صوت خفيف، ربما كانت ضحكة، بعيدًا عن الخط.

- نعم، سؤال جيد، اسمعي يا ساندرا، أنا آسفة جدًّا لقول ذلك لكِ، لكن لن يتمكن بيلي من الحضور بعد الظهيرة على الإطلاق.

- أوه، هذا ليس جيدًا.

قالت ساندرا وهي تكتم تأوهًا، سيتوجب عليها الآن هي أو سكوت، أو ربما كليهما، أن يتبادلا الأدوار في لعبة تنس الريشة هذه الليلة، أخذت تتخيل في عقلها قائمة بالاحتمالات التي قد تحدث في اللحظة الأخيرة.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- أجل، الأمر فقط أن...

أصبح الخط هادئًا فجأة حتى ظنت ساندرا أن المكالمة انتهت.

- إن مزاجه ليس جيدًا بعض الشيء في الآونة الأخيرة، أعتقد أنه من الأفضل لو عاد إلى المنزل مباشرة اليوم، أنا آسفة. أتمنى ألا تحزن دانييل كثيرًا.

شعرت ساندرا بتأنيب الضمير.

- لا، بحقك، لا تكوني سخيفة، لن يكون جيدًا إذا لم يكن هو على ما يرام، هذا على الأغلب ما يجب فعله، خصوصًا مع ما تنوي دانييل فعله، بإمكاننا ترتيبها في وقت لاحق.

ساد الصمت مرة أخرى، حدقت ساندرا إلى ساعة الحائط، وبالأسفل كان هناك دفتر ملاحظاتها يرفرف بمحاذاة لوحة.

- نعم، –تكلمت كارن أخيرًا– نعم، ربما.

كانت ساندرا على وشك أن تودعها ببعض المزاح، ولكن توقفت الكلمات على طرف لسانها عندما سمعت كارن تتنهد على الجانب الآخر، لقد ترددت، أُرِيهَا أي أم معها أولاد في سن المدرسة ولا تزفر بشكل يومي، وستريك هي جليسة الأطفال خاصتها، ولكن بالرغم من ذلك، تمكن الفضول منها.

- كارن، هل كل شيء على ما يرام؟

ساد الصمت.

- أجل –توقفت فترة– هل كل شيء على ما يرام لديكِ؟

أجالت ساندرا ويتلام بصرها ونظرت إلى الساعة مرة أخرى، إذا انطلقت إلى المدينة الآن فستتمكن من العودة في وقت يتيح لها إخراج الغسيل والبحث عن بديل لــبيلي قبل انتهاء اليوم الدراسي.

- حسنًا يا كارن، أتمنى أن يصبح بيلي بخير عاجلًا، نتكلم لاحقًا.

* * * *

- إنني أشعر بالذنب في كل يوم بسبب تلك المكالمة.

قالت ساندرا وهي تملأ فناجين القهوة مرة أخرى، لكن وهي ترتجف بعصبية مجددًا.

- وكيف أنني أنهيت المكالمة معها بسرعة بهذا الشكل، ربما كانت تحتاج إلى أحدٍ لتتحدث معه، وأنا فقط...

أجهشت في البكاء قبل أن تكمل جملتها.

- ليس لكِ ذنب في هذا يا حبيبتي، كيف كان بإمكانك أن تعرفي ما سيحدث؟

قام ويتلام وأحاط زوجته بذراعيه، وقفت ساندرا متجمدة في مكانها، ثم نظرت إلى فولك في إحراج ثم مسحت عينيها بمنديل.

- أنا آسفة، إنها فقط كانت شخصًا جيدًا، كانت واحدة من الناس الذين يجعلون العيش هنا محتملًا، كان الجميع يحبونها، جميع أمهات المدرسة، وحتى بعض آباء المدرسة.

حاولت أن تضحك لكنها توقفت في حلقها.

- آه يا إلهي، كلا، لم أكن أقصد، لم تكن كارن قط... أعني أنها كانت محبوبة.

أومأ فولك.

- لا بأس، أنا أفهم. من الواضح أنها كانت محبوبة.

- نعم، بالضبط.

خيم بعض الصمت، أنهى فولك قهوته ثم نهض.

- أظن أن عليَّ الذهاب الآن على أي حال، مع السلامة.

أنهى ويتلام ما تبقى من قهوته دفعة واحدة.

- انتظر يا صديقي، دقيقة واحدة وسأوصلك، ولكنّ هناك شيئًا أود أن أريك إياه، سينال إعجابك، تعالَ وألقِ نظرة.

ودَّع فولك ساندرا التي كانت لا تزال تبكي، ولحق بويتلام إلى مكتب منزلي مريح، تمكن من سماع صوتٍ مكتومٍ لبرنامج رسوم متحركة آتٍ من مكان ما في الصالة، كان المكتب يتمتع بلمسة ذكورية أكثر من كل ما رآه في باقي أرجاء المنزل، أثاث المكتب قديم لكنه مُعتَنى به جيدًا، والجدران مغطاة برفوف تمتد من الأرض حتى السقف ومكتظة بكتب الرياضة.

- إنك تمتلك نصف مكتبة عامة تقريبًا.

قال فولك وهو يلقي نظرة سريعة على محتويات الرفوف، كانت تتكون من كتبٍ للعبة الكريكت وسباق الأحصنة، سير ذاتية وروزنامات.

- إنك هاوٍ بكل تأكيد.

أحنى ويتلام رقبته متظاهرًا بالخجل.

- لقد كانت دراساتي العليا عن التاريخ الحديث، ولكن بصراحة، لقد ركزت على كل أبحاثي عن التاريخ الرياضي؛ السباقات، الملاكمة، أصل التلاعب بالمباريات، إلى آخره. أي كل الأشياء الممتعة، لكنني أُفضل

أن أستمر في التفكير في أنني ما زلت أعرف مكان وثيقتك المتربة والمهترئة المنشودة.

ابتسم فولك.

- يجب أن أعترف، أنا لم أقم بالحكم عليك كما تفعل تلك الوثيقة القديمة.

- إنه خطأ شائع، ولكن يمكنني أن أملأ تلك الأرفف بأفضلها، بالحديث عن ذلك...

أخذ ظرفًا كبيرًا من درج المكتب وأعطاه لـفولك.

- أظن أن ذلك سيعجبك.

فتح فولك الظرف وأخرج منه نسخة من صورة فريق بالأبيض والأسود، كانت صورة لأعضاء فريق كيوارا الأول للكريكت عام 1948 في زيهم ناصع البياض، مصطفين من أجل الصورة، وجوههم الصغيرة باهتة ومشوشة، ولكنها واضحة بما يكفي ليتمكن فولك من رؤية وجهٍ مألوف يجلس في منتصف الصف الأول، كان جده، كان فولك في غاية السرور لدى رؤية الاسم المكتوب بأناقة في قائمة أسماء الفريق أسفل الصورة، قائد الفريق: فولك. ج.

- هذا رائع، من أين حصلت عليها؟

- المكتبة، إن مهاراتي الأرشيفية حادة للغاية، لقد قمت ببعض الأبحاث عن تاريخ كيوارا الرياضي؛ لمتعتي الشخصية في الواقع، ووقع ذلك في طريقي وظننت أنه ربما يعجبك.

- هذا رائع، شكرًا لك.

- احتفظ بها، إنها مجرد نسخة، يمكنني أن أريك من أين تأتي بالنسخة الأصلية ذات يوم إذا أردت، ربما سيكون هناك صور أخرى من نفس الفترة، وربما تجده في معظمها.

- شكرًا يا سكوت حقًّا، إن ما وجدته عظيم.

استند ويتلام إلى المكتب، التقط واحدة من منشورات اضطهاد فولك المجعَّدة من جيبه الخلفي وخرّبها، أخذ يثقبها بواسطة دبوس.

- أعتذر بشأن ساندرا، لم يكن من السهل عليها التأقلم على العيش هنا على أي حال، لم تنجح فكرة الهروب إلى قرية هادئة كما تخيل أيٌّ منا، والشيء الفظيع الذي حدث مع عائلة هادلر زاد الأمر سوءًا، لقد ظننا

بانتقالنا إلى هنا أننا نبتعد عن كل شيء مثل ذلك، كأننا انتقلنا من سيئ إلى أسوأ.

- مع ذلك إن ما حدث إلى عائلة هادلر شيء نادر الحدوث.
- أنا أعرف، لكن...

نظر ويتلام إلى الباب، كان الرواق فارغًا بالخارج، لكنه أخفض صوته.

- إنها حساسة جدًّا لأي نوع من العنف، لمعلوماتك فقط، لكنني تعرضت ذات مرة للسطو في ملبورن وانتهى الأمر -كما ترى- بشكل سيئ.

نظر مجددًا إلى الباب، ولكن بما أنه تكلم، بدا أنه كان بحاجة إلى أن يخفف العبء عن نفسه.

- لقد كنت في الأربعينيات أعيش في ضاحية فوت سكراي وسلكت طريقًا مختصرًا عبر ممر إلى المحطة -كما تعلم- مثلما يفعل الجميع. ولكن هذه المرة كان هناك أربعة رجال، كانوا لا يزالون أولادًا في الواقع، لكن كان معهم سكاكين، قطعوا طريقي أنا وذاك الرجل الآخر، لم أكن أعرفه، كان مجرد رجل مسكين يسلك طريقًا مختصرًا، لقد كنا محاصرين، فعلوا كل الأشياء المعتادة، طلبوا المحفظات والهواتف، لكن حدث شيء خاطئ بشكل ما. أصبحوا فزعين، وبدأوا يهاجموننا فجأة، ضُربت بشدة، رُكلت وتكسرت ضلوعي، ضُربت ضربًا مبرحًا، ولكن الرجل الآخر طُعن بالسكين في معدته، نزف حتى الموت على الأسفلت.

ابتلع ويتلام ريقه.

- اضطررت إلى أن أتركه هناك وأذهب للبحث عن مساعدة لأن الأوغاد قد سرقوا هاتفي، وعندما عدت وبعد أن وصلت سيارة الإسعاف، كان الوقت قد فات، قال المسعفون إنه كان ميتًا بالفعل.

نظر ويتلام نحو الأسفل وأخذ يعبث بدبوس معدني لهُنَيهة، هز رأسه كأنه يزيل منها كل الأفكار.

- على كلٍّ، كان ذلك ماضيًا، والآن هذا، الآن أنت تفهم لماذا ساندرا ليست سعيدة.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

- لكن ربما الآن يمكنك أن تقول ما يقوله الجميع تقريبًا في البلدة.

حاول فولك أن يفكر في استثناء واحد، ولكنه لم يستطع.

الفصل الثاني والعشرون

عندما عاد إلى غرفته، وقف فولك قبالة النافذة وظل محدقًا إلى الشارع الرئيسي الفارغ بالأسفل، كان ويتلام قد أوصله بالسيارة إلى الحانة وودعه وهو يلوح له بحميمية أمام أعين المارين، تابعه فولك بعينيه إلى أن مضى، ثم ذهب إلى موقف السيارات بالخلف ليرى ما إذا كان طلاء سيارته سيئًا إلى الحد الذي كان يتذكره، لقد كان أسوأ؛ كانت الكلمات المحفورة في السيارة تلمع بوضوح تحت الضوء الباهت، ولحسن الحظ لقد حشر أحدهم كومةً من ملصقات فولك تحت ممسحة زجاج السيارة.

تسلل إلى غرفته بالأعلى دون أن يلاحظه أحد وقضى بقية الليلة مستلقيًا على سريره يتفحص الملفات الأخيرة لعائلة هادلر، كانت عيناه تحرقانه وقد تأخر الوقت، ولكنه لا يزال يشعر بالأرق بسبب كوب قهوة ساندرا ويتلام، رأى من وراء نافذته سيارة وحيدة تتجول بالجوار بأضوائها المفتوحة، ثم خيم هدوء الريف مجددًا على الشارع، فكر فولك إن ذلك ما يجعل سكان المدن متفاجئين إلى حد ما، إنه الهدوء، بإمكانه أن يفهم رغبتهم في أسلوب الحياة الريفي البسيط، كذلك فعل العديد من الناس، تبدو الفكرة جذابة ومغرية إلى حد كبير عندما يزنها المرء بينما يقف في زحمة المرور أو يعيش في شقة ذات جو خانق بلا حديقة، جميعهم تخيلوا العيش في مكان ذي هواء نقي ونظيف يعرف فيه الجيران بعضهم بعضًا، سيأكل الأولاد الخضروات المزروعة في المنزل وسيتعلمون قيمة العمل الشاق، ثم وبمجرد وصولهم، وبمجرد أن تتحرك شاحنة النقل الفارغة حتى تختفي عن الأنظار، يحدقون مِن حولهم ودائمًا ما يصابون بالصدمة أمام الرحابة المدمرة للأراضي المفتوحة، الفراغ هو أول ما يضرب بخيالاتهم عرض الحائط، الفراغ السرمدي.. بما يكفي لكي

تغرق فيه، فكرة أن تنظر فلا ترى إنسانًا واحدًا على امتداد بصرك كانت شيئًا على الدوام غريبًا وموحشًا لتراه.

وبمرور الوقت سيكتشفون أن الخضروات لم تنمُ بذات الكفاءة التي كانت لديهم في الصندوق على نافذة المدينة، وأن كل محصول أخضر يتطلب عناية بالغة وجهدًا مبذولًا للحصول عليه من التربة العنيدة، وأن الجيران سيكونون منشغلين بفعل الشيء ذاته بواسطة جدول صناعي لكي يتمكنوا من تحية جيرانهم بوافر من المرح، لم يكن هناك ازدحام مروري في الذهاب والإياب، ولكن أيضًا لم يكن هناك الكثير من الأماكن للذهاب إليها بالسيارة.

لم يُلقِ فولك اللومَ على عائلة ويتلام، لقد رأى مثلهم الكثير عندما كان طفلًا، ينظرون لدى وصولهم إلى القحط والأرض الجافة جفافًا كليًا، وسرعان ما يبدو على وجوههم جميعًا التعبير نفسه: *لم أكن أعرف أنه هكذا.*

ابتعد عن النافذة وأخذ يتذكر إلى أي مدى تسللت قساوة الحياة المحلية إلى لوحات الأطفال في المدرسة، وجوه حزينة ومناظر طبيعية باللون البني، لقد كانت رسومات بيلي هادلر أكثر بهجة، هكذا فكر فولك، لقد رآها معلقة حول منزل المزرعة، كانت رسومات مفعمة بالألوان. طائرات تحمل أناسًا يبتسمون في النوافذ، والعديد من السيارات المختلفة، فكر فولك أنه على الأقل لم يكن بيلي تعيسًا كبعض الأولاد الآخرين، لقد كان تقريبًا يعلن سخريته من سخافة الواقع، لقد مات بيلي.. على الأقل لم يكن تعيسًا حتى النهاية، لكن حين وصل النهاية لا بد وأنه كان مفزوعًا.

حاول فولك للمرة المائة أن يتخيل لوك وهو يطارد ابنه الوحيد كي يقتله، كان بإمكانه أن يستحضر مسرح الجريمة، لكنه كان ضبابيًا غير محدد المعالم، رجع فولك بذاكرته إلى لقائه الأخير بـلوك، كان ذلك منذ خمس سنوات ذات يومٍ كئيب في ملبورن لا يمكنه تذكره، كان المطر حينها مصدر إزعاج بدلًا من كونه خيرًا، حينها كان على فولك أن يعترف في قرارة نفسه بشعوره بأنه لا يعرف لوك على الإطلاق في نواحٍ كثيرة.

* * * *

لمح فولك لوك على الفور على الجانب الآخر من حانة الاتحاد الفيدرالي[1]، كان فولك مجرد رجل كئيب آخر يرتدي بدلة، متعجل، متعرق جاء من عمله مباشرة، أما لوك كان عائدًا لتوه من اجتماع المورِّدين، لا تزال لديه بعض الطاقة كان من الصعب فقدانها، مستندًا إلى أحد الأعمدة وفي يده زجاجة بيرة وتعتلي وجهه ابتسامة دهشة وهو يتفحص الزحام المسائي المبكر للرحَّالة البريطانيين والشباب الضجر الذين يرتدون اللون الأسود بدءًا من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم.

حيًا فولك بزجاجة بيرة وبضربة على كتفه.

- لم أكن لأسمح بجز صوف الخروف إلى قصة شعر كتلك.

قال لوك دون أن يخفض صوته وهو يشير بمشروبه إلى شاب صغير هزيل يتعمد قصة شعر؛ إذ كلا الجانبين محلوق تمامًا بينما يوجد خط من الشعر الطويل في المنتصف، كانت تبدو غالية الثمن حقًا، ابتسم فولك هو أيضًا، ولكنه كان يتساءل لماذا يتعمد لوك أن يلقي تعليقات الفتى القروي في كل مرة يتقابلان، لقد كان يدير مؤسسة زراعية معقدة بالملايين في كيوارا، ولكنه استمر في لعب دور الفتى الريفي الصغير في المدينة الكبيرة بلا انقطاع.

لم يكن يعلم ما الشيء الذي كان يدفعه ليحثه على فعل ذلك، ولكنه كان يشعر هذه المرة بالانزعاج، لقد كان على الأغلب متعبًا بعد العمل لا أكثر، كان جائعًا ومتعبًا ويتوق للعودة إلى المنزل، أو ربما لم يعد يحتمل أن عليه دومًا أن يشعر بالامتنان لهذا الرجل، وشعوره بأنه أيًما كانت الطريقة التي تتبدل فيها ظروف الحياة، فإن لوك لا يتوانى عن أن يتظاهر بأنه صاحب اليد العليا.

- ألن تقوم أبدًا بإخباري أين كنت حقًا في ذلك اليوم؟

أشاح لوك بنظره عند سماع ذلك.

- لقد أخبرتك يا رجل.. آلاف المرات، لقد كنت أصطاد تلك الأرانب.

- أجل، حسنًا.

---

(1) ميدان الاتحاد الفيدرالي: هو طريق واسع للفنون والثقافة والمناسبات العامة على مشارف المنطقة التجارية المركزية في ملبورن.

منع فولك نفسه من أن يبدي عدم اقتناعه، لقد كانت هذه هي الإجابة دومًا منذ اليوم الذي سأله لأول مرة منذ سنوات عدة، لم يقتنع بها فولك قط، نادرًا جدًّا ما يذهب لوك للصيد بمفرده، ولا يزال فولك بإمكانه تذكر وجه لوك خلف نافذة غرفة نومه بعد كل تلك السنوات، كانت ذاكرته عن تلك الليلة خليطًا من الخوف والراحة، هذا صحيح، ولكن لطالما بدت هذه القصة ملفقة جزافيًّا وخبط عَشوَاء، لقد كان لوك يراقبه من قرب.

- ربما يجب عليَّ أن أسألك أين كنت؟

قال لوك محاولًا أن يبدو صوته هادئًا.

- إذا كنت تود الخوض في هذا الموضوع مرة أخرى.

حدق فولك إليه.

- أنت تعلم أين كنت، كنت أصطاد.

- عند النهر.

- أعلى النهر، شكرًا.

- ولكن بمفردك.

لم يجب فولك.

- إذن أعتقد أنه سيكون عليَّ أن آخذ بما تقوله بشأن ذلك.

قال لوك ثم أخذ رشفة ولم يبعد عينيه عن عينَي فولك.

- لحسن الحظ أن كلمتك موثوقة بالنسبة إليّ يا صديقي، ولكن من الواضح أنه سيكون من الأفضل من جميع النواحي أن يلتزم كلٌّ منا بقصة صيد الأرانب معًا، ألا تظن ذلك؟

ظل كلٌّ منهما يحدق إلى الآخر بينما كانت الأصوات في الحانة تتزايد وتتناقص من حولهما، فكر فولك بالخيارات المتاحة لديه، ثم شرب البيرة خاصته ولم ينبس ببنت شفة.

بعد ذلك كانا يختلقان أعذارهما الإجبارية بشأن القطارات التي يجب اللحاق بها ومواعيد العمل المبكرة، وجد فولك نفسه يعاني ليتذكر، للمرة

الثانية، لماذا كانا لا يزالان صديقين بعد أن صافح كلٌّ منهما يد الآخر على ما سيكون دليلًا قاطعًا على أنها كانت المرة الأخيرة.

* * * *

رقد فولك على السرير وأطفأ الضوء، ظل مستلقيًا لفترة طويلة. ظهرت العنكبوت مرة أخرى في أثناء الليل وقد أصبحت الآن في هيئة ظلٍّ أعلى باب الحمام، كان فولك يعرف أنه بحاجة إلى القليل من النوم، لكن بقايا محادثات قديمة وحديثة تدافعت في عقله، وعملت بقايا الكافيين النشطة بداخل جسمه على إبقاء عينيه مفتوحتين.

تقلّب وفتح ضوء السرير الجانبي، كانت كتب المكتبة التي أخذها من بارب في ذلك اليوم موضوعة تحت قبعته على كرسي، سوف يُلقيهم خلال أنبوب الإرجاع غدًا، التقط الكتاب الأول، الدليل العملي في زراعة حديقة مثمرة وصديقة للبيئة، تثاءب بمجرد قراءة العنوان، أوشك ذلك أن يؤدي الغرض بكل تأكيد، ولكنه ببساطة لم يتمكن من متابعة القراءة، الكتاب التالي كان كتابًا ذا غلاف ورقي مهترئ لرواية تدور حول جريمة، امرأة لشخص غير معروف ويظهر في الظلال عدد من الجثث، لا تناسب ذوقه تمامًا، ولكنه لم يكن ليصبح في وظيفته التي كان فيها لو لم يستمتع بلغز جيد، أسند ظهره مجددًا إلى المخدة وشرع في القراءة.

كانت مجرد قصة صريحة، لا شيء مميز، وقد قرأ فولك ما يقارب الثلاثين صفحة قبل أن يهاجم النوم عينيه، قرر أن يترك الكتاب عندما يصل إلى نهاية الفصل، وبمجرد أن قلب الصفحة، سقطت ورقة رفيعة من الكتاب واستقرت على وجهه.

التقط الورقة ونظر إليها شزرًا، كانت فاتورة مطبوعة من المكتبة تثبت أن كارن قد استعارت الرواية في يوم الاثنين، التاسع عشر من شهر فبراير، قبل وفاتها بأربعة أيام. استخدمت الفاتورة في تحديد الصفحة التي توقفت عندها، عندما أدرك أن تلك الرواية المتواضعة الأسلوب يمكن أن تكون هي آخر شيء قرأته قبل وفاتها شعر بالاكتئاب الشديد، جعَّدَ الفاتورة لكنه توقف عندما رأى الملاحظة المكتوبة خلفها.

بفضولٍ فردَ قطعة الورق وقلبها على الناحية الأخرى، كان يتوقع أن يجد قائمة مشتريات، لكنه شعر بدلًا من ذلك بضربات قلبه تتسارع، ضغطَ على ثنية الورقة جيدًا ووضعها أسفل مصباح السرير ليحصل على رؤية أوضح لخط كارن المتصل في حلقات.

لقد كتبت كارن هادلر سطرين خلف الفاتورة في وقت ما خلال الأيام الأربعة منذ استعارتها للكتاب وحتى يوم إطلاق النار عليها أمام باب منزلها، كان السطر الأول عبارة عن كلمة واحدة فوضوية قليلًا، كتبتها يدٌ متسرعة ووضعت أسفلها ثلاثة خطوط.

جرانت؟!

حاول فولك أن يركز، ولكن توجه نظره ناحية رقم هاتف من عشرة أرقام مكتوب بالأسفل، ظل يحدق إلى الرقم حتى دمعت عيناه وتشوشت الأرقام وتموهت، اندفع الدم في جمجمته اندفاعًا صاخبًا. أخذ يغلق عينيه ويفتحهما بشدة مرارًا وتكرارًا، ولكن الأرقام ظلت مرتبة بنفس الترتيب.

لم يضيّع فولك الوقت في التساؤل عمَّن يكون صاحب الرقم، كان يعرفه حق المعرفة، لقد كان رقمه هو.

الفصل الثالث والعشرون

وجدوا جرانت دو في صباح اليوم التالي جاثيًا على أطرافه الأربعة أسفل حوض إحدى السيدات، كان يمسك مفتاح ربطٍ في يدٍ وجزءٌ من مؤخرته السمينة تظهر من بنطاله.

- رباه، هل سيعود لإصلاح ذلك التسريب؟

سألته المرأة بينما كان دو يُسحب على قدميه.

- أنا لم أكن لأعتمد على ذلك الاحتمال.

ظل أولاد المرأة يراقبون بأعين تتسع ببهجةٍ بينما كان يُؤخَذ دو إلى سيارة الشرطة، كانت تعبيرات وجوههم تشبه وجه ريكو منذ ساعات قليلة عندما أخرج فولك الفاتورة أمامه، كان يركض حول القسم ويتراقص على كعوب قدميه والأدرينالين يندفع في عروقه.

* * * *

- رقم هاتفك؟

أخذ يردد ذلك عدة مرات.

- ما الذي جعل كارن هادلر تود محادثتك بشأن جرانت؟

لم يستطع فولك -الذي ظل مستيقظًا معظم الليلة يطرح على نفسه السؤال ذاته- إلا أن يهز رأسه.

- لا أدري، إذا كانت قد حاولت، فهي بكل تأكيد لم تترك رسالة، لقد تفحصت سجل المكالمات الفائتة الخاص بي، لم أجد أي رقم لكارن، لا رقم المنزل ولا العمل أو رقم الهاتف، وإنني أعلم أنني لم أتحدث إليها قط، ليس فقط مؤخرًا، بل على الإطلاق.. ولا لمرة واحدة في حياتها كلها.

- لكن لا بد وأنها كانت تعرف مَن تكون أنت، أليس كذلك؟ لا بد وأن لوك حدثها عنك، رآك كلٌ من بارب وجيري في التلفاز منذ شهرين، ولكن لماذا أنت؟

أخذ ريكو هاتف المكتب واتصل بالأرقام العشرة، كان ينظر إلى فولك وهو يضع السماعة على أذنه، فأخذ هاتفه يرن عاليًا في يده، لم يتمكن من سماع الرسالة التي صدحت بها الرسالة الصوتية المسجلة، ولكنه كان يعلم ما كانت تقوله، لقد استمع إلى الرسالة المسجلة بصوته طوال الليلة لعدة مرات؛ إذ إنه اتصل بالرقم من هاتف الغرفة غير مصدقٍ لما يراه.

«لقد حاولتَ الاتصال بالمحقق الفيدرالي آرون فولك، من فضلك اترك رسالة».

هكذا قالت الرسالة المسجلة، مختصرة ولطيفة.

وضع ريكو السماعة وحدق إليه.

- فكِّر.

- لقد فعلت.

- فكِّر أكثر، لم يكن جرانت دو ولوك على وفاق، نعلم ذلك، ولكن إذا كان لدى كارن مشكلات معه، لماذا لم تتصل بقسم الشرطة هنا؟

- هل أنت متأكدٌ من أنها لم تحاول؟

- لم تصل أية مكالمات إلى الشرطة أو خدمات الطوارئ من أي رقم خاص بعائلة هادلر خلال الأسبوع الذي يسبق مقتلهم، لقد قمنا بمراجعة سجلات الهاتف في نفس اليوم الذي وجدنا فيه جثثهم.

التقط الرواية وأخذ يقلبها في يديه يتفحص الغلاف، أخذ يقلب الصفحات لكنه لم يظفر بشيء مُخبَّأ بينها مرة أخرى.

- عم يدور هذا الكتاب؟

- إنه عن محققة تُجري تحقيقًا عن سلسلة جرائم قتل لطلاب مدرسة بالولايات المتحدة.

قال فولك الذي قضى معظم ليلته يقرأ الكتاب قراءة سريعة حتى نهايته.

- إنها تعتقد أن الفاعل هو رجل ناقم على المدينة تحوَّل إلى قاتل متسلسل يستهدف الأطفال الأثرياء.

- يبدو ذلك هراءً، أفعل ذلك حقًّا؟

- أوه، كلا، ليس كما يبدو، يتضح في النهاية أنها أم إحدى الفتيات من سكن الطالبات الجامعي.

- أم إحدى الـ...؟ يا إلهي امنحني الصبر.

فرك ريكو مقدمة أنفه وأغلق الرواية بعنف مصدرًا صوتًا.

- إذن ماذا لدينا؟ هل من المفترض أن يعني هذا الكتاب التافه أي شيء أم ماذا؟

- لا أدري، لا أظن أن كارن أنهت هذا الكتاب، إن كان ذلك يهم أيًّا كان، ثم إنني تحريت في المكتبة بمجرد أن فتحَتْ أبوابها، إنهم يقولون إنها اعتادت على استعارة الكثير من الكتب من نفس النوع.

جلس ريكو وأخذ يحدق بنظرة فارغة إلى الفاتورة للحظات، ثم نهض مجددًا على الفور.

- هل أنت متأكد من أنها لم تتصل بك قط؟

- مئة بالمئة.

- حسنًا، هيا بنا إذن.

أخذ مفاتيح سيارته من فوق المكتب.

- أنت لا تعلم، وكارن لا يمكنها إخبارنا، لوك لا يمكنه إخبارنا، إذًا فليس لدينا حل سوى الرجل الوحيد الذي ربما يمكنه تفسير وجود اسمه اللعين مكتوبًا على ورقة في غرفة سيدة مقتولة.

* * * *

تركوا دو يختنق من الحر في غرفة التحقيق لأكثر من ساعة.

- لقد اتصلت بشرطة كلايد.

قال ريكو وقد أصبح أكثر هدوءًا الآن.

- أخبرتهم أن هناك محققًا ماليًا أحمق من ملبورن جاء ليساعد في حل مستندات عائلة هادلر، أخبرتهم إن لديك بعض الأسئلة بخصوص مستند وُجد في المنزل، وإن كانوا يريدون المجيء ليجلسوا معك لتسألهم، لقد رفضوا، كالمتوقع. يحق لنا المضي قدمًا.

- أوه، أحسنت صنعًا.

كان فولك متفاجئًا، لم يخطر على باله حتى أن يتصل بشرطة كلايد هذه المرة.

- إذن ما الذي لدينا؟

- لم نجد أي بصمات لـدو في أي مكان بالمزرعة.

- هذا لا يعني أي شيء، إن ذلك ما صُنِعَت القفازات من أجله، ماذا كانت أقواله عن الجريمة؟

هز ريكو رأسه.

- كانت واضحة وفارغة في الوقت ذاته، كان يحفر مصرفًا للمياه في مكان ما مع اثنين من رفاقه، سنتحرى عن ذلك بالطبع، ولكنهم جميعًا سيؤكدون أنه كان معهم دون شك.

- حسنًا إذن، لنرَ ما سوف يقوله.

كان دو يجلس مستندًا إلى ظهر الكرسي ويداه مطويتان، ويحدق في الفراغ أمامه مباشرة، بالكاد نظر إلى الأعلى عندما دخلا الغرفة.

- مسألة وقت، لدى البعض عملٌ ليقوم به.

- أنت تريد أن تتصل بمحامٍ الآن يا جرانت.

قال ريكو وهو يسحب كرسيه نحو الخارج.

- بإمكانك أن تفعل.

تجهم دو، على الأغلب سيكون محاميه من نفس المدرسة النظرية كمحامي ساليڤان، قضايا الملكية والثروة الحيوانية على مدار خمسين أسبوعًا في السنة، هز دو رأسه علامة الرفض.

- ليس لدي شيء لأخفيه، يمكنك أن تبدأ.

لاحظ فولك باهتمام أنه كان غاضبًا بدلًا من كونه متوترًا، وضع فولك ملفه على الطاولة وانتظر لثوانٍ.

- صِف لنا كيف كانت علاقتك بكارن هادلر.

- المداعبة.

- أي شيء آخر؟ مع الأخذ في الاعتبار أنها وُجدت مقتولة.

استهجن دو في غير انزعاج.

- لا.

- ولكنك ترى أنها جذابة.

- هل سبق ورأيتها؟ قبل أن تموت، بكل تأكيد.

لم يقل كلٌّ من فولك وريكو شيئًا وأشاح دو بنظره.

- اسمعا، لقد كانت جيدة على حد علمي، بالنسبة إلى هذا المكان على أي حال.

- متى كانت آخر مرة تحدثت إليها؟

هز دو كتفيه.

- لا يمكنني أن أتذكر.

- ما رأيك بيوم الاثنين الذي يسبق موتها؟ التاسع عشر من فبراير، أو اليومين التاليين؟

- حقًّا لا يمكنني أن أتذكر بالضبط.

تحرك دو في جلسته فأصدر الكرسي صريرًا من تحته.

- اسمعا، هل أنا مضطرٌّ إلى أن أكون هنا؟ قانونيًّا؟ فأنا لدي الكثير من العمل لأقوم به.

- سنختصر عليك الأمر إذن.

قاطعه فولك.

- ربما ستتمكن من إخبارنا عن سبب وجود اسمك «جرانت»، مكتوبًا بخط يد كارن هادلر على فاتورةٍ خلال الأسبوع الذي قُتلت فيه.

وضع نسخة مصورة من قطعة الورق أمامه على الطاولة.

كان الصوت الوحيد المسموع في الغرفة هو صوت طنين أضواء الفلورسنت بينما كان دو يحدق طويلًا إلى الورقة، صفع الطاولة بيده في حركة غير متوقعة.

انتفض كلٌّ منهما.

- لن تتمكنا من تلفيق هذا لي.

قال دو ذلك ثم أمطر الطاولة ببصاقه.

- تلفيق ماذا يا جرانت؟

تعمد ريكو أن يكون صوته محايدًا.

- تلك العائلة اللعينة، إذا هبَّ لوك إلى قتل زوجته وابنه فتلك مشكلته إذن.

وجَّه إصبعه الوسطى البدينة إليهما.

- ولكن هذا ليس له أي علاقة بي، هل تسمعانني؟

- أين كنت في ظهيرة يوم الجريمة؟

هز دو رأسه ولم يُبعد عينيه عن عينَي فولك، كانت ياقة قميصه غارقة بالعرق.

- فلتذهب إلى الجحيم يا رجل، لقد فعلت ما يكفي من الأذى لإيلي، لن تفعل ذلك معي ومع عمي أيضًا، إنك تحاول التخلص منا جميعًا.

تنحنح ريكو قبل أن يجيب فولك.

- حسنًا يا جرانت.

كان صوته هادئًا.

- إننا فقط نحاول الحصول على بعض المعلومات، لذا فلنعمل على جعل ذلك سهلًا بقدر المستطاع، لقد أخبرت ضباط شرطة كلايد أنك كنت تحفر مصرف مياه في الناحية الشرقية بصحبة اثنين من رفاقك في العمل، اسماهما هنا، هل ستلتزم بذلك؟

- أجل، كنتُ هناك طوال اليوم.

- وهما سيقومان بتأكيد ذلك، أليس كذلك؟

- من الأفضل لهما أن يفعلا؛ حيث إن هذه هي الحقيقة.

كان دو ينظر في عينَي كلٍّ منهما وهو يقول ذلك.

كانت هناك ذبابة تطن طنينًا محمومًا حول رؤوسهم في حركة دائرية بينما كان الصمت يخيم على الغرفة.

- أخبرني يا جرانت، ما الذي تنوي فعله بالمزرعة بعد أن يموت عمك؟

بدا دو متحيرًا لتغيير الموضوع المفاجئ.

- ماذا؟

- سمعتُ أنك ستكون الوريث الوحيد.

- إذن ماذا؟ لقد استحققت ذلك.

- من أجل ماذا؟ ألتركك لعمك يعيش بمفرده في المنزل وهو عجوز ومريض؟ إن ذلك يتطلب سيطرة كاملة.

لم يكن فولك في حقيقة الأمر يرى أي سبب يمنعه من أن يرث، ولكن بدا أن تعليقه ضرب مكانًا حساسًا.

- يتطلب أكثر من ذلك بقليل أيها الأحمق.

فتح دو فمه ليقول شيئًا، ولكنه فكر مليًا فيه ثم أغلقه قبل أن يتكلم مرة أخرى.

- لمَ لا؟ على أي حال أنا عائلته.

- كل ما تبقى منها بعد وفاة إيلي، أليس كذلك؟

استدرك فولك بينما زفر دو في غضب.

- إذن فسوف تبيع المزرعة عندما يصبح ذلك ممكنًا؟

- سأفعل بكل تأكيد، فأنا لن أحاول زراعتها، أليس صحيحًا؟ أنا لست غبيًا، ليس مع وجود كل أولئك الصينيين ذوي البشرة الصفراء الذين يأتون من بلدهم كي يقوموا بشراء الأراضي. حتى الأراضي عديمة الفائدة مثل أراضينا.

- ومثل أراضي عائلة هادلر؟

- أفترض ذلك.

- حتى تشارلوت الصغيرة أقل حماسًا منك في العيش بين أكياس الأسمدة، لقد سمعت أخبارًا عن أنها ستُعرض للبيع عاجلًا أو آجلًا، سيكون هناك مزرعتان متجاورتان.

هز فولك كتفيه هزة خفيفة.

- سيكون ذلك جذابًا للغاية في نظر المستثمرين الأجانب، إن ذلك مثير للاهتمام، وخصوصًا عندما يكون مالك إحداهما انتهى به الأمر مقتولًا برصاصة في رأسه.

للمرة الأولى لم يفتح دو فمه ليجيب، وأدرك فولك أنه توصل إلى نفس النتيجة، فاستغل الفرصة لتغيير الموضوع.

- دعنا نعود إلى كارن، هل سبق وجربت أن تفعل ذلك معها؟

- ماذا؟

- بطريقة رومانسية؟ حميمية؟

أطلق دو أصواتًا من أنفه.

- اصنع لي معروفًا، إنها كانت كأميرة الجليد بحق، لم أكن لأبذل جهدًا في ذلك.

- أتظن أنها كانت ستصدك؟ لا بد أن ذلك سيكون مزعجًا.

- لدي ما يكفي، شكرًا يا صديقي، لا تقلق بشأني. مع الطريقة التي تدور بها حول غريتشن في البلدة، إن لديك ما يكفي على عاتقك لكي تقلق بشأنه.

تجاهل فولك تعليقه.

- هل داست كارن على كبريائك؟ هل تجادلتَ معها قبلًا حول شيء ما؟ أشياء خرجت عن السيطرة بشكل ما؟

- ماذا؟! كلا.

جالت عينا دو يمنة ويسرة.

- ولكنك لم تكن على وفاق مع زوجها، طوال الوقت كما سمعنا.

- وماذا في ذلك؟ لقد كان ذلك دائمًا شيئًا سخيفًا، كان لوك يتصرف بحماقة فقط، لا يعني ذلك أنني سأفعل أي شيء لزوجته.

ساد الصمت لفترة، كان صوت فولك هادئًا عندما تكلم ثانية.

- سوف نتحرى عن تحركاتك في ذلك اليوم يا جرانت، وربما سيُدعم رفاقك أقوالك.

- إن الفكرة هي أن بعض الأقوال تكون مثل ألواح الجبس التي تعمل فيها؛ تكون متماسكة في البداية، ولكن إذا ضغطت عليها فسوف تتفتت في لحظات.

نظر دو إلى الأسفل لثوانٍ، وعندما رفع رأسه، أصبح أسلوبه مختلفًا، كان يبتسم، ابتسامة محسوبة بدقة وتملأ وجهه وتنعكس على عينيه.

- ماذا، أتقصد شيئًا مثل أقوالك؟ لماذا كتبت ابنة عمي اسمك اللعين قبل أن تموت؟

خيم الصمت بينما كان ثلاثتهم يحدقون إلى النسخة المصورة للفاتورة على الطاولة، بدا فولك متوترًا أكثر مما كان دو لدى سماع ذلك، كان يتساءل عما يجب فعله بهذا الشأن عندما ضحك دو ضحكة عالية.

- الشيء الجيد هو أن قصتي حقيقية لا يخالطها الشك، أليس كذلك؟ أنت أجبرتني على ذلك يا صديقي، لك ما طلبت، لا تسئ فهمي، ولكن أنا لم يكن لدي وقت لعائلة هادلر، ونعم، سأبيعُ مزرعة عمي عند أول فرصة، ولكنني لم أقتلهم، لم أكن في تلك المزرعة، وإذا كنت تريد أن تضعني هناك، سيكون عليك أن تلفق هذا الأمر عن عمد، وتدري شيئًا؟

هوى بقبضته على الطاولة مصدرًا صوتًا مدويًا كطلق ناري.

- أنا لا أظن أنك تملك الشجاعة لفعل ذلك.

- إذا كنتَ هناك يا جرانت، فإننا سنثبت ذلك.

ابتسم بتكلف.

- أرني ما لديك.

الفصل الرابع والعشرون

- إنك محظوظ لأننا ما زلنا نحتفظ بالتسجيلات، إننا نمسحها عادة بعد شهر.

أخذ سكوت ويتلام يتصفح الملفات على حاسوبه حتى وجد ضالته، تنحى مدير المدرسة إلى الخلف ليتمكن فولك وريكو من رؤية الشاشة، لقد كانوا في مكتبه، وكانت أصوات المدرسة في ظهيرة يوم الاثنين صاخبة تصل إليهم عبر الباب.

- حسنًا، ها نحن أولاء، هذا هو الجزء الخاص بكاميرا المدخل الرئيسي.

ضغط ويتلام على مؤشر الحاسوب وبدأ عرض الفيديو المسجل على الشاشة، اتضح أن الكاميرا مثبتة أعلى بوابة المدرسة الكبيرة ومُوجَّهة ناحية الدرج لتكشف الداخل والخارج.

- أعتذر، الجودة ليست أفضل ما يكون.

- لا بأس، إنها أفضل مما حصلنا عليه في مزرعة هادلر.

- على أي حال إن مدى نفع الكاميرات يعتمد على ما ستسجّله، ما الذي لديك هنا أيضًا؟

تغير المنظر عندما ضغط ويتلام مرة أخرى.

- الكاميرا الأخرى تغطي موقف سيارات العاملين.

كانت تلك اللقطات مأخوذة من موضع عالٍ أيضًا وتعرض صفًّا مشوشًا من السيارات.

- ألا يوجد سوى كاميرتين فقط بالمدرسة؟

- نعم، مع الأسف.

قال ويتلام ذلك وهو يفرك إصبعيه السبابة والإبهام ببعضهما تعبيرًا عن الرمز العالمي للمال.

- كان من الممكن أن نحصل على المزيد إذا استطعنا شراء المزيد.

- هل بإمكاننا إيجاد اليوم الأخير لكارن؟

قال فولك ذلك على الرغم من أنهم لم يكونوا يبحثون عن كارن بالأساس، بل جرانت دو، وعملًا بكلمتهم، قضى كلٌّ من فولك وريكو عدة ساعات يستجوبان رفاق دو بخصوص صحة أقواله، أكدوا أقواله حتى آخر نفس، لم يكن شيئًا لم يتوقعه فولك، ولكنه كان منزعجًا مع ذلك.

كبَّر ويتلام لقطة موقف السيارات حتى ملأت الشاشة.

- كانت كارن تركن سيارتها هنا عادة، لذا فمن المفترض أن تظهر على هذه الكاميرا.

وجد التسجيل الصحيح ثم سرَّع الوقت حتى وصل إلى نهاية اليوم الدراسي، ظلوا يراقبون التسجيل الصامت بينما يمر الطلاب في ثنائيات وثلاثيات يتضاحكون ويتحدثون بعد إطلاق سراحهم ليوم آخر، دخل إلى الصورة رجل رشيق وأصلع، سار إلى إحدى السيارات وفتح الصندوق، استغرق لحظات في البحث قبل أن يخرج بحقيبة ضخمة، حملها على كتفه واتجه راجعًا من حيث جاء.

- إنه أمين المدرسة.

- ماذا يوجد بالحقيبة؟

هز ويتلام رأسه.

- أنا أعرف أنه لديه مجموعة أدوات خاصة به، أظن أنه من الممكن أن تكون هي تلك.

- هل يعمل هنا منذ زمن؟

- منذ نحو خمس سنوات، أظن ذلك. ما الذي يهم في ذلك؟ إنه يبدو رجلًا جيدًا.

لم يَرد فولك، استمروا في المراقبة لعشر دقائق أخرى حتى ذهب جميع التلاميذ وخيَّم الهدوء على موقف السيارات. فقط عندما بدأ فولك يفقد الأمل، ظهرت كارن، توقف نَفَس فولك في حلقه، لقد كانت جميلة هذه المرأة المقتولة، ظل يراقبها وهي تخطو خطوات واسعة عبر الشاشة وشعرها الأشقر الفاتح يتطاير خلفها، كان من المستحيل قراءة تعبيرات وجهها بسبب

جودة التصوير المنخفضة، لم تكن كارن طويلة، ولكنها كانت توحي برشاقة راقصة وهي تتحرك بسرعة عبر موقف السيارات وتدفع تشارلوت في عجلة الأطفال من اتجاه الحضانة، ظهر بيلي خلفها على بُعد ثلاث خطوات، كان فولك مسرورًا لدى رؤيته ذاك الفتى ذا الشعر الداكن الذي يشبه والده كثيرًا، بجانبه كان يقف ريكو الذي بدل وقفته على الساق الأخرى وتنحنح، فقد رأى ريكو من قلب الحدث حجم الرعب الذي كان بانتظار الولد.

كان بيلي يسير متسكعًا ومستغرقًا في لعبة ما يمسكها في يده، التفتت كارن ونادت عليه من فوق كتفها بصوت غير مسموع، فجرى الولد ليلحق بها، أدخلت كارن طفليها إلى السيارة وربطت أحزمة الأمان ثم أغلقت الباب، تحركت بسرعة وبكفاءة، هل كانت مستعجلة جدًّا؟ لم يكن فولك متأكدًا.

على الشاشة، استقامت كارن وظلت واقفة بلا حراك تمامًا لهُنَيهة، إحدى يديها على سقف السيارة وظهرها باتجاه الكاميرا، تحرك رأسها قليلًا نحو الكاميرا ثم وضعت يدها على وجهها، حركت أصابعها حركة صغيرة، ثم كررتها مرة أخرى.

- رباه، هل هي تبكي؟ أعد هذه اللقطة من البداية، بسرعة.

لم ينبس أحدهم بينما يشاهدونها مرة ثانية، ثم مرة ثالثة فرابعة، كان رأسها للأسفل ثم صفعت رأسها صفعة خفيفة بيدها مرتين.

- لا يمكنني أن أحدد، الأمر يبدو أنها ربما كانت تبكي، ولكن من الممكن أنها كانت تحك أنفها بمنتهى البساطة.

سرّعوا الشريط عند ذلك الوقت، رفعت كارن يدها وبدا أنها تأخذ نفسًا عميقًا ثم فتحت باب السائق وولجت السيارة، رجعت إلى الخلف بالسيارة ثم ذهبت، أصبح موقف السيارات فارغًا مجددًا، كان عداد الوقت على المسجل يوضح أن كارن وابنها كان لديهما أقل من ثماني دقائق على قيد الحياة.

ظلوا يحدقون إلى الصورة ويتخطون العديد من المشاهد لم تظهر خلالها ذاهبٌ ولا آتٍ، غادرت موظفة الاستقبال بالمدرسة بعد كارن بعشر دقائق، لم تحدث أي حركة بعد ذلك وحتى أربعين دقيقة، وأخيرًا بدأ المعلمون في التوجه إلى سياراتهم واحدًا تلو الآخر، عرّفهم ويتلام على كل معلم بمجرد ظهوره، عاد أمين المدرسة ووضع حقيبته في صندوق السيارة مجددًا ثم قاد السيارة مبتعدًا بعد الساعة الرابعة والنصف مساءً.

كانت سيارة ويتلام هي السيارة الوحيدة المتبقية في موقف السيارات بعد ذلك، سرَّعوا الشريط المسجل وبحلول الساعة السابعة مساءً ظهر ويتلام نفسه على الشاشة، كان يسير ببطء منكسًا رأسه ومنكبيه العريضين مسترخيين إلى الأمام، على الكرسي بجانب فولك، تنفس المعلم نفسًا عميقًا، كان فكه مطبقًا بإحكام وهو يشاهد المقطع.

- من الصعب مشاهدة هذا، في ذلك الوقت كانت شرطة كلايد قد اتصلوا بي لكي يبلغوني بأن كارن وبيلي قُتلا.

كانوا يشاهدون ويتلام وهو يدخل سيارته ببطء ثم، وبعد محاولتين فاشلتين، تمكن أخيرًا من الرجوع بسيارته والانطلاق بعيدًا، سرّعوا الشريط لعشر دقائق أخرى، لم يظهر جرانت دو في أي مكان.

* * * *

- سأغادر إذن.

قالت ديبورا من قاعة الاستقبال وحقيبة يدها معلقة على كتفها، انتظرت للحظة لكنها لم تظفر بإجابة سوى نخرة غير واضحة، نظر فولك إليها وابتسم لها، لقد تبدل أسلوبها الجاف معه في الأيام القليلة الماضية وكان قد شعر بتطور مفاجئ عندما أحضرت له قهوة ذهبت لإحضارها للآخرين، ساوره الشك في أن يكون ريكو قد تكلم معها.

نادرًا ما كان كلٌّ من ريكو والضابط بارنز يعلقان على صفعها لباب القسم من خلفها، كلٌّ منهم يجلس على مكتب ويحدق إلى شاشة حاسوبه إلى الصور المشوشة التي تُعرض أمامهم، كانوا قد أخذوا جميع تسجيلات كلتا الكاميرتين في المدرسة ثم اتجهوا إلى المدينة.

ريكو قد أخبر فولك إن هناك ثلاث كاميرات مراقبة في شوارع كيوارا الرئيسية؛ واحدة بجانب الحانة، وواحدة بالقرب من مكاتب المجلس وأخرى توجد أعلى باب مخزن الصيدلية، وقد جمعوا كل تسجيلاتها.

تثاءب بارنز وتمدد، تكاد ذراعاه الضخمتان تصلان إلى السقف، كان فولك مستعدًا لسماعه وهو يتأفف، ولكن بارنز تابع مراقبة شاشته بلا تذمر، لم يكن بارنز يعرف لوك ولا كارن، كان قد أخبر فولك بذلك، ولكنه كان قد أعطى بيلي هادلر درسًا عن تعليمات سلامة الطريق قبل وفاته بأسبوعين، لا يزال يحتفظ ببطاقة الشكر الموقعة بأقلام بيلي الملونة على مكتبه.

تثاءب فولك نفسه، لقد استغرقوا في هذا العمل لأربع ساعات، كان فولك مركزًا على تسجيلات كاميرات المدرسة، خلال تلك الساعات لم يرَ سوى شيء أو اثنين لفتا انتباهه، كتلميذ يتبول سرًّا على عجلات سيارة مدير المدرسة الأمامية، ومعلمة تخدش سيارة زميلتها بسيارتها ثم تهرب مسرعةً، ولكن لا يوجد أثر لـجرانت دو.

وجد فولك نفسه يعيد مشاهدة تسجيل كارن مرارًا وتكرارًا بدلًا من ذلك، لقد جاءت وذهبت ثلاث مرات خلال الأسبوع؛ كل يوم عدا يوم الثلاثاء الذي كان يوم إجازتها، ويوم الجمعة إذ كانت مقتولة حينها، كل الأيام كانت متشابهة، تتحرك بسيارتها في الساعة الثامنة والنصف صباحًا بعد أن تخرج أطفالها وتجمع حقائب الظهر وقبعات الشمس ثم تختفي من الكاميرا متجهة إلى المدرسة، ثم تعود أدراجها بحلول الساعة الثالثة والنصف مساءً.

درس فولك تحركاتها، كيف كانت تنحني إلى الأسفل لتتحدث إلى بيلي وتضع يدًا على كتف الفتى الصغير، لم يتمكن من تحديد ملامح وجهها، ولكنه تخيلها وهي تبتسم إلى طفلها، كان يشاهد كيف تهدهد تشارلوت وهي تنقلها من مقعد السيارة إلى كرسي الأطفال، لقد كانت كارن هادلر امرأة جميلة قبل أن يُطلق عليها النار في معدتها، وأمًّا جيدة مع أطفالها وفي عملها أيضًا، شعر فولك أن بارب كانت محقة للغاية، لا بد وأنه كان سيعجب بها.

أخذ يعيد مشاهدة تسجيل يوم الخميس بهوس شديد، اليوم الذي قُتلت فيه كارن وابنها، ظل يشغل الشريط ويعيد تشغيله مرارًا وتكرارًا ويُحلل كل تفصيلة، هل كانت مترددة بعض الشيء وهي تقترب من السيارة؟ هل كانت تعصر يد ابنها أكثر من المعتاد؟ كان فولك يشك في أنه يطارد سرابًا، ولكنه استمر في المشاهدة مرة بعد مرة، كان يحدق إلى صورة زوجة صديقه الميت الشقراء وتمنى في سره لو أنها تلتقط هاتفها وتتصل بالرقم الذي خطَّته على الفاتورة، تمنى لو تجيبها نفسه القديمة. لم يحدث أي من ذلك، لم يتغير أي شيء في الأحداث.

كان فولك يفكر في إنهاء العمل لليوم عندما أسقط بارنز القلم الذي كان يعبث به ثم جلس على كرسيه.

- تعالَ، فلنلقِ نظرة على هذا.

ضغط بارنز على المؤشر ليعيد تشغيل التسجيل المشوش، كان يتفحص ما لديهم من تسجيلات كاميرا الصيدلية التي لم تكن تلتقط شيئًا أكثر تشويقًا من ممر خلفي قصير والباب المؤدي إلى غرفة المخزن.

- ماذا؟ دو؟

قال فولك ذلك فتلاصق هو وريكو أمام الشاشة.

- ليس بالضبط.

قال بارنز وهو يعرض التسجيل، كان وقت الفيديو يعرض الساعة الرابعة وواحدًا وأربعين دقيقة مساءً من يوم الخميس. قبل نحو ساعة فقط من العثور على جثة كلٍّ من كارن وبيلي.

بدا التسجيل وكأنه متوقف لعدة ثوانٍ لا يظهر شيء سوى الممر الفارغ، حتى ظهرت سيارة فجأة مرت مسرعة، ظَهرت واختفت في أقل من طرفة عين.

أعاد بارنز تشغيل المقطع وجعله أبطأ ثم ثبت الصورة بمجرد أن ظهرت السيارة، كانت الصورة غير واضحة ومن زاوية سيئة، ولكن لا بأس، فقد كان وجه السائق واضحًا، رأوا خلال زجاج السيارة وجه جايمي ساليڤان يبادلهم النظر.

كانت أضواء الممر تتراقص عندما ذهب فولك وريكو إلى هناك، ولكن لم يكن هناك الكثير لكي يرياه، أخبرا بارنز بأن العمل اليوم قد انتهى وأنه قد أدى عملًا جيدًا، وقف فولك أسفل كاميرا المراقبة الخاصة بالصيدلية وأجال بصره من حوله، كان الطريق الصغير ضيقًا وموازيًا لطريق كيوارا الرئيسي، يوجد على أحد جانبيه مكتبُ عقارات، وحلاق، وعيادة الطبيب، والصيدلية. على الجانب الآخر توجد مساحات من الأرض تحولت إلى موقف سيارات مؤقتًا، لقد كانت متصحرة بالكامل.

تفحص فولك وريكو الممر كاملًا، لم يستغرق ذلك وقتًا، كان يسمح بمرور سيارة من كلتا فتحتَيه، ومتصلًا بالطرق المؤدية إلى خارج المدينة شرقًا وغربًا، سيمثل هذا طريقًا مختصرًا ممتازًا للخروج من المدينة في ساعة الذروة دون الاقتراب من الطريق الرئيسي، ولكن هذه كيوارا، لا توجد ساعة ذروة هنا، فكر فولك.

- لماذا إذن كان صديقنا جايمي ساليڤان يتجنب أن تتم رؤيته في المدينة قبل مقتل عائلة هادلر بعشرين دقيقة؟

تردد صوت فولك داخل الممر الحجري.

- لدي بعض الأسباب تدور في عقلي، ولا يوجد أي منهم جيد.

أجابه ريكو.

أخذ فولك ينظر إلى عدسات الكاميرا مليًّا.

- على الأقل أصبحنا نعرف شيئًا عن مكانه الآن، من الممكن أنه ذهب إلى منزل عائلة هادلر من هنا خلال الوقت المحدد، هل يمكنه فعل ذلك؟

- أجل، بكل سهولة.

مال فولك إلى الحائط وأسند رأسه إلى الوراء، كان الحائط ساخنًا بفعل حرارة النهار، كان يشعر بالإرهاق، أحرقته عيناه عندما أغلقهما.

- إذن نحن لدينا جايمي ساليڤان الذي يدَّعي كونه صديق لوك المقرب، ويكذب بشأن مكانه، وتم الإمساك به على الكاميرا وهو يتسلل قبل أن يُقتل صديقه بساعة واحدة. ثم لدينا جرانت دو الذي يُقرُّ بأنه لم يكن على وفاق مع لوك ويؤكد مكان وجوده حينها بكل الطرق، بينما في الوقت ذاته اسمه مكتوب بخط يد امرأة مقتولة.

فتح فولك عينًا واحدة ونظر إلى ريكو.

- لا تنسَ سائق الشاحنة البيضاء المجهول، الذي ربما لا يكون قد رأى لوك يقود دراجته عائدًا من النهر عند مفترق الطرق منذ عشرين سنة.

- وذلك أيضًا.

ظلا واقفين في صمت لمدة طويلة يحدقان إلى الزقاق كأن الإجابة ستُرتسم أمامهما هناك.

- اللعنة.

قال فولك ذلك وهو يدفع نفسه بعيدًا عن الجدار ويقف مستقيمًا، بذل جهدًا في فعل هذا.

- سنعمل كالتالي: أولًا سنستدعي ساليڤان مجددًا ونسأله عما كان يفعله في كاميرا مراقبة في أحد الأزقة الخلفية بحق الجحيم، لقد طفح الكيل مع ذلك الرجل الذي ما زال يعبث بنا.

- الآن؟

كانت حافات عيني ريكو حمراء ويبدو متعبًا مثلما كان فولك.

- في الغد.

رن هاتف ريكو بمجرد أن مرًا عبر ممر ضيق إلى الطريق الرئيسي، توقف على الرصيف وأخرج هاتفه.

- إنها زوجتي، أعتذر، يجب أن أجيب على هذا.

وضع الهاتف على أذنه.

- مرحبًا يا عزيزتي.

كانا قد توقفا أمام متجر بيع الحليب، هز فولك رأسه ناحية المحل وقلّد إشارة ليطلب مشروبًا.

أومأ ريكو بامتنان.

كان المحل باردًا وهادئًا بالداخل، لقد كان ذلك هو المتجر ذاته الذي كانت إيلي تعمل فيه وتقضي الأمسيات وهي تلقي بثمن الحليب والسجائر في الخزنة، كانوا قد وضعوا ملصقات لوجهها على واجهة المحل بعد العثور على جثتها لتجميع النقود من أجل إكليل الجنازة.

لقد اختلف تصميم المحل كثيرًا منذ ذلك الحين حتى أصبح غير مألوفٍ تقريبًا، ولكن لا يزال فولك يتذكر أنه كان يأتي إليها ليتحدثا من خلف الطاولة في كل مرة كان يعثر على حجة لمجيئه، ويصرف نقوده على أشياء لم يكن يريدها ولا يحتاجها.

استُبدلت الثلاجات العتيقة في المتجر بمبردات مفتوحة في وقت ما، وكان فولك يقف قبالتها الآن ويشعر بالحرارة الحارقة تتبخر خارج جلده، لا يزال يشعر بالتعب في داخله كبادرة حمى ستستحوذ عليه لفترة طويلة، التقط أخيرًا زجاجتَيْ مياه وانتقى شطيرة لحم مقدد وجبنًا وكعكة مغلفة للعشاء.

التفت فولك ليأخذ مشترياته إلى المُحاسب، وأنَّ أنينًا مكتومًا عندما أدرك أنه تعرف على الوجه الجالس خلف الخزنة للمرة الثانية، لم يرَ صاحب المتجر منذ أن كانا كلٌّ منهما عالقين خلف مقعدَيْهما في نفس الفصل المدرسي الخانق.

كان الفتى قد خسر الكثير من شعره الآن، ولكن ملامحه الحادة لا تزال مألوفة، لقد كان واحدًا من أولئك الأولاد بطيئي الفهم وسريعي الغضب، تذكر فولك ذلك وهو يحاول يائسًا أن يتذكر اسمه، كان يحس بتأنيب الضمير، لأن لوك كان يسخر منه ويضايقه من حين إلى آخر ولم يكلف فولك نفسه عناء الدفاع عنه، تكلف ابتسامة على وجهه إذ ذهب ووضع مشترياته على طاولة الدفع.

- كيف حالك يا إيان في هذه الآونة؟

تمكن فولك في آخر لحظة من العثور على اسم الرجل في خبايا الذاكرة الأثيرية وهو يخرج محفظته، إيان شيء ما ويليس.

حدق ويليس في المشتريات كأنه نسي ما الذي عليه فعله.

- هذه فقط، شكرًا يا صديقي.

لم ينبس الرجل ببنت شفة، اكتفى فقط برفع رأسه ولم يكن ينظر مباشرة نحو فولك.

- التالي.

قال بصوت واضح.

نظر فولك من حوله، لم يكن هناك أي أحد آخر في المحل، التفت إليه مجددًا، كان ويليس لا يزال ينظر متعمدًا إلى الفراغ، شعر فولك بشيء من الانزعاج، كما شعر بشيء آخر، بالخزي على الأغلب.

- لا بأس يا صديقي، إنني لا أحاول التسبب لك بأية متاعب، سأشتري هذه الأشياء ثم أغرب عن وجهك.

حاول فولك مجددًا ودفع مشترياته أكثر على الطاولة.

- ولن أخبر أي أحد أنك بعت لي شيئًا، كلمة شرف.

استمر الرجل في النظر وراء فولك.

- التالي.

- حقًّا؟!

تمكن فولك من سماع نبرة الغضب في صوته.

- إن المدينة تتقشف عن آخرها ولا يزال يمكنك أن ترفض عملية شراء، أحقًّا يمكنك؟

أشاح صاحب المتجر بنظره بعيدًا وبدَّل وقفته على ساقه الأخرى، فكر فولك أن يأخذ الأشياء ويترك النقود على الطاولة حتى فتح الرجل فمه.

- سمعت أنك عدت، أخبرتني ماندي ڤيسر إنك كنت تسبب الإزعاج للأطفال في المنتزه.

حاول أن يُبدي الاشمئزاز على صوته، لكنه لم يستطع إخفاء سعادته الحقودة.

- هل أنت تمزح؟

هز زميله القديم رأسه علامة الرفض وهو مستمر في التحديق إلى الفراغ.

- هذا يعني أنني لا أريد أن أبيع لك شيئًا، لا اليوم ولا أبدًا.

حدق فولك إليه، بدا الرجل وكأنه كان ينتظر عشرين سنة من أجل لحظة يشعر فيها بالتفوق على أحدهم وأنه لا ينوي أن يضيع فرصته، أوشك فولك أن يفتح فمه ليتجادل لكنه توقف.

- انسَ الأمر.

ترك فولك الأشياء على الطاولة.

- أتمنى لك الحظ الجيد يا إيان، سوف تحتاجه هنا.

رن جرس الباب من خلفه؛ إذ خرج لمواجهة الحرارة.

أبعد ريكو هاتفه ونظر إلى يدي فولك الفارغتين ثم نظر إلى تعبير وجهه.

- ماذا حدث؟

- غيرت رأيي.

نظر ريكو إلى المحل ثم إلى فولك مجددًا ثم استوعب كل شيء.

- هل تود أن أتكلم معه؟

- لا، لا تهتم، شكرًا على أي حال، سأراك غدًا ونعمل على وضع خطة من أجل ساليڤان.

التفت فولك وهو يشعر أنه أكثر غضبًا مما حاول أن يبينه بشأن المحادثة التي تمت في المحل، شعر فجأة بأنه لا يطيق الانتظار في هذا المكان، حتى مع حقيقة أن كل ما كان ينتظره هو ليلة طويلة في غرفته الصغيرة بالحانة، مسح ريكو المحل بعينيه مرة أخرى، فكر مليًا ثم نظر إلى فولك مجددًا.

- اسمع، فلتأتِ على العشاء عندي في البيت، لقد أخبرتني زوجتي أكثر من مرة لكي أسألك.

- لا، لا بأس حقًا.

- يا صديقي، إما أن أتجادل معك وإما أتجادل معها بعد ذلك، على الأقل لدي فرصة في أن أفوز عليك في النقاش.

الفصل الخامس والعشرون

بعد مرور أربعين دقيقة، وضعت ريتا ريكو طبقَ معكرونة ساخنًا أمام فولك، ربتت على كتفه بلمسة خفيفة كالريشة ثم ذهبت بعيدًا وعادت بعد لحظات ومعها زجاجة نبيذ، كانوا جالسين بالخارج حول طاولة خشبية مغطاة بغطاء ملون بينما أقبل الليل، يعيش ريكو وزوجته في منزل كان متجرًا في السابق في أقصى نهاية الشارع الرئيسي، لا يبعد كثيرًا عن قسم الشرطة، يوجد شجيرة لافندر وشجرة ليمون بالحديقة الخلفية وفروع أضواء معلقة على طول السور مما أضفى لمسة مبهجة إلى المكان.

كان الضوء يسقط من خلال النوافذ بينما فولك يراقب ريتا كلما اختفت بالداخل لتحضر هذا وذاك، عرض عليها مساعدته، ولكنها شكرته بابتسامة، كانت امرأة متوسطة الطول ومكتنزة الجسم ينسدل شعرها على كتفيها، تضع يديها بلا وعي على بطنها المنتفخ بسبب الحمل، تبدو مفعمة بالحيوية والطاقة، وبرغم حملها تتحرك برشاقة خلال مهامها العديدة بسلاسة وفاعلية.

كانت عندما تبتسم، وكان ذلك يحدث أغلب الوقت، تظهر غمازة عميقة على خدها الأيسر، وبمجرد أن وضعت الطعام أمام فولك تمكن من معرفة سبب وقوع ريكو في حبها، عندما بدؤوا في الأكل –كان مزيجًا من الطماطم والباذنجان والسجق الحار بجانب مشروب شيراز مميز– شعر فولك أنه وقع في حبها قليلًا هو نفسه.

كان هواء الليل دافئًا، ولكن الظلام بدا وكأنه يمتص بعضًا من الحرارة، ارتشفت ريتا بعضًا من المياه المعدنية ونظرت نظرة اشتياق حانية إلى زجاجة نبيذ الشيراز الأحمر.

– أوه، لا يمكنني الاستغناء عنه، لقد مضى وقت طويل.

قالت وهي تضحك على تعبير زوجها الذي لا يتفق معها، اقتربت منه وداعبت رقبته من الخلف إلى أن ابتسم.

- إنه يقلق كثيرًا على الجنين، ويبالغ في اهتمامه حتى من قبل أن تأتي.

- متى ستلدين؟

لم يكن ذا خبرة في تلك المواضيع، ولكنها بدت له أنها على وشك الولادة.

- خلال أربعة أسابيع.

نظرت إلى عين زوجها وابتسمت.

- لا يزال أمامنا أربعة أسابيع طويلة وهائلة.

كان الحديث يسترسل في سهولة حول الطعام اللذيذ، تحدثوا عن السياسة والدين وكرة القدم، عن كل شيء دون ما يحدث في كيوارا، كل شيء عدا عائلة هادلر، فقط عندما رفع ريكو المائدة واختفى بداخل المنزل ليُدخِل الصحون سألته ريتا أخيرًا.

- قل لي، بصدق أرجوك.. هل سيصبح كل شيء على ما يرام؟

نظرت ناحية باب المطبخ فعرف فولك أنها لا تتحدث عن قضية عائلة هادلر فقط.

- انظري، أن تكون ضابط شرطة في مدينة صغيرة ليس بالأمر السهل على الإطلاق، إن المرء يحاول الاختباء حيث لا مكان ليختبئ فيه، هناك العديد من المعتقدات السياسية في الأمر، الكثير من الناس الذين يعلمون الكثير من الأشياء عن بعضهم بعضًا، لكن زوجك يقوم بعمل رائع، حقًّا. إنه ذكي ومتفانٍ بإخلاص، إن الجهات العليا تلاحظ أشياء كهذه، سوف يصبح شخصًا مرموقًا.

- أوه.

أصدرت ريتا صوتًا رقيقًا يفيد الرفض وضربت يدها في الهواء.

- إنه لا يهتم كثيرًا بتلك الأشياء، لقد كان والده ضابطًا قرويًّا لطيلة حياته، في بقعة لا تُرى على الخريطة، مكان ما بالقرب من الحدود الجنوبية الأسترالية، لن تعرفها أنت، لا يعرفها أحد.

تحول نظرها ناحية الممر الفارغ مرة أخرى.

- لقد كان إنسانًا في غاية الاحترام مع ذلك، أدرك ذلك. كان يدير البلدة كأبٍ صارم لكن عادل، وكان الناس يحبونه لأجل ذلك، حتى يوم تقاعده وما بعد ذلك.

توقفت عن الكلام، مدت يدها وصبت بقايا زجاجة النبيذ في كأس فولك وكأسها.

- صه.

قالت وهي تضع إصبعًا أمام شفتيها وهي ترفع كأسها، ابتسم فولك.

- هل تقابلتما هناك؟ في جنوب أستراليا؟

- أجل، ولكن ليس في بلدته، لم يكن أحد ليذهب إلى هناك، لقد تقابلنا في مطعم والدي في أديليد، كان يعمل بالقرب من هناك. كانت تلك وظيفته الأولى في الجيش، ولقد كان لائقًا للغاية، يعمل بجد لكي يفخر به والده.

ابتسمت على إثر الذكرى وتجرعت كأسها الصغيرة.

- لكنه كان وحيدًا واعتاد المجيء إلى مطعمنا طوال الوقت، حتى أشفقت عليه وطلبت منه الخروج لتناول مشروب.

أخذت تفرك يدها على بطنها.

- انتظر حتى أنهيت دراسة الماجستير ثم تزوجنا بعد ذلك مباشرة، كان ذلك منذ سنتين.

- الماجستير في أي تخصص؟

- الصيدلة.

تردد فولك، لم يتمكن من التفكير في صياغةٍ مناسبة للسؤال، حتى أنقذته ريتا.

- أنا أعلم.

قالت وهي تبتسم.

- إذن ما الذي أفعله وأنا حافية القدمين وحبلى في مكان قفر كهذا المكان، بينما يمكنني استغلال مؤهلاتي جيدًا في مكان آخر؟

هزت كتفيها هزة خفيفة.

- من أجل زوجي، ولن يدوم ذلك إلى الأبد؛ إن طموحه -كما تعلم- ليس كالجميع، إنه يقدس والده، وهو الابن الأصغر في أولاده الثلاثة، لذا

فإنني أعتقد –وإن اعتقادي خطأ في رأيي– أنه يحاول دائمًا ليحصل على انتباه والده بكل ما أوتي من قوة، لذلك السبب لقد انتقلنا إلى هذه المدينة الريفية، لقد كانت لديه آمال واسعة أن الأمر سيكون كيفما كان مع والده، ولكن كل شيء تقريبًا أصبح...

ترددت قليلًا.

- خاطئًا على الفور، إن كاهله مثقل طوال الوقت، لقد كان هو من وجد جثة ذلك الولد الصغير، هل أخبرك؟

أومأ فولك علامة الموافقة.

كانت ريتا ترتجف على الرغم من حرارة الجو.

- إنني أقول له، طوال الوقت، أقول له: «ليس لك ذنب في أي مما يحدث في هذا المكان، إن هذا المكان مختلف، إنه لا يشبه المكان الذي كان فيه والدك».

رفعت ريتا حاجبيها لـفولك فأومأ، هزت رأسها وابتسمت ابتسامه خفيفة بنصف غمازة.

- لكن على كل حال، ما الذي يمكنني فعله؟ إن الأمر خارج حدود المنطق، أليس كذلك؟ هل هي علاقة رجل بوالده؟

ظهر ريكو في المدخل في أثناء كلامها، وهو يحمل ثلاثة أكواب من القهوة.

- لقد نقعتُ الأواني في الماء، عمَّ كنتما تتحادثان؟

- كنت أقول إنك تثقل كاهلك بكثير من الضغط لكي تعيش بما يوافق معايير والدك.

قالت ريتا وهي تمد يدها لتملس على شعرها المجعد، ظهرت غمازتها مجددًا.

- يوافقني شريكك الرأي هنا.

قرر فولك، الذي لم يسأله أحد عن رأيه على أي حال، أن ريتا كانت على حق، تبدل لون ريكو قليلًا، لكنه حرك رأسه لتقابل يدها.

- ليس الأمر كذلك بالضبط.

- لا بأس يا حبيبي، إنه يتفهم ذلك.

ارتشفت ريتا رشفة من قهوتها ونظرت إلى فولك من فوق حافة كوبها.

- أليس كذلك؟ أعني، إن ذلك أحد أسباب وجودك هنا أنت نفسك، أليس كذلك؟ من أجل والدك.

خيم صمتٌ مشبع بالغموض.

- لقد توفي أبي.

- آه، آسفة جدًّا لسماع ذلك.

نظرت ريتا إليه بعينين تفيضان بالشفقة.

- ولكن بالتأكيد لا يقلل ذلك من حقيقة هذا الأمر؟ نادرًا ما يغير الموت شعورنا ناحية شخص ما، بل يزيده ويقويه في كثير من الأحيان.

- حبيبتي، ما الذي تتكلمين بشأنه بحق السماء؟

قال ريكو وهو يدفعها بكوعه برفق بينما يمد يده ليلتقط زجاجة النبيذ الفارغة.

- كنت أعرف أنك يجب ألّا تتناولي أيًّا من هذا.

تجهمت ريتا بعض الشيء في تردد، نظرت إلى فولك ثم إلى زوجها حتى استقر نظرها على فولك مجددًا.

- أنا آسفة، إنني ربما أسأت الفهم، الأمر فقط أنني سمعت ما يُقال، بالطبع، عن صديقتك الشابة التي ماتت، لقد قالوا إن والدك عانى بسبب ذلك، وأنه هو نفسه كان متهمًا حتى، واضطر إلى أن يترك بيته ويأخذك بعيدًا، لا بد أن ذلك تسبب في بعض.. الخلافات، وحتى الآن، تلك المنشورات الفظيعة التي تحمل صورته والمنتشرة في كل أنحاء البلدة.

توقفت عن الكلام.

- أعتذر، تجاهل كلامي رجاءً، إنني دائمًا أبالغ في تفسير الأمور.

لم يتكلم أحد لثوانٍ طويلة.

- لا يا ريتا، في حقيقة الأمر، أظن أن تفسيرك للأمر تفسير صحيح.

* * * *

ظلت شاحنة مال ديكون البيضاء تملأ مرآة الرؤية الخلفية لأكثر من مائة كيلومترٍ على طول الطريق خارج كيوارا، كان إريك والد آرون يقود بعين واحدة على المرآة وكلتا يديه ممسكة بعجلة القيادة.

جلس آرون صامتًا على الكرسي المجاور لا يزال يستوعب وداعه السريع للوك وغريتشن، كانت أمتعة عائلة فولك تتقلب وتتخبط بالخلف، كل ما استطاعوا أخذه أيًا كان. بعيدًا من ورائهم، كانت مزرعتهم مقفلة ومؤمنة بكل ما استطاعوا من إحكام، وزعوا قطيع الماشية على أي من الجيران الذين أرادوا ضمهم لخاصتهم، كان آرون خائفًا من أن يسأل إذا كان ذلك مؤقتًا، أم إلى الأبد.

لمرة واحدة منذ بداية الرحلة تباطأ إريك على اليمين لكي يسمح لديكون باجتيازه، كأن هذه كانت قيادة عادية في يوم عادي، ولكن بدلًا من ذلك، أخذت الشاحنة البيضاء القذرة تتقدم بثبات حتى اصطدمت بمؤخرة السيارة وضربتها ضربة شديدة ارتد آرون على إثرها إلى الأمام برأسه.

لم يتوقف إريك بعدها مرة أخرى.

كانت ساعة قد مضت تقريبًا عندما ضرب ديكون بوق شاحنته بكامل طاقته ضربة واحدة متتالية وعالية، اقترب منهما إذ كانت شاحنته تظهر في مرآة آرون الجانبية قريبة للغاية والضوضاء تصدح عاليًا وتدوي على طول الطريق الفارغ. تزاحمت الأصوات في رأس آرون فضغط براحتيه على صندوق السيارة محاولًا تمالك نفسه بسبب الدفعة الحتمية من الخلف، كان والده بجانبه مطبقًا فكه بإحكام، امتدت الثواني إلى ما لا نهاية حتى الثانية التي شعر فيها آرون أنه لن يحتمل ذلك أكثر ثم توقفت الضوضاء، أخذ الصمت المباغت يرن في أذنيه.

في انعكاس المرآة، رأى ديكون يفتح نافذته ويمد إحدى ذراعيه خارجًا ببطء ومن ثم إصبعه الوسطى، ظل إصبعه على هذا الوضع لمدة طويلة متصلبًا في اتجاه الرياح، ثم أخيرًا، ببالغ الشفقة، أخذ يتضاءل ويتضاءل في المرآة حتى اختفى عن الأنظار.

* * * *

- كان أبي يكره ملبورن، لم يكن مستقرًا هناك حقًا قط، لقد وجد وظيفة مكتبية لإدارة حلقة التزويد لشركة زراعية، ولكنها قلبت حياته رأسًا على عقب بالطبع.

كان فولك نفسه قد التحق بأقرب مدرسة ثانوية لينهي سنته الدراسية الأخيرة، كان مشتتًا وحزينًا وبالكاد كان يتذكر أن يمسك بقلمه، ناهيك بأن يرفع يده في الفصل، قضى فترة امتحاناته حتى يظهر أمام الجميع بدرجاته القوية، بدلًا من أن تكون مرموقة.

- لقد تمكنت من التأقلم أكثر مما تمكن أبي بقليل، لقد كان وحيدًا هناك حقًا، مع ذلك لم يسبق أن تحدثنا بهذا الشأن، إن كلينا انطوائيٌّ نوعًا ما وكنا نتصرف على هذا الأساس، لم يكن ذلك ذا فائدة.

نظرت ريتا وريكو إليه عبر الطاولة، مدت ريتا يدها وربتت على يد فولك.

- إنني متأكدة أن كل شيء ضحّى به من أجلك، كان يشعر بأنه يستحق التضحية.

أمال فولك رأسه قليلًا.

- شكرًا لقولك ذلك، لكنني لست متأكدًا من موافقته على ذلك.

* * * *

استمر آرون في النظر من المرآة في أثناء القيادة الصامتة، لم يظهر ديكون مجددًا. بعد مضي ساعة من الصمت، أوقف والده السيارة بشكل مباغت ووجه صفعة إلى آرون في حزام الأمان وأوقف الشاحنة على جانب الطريق الفارغ مصدرًا صريرًا حادًا بإطارات السيارة.

انتفض آرون عندما صفع إريك فولك طارة القيادة صفعة قوية بيده، كان والده أكثر ذبولًا من المعتاد وكانت جبهته تلتمع بخط من العرق، بدل إريك جلسته والتفت إليه ومد يده في حركة واحدة سريعة وأمسك بقميص ولده، انقبض آرون على إثر اليدين اللتين لم تُرفعا إليه قط في غضب ولو لمرة واحدة والآن تمسكان بقميصه وتشده للأمام.

- سوف أسألك هذا السؤال لمرة واحدة، فقل لي الحقيقة.

لم يسمع آرون هذه اللهجة في صوت والده قط من قبل، بدا صوته مشمئزًا.

- هل أنت من فعلها؟

داهمت صدمة السؤال آرون كشيء ضخم يطبق على صدره وشعر كأنه يختنق، أجبر نفسه أن يأخذ نفسًا، لكنّ رئتيه كانتا تختنقان، فقد القدرة على الكلام للحظة.

- ماذا؟ أبي...

- أخبرني.

- كلا!

- هل لك أي يدٍ في موت تلك الفتاة؟

- كلا يا أبي، كلا. بالطبع لم أفعل ذلك الشيء الفظيع.

شعر آرون أن قلبه يهدر بينما يقبض والده عليه بيده، كان يفكر بأفضل أشيائهم التي تتخبط وتتكسر داخل كومة بصندوق الشاحنة الخلفي، وبوداعه المتعجل للوك وغريتشن، كان يفكر بإيلي، التي لن يراها أبدًا مرة أخرى، وبديكون الذي ما زال يبحث عنه حتى الآن خلال النافذة الخلفية، شعر بالغضب يجتاحه وحاول إبعاد يد والده عنه.

- لم أفعل، كيف أمكنك أن تسألني ذلك حتى بحق الله؟

ظل والد آرون ممسكًا به.

- هل تعلم كم عدد الذين سألوني عن الملاحظة التي كتبتها تلك الفتاة المقتولة؟ أصدقاء لي، أناس أعرفهم منذ سنوات.. سنوات، يعبرون إلى الناحية الأخرى من الشارع لدى رؤيتي، كل ذلك بسبب تلك الورقة.

أحكم قبضته.

- لذلك أنت مجبر على أن تخبرني، لماذا كان اسمك مكتوبًا عليها؟

مال آرون فولك إلى الأمام، الأب والابن، وجهًا لوجه. فتح فمه:

- لماذا كان اسمك؟

* * * *

- لم نصبح قط كالسابق بعد ذلك، لقد حاولت عدة مرات خلال كل تلك السنوات، ربما حاول هو أيضًا، بطريقته الخاصة، ولكننا لم نتمكن من إصلاح أي شيء حقًا، حتى توقفنا عن التحدث بشأن هذا، في الحقيقة لم يأتِ أي منا بذكر كيوارا مرة أخرى قط. كنا نتظاهر بأن شيئًا من

ذلك لم يحدث، لم يحدث أي شيء، لقد تأقلم مع ملبورن، وتأقلم معي، ثم مات، ذلك الأمر برمته.

* * * *

- كيف أمكنك ذلك؟

انفجرت عينا والد آرون غضبًا، واكتسى وجهه بتعبير حاد لم يقدر على تسميته.

- إن أمك مدفونة في تلك المدينة، بنى أجدادك تلك المزرعة بأيديهم، بحق الله، إن حياتي وأصدقائي هناك، لا تجرؤ أبدًا على أن تُلقي ذلك عليَّ.

شعر آرون بالدماء تتدفق في رأسه؛ أصدقاؤه وأمه، لقد ترك وراءه مثلما ترك أبوه تقريبًا.

- لماذا نهرب إذن؟!

أمسك بقبضة أبيه ودفعها بعيدًا عن قميصه، وتمكن من فعلها هذه المرة.

- لماذا جعلتنا نهرب ونحن نجر أذيال الخزي والعار؟ إن ذلك يثبت علينا الذنب فقط.

- كلا، ما يثبت علينا الذنب هي تلك الملاحظة.

أخذ إريك يحدق إلى آرون.

- قل لي الحقيقة، هل كنت مع لوك حقًّا؟

نظر آرون في عين أبيه مباشرة.

- أجل.

فتح إريك فولك فمه ليتكلم، ثم امتنع. كان ينظر إلى ولده كأنه لم يسبق أن رآه من قبل، تحول الجو بداخل السيارة إلى شيء خانق وآسن، هز رأسه هزة واحدة والتفت مجددًا إلى طارة القيادة ثم شغّل المحرك.

لم ينبس أيٌّ منهما ببنت شفة طوال الطريق. كان آرون يضطرم داخله بنيران الغضب والعار وآلاف الأشياء الأخرى، ويحدق إلى المرآة الجانبية طوال الرحلة.

كان شيء داخله يشعر بخيبة الأمل من عدم ظهور مال ديكون مرة أخرى.

الفصل السادس والعشرون

بعد مغادرة فولك منزل ريكو، كان يشعر بحاجة ملحّة لأن يغتسل؛ لقد أحاط به الماضي كطبقة من القذارة، كان اليوم طويلًا وبدا الوقت متأخرًا في الليل أكثر مما كان بالفعل، كانت الحانة لا تزال ممتلئة عن آخرها عندما صعد إلى غرفته.

بينما كان يغتسل، بدت على جسده علامات التعرض لشمس كيوارا الحارقة؛ ساعديه، رقبته، وياقة قميصه مثلثة الشكل، كل ما كان ذا لون أبيض باهت كان الآن متقدًا باللون الأحمر.

لم يتمكن من سماع الطرقات الأولى على الباب مع صوت الماء المنهمر، أغلق فولك صنبور الماء ووقف عاريًا يدقق السمع، دوى صوت طرقات هائجة كان صوتها أعلى هذه المرة.

- فولك، أسرع.

كان الصوت مصحوبًا بدورة أخرى من الضربات المتلاطمة.

- هل أنت بالداخل؟

التقط منشفة وكاد ينزلق على الأرض المبللة، انطلق يعدو وفتح الباب ليجد ماكمردو منقطع الأنفاس وقبضته مرفوعة استعدادًا للطرق مجددًا.

- بالطابق السفلي.

قال نادل الحانة لاهثًا.

- أسرِع.

انطلق على الدرج وهو يقفز على سلمتين بدل واحدة، ارتدى فولك شورتًا وتي شيرتًا وانتعل حذاءً رياضيًّا دون حتى أن يجفف نفسه وصفع الباب من خلفه.

كانت الفوضى تعم أرجاء الحانة، كانت الكراسي مقلوبة والزجاج المهشم يلمع على الأرض، انزوى أحدهم جالسًا القرفصاء وهو يضع يديه على أنفه التي تسيل منها الدماء، كان ماكمردو جاثيًا على ركبتيه يحاول أن يفصل بين رجلين يتصارعان على الأرض، وحولهما نصف دائرة من السكارى، نهضوا ببطء وهم يتمسحون بالأرض وخطوا بعيدًا عندما خطا فولك إلى منتصف الغرفة.

شتت الصمت المباغت انتباه الرجلين المتنازعين فتمكن ماكمردو من إدخال ذراعه بينهما. أبعد كلًّا منهما عن الآخر فتمدد كلٌّ منهما في ناحية بأنفاس متقطعة.

كانت عين جايمي ساليڤان متورمة بالفعل وتحولت إلى شكل جاحظ مشوه، وانفتحت شفته السفلية وبدت آثار خربشة على خده، كان جرانت دو بجانبه مكشرًا ثم جفل وهو يتحسس فكه، كان يبدو أنه هُزم في المعركة، وكان يعلم ذلك.

- حسنًا، أنت وأنت.

أشار فولك إلى اثنين ممن بدا مظهرهما أقل ثمالة.

- اصطحبا ساليڤان إلى الحمام وساعداه في إزالة الدماء عن وجهه، ثم أحضِراه مجددًا إلى هنا، مفهوم؟

ساعد الرجلان ساليڤان على النهوض. التفت فولك ناحية دو.

- أنت، اجلس هناك وانتظر و... لا. ابقه مقفلًا، إنه لمن الأصلح لك أن تبقي فمك مغلقًا لمرة واحدة، هل تسمعني؟

التفت فولك إلى ماكمردو.

- قطعة قماش نظيفة من فضلك، وزجاجات مياه كبيرة لكل من في المكان، وأكواب بلاستيكية.

أخذ فولك قطعة القماش إلى الرجل الجالس عند الزاوية الذي كان منطويًا على نفسه ممسكًا بأنفه.

- قم وانهض يا صديقي، ها نحن أولاء.. أمسِك هذه.

أخذ الرجل بيده ونهض، دُهش فولك لدى رؤية وجه سكوت ويتلام المُدَمَّى.

- يا إلهي، ما الذي أقحمك في هذا.

حاول ويتلام أن يهز كتفيه وجفل.

- المكان الخطأ في الوقت الخطأ.

قال وهو يضغط بقطعة القماش على أنفه.

التفت فولك ونظر مباشرة إلى جموع المتفرجين.

- أقترح على بقيتكم أن تغربوا من هنا بحق الجحيم.

دفع ريكو بنفسه إلى الداخل في أثناء خروج الناس، كان يرتدي نفس القميص الذي كان يرتديه على العشاء لكن شعره المجعد كان مثبتًا على أحد الجوانب وعيناه حمراوين.

- اتصل ماكمردو، كنت نائمًا. هل نحتاج سيارة إسعاف؟ يمكنني الاتصال بدكتور لي.

نظر فولك من حوله، كان ساليڤان قد عاد من الحمام، ونظرة قلقة كست وجهه لدى ذكر الطبيب، وكان الاثنان الآخران جالسين على مقعدَيهما.

- لا، لا أظن ذلك. إلا إذا كنت قلقًا من أن يدخل كلٌّ منهما في غيبوبة، ماذا حدث؟

وجَّه السؤال إلى ماكمردو، نظر ماكمردو للأعلى في ضيق.

- يبدو أن صديقنا السيد دو الجالس هناك يعتقد أن السبب الوحيد وراء كونه محلَّ اتهام في قضية مقتل عائلة هادلر هو أن جايمي ساليڤان ليس لديه الجرأة على الاعتراف، وقد قرر أن الآن هو الوقت الأنسب ليشجعه على فعل ذلك.

خطا فولك خطوة واسعة ناحية دو.

- ما الذي يجري هنا؟

- سوء تفاهم.

مال فولك بالقرب منه حتى أصبح فمه بجانب أذن دو مباشرة، تمكن فولك أن يشم رائحة الخمر تُبعث من كل خلاياه.

- إذا كنا نسبب لك أي إزعاج يا جرانت، فإن كل ما تحتاج إليه هو أن تعطينا سببًا منطقيًّا واحدًا يجعلها تكتب اسمك على الورقة.

ضحك دو ضحكة مريرة، فانبعثت رائحة نفسه النتنة.

- من المضحك أن تقول أنت ذلك بحق الجحيم، أتعني سببًا كذاك السبب المنطقي الذي لم تعطه قط للملاحظة التي تركتها إيلي؟ كلا –هز رأسه– يمكنني أن أعطيك ألف سبب يا صديقي ومع ذلك لن تغرب عن وجهي، إنك لن تكون سعيدًا إلا عندما تلفِّق قضية عائلة هادلر لي أو لعمي.

خطا فولك للوراء.

- الزم حدك، استمر في الكلام بهذا الشكل وسوف تُتَّهم بشكل رسمي واعتقالك، وستُلقي بنفسك إلى كومة من المتاعب، أتفهم؟

مد فولك يده.

- مفاتيحك.

نظر جرانت إليه في غير تصديق.

- غير ممكن.

- بإمكانك أن تأخذهم من القسم غدًا.

- إنه على بعد خمسة كيلومترات عن منزلي.

قال جرانت محتجًا وهو يضعهم في راحته.

- يا له من أمر شاق، تمشية ممتعة.

قال فولك وهو يأخذ المفاتيح من يده ويضعها في جيبه.

- والآن اغرب عن هنا.

بدل اهتمامه إلى ساليڤان ويتلام، إذ كان ماكمردو وريكو يهتمان بهما بقليل من الخبرة.

- هل تود إخبارنا بما يجري هنا يا ساليڤان؟

كان ساليڤان يحدق إلى الأرض بعينه الواحدة السليمة.

- كما قال هو، سوء فهم.

- لا أعني ما حدث الليلة.

لم يأت رد، لم يقطع فولك الصمت الذي امتد.

- سيزداد هذا الأمر سوءًا كلما استمررت في توريط نفسك.

- لا شيء.

- حسنًا.

قال فولك، لقد كان رطبًا ومبللًا من حمامه وقد طفح به الكيل.

- كن في القسم غدًا في الساعة العاشرة، يجب أن نتحدث معك على أي حال، وتحذير بسيط يا صديقي، سوف أقضي ليلتي أفكر مليًا في أين كنت في ذلك اليوم.

تجعدت ملامح ساليڤان، بدا وكأنه على وشك البكاء، تبادل فولك وريكو النظر.

- سأوصلك إلى المنزل يا جايمي، هيا بنا، دعني أساعدك على النهوض.

سمح له ساليڤان بأن يساعده في الخروج من الحانة، لم ينظر إلى أي أحد، وأخيرًا نظر فولك إلى ويتلام الذي كان منزويًا في ركنه محرجًا خلف قطعة القماش.

- أظن أن النزيف قد توقف.

قال ويتلام وهو يتحسس أنفه بحرص.

- لنلقِ نظرة.

أمعن فولك النظر إليها وحاول أن يستدعي تدريبات الإسعافات الأولية.

- حسنًا، ما دام أن يوم الصورة الجماعية للمدرسة ليس بقريب، فأمامك فرصة للنجاة.

- مرحى.

- نحن لسنا بحاجة إلى استدعائك إلى القسم أنت أيضًا غدًا، أليس كذلك؟

- ليس أنا يا حضرة الضابط.

رفع ويتلام يديه عاليًا.

- إنني متفرج بريء، لقد كنت عائدًا من الحمام واصطدما بي، لم أكن موجودًا منذ البداية حتى، فقدت توازني وارتطم وجهي بالكرسي.

- لا بأس.

قال فولك وهو يساعد ويتلام على النهوض، كان الرجل لا يزال يترنح قليلًا.

- لكنني لست متأكدًا إذا كنت تستطيع القيادة.

- لقد جئت على دراجتي.

- دراجة نارية؟

- بحق الله، إنني أستاذ في المدرسة، دراجة عادية.

- حسنًا، هيا بنا.

كان الأمر شاقًا لكنهما حشرا الدراجة في صندوق سيارة فولك عن طريق ثني مقابض التحكم، التزم كلٌّ منهما الصمت معظم الوقت خلال الشوارع المقفرة حتى قطع ويتلام الصمت أخيرًا.

- هل وجدت شيئًا ذا فائدة في ملفات الكاميرا؟

أخذ يسعل إثر محاولته التنفس من أنفه.

- ما زلنا نفحصها، شكرًا لمساعدتك في هذا الأمر.

- على الرحب.

كان انعكاس وجهه المتورم في المرآة مشوهًا إذ كان يحدق من النافذة إلى الفراغ.

- رباه، أتمنى أن ينتهي كل ذلك في أقرب وقت، إن هذا المكان كالكابوس.

- سيصبح كل شيء على ما يرام.

كذب فولك بشكل تلقائي.

- حقًا؟

كان ويتلام جالسًا مسندًا ظهره إلى المقعد ويتحسس أنفه بحذر شديد.

- لست واثقًا من هذا، إنني أذكر عندما كنت معتادًا على القلق بشأن الأشياء العادية؛ نتائج مباريات كرة القدم، وبرامج تليفزيونية، هذا لا يصدق. والآن هناك المدرسة، والعجز المادي، نسعى طوال الوقت للحصول على المال، وأطفال صغار يُقتلون، بحق الله.

ظل ويتلام يحدق خارج النافذة حتى توقفت السيارة أمام منزله، كان ضوء الشرفة اللامع يرحب بهم، فاكتست ملامح وجهه المتورم تعابير الراحة.. البيت.

شعر فولك، الذي كان مرهقًا وغير مرتاح في ملابسه اللزجة تلك، بحنين بالغ إلى شقته تدفق في أوصاله.

- شكرًا لك، ما رأيك بالدخول لتناول مشروب؟

سأله ويتلام إذ ترجلوا من السيارة، أجابه فولك بهزة من رأسه علامة الرفض.

- لنؤجلها إلى وقت لاحق، هذا يكفي ليوم واحد.

فتح فولك صندوق السيارة وأخرج الدراجة محدثًا صوتًا عاليًا، أخذ يلف مقبض التحكم حتى تمكن من إخراجها.

- أعتذر على تلك الفوضى.

قال ويتلام وهو يشير إلى قطعة القماش في الظلام.

- لا عليك، هل كل شيء على ما يرام الآن؟ بشأن أنفك وكل شيء آخر؟

تأرجح ويتلام بدراجته في المكان وحاول أن يبتسم.

- أجل، سأكون بخير، أعتذر عن كوني عابسًا، إنه تأثير المسكن دون وصفة طبية.

- لن يستمر الأمر على هذه الحال، أنت فقط لم يحالفك الحظ بإقحامك في ذلك.

- هذا هو الأمر وما عليه مع ذلك، أليس صحيحًا؟ لا أحد يمكنه التحكم في التأثير البسيط لشيء كهذا.

كان صوت ويتلام ثقيلًا، ولم يكن فولك متأكدًا ما إذا كان أنفه هو السبب فقط.

- إن الأمر مضحك، هأنذا أقف هنا أشعر بالأسى على حالي، ولكن بعد ذلك أفكر في ذاك المسكين بيلي، بالحديث عما يقحمك فيه الآخرون، إنني أقول لك، أيًا كان ما قد حدث داخل ذلك المنزل، مع لوك والجفاف والمزرعة، أيًا كان السبب، ما كان ينبغي لذلك الفتى الصغير أن يُقحم في أي من هذا.

فُتح الباب الأمامي في نهاية الممر وظهرت ساندرا وهي واقفة تحيط بها هالة من الضوء، لوحت لهما، ودع ويتلام فولك ووقف الأخير يراقبه وهو يجر دراجته عبر الممر، لا يزال يترنح بعض الشيء. بمجرد أن ركب فولك سيارته، اهتز هاتفه هزة واحدة معلنًا وصول رسالة من ريكو، قرأ فولك كلمات الرسالة ثم انطلق بالسيارة في حماس.

«*تريد معرفة سبب وجود جايمي ساليڤان في الزقاق؟ اتصل بي فورًا*».

الفصل السابع والعشرون

كان الرجل ينتظر في صبر أمام القسم عندما وصل فولك وريكو في صباح اليوم التالي.

- دكتور لي.

قال ريكو مقدمًا إياه لفولك.

- شكرًا لمجيئك.

- لا بأس، لكن يجب أن تكون المقابلة سريعة بعد إذنكما؛ فلدي جدول مزدحم في العيادة اليوم، ولدي مكالمة مهمة فيما بعد.

لم يقل ريكو شيئًا واكتفى بابتسامة مهذبة وفتح باب القسم، تفحص فولك الطبيب بعينيه مليًّا، لم يسبق له مقابلة الممارس العام للبلدة، ولكن الاسم كان مألوفًا له من تقرير قضية مقتل عائلة هادلر. أول طبيب مقيم في البلدة، كان في منتصف الأربعينيات ذا شعر كثيف، ونَضَارة مظهره توحي بأنه شخص صادق وشفاف.

- لقد أحضرت تقريري عن قضية هادلر.

وضع الدكتور لي ملفًا على طاولة غرفة التحقيق.

- هذا كل شيء، أليس كذلك؟ هل هناك أي تطور؟

اتخذ مقعدًا على أحد الكراسي ووضع ساقًا على الأخرى وجلس مسترخيًا، كانت جلسته مستقيمة بامتياز كأن لديه عمودًا فقريًّا في هيئة قضيب حديدي.

- قليلًا.

ابتسم ريكو ابتسامة مصطنعة هذه المرة.

- دكتور لي، هل يمكنك أن تخبرنا أين كنت ظهيرة يوم الخامس والعشرين من فبراير من فضلك؟

* * * *

وقف جايمي ساليڤان وحيدًا في حقله وهو يراقب شاحنة لوك هادلر وهي تختفي عن الأنظار، عندما اختفت تمامًا، أخرج هاتفه وأرسل رسالة واحدة، انتظر، خلال دقيقتين اهتز هاتفه معلنًا وصول الرد، أومأ ساليڤان إيماءة خفيفة وانطلق بشاحنته.

* * * *

اكتسى وجه الطبيب بالدهشة وابتسم ابتسامة مستفهمة.

- إنك تعلم أين كنت، كنت معك في مسرح مقتل عائلة هادلر.

- ماذا عن الساعتين قبل ذلك؟

صمت.

- كنت في العيادة.

- هل كان هناك مرضى؟

- قبل ذلك، أجل. ثم أخذت قسطًا من الراحة لمدة ساعتين في الشقة بالدور العلوي من العيادة.

- لماذا؟

- ماذا تعني؟ قد اعتدتُ هذا الأمر عندما يكون لدي ورديتان، أن تعمل نهارًا وليلًا أمرٌ مرهق، لا شك في أنك تدرك ذلك جيدًا.

لم يصدر ريكو ردة فعل تجاه محاولته لتحويل مسار الموضوع إلى عادات مشتركة.

- هل يوجد مَن يمكنه تأكيد ذلك؟

* * * *

قاد ساليڤان شاحنته مسافة قصيرة حتى البلدة، لم يمر بأحد خلال الطرق الريفية فقط القليل من السيارات كلما اقترب من وسط البلدة، وقبل خروجه إلى الطريق الرئيسي انحرف يمينًا إلى زقاق صغير خلف صفٍّ من

المحلات التجارية، كان يعلم أنه يبالغ في حيطته، لم يكن أحدٌ ليرتاب في وجود سيارته مركونة في البلدة، ولكن الجو المغلّف بالسرية جعله محط شك وأصبح من المستحيل تجاهل هذا، فقد التقطته كاميرا مراقبة مثبتة أعلى حائط خارج الصيدلية وهو يمر بشاحنته.

* * * *

اقترب دكتور لي إلى الأمام بوجه متجهم، أخذت أصابعه الطويلة تداعب طرف ملف قضية هادلر غير متأكد أيفتحه أم لا.

- هل أنت جاد، ما الذي يحدث بحق الجحيم؟

- أجب من فضلك، هل كنت بمفردك في شقة العيادة في تلك الظهيرة؟

نظر لي إلى ريكو وفولك ثم رجع بنظره إلى ريكو.

- هل يجب عليَّ الاتصال بمحامٍ؟ هل أحتاجه هنا الآن؟

كان صوته متحديًا.

- سيكون ذلك أمرًا متعقلًا.

انتفض الدكتور لي إلى الخلف وكأنه احترق بالنار!

* * * *

أوقف ساليڤان سيارته في الجراج الذي طالما كان فارغًا ومفتوحًا لأجله، ترجل من السيارة وأنزل الباب المعدني ليخفي سيارته عن الأنظار، انكمش على نفسه إثر الصوت العالي الذي أصدره الباب المعدني وهو يجره للأسفل، ظل منتظرًا للحظة، لم تأتِ حركة من أي مكان، فاطمأن أن الزقاق كان فارغًا.

اتجه ساليڤان ناحية الباب الخفي بجوار مدخل مخزن العيادة وضرب الجرس، أخذ يلتفت يمنة ويسرة حتى فُتح الباب بعد لحظات، ابتسم دكتور لي لدى رؤيته، انتظرا حتى دخلا وأغلقا الباب جيدًا عليهما قبل أن يقبّلا بعضهما.

* * * *

أغمض لي عينيه وفرك أنفه بإصبعه السبابة، انحنى في جلسته المستقيمة قليلًا.

- حسنًا، أفهم من كل هذا أنكم على دراية بالأمر بالفعل، نعم إذن، أنا لم أكن بمفردي في الشقة تلك الظهيرة، لقد كنت مع جايمي ساليڤان.

أصدر ريكو صوتًا يوحي بالانزعاج والرضا في الوقت ذاته وجلس مجددًا على كرسيه، وأخذ يهز رأسه في غير تصديق.

- وأخيرًا، هل لديك فكرة عن الوقت الذي قضيناه -أضعناه- في التحري عن قصة سالیڤان؟

- أنا أعرف، حقًا.. أنا آسف.

بدا الطبيب صادقًا.

- هل أنت آسف؟ لقد قُتل ثلاثة أشخاص يا صديقي، لقد كنت هناك معي، لقد رأيت الجثث، ذلك الفتى المسكين ذو الست سنوات وقد أخذ رصاصة في رأسه، كيف أمكنكما أن تجعلانا نلف حول أنفسنا؟ مَن يدري كم الأذى الذي تسببتما به؟

اهتز الرجل قليلًا وهو جالس في كرسيه كأنه ضرب بشيء ما.

- إنك محق.

كان لي يعض على أصابعه وأجهش في البكاء.

- ألا تعتقد أنني أردت أن أقول كل شيء بصراحة؟ منذ أن عرفت أنكما كنتما في بيت جايمي تحققان معه؟ بالطبع، كان يجب عليه أن يخبركما حينها، كان يجب عليَّ أن أخبركما، ولكن أفترض أننا كنا خائفين، نحن لم نتكلم على الفور حتى مرور الكثير من الوقت حتى إنني -إننا- لم ندرِ كيف.

- حسنًا، أتمنى أن يكون سكوتكما طوال هذه المدة كان يستحق تورُّم وجه جايمي ليلة البارحة.

بدا لي مصدومًا لدى سماع ذلك.

- أوه، ألم تكن تعلم؟ أجل، لقد أُقحم في مشاجرة في الحانة، لقد كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعله يخبرني بما حدث، كان رأسه هو من ضُرب بقوة وليس ضميره، كان بإمكانكما إنقاذنا جميعًا خلال تلك الأيام الماضية، عار عليكما أنتما الاثنان.

أخفى الطبيب عينيه بيده وظل هكذا لهُنَيهة، نهض فولك ليحضر له كوبًا من الماء فتجرعها بامتنان وانتظرا لفترة.

- إذا كنت تشعر بأنك لا يمكنك إخبارنا حينها، آن الأوان لكي تخبرنا الآن.

قال فولك، ولكن ليس بصرامة.

أومأ لي.

- لقد كنا أنا وجايمي معًا لثمانية عشر شهرًا.. في علاقة، ولكن –كما يبدو– كنا نبقي الأمر سرًا، لقد بدأ الأمر عندما أصبح يحضر جدته إلى العيادة بشكل متكرر، كانت حالتها تزداد سوءًا وكان يعاني بمفرده، كان يحتاج إلى الدعم وإلى شخص يفتح له قلبه وبدأ الأمر من هنا، أعني.. أحسست دائمًا أنه ربما يكون مثليًا، ولكن في مكان كهذا...

توقف لي عن الكلام وأخذ يهز رأسه.

- على أي حال، أنا آسف. لا يهم أي من هذا، لقد كنت في العيادة حتى الساعة الرابعة يوم مقتل عائلة هادلر ثم أخذت قسطًا من الراحة، أرسل لي جايمي رسالة فأخبرته أن يمر بي، كانت الطريقة المعتادة لمقابلاتنا، عندما وصل تحدثنا قليلًا وتناولنا مشروبًا باردًا.. ثم مارسنا الحب.

* * * *

كان ساليڤان في الحمام الصغير يجفف نفسه بعدما أخذ حمامًا عندما رن هاتف الطوارئ فجأة، سمع لي يجيب على الهاتف، بدت المحادثة المشوشة قصيرة وعاجلة، نظر الطبيب برأسه من خلف باب الحمام وكان القلق يكسو وجهه.

- ينبغي أن أذهب؛ هناك جريمة قتل.

- اللعنة، حقًا؟

- أجل، اسمع يا جايمي من حقك أن تعرف، إنها في منزل لوك هادلر.

- إنك تمزح، لقد كنت معه قبل قليل، هل هو بخير؟

- ليس لدي تفاصيل، سأتصل بك. اعتنِ بنفسك، أحبك.

- وأنت أيضًا.

ثم ذهب.

ارتدى ساليڤان ملابسه بأيدي مرتعشة وانطلق إلى منزله، لقد رأى جريمة قتل مرة واحدة من قبل، كان صديقًا لصديق والده، تسللت رائحة الدم المؤكسد النتنة إلى فتحتَي أنفه وعلقت بها لفترة بدت دهرًا، كانت تلك الذكرى كافية تقريبًا لتستدعي رائحة الدماء الثخينة الساخنة مرة أخرى، كان جايمي يمخط أنفه عندما وصل إلى المنزل ليجد سيارتَي إطفاء بالخارج، قابله رجل إطفاء في زيه الواقي عندما جرى إلى الباب.

- لا تفزع يا صديقي، جدتك بخير، أخشى أن جدران مطبخك لا ينطبق عليها نفس الشيء.

* * * *

- لقد اتصل بي جايمي بعد ذهابكما إليه للتحقيق معه، كان خائفًا، قال إنه دُوهِم وكذب عليكما بشأن أين كان.

نظر لي في عين كل منهما مباشرة.

- ليس هناك عذر لهذا، أدركُ ذلك وهو يدرك ذلك ولكنني أرجوك، أرجوك ألا تحكم علينا بقسوة، عندما تستمر في الكذب بشأن أمر ما لفترة طويلة فإنك تصبح معتادًا على هذا.

أومأ الطبيب.

- أنا أعلم، أعلم أنني لو أمكنني الرجوع بالزمن وأتصرف بشكل مختلف، لفعلت، بالطبع كنت سأفعل، إنني لا أشعر بالخزي لكوني لوطيًّا، وجايمي.. سيصبح كذلك أيضًا، لكن هناك العديد من الناس في كيوارا لن يتقبلوا التعامل مع شخص لوطي بسهولة سواء هم أو أطفالهم، أو يريدوا الجلوس بجانب أحدهم في الحانة.

وجه لي نظره إلى فولك.

- لقد رأيت بنفسك ما يحدث عندما تخرج بينهم، إن ذلك كل ما أردنا تجنبه.

تركا الطبيب يذهب في طريقه، فكر فولك لثانية ثم هرول خارج القسم من خلفه.

- انتظِر، قبل أن تذهب، أود أن أسألك عن مال ديكون، إلى أي مدى حالته العقلية سيئة؟

لم يجب لي فورًا.

- لا يمكنني التكلم معك عن ذلك.

- هل ستفعل ذلك مرة أخرى؟

- أعتذر، كنت لأفعل، ولكنني لا أستطيع حقًّا، إنه أحد مرضاي.

- إنني لا أسألك عن أشياء بعينها، مجرد صورة عامة عن حالته ستفي بالغرض، الأشياء التي يمكنه تذكرها؟ الأشياء التي حدثت قبل عشر دقائق وليس التي حدثت قبل عشر سنوات؟ والعكس بالعكس؟

تردد لي ونظر إلى القسم بالخلف.

- بصورة عامة للغاية، المرضى في عمر السبعين الذين لديهم أعراض مشابهة لتلك التي لدى مال عادة ما يعانون من فقدان سريع للذاكرة، غالبًا ما يكون الماضي البعيد أكثر وضوحًا عن الأحداث الجديدة، ولكن أحيانًا ما تختلط الذكريات وتتشوش مع بعضها، لا يمكن أخذ كلامهم في الاعتبار، إذا كان ذلك مغزى سؤالك، بالحديث بصورة عامة هو كذلك.

- هل سيؤدي ذلك لقتله؟ السؤال الأخير، أعدك.

بدا الألم على ملامح لي، أخذ ينظر حوله، كان الشارع فارغًا تمامًا. أخفض صوته.

- لا يفعل مباشرة، ولكنه يسبب الكثير من المشكلات الصحية؛ أساسيات العناية الشخصية، التغذية، كل شيء يصبح عرضة للخطر، يمكنني التخمين أن مريضًا في تلك المرحلة ليس أمامه أكثر من سنة أو شيء من هذا القبيل، ربما أكثر قليلًا وربما أقل. إذا كان المريض معتادًا على تناول كأسٍ أو ثلاثة كل يوم فإن ذلك لن يكون في صالحه حتى في شبابه أيضًا، بالحديث بصورة عامة بالطبع.

أومأ إيماءة واحدة كوضع نقطة في نهاية الجملة لكي ينهي المحادثة ثم التفت. أطلق فولك سراحه.

- يجب أن يُحاسب كل منهما، هو وساليڤان.

قال ريكو عندما عاد فولك إلى القسم.

- أجل، يجب ذلك.

كان كلٌّ منهما يعلم أن ذلك لن يحدث.

أسند ريكو ظهره إلى الخلف على الكرسي ووضع كلتا يديه على وجهه، ثم تنهد تنهيدة هائلة.

- رباه، ماذا سنفعل الآن بحق الجحيم؟

لكي يوهم نفسه أنهما لم يكونا عالقين في طريق مسدود حتى الآن، اتصل فولك بملبورن؛ في غضون ساعة واحدة كانت لديه قائمة بجميع الشاحنات البيضاء التي سُجلت في كيوارا خلال السنة التي ماتت فيها إيلي ديكون، كان عددها مائة وتسعة.

- من الوارد أن أحدًا من خارج المدينة كان يمر من هناك.

قال ريكو بكآبة.

نظر فولك في أسفل القائمة، كان هناك العديد من الأسماء المألوفة؛ جيران قدامى، وآباء زملائه القدامى، وكان مال ديكون موجودًا على القائمة. ظل فولك يحدق إلى الاسم مدة طويلة، ولكن كان الجميع موجودًا كذلك؛ جيري هادلر نفسه، ووالدا غريتشن، وحتى والد فولك. من الممكن أن جيري قد رأى نصف البلدة عند مفترق الطرق في ذلك اليوم، أغلق فولك الملف، طافح الكيل.

- سأخرج لبعض الوقت.

أصدر ريكو صوتًا من أنفه. كان فولك ممتنًا له لأنه لم يسأل إلى أين.

الفصل الثامن والعشرون

كانت المقبرة على بعد مسافة قصيرة خارج المدينة، تشغل مساحة واسعة من الأرض، تحيط بها ظلال أشجار الأوكالبتوس الشاهقة، تخطى فولك لافتة التحذير بالحريق على الطريق، الآن أصبح الخطر محدقًا، وكانت الرياح تهب بالخارج.

لم يسبق له الذهاب إلى قبور عائلة هادلر، حتى الجنازة نفسها كانت خاصة، مع ذلك كان من السهل العثور عليها، لقد كانت جديدة، وبدت شواهد القبر المصقولة كأنها أثاث منزلي حديث تُرك بالخارج عن طريق الخطأ إذا ما قُورن بما حوله من شواهد قبور أكلتها الشمس، القبور مغطاة ببحر من الهدايا المغلفة بالسلوفان والدمى والزهور الذابلة، الرائحة اللاذعة للزهور المتحللة تنبعث في المكان حتى من على بعد أميال كثيرة.

كان الردم على قبر كل من كارن وبيلي عاليًا، بينما لم يحظ شاهد قبر لوك سوى بالقليل من الردم المنثور من تحته، تساءل فولك ما إذا كان جيري وبارب مسؤولين عن تنظيف القبور بعدما تحولت الهدايا من تكريم إلى قمامة، لقد عانت بارب من المتاعب ما يكفي في بيت المزرعة، ناهيك بالسلة التي ستضعها على ركبتيها وهي تفرز باقات الزهور الذبلة بتعاسة لتقرر أيها تبقيه وأيها تتخلص منه، مستحيل، كان فولك يرتب تلك الأفكار في ذهنه ليقرر.

جلس مفترشًا الأرض اليابسة متجاهلًا التراب الذي غطى بنطاله، مرر يده متحسسًا النقوش على شاهد قبر لوك، كان يحاول أن يصرف عنه ذلك الإحساس غير الحقيقي الذي يعصف به منذ الجنازة، أخذ يردد داخل رأسه أن لوك هادلر بداخل ذاك التابوت، لوك هادلر تحت ذاك التراب.

أين كان لوك يوم ماتت إيلي؟ طفا السؤال في عقله كنقطة زيت في كوب ماء، كان على فولك أن يضغط عليه عندما سنحت له الفرصة، لكنه كان يصدق حقًّا أن خداع لوك كان من أجل مصلحته الخالصة، لو كان يعرف ما سوف يحدث.

اقتلع تلك الفكرة من جذورها، كانت الجملة التي تتردد على لسان الجميع منذ عودته إلى كيوارا، لو كنت أعلم، لكنت تصرفت تصرفًا مختلفًا، لقد فات أوان ذلك الآن، بعض الأشياء يجب أن نتقبل وجودها ونتعامل معها.

نهض فولك وأدار ظهره لعائلة هادلر، مضى عميقًا داخل المقبرة حتى وجد الصف الذي كان يبحث عنه، كانت شواهد القبور في هذا الجزء من المقبرة قد فقدت بريقها منذ زمن، ولكن العديد منها كان لا يزال مألوفًا كالأصدقاء القدامى. أخذ يمرر يده على بعض منها وهو يمر بجانبها قبل أن يتوقف أمام شاهد قبر محت ملامحه الشمس، لم يكن هناك زهور على هذا القبر، حتى خطر على باله أنه كان عليه أن يحضر بعضًا منها، فهذا ما يفعله الابن الصالح؛ يحضر الأزهار إلى قبر أمه.

انحنى بدلًا من ذلك ومسح الغبار والتراب عن اسمها المحفور، وفعل الشيء نفسه مع تاريخ وفاتها، لم يكن قط يحتاج إلى ما يذكره بذلك التاريخ، فبقدر ما يمكنه التذكر، كان يعلم أنها ماتت يوم ولد هو؛ تدهورت حالتها الصحية وفقدت الكثير من الدم، أخبره والده ذلك باقتضاب عندما كان واعيًا كفاية ليسأل قبل أن ينظر إلى فولك نظرة جعلته يشعر أنه ربما كان، لكن ليس كثيرًا، يستحق ذلك.

كان قد خرج بدراجته ذات يوم وذهب إلى المقبرة بمفرده، في البداية كان يقف وحيدًا لساعات كما لو كان يكفر عن ذنبه أمام قبر أمه، أدرك في النهاية أن لا أحد يهمه إذا كان يقف هناك أم لا، وتحولت علاقتهما إلى صداقة من طرف واحد، حاول جاهدًا كي يشعر شيئًا من حب الابن إلى والدته، ولكنه بدا كشعور مزيف حتى في ذلك الحين، كان فقط لا يقدر على الشعور بامرأة لم يعرفها قط، الذنب يملؤه لأنه كان يشعر في أعماقه بأنه يكن الكثير من الحب لبارب هادلر.

كان مع ذلك يحب زيارة أمه، لقد كانت تجيد الاستماع إليه بشكل لا يحتمل، بدأ في إحضار طعامه وكتبه وواجباته المدرسية، يفترش العشب بجانب شاهد القبر وينطلق يحكي كل شيء عن يومه وعن حياته.

قبل أن يستوعب الأمر كليًا، وجد فولك نفسه يقوم بفعل الشيء نفسه، مدد ذراعيه واستلقى على العشب القصير بجانب القبر، كانت ظلال الأشجار تحميه من حرارة الشمس المباشرة، حدّق إلى السماء وبدأ في إخبارها بصوت أشبه بالهمهمة عمًّا حدث لعائلة هادلر وعودته إلى الديار، وعن رؤيته لـفريتشن مرة أخرى، وعن الشعور الثقيل الذي أطبق على صدره لدى رؤيته لـماندي في النادي وإيان في المتجر، حدثها عن مخاوفه من ألا يتمكن أبدًا من كشف حقيقة أمر لوك.

عندما أنهى حديثه، أغمض عينيه وظل مستلقيًا في سكون بجانب أمه يلفه دفء الأرض من تحته ودفء الهواء المحيط به من كل جانب.

عندما استيقظ كانت الشمس قد ابتلعتها السماء، نهض وهو يتثاءب ويمدد مفاصله المتصلبة، لم تكن لديه فكرة عن المدة التي قضاها مستلقيًا هناك، أخذ يهز رأسه لكي يستفيق ومن ثم انطلق عبر المقبرة نحو البوابة الرئيسية، توقف في منتصف طريقه، كان هناك قبر آخر عليه زيارته.

استغرق وقتًا أطول حتى وجد هذا القبر، لم يره سوى مرة واحدة، في الجنازة، وقبل أن يغادر كيوارا بلا رجعة، حتى عثر عليه أخيرًا بمحض الصدفة، كان شاهد القبر مجرد صخرة صغيرة موضوعة بشكل عشوائي وسط حشد من القبور الأنيقة، والعشب الأصفر ينمو بغزارة من حوله، وباقة وحيدة من الأزهار المتحللة المغلفة بغطاء بلاستيكي ممزق ترقد تحت شاهد القبر، أمسك فولك بمنديله ومد يده ليمسح الوسخ عن الاسم المحفور: إيلينور ديكون.

- إياك أن تلمسه يا ابن الزنا.

انتفض فولك على إثر الصوت الآتي من الخلف، التفت ليرى مال ديكون يجلس متخفيًا تحت ظلال قدم تمثال ملاك هائل منحوت في الصف الخلفي، كان يمسك بزجاجة بيرة في إحدى يديه بينما يرقد كلبه البني السمين بجوار قدمه نائمًا، استيقظ الكلب وتثاءب كاشفًا عن لسان أحمر كالدم، ثم نهض ديكون ووقف على قدميه تاركًا زجاجة البيرة أسفل قدم الملاك.

- أبعِد يديك عنها قبل أن أفصلهما عن جسدك.

- لا داعيَ لذلك يا ديكون، سأذهب.

نظر ديكون إليه شزرًا.

- أنت الابن، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- أنت فولك الابن وليس الأب.

نظر فولك إلى وجه العجوز، كان مطبقًا فكيه في غضب وبدت عيناه أكثر وضوحًا عما كانت في المرة الماضية.

- أجل، أنا الابن.

شعر فولك بنوبة حزن تجتاحه وهو يتكلم، وهمَّ بالرحيل.

- حسنًا، أتمنى لو تغرب عن هنا إلى الأبد هذه المرة.

تبعه ديكون بقدمين غير ثابتتين، كان يسحب الكلب من سلسلته بقوة تسببت في نباح الحيوان ألمًا.

- ليس الآن، انتبه لكلبك.

قال فولك ذلك دون أن يبطئ من سرعته، كان بإمكانه سماع خطوات ديكون وهو يحاول اللحاق به، خطوات غير متزنة وبطيئة على الأرض الوعرة.

- لا يمكنك أن تدعها وشأنها حتى الآن، صحيح؟ ربما تكون الابن، ولكنك تمامًا كوالدك، مثير للاشمئزاز.

التفت فولك.

* * * *

كان هناك صوتان مميزان قادمان من الفناء، كان أحدهما عاليًا والآخر هادئًا، ألقى آرون ذو الاثني عشر عامًا بحقيبته المدرسية على طاولة المطبخ واتجه إلى النافذة، رأى والده واقفًا وذراعاه مطويتان وتبدو على وجهه علامات مَن نفدَ صبره أمام مال ديكون الذي يوجه إصبع الاتهام نحوه.

- ستة منهم مفقودون؛ نعجتان وأربعة خراف، بعض منهم كنتَ تنظر إليه منذ أسبوعين.

تنهد إريك فولك.

- وأنا أقول لك إنهم ليسوا هنا يا رجل، إذا كنت تود أن تضيع وقتك في التفتيش هنا فها أنت ذا.

- إذن فالأمر مجرد صدفة، أليس كذلك؟

- أظن أنها نتيجة طبيعية لسور مزرعتك المهترئ أكثر من كونها صدفة، إذا كنت أريد خرافك لكنت اشتريتها، لم تكن مغرية على الإطلاق بالنسبة إليّ.

- لا شيء يعيبهم، ولكن الأمر هو لماذا تشتريهم في حين يمكنك سرقتهم مني؟ أليس هذا صحيحًا؟

صاح ديكون.

- ليست هذه المرة الأولى التي تضع فيها يدك على ما هو ملك لي.

حدق إريك فولك إليه للحظة وهز رأسه في ذهول.

- لقد حان وقت ذهابك من هنا يا مال.

التفت مبتعدًا فجذبه ديكون من كتفه بقوة.

- لقد اتصلت من سيدني لتخبرني أنها لن تعود، هل أنت سعيد الآن؟ يجعلك هذا تشعر أنك رجل كبير بعد أن شجعتها على الرحيل، أليس كذلك؟

- أنا لم أشجع زوجتك على فعل أي شيء.

قال إريك وهو يلوح بيده بعيدًا.

- أظن أنك أنت من أحسنت صنعًا في ذلك بإسرافك في السُّكر وضربك لها يا صديقي، الشيء الغريب أنها استمرت في البقاء هنا حتى ذلك الوقت.

- هذا رائع، يا لك من فارس نبيل ذي درع لامع، كتف حنون لتبكي عليها دائمًا وتبخ السم في أذنها، تدفعها لكي ترحل وتستدرجها إلى السرير وأنت تفعل ذلك، أليس صحيحًا؟

اخترقا حاجبا إريك فولك السماء، انفجر ضاحكًا في نوبة دهشة خالصة.

- أنا لم أضاجع زوجتك يا مال، إذا كان هذا ما تقلق بشأنه.

- كلام فارغ.

- كلا يا صديقي، ليس كلامًا فارغًا على الإطلاق. حسنًا، لقد كانت تأتي لتناول كوب من الشاي وتبكي قليلًا عندما تحمل ما لا تطيق وتحتاج بعض الوقت بعيدًا عنك، لكن هذا هو كل شيء، لا تسئ فهمي، كانت لطيفة كثيرًا، ولكنها كانت سكيرة مثلك تقريبًا، ربما لو كنت تهتم اهتمامًا كافيًا بما لديك؛ خرافك، زوجتك، لكانوا لم يفروا منك هاربين الآن.

هز إريك فولك رأسه.

- إنني حقًا ليس لدي وقت من أجلك أنت وزوجتك، ولكن ابنتك هي التي أشعر بالأسى من أجلها.

هوى مال ديكون بقبضته أعلى عين إريك اليسرى في ضربة موفقة ككلب غاضب خرج من محبسه، ترنح وسقط على الأرض فارتطمت جمجمته ارتطامًا عنيفًا بالأرض.

هرول آرون إلى الخارج صائحًا وانحنى بالقرب من والده الذي كان مستلقيًا على الأرض مصابًا بالدوار، كان خيط من الدم ينساب من مقدمة رأسه، سمع آرون ديكون وهو يضحك فانقض على الرجل الضخم مسددًا اللكمات في صدره مما أجبر ديكون على التراجع خطوة للوراء، لكن ساعده حجمه الكبير على تثبيت قدميه على الأرض، أمسك ديكون فجأة بذراع آرون بقبضة حديدية وأخذ يلويها ويعتصر جلده في يده وقرب وجه آرون ليقابل وجهه.

- استمع إليَّ جيدًا، عندما ينهض والدك العجوز من التراب، أخبره أن ما فعلته الآن سيبدو غاية الرحمة مقارنة بما سوف يحدث إذا لمحته -أو لمحت أيًا منكما- يحاول المساس بشيء ملكي.

دفع آرون دفعة قوية على الأرض ثم أدار ظهره وسار عبر الفناء وهو يطلق صفيرًا من بين أسنانه.

* * * *

- هل تعلم أنه كان يتوسل إليَّ؟ أبوك، بعدما فعلت ما فعلته بابنتي إيلي، جاء إليَّ ولم يحاول أن يقول إنك لم تفعلها، وإنك لا يمكن أن تكون قد فعلتها، لم يقل أيًا من ذلك، فقط أراد مني أن أطلب من جميع مَن في البلدة أن يبتعدوا حتى تنهي الشرطة تحقيقاتها. وكأنني سأسمع أي كلمة مما يقولها.

أخذ فولك نفسًا عميقًا وأجبر نفسه على أن يدير ظهره ويستمر في المشي.

- كنت تعرف ذلك، صحيح؟ كنت تعرف أنه كان يعتقد أنك ربما تكون فعلتها؟ إنه والدك، بالطبع أنت تعرف، يا لها من لعنة من الله أن تمتلك أبًا عجوزًا يراك بمثل تلك الصورة.

توقف فولك وقد أصبح بعيدًا بحيث لا يمكنه سماع شيء، أخذ يحث نفسه على مواصلة السير لكنه التفت في مواجهة ديكون بدلًا من ذلك، كانت هناك ابتسامة انتصار عريضة ترتسم على وجه ديكون.

- ماذا؟ ليس بإمكانك إخباري أنه صدق تلك القصة الرديئة التي اختلقتماها أنت وفتى عائلة هادلر ذلك، صحيح أن والدك ربما يكون مغفلًا وجبانًا، ولكنه لم يكن غبيًا، هل أمكنك قط أن تقنعه بأي شيء؟ أم إنه كان يشك في الأمر حتى يوم موته؟

لم يجب فولك.

- هذا ما ظننته.

ابتسم ديكون ابتسامة صفراء.

ود فولك أن يصرخ في وجهه قائلًا: كلا، لم يتمكنا قط من تصحيح الأمور بينهما، أخذ ينظر مطولًا إلى الرجل العجوز ثم وبمجهود مضنٍ أجبر نفسه أن يدير ظهره ويذهب مبتعدًا، يمر بشواهد القبور المنسية منذ عصور في كل خطوة يخطوها، تمكن من سماع صوت ضحكات مال ديكون تتعالى من خلفه بينما يقف واضعًا إحدى قدميه على قبر ابنته.

الفصل التاسع والعشرون

دوى صوت الرصاص عبر الحقل الشاسع وتردد الصدى في الفراغ ممزقًا الهواء الساخن، تجمد فولك في مكانه في ممر مزرعة غريتشن، بقيت يده مرفوعة في محاولة غير مكتملة لطرق الباب.

سافرت أفكار فولك به إلى ردهة منزل هادلر التي سلختها المنظفات والسجادة الملطخة بالدماء، كان يتخيل امرأة شقراء تستلقي على الأرض غارقة في دمها، ليست كارن هذه المرة، بل غريتشن.

دوى صوت انفجار آخر أفاقَ فولك على إثره وهو يجري عبر الحقول في اتجاه الصوت، حاول أن يتبع الصوت لكنه كان يرتد وتمتصه الأرض الصلبة تاركة إياه مشتتًا، كان يمسح المحيط بعينيه كالمجنون بعينين تدمعان في مواجهة الشمس الحارقة، ينظر في كل مكان، ولكن لم يرَ أي شيء.

إلى أن رآها أخيرًا، كانت ترتدي شورتًا بنيًا فاتحًا وقميصًا أصفر اللون تموهت ألوانه بالأرض الذابلة حتى أصبحت لا تُرى، تجمدت أطرافه وتنفس الصعداء وانتابه شعور بالإحراج، أدارت غريتشن رأسها وحدقت إليه للحظة ثم أسندت بندقية الصيد خاصتها إلى كتفها ولوحت إليه بإحدى يديها، تمنى لو أنها لم تره وهو يجري، سارت متجهة إليه عبر الحقل، وقالت بصوت عالٍ:

- مرحبًا، لقد وصلت سريعًا.

كانت تضع سدادة أذن وردية حول رقبتها. كان قد اتصل بها عند خروجه من المقبرة.

- أتمنى أن ذلك شيء جيد، شعرت أنني بحاجة إلى رؤية وجه صديق.

- لا بأس، من الجيد رؤيتك، لديَّ ساعة قبل أن أذهب لأخذ لاكي من المدرسة.

أخذ فولك ينظر حوله يسترق لحظات يستجمع فيها أنفاسه المتلاحقة.

- يا له من مكان جميل هنا.

- شكرًا، يبدو أن الأرانب تشاركك الرأي أيضًا.

أومأت برأسها للبندقية على كتفها.

- أحتاج أن أصطاد المزيد منهم قبل نهاية اليوم، هيا تعال، يمكنك أن ترصدهم من أجلي.

تبعها حتى المكان الذي تركت فيه حقيبة أدواتها، فتشت بها وأخرجت سدادة أذن أخرى ثم ذهبت إليها مجددًا لتخرج صندوق ذخيرة، كانت وينسترز وليست الريمنغتون، التي وُجدت في أجساد عائلة هادلر، هكذا فكر فولك تلقائيًا لدى رؤيتها، شعر بالراحة ثم تبعها شعور بالذنب لأجل ذلك، فتحت غريتشن فوهة البندقية وقامت بحشوها.

- الجحر هناك.

أشارت وهي تغمض عينيها في مواجهة الشمس.

- وجِّهني عندما ترى أحدهم.

ارتدى فولك سدادة أذنه ومن ثم أصبحت كل الأصوات مكتومة كأنها تحت الماء، تمكن من رؤية أشجار الأوكالبتوس تتمايل في صمت مع الهواء، لكن الأصوات في رأسه تضخمت فاندفعت الدماء خلالها تتبعها جزة خفيفة على أسنانه.

أخذ يحدق إلى المنطقة المحيطة بجحر الأرانب، لم تأتِ أي حركة لفترة، ثم ظهرت حركة في الأرض، أوشك أن يشير إلى غريتشن قبل أن تبادر بتثبيت البندقية على كتفها مغلقة إحدى عينيها، ثبتت السلاح واستمرت في مراقبة الأرنب بحركة دائرية هادئة، دوى صوت انفجار مكتوم طار على إثره سرب من العصافير في انسجام من إحدى الأشجار القريبة.

- جيد، أظن أننا تمكنا منه.

قالت غريتشن وهي تخلع سدادة أذنها، سارت بضع خطوات ثم انحنت للأسفل فتمدد الشورت البني والتصق على جسدها للحظة، ثم وقفت بنشوة انتصار تتدلى من يدها جثة أرنب رخوة.

- ضربة موفقة.

- أتود أن تجرب؟

لم يكن فولك يريد ذلك، لم يقم بصيد الأرانب منذ كان مراهقًا، لكنها كانت تمد إليه البندقية بالفعل فهز كتفيه في استسلام.

- حسنًا.

كان السلاح ساخنًا عندما تناوله من يدها.

- أنت تعرف كيف تفعلها.

قالت غريتشن ثم اقتربت منه وأعادت وضع سدادة الأذن له فأحس برعشة في رقبته في الموضع الذي لمسته أصابعها، ضيق عينيه مدققًا النظر إلى جحر الأرانب، كان الدم يلطخ الأرض، ذكّره المنظر بالبقعة التي خلفها بيلي هادلر مما جعله يتصلب في مكانه، أحس فجأة أنه لا يريد أن يفعل هذا، تحرك أحد الأرانب أمامه.

ضغطت غريتشن على كتفه وأشارت بيدها فلم يبدِ أي فعل. ضغطت على كتفه مرة أخرى.

- ما خطبك؟ إنه هناك.

لقد رأى وسمعها وهي تقول.

أنزل البندقية وخلع سدادة أذنه.

- أعتذر، أظن أنه مضى وقت طويل على هذا.

حدقت إليه طويلًا ثم أومأت.

- لا مشكلة.

ربتت على ذراعه وهي تأخذ البندقية عن كتفه.

- تعلم أنني سأصطادهم عاجلًا أو آجلًا، أليس كذلك؟ لا يمكنني تركهم يرتعون في الأرض.

أمسكت بالبندقية واستعدت للحظة، ثم أطلقت. كان فولك يعلم أنها أصابت هدفها قبل أن يسيرا نحوه.

عندما عادا إلى المنزل، جمعت غريتشن بعض الأوراق التي كانت مفرودة بعناية على طاولة المطبخ.

- خذ راحتك، وتظاهر بأنك لا تلاحظ الفوضى.

قالت وهي تضع إبريقًا من الماء المثلج في مساحة فارغة.

- لقد كنت أملأ استمارات من أجل الحصول على المزيد من التمويل من أجل المدرسة، إلى الجمعيات الخيرية وأشياء من هذا القبيل. كنت أفكر في أن أجرب جمعية كروسلي مرة أخرى، بالرغم من أن سكوت يظن أنهم مضيعة للوقت، سنرى إذا كان بإمكاننا أن نصل إلى أبعد من القائمة المختصرة هذه السنة، المشكلة هي أن أي شخص يريد أن يعرف كل شيء قبل أن يعطيك قرشًا واحدًا.

- يبدو أن ذلك يتطلب الكثير من المستندات.

- إنه كابوس، ولست ماهرة كثيرًا في عمل ذلك، أعترف بكل سرور. إنه ليس شيئًا لم يعتد أعضاء مجلس الإدارة فعله بأنفسهم من قبل، لهذا السبب لا ينبغي أن أتذمر، في الحقيقة لقد اعتادت كارن القيام بتلك المهام؛ لذلك كما تعلم...

تفحص فولك مطبخ غريتشن بينما كان يساعدها على جمع الأوراق على الطاولة، لم يكن متأكدًا عما كان يتوقع رؤيته، ولكن كان الأمر مخيبًا للآمال أكثر قليلًا مما كان يتخيل، كان المطبخ نظيفًا، ولكن وحدات التخزين والأجهزة لم تكن في أروع حالاتها.

كانت هناك صورة مؤطرة لابن غريتشن لاكي تقف في زهو وسط بعض قطع الديكور، التقط الصورة ومرر إبهامه على ابتسامة الفتى العريضة، خطر بيلي على باله وهو يتسكع في موقف السيارات خلف كارن في تسجيل كاميرات المراقبة، عندما لم يكن يتبقى من حياته القصيرة سوى ثماني دقائق ثم وضع الصورة مجددًا.

- يبدو سؤالًا غريبًا، ولكن هل تحدثت كارن عني من قبل قط؟

قال فولك، فنظرت إليه غريتشن في مفاجأة.

- أنت؟ لا أظن ذلك، نحن لم نكن نتحادث كثيرًا مع ذلك. لماذا؟ هل كانت تعرفك قبلًا؟

هز فولك كتفيه في غير معرفة، كان يتساءل للمرة الألف عن رقم هاتفه المكتوب بخط يدها.

- لا، لا أظن ذلك. كنت فقط أتساءل إذا ما ذُكر اسمي.

أخذت غريتشن تنظر إليه مليًّا وعيناها اللامعتان مركزتان عليه.

- لست متأكدة، لكن كما قلت لك، لم أكن على معرفة وطيدة بـكارن.

هزت كتفيها هزة خفيفة كإشارة تدل على انتهاء الحديث، ساد صمتٌ رهيبٌ بعض الوقت لم يقطعه إلا خشخشة الثلج وهي تملأ الكؤوس بالماء.

- في صحتك.

قالت وهي ترفع كأسها.

- ليس دائمًا، ولكن أحيانًا يكون الماء أفضل من النبيذ.

راقب فولك حركة عضلاتها الصغيرة وهي تتجرع جرعة طويلة.

- كيف تسير التحقيقات على أي حال؟

قالت غريتشن عندما انتهت.

- يبدو أن جايمي ساليڤان أصبح خارج الأمر.

- حقًّا؟ هذا جيد، أليس كذلك؟

- جيد من أجله. لست متأكدًا إذا كان ذلك سيفيدنا في سير التحقيقات.

أمالت غريتشن رأسها في اتجاه واحد كالعصفور.

- ولكنك ستبقى هنا إلى أن تحل القضية؟

أجاب فولك بهزة من كتفيه.

- بهذا المعدل.. أشك في ذلك. ينبغي أن أعود إلى العمل في الأسبوع القادم. لقد قابلت مال ديكون.

توقف قليلًا ثم روى لها مواجهتهما في المقبرة.

- لا تسمح لهذا الرجل بالاقتراب منك، لقد فقد عقله.

اقتربت غريتشن ومدت يدها لتربت على أصابع يده اليسرى.

- عشرون عامًا مضوا ولا يزال يحاول إلقاء اللوم عليك بشأن ما حدث لإيلي، لم يتمكن قط من تقبل حقيقة أنك ولوك كنتما معًا.

- غريتشن، استمعي إليَّ...

- لو كان هناك أحد يجب إلقاء اللوم عليه، فسيكون ديكون نفسه.

استأنفت حديثها.

- خطؤه أن ابنته لم تكن سعيدة لدرجة أن تغرق نفسها، لقد كان يبحث لسنوات عن شخص يلقي عليه باللوم.

- أحقًا لم يراودك أي شك إذا ما كان انتحارًا قط؟

- كلا، بالطبع لا. ولمَ سأفعل؟

- مجرد سؤال، أنا أعلم أن إيلي لم تكن على طبيعتها في أيامها الأخيرة، كانت منغلقة على نفسها معظم الأوقات، ولا يوجد شيء غريب في ذلك، فلا بد أن العيش مع ديكون كان لا يحتمل، لكنني لم أشعر قط أنها كانت يائسة إلى هذا الحد، مؤكد ليس بما يكفي لكي تقتل نفسها.

ضحكت غريتشن ضحكة مريرة.

- رباه، إنكم عميان أيها الرجال، لقد كانت حالة إيلي مزرية.



ألقت إيلي بكتاب الرياضيات في حقيبتها عند انتهاء الدرس، كانت قد شرعت تلقائيًّا في نقل الواجب المدرسي من على السبورة لكن توقفت وتجمد قلمها في يدها، ما فائدة ذلك؟ كانت تفكر في تفويت اليوم الدراسي برمته، ولكن في نهاية اليوم قررت كرهًا أن تفعل العكس، كان ذلك سيجذب الانتباه إليها، ولم تكن بحاجة إلى أي من ذلك، رأت أنه من الأفضل أن تفعل ما اعتادت فعله دومًا، أن تبقي رأسها منخفضًا وتأمل... حسنًا، إذا لم يكن في الأفضل، فإنها على الأقل لم تكن تأمل في الأسوأ.

احتشد العديد من الأولاد في الممر خارج الفصل حول جهاز راديو يستمعون إلى مباراة الكريكت، أستراليا ضد فريق جنوب إفريقيا. تعالَى الهتاف مع الهدف السادس، كان ذلك في ظهيرة يوم الجمعة وكل شيء كان على ما يرام، لقد حظوا بنهاية أسبوع مبهرة حقًّا.

تساءلت إيلي منذ متى وهي تشعر بذلك؟ لم تتمكن من التذكر حقًا. إذا كانت أيام الأسبوع بهذا السوء، إذن فإن نهايته حرية بأن تكون أسوأ، كانت الأيام كأنها ليس لها من نهاية، دائمًا ما بدت النهاية بعيدة إلى عنان السماء.

ولكن ليس في نهاية هذا الأسبوع، هدهدت الفكرة في صدرها وهي تسلك الممر، سيتغير كل شيء في نهاية هذا الأسبوع، سيصبح لهذا الأسبوع نهاية واضحة.

انتفضت إيلي بينما هي غارقة في أفكارها عندما أمسك أحدهم بذراعها، تسبب ذلك في كدمة صغيرة فجفلت على إثر شدة الضغط.

- أهلًا، إلى أين شرد ذهنك؟

كان لوك هادلر ينظر إليها.

* * * *

- ماذا تقصدين؟

كان فولك يحدق إلى غريتشن.

- إنك تعلم ما أعنيه يا آرون، لقد كنت موجودًا، ورأيت نفس الأشياء التي رأيتها، وكيف كانت تتصرف بغرابة في الأسابيع الأخيرة، وكيف إنها لم تكن تقضي أي وقت معنا، هذا ما أعنيه. لقد كانت نادرة الظهور، وتعمل دائمًا في وظيفتها اللعينة تلك أو.. حسنًا، لا أدري بالضبط، كانت لا تقابلنا على كل حال، كانت قد توقفت عن الشرب تمامًا، هل تذكر؟ قالت من أجل إنقاص وزنها، ولكن بعد أن تدرك الأمر أخيرًا يبدو ذلك كلامًا فارغًا.

أومأ فولك ببطء، لقد تذكر تلك الأشياء فعلًا، لقد دهش حينها لأنها كانت أشد ولعًا بالخمر منهم جميعًا، ليس بالشيء المفاجئ كثيرًا بالنظر إلى أسرتها.

- لماذا برأيك امتنعت عن الخمر؟

هزت غريتشن كتفيها في حزن.

- لست أدري، ربما لم تكن تسيطر على نفسها تحت وطأة الكحول، لم تعِ ما يمكن أن تفعله. وإنني أكره أن أقول ذلك، ولكن لوك كان محقًا، في الليلة التي تجادلنا فيها عند المرصد.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- إنني لا أعني أنه كان محقًّا في خداعنا.

استدركت قائلة.

- لقد كان ذلك شيئًا فظيعًا، ولكن ما قاله بأن إيلي لم تعد تتقبل المزاح على الإطلاق، لم يكن يجب أن يقول ذلك، ولكنه كان محقًّا، لم تكن تفعل حقًّا، لم يكن عليها أن تضحك على حِيَل لوك الغبية بالتأكيد، ولكن في الوقت ذاته لم تكن تضحك على أي شيء، كانت هادئة وجادة دائمًا وتختفي في معظم الأحايين، كما تعلم.

جلس فولك ساكنًا. كان يعلم ذلك.

- وإنني أعتقد...

- تعتقدين ماذا؟

- أعتقد إنك لو كنت صادقًا مع ذاتك، لكنت شككت منذ وقت طويل أن إيلي ديكون كانت تتعرض للتعنيف.

* * * *

أفلتت إيلي ذراعها من قبضة لوك وأخذت تدلكها، لم يبدُ عليه أنه لاحظ العلامة.

- إلى أين تهربين؟ ما رأيك في الذهاب إلى المدينة وتناول مشروبٍ غازي أو شيء من ذلك.

كان لوك يتحدث بلهجة هادئة، لم تعد إيلي قادرة على معرفة عدد المرات التي حاول فيها لوك أن يظفر بلقاء منفرد بها منذ تلك المشاجرة عند المرصد، وكانت تصده إلى الآن، لقد حدث وأن ظنت أنه ربما يحاول الاعتذار، ولكنها لم تتمكن من استجماع طاقتها أو اكتراثها لتتحقق من ذلك، هكذا هو لوك في جميع الأحوال، فكرت في داخلها، عليك أن تبذل جهدًا مضنيًا لكي تحصل على اعتذار من الفتى. على كل حال، حتى لو لم تعد غاضبة منه، لم تكن تنوي أن تبلغه غايته اليوم قط.

- لا يمكنني، ليس الآن.

تعمدت ألا تعتذر، لقد تساءلت بالفعل عما إذا كان يجب عليها أن تحاول أن تسامحه من أجل صداقتهما، لقد عرفا بعضهما منذ سنوات، مرا خلالها بالكثير من الأحداث، تجهم وجهه فأدركت إيلي من الطريقة العابسة التي ينظر إليها بها أن الأمر لا يستحق العناء، كان لدى إيلي ديكون ما يكفي من الرجال الذين يريدون أن يأخذوا منها أكثر مما يقدمون لها، لم تكن تريد واحدًا آخر، أدارت ظهرها وابتعدت، من الأفضل أن تتجاهل الأمر، لوك هادلر هو لوك هادلر، وإن ذلك لن يتغير أبدًا.

* * * *

نكس فولك رأسه تحت وطأة الشعور بالذنب والندم، اقتربت غريتشن منه وربتت على ذراعه.

- أعلم أنه ليس من السهل مواجهة الأمر، ولكن كانت توجد إشارات، ونحن فقط كنا صغارًا ونفكر في أنفسنا لدرجة ألا نتمكن من فهمها.

- لماذا لم تُخبرنا؟

- ربما كانت خائفة، أو حتى أنها شعرت بالإحراج.

- أو ربما شعرت أن لا أحد يكترث لأمرها؟

نظرت غريتشن إليه.

- كانت تعلم أنك تهتم لأمرها يا آرون؛ لذلك السبب كانت منجذبة إليك أكثر من لوك.

هز فولك رأسه بينما أومأت غريتشن.

- هذا صحيح، لقد كنت شخصًا مستقرًا يمكنها الاتكاء عليه، كنت تستمع إليها إذا حاولت أن تتكلم. حسنًا، أجل، لقد كان لوك أكثر ظهورًا واندماجًا عنك، ولكن ذلك ليس بالشيء الجيد دائمًا. كان لوك ظاهرًا، ولكن أكثر الناس لا يقبلون أن يصبحوا مجرد خطة بديلة في حياتهم، لم يكن الأمر كذلك معك، لطالما كنت تهتم بالآخرين من حولك أكثر من نفسك، وإلا فإنك لم تكن لتظل هنا في كيوارا.

* * * *

- مرحبًا يا إيلي.

كانت قد عبرت نصف الردهة وهي تشعر بعيني لوك تراقبانها من ورائها حتى سمعت الصوت القادم من أحد الفصول الدراسية الفارغة، كان آرون فولك بالداخل يضع بعض النبتات داخل صندوق كبير من الورق المقوى، ابتسمت ثم دخلت.

- كيف كان العرض؟ المزيد من الدرجات النهائية؟

هز فولك كتفيه في تواضع.

«*لا أدري، حسنًا في الواقع لست ماهرًا كثيرًا في أمور النباتات*»، لم يكن ليقول ذلك، ولكن إيلي كانت تعرف أنه يستطيع أن يتقن الأمر، كان آرون يتقن جميع ما يتعلق بالأمور الدراسية دون أن يحرك إصبعًا. وهي كذلك لم تحرك إصبعًا هذا العام، ولكن بنتائج مختلفة كليًا، وقد توقف المعلمون عن إزعاجها بخصوص الأمر منذ حين.

أغلق الصندوق ورفعه وحاول أن يحافظ على توازنه بصعوبة بذراعيه الطويلتين.

- سيكون الوصول إلى المنزل أمرًا شاقًا مع هذا، ما رأيك في أن تمدي يد المساعدة؟ سيكون هناك مشروبٌ غازي في الداخل من أجلك.

كان صوته ودودًا كصوت لوك، ولكنه كان خجلًا بعض الشيء وتحاشى النظر إلى عينيها مباشرة، لقد أصبح الوضع غريبًا بينهما منذ تبادلا القبلات بجوار شجرة الصخرة، كما أن ما حدث عند المرصد لم يكن ذا فائدة، كانت إيلي تشعر بحاجة ملحة إلى التعبير عما داخلها، لكن الكلمات لم تسعها، فقط أرادت أن تحتضن وجهه بيديها وتقبله مرة أخرى وتخبره أنه فعل كل ما بوسعه.

كان لا يزال واقفًا بينما كانت هي غارقة في ترددها، بإمكانها الذهاب معه ولن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكنها قالت في نفسها بصرامة أن كلا، كانت قد اتخذت قرارها بالفعل، كان لديها مكان آخر لتذهب إليه.

- لا يمكنني، آسفة.

كانت تعني ما قالته.

- لا عليكِ.

أصابتها ابتسامته الصادقة بشعور من الندم، قد كان آرون فتى جيدًا، ودائمًا ما كانت تشعر بالأمان بقربه، يجب أن تخبريه.

انبثقت الفكرة في رأسها فجأة بلا مقدمات، أعطت هزة واحدة من رأسها متراجعة، لا لم تستطع إخباره، كان ذلك قرارًا غبيًا، وفات أوان ذلك، كان بإمكانه أن يردها عن ذلك الآن فقط، ولكن وقتها، وعندما نظرت إلى وجهه الهش، شعرت بداخلها يحترق ألمًا من الشعور بالوحدة جعلها تظن أن ما كانت تنتوي فعله كان هو –ربما– ما تحتاج إليه بالتحديد.

* * * *

- إيلي المسكينة. رباه، كان من المفترض أن نكون أصدقاءها لكننا خذلناها جميعًا.

حولت غريتشن بصرها إلى يديها.

- أعلم، إنني أشعر بالذنب ناحيتها كذلك، ولكن حاول ألا تقسو على نفسك كثيرًا، شخص غيرك كان سيشك في الأمر ثم سيتظاهر أنه لم يفعل، لقد كنت ولدًا صغيرًا، وإنك فعلت كل ما كان في وسعك فعله، ولقد كنت دومًا تعاملها جيدًا.

- ولكن ليس جيدًا بما يكفي، أيًا كان ما تمر به فإنه كان يحدث أمام أعيننا ونحن لم نتمكن من الملاحظة حتى.

كان المطبخ مريحًا وهادئًا حتى إن فولك شعر أنه لا يمتلك من الطاقة ما يكفي ليجعله ينهض على ساقيه ويذهب، هزت غريتشن كتفيها هزة خفيفة ثم وضعت راحة يدها الدافئة على يده.

- لقد كان درسًا كُتب على جميعنا أن نتعلمه بطريقة قاسية، لقد كانت تمر بالكثير في ذلك الوقت، لم يكن الأمر يقتصر على لوك.

* * * *

نظرت إيلي إلى آرون نظرةً ابتسم ثغره على إثرها، كان الصوت في داخلها لا يزال يردد أن أخبريه، ولكنها كانت تكتمه، وتأمره بأن يتوقف. لقد كان القرار قرارًا حاسمًا لا رجعة فيه، لن تخبر أي مخلوق.

- عليَّ الذهاب.

خطت إيلي بضع خطوات ثم توقفت، أصابها التفكير فيما هي مقبلة عليه بدفعة من الجرأة اجتاحتها، عادت إلى الداخل قبل أن تعي ما الذي تفعله حقًا، مالت بجسدها على صندوق النباتات خاصته وطبعت قبلة خفيفة على شفتيه شعر كل منهما على إثرها بالدفء وأفاق على المفاجأة، خطت إيلي خطوات إلى الوراء ثم أسرعت خارجًا فاصطدم فخذها بأحد المقاعد صدمة مؤلمة.

- حسنًا إذن، أراك بالجوار.

كانت مشاعرها متنكرة في نبرة صوتها المزيفة، لم تنتظر حتى يجيبها.

اجتاحتها نوبة رعب بمجرد أن خطت إيلي خارج الفصل، كان لوك هادلر يقف مستندًا إلى الحائط بجانب الباب يراقب في صمت، لم يكن التعبير على وجهه قابلًا للتفسير، تنفست إيلي نفسًا متثاقلًا وأجبرت ابتسامة أن ترتسم على ملامحها.

- أراك لاحقًا يا لوك.

قالت له إذ مرت أمامه، لم يبادلها الابتسام.

الفصل الثلاثون

افترش فولك سريره جالسًا مع كومة من الأوراق المتناثرة من حوله، الهدوء يخيم على الحانة بالأسفل وقد غادر آخر الزبائن منذ عدة ساعات، ظل فولك يحدق متفحصًا ملاحظاته الخاصة بالقضية، أخذ يرسم خطوطًا تربط السطور ببعضها بعضًا جيئة وذهابًا إلى أن تكونت شبكة خيوط عنكبوتية والكثير من النهايات المسدودة، تناول ورقة جديدة وبدأ في المحاولة مرة أخرى ليحصل على النتيجة ذاتها، ومن ثم التقط هاتفه واتصل.

- أظن أن إيلي ديكون كانت تتعرض للتعنيف بواسطة والدها.

قال بمجرد أن أجاب ريكو على اتصاله.

- ماذا تقول؟ انتظر.

كان صوته الناعس يصل إلى مسمع فولك، أصبح الخط مشوشًا وكان بإمكانه سماع محادثة هامسة، خمن فولك أنها ريتا، نظر في ساعته ليجد أن الوقت متأخر أكثر مما تخيل. مرت دقيقة حتى عاد صوت ريكو.

- أما زلت هنا؟

- أعتذر، لم ألاحظ الوقت.

- لا بأس، ما الذي كنت تقوله بشأن إيلي؟

- إنه شيء تحدثنا أنا وغريتشن بخصوصه من قبل، عن أن إيلي لم تكن سعيدة، ليس فقط لم تكن سعيدة، بل كانت بائسة. إنني متأكد من أن مال ديكون كان يعنفها.

- يعنفها جسديًا؟ جنسيًا؟

- لست أدري، ربما الاثنان.

- حسنًا.

ساد صمت لفترة.

- إننا لم نأخذ أقوال ديكون بخصوص يوم مقتل عائلة هادلر.

تنهد ريكو بتثاقل على إثر ذلك.

- يا رجل، إن عمره يتخطى السبعين عامًا ولديه اضطرابات عقلية. ربما يكون وغدًا، ولكنه وغدٌ ضعيف وعجوز.

- وإن يكن، سيظل بإمكانه أن يحمل سلاحًا.

- إذن؟ إنني أظن أن فكرتك عن ديكون متأثرة بحقيقة أنك تكرهه من أعماق قلبك لما تسبب لك فيه منذ عشرين عامًا مضت.

لم يجب فولك.

- أعتذر منك.

قال ريكو ثم تثاءب.

- إنني متعب، سنتحدث في الغد، ريتا تبلغك سلامها.

- أبلغها سلامي واعتذاري، تصبح على خير.

أغلق الخط.

شعر فولك أن بضع دقائق فقط مضت عندما أيقظه صوت رنين الهاتف الأرضي الحاد، فتح عينًا واحدة على مضض، كانت الساعة السابعة صباحًا تقريبًا، استلقى مستندًا إلى ذراعه مقابل وجهه في محاولة مضنية للرد على الهاتف، كان قد استغرق في مراجعة ملاحظاته حتى غلبه نوم متعب وغير مريح، وكان رأسه يدور الآن محتجًا، دفعته عدم قدرته على تحمل الضوضاء على استجماع بعضٍ من طاقته ونهض والتقط السماعة.

- رباه، أخيرًا.

انبعث صوت ماكمردو.

- هل أيقظتك؟

- أجل.

- أيًا كان يا صديقي، لا يهم. استمع إليّ، ينبغي لك أن تأتي إلى الأسفل في الحال.

- أنا لست جاهزًا...

- ثق بي، سأقابلك خلف الحانة، سأقوم بمساعدتك بقدر ما أستطيع.

كانت سيارة فولك مغطاة بالغائط، خطوط ولطخات من القذارة تغطي طلاء السيارة، وبِرَكٌ متكونة حول العجلات وأسفل مسّاحات زجاج السيارة الأمامي، كان كل شيء قد أصبح صلبًا وجافًا بالفعل تحت حرارة الشمس، وتخلل إلى الكلمات المحفورة على سيارة فولك، حيث كانت «*سنقضي عليك*» الآن مكتوبة بالغائط بدلًا من اللون الفضي.

جرى فولك نحو السيارة، وجد نفسه مضطرًا إلى أن يغطي أنفه بقميصه قبل أن يقترب خطوة أخرى، كان يشعر بالرائحة في حلقه. كان الذباب متجمهرًا بشغف، وقد أخذ فولك يضرب الذبابات التي هبطت بجناحيها على وجهه وشعره في قرف.

كان الوضع داخل السيارة أكثر سوءًا؛ يوجد شيء مثل أنبوب أو قمع محشور بداخل فتحة صغيرة تركها فولك في نافذة السائق لتهوية السيارة من حرارة الشمس خلال الليل، كانت الفضلات اللزجة المقرفة متناثرة على طارة القيادة والمسجل، ومتجمعة في برِكٍ موحلة على المقاعد وأسفلها. لم تُمس أي سيارة أخرى دون سيارته، وقف ماكمردو جانبًا مغطيًا أنفه وفمه بذراعه ويهز رأسه قائلًا:

- اللعنة يا رجل، أنا آسف جدًّا. لقد كنت أُخرِجُ الزجاجات الفارغة ووجدت هذا، لا بد أن من فعلها فعلها ليلًا.

توقف ماكمردو لثانية.

- على الأقل هي فضلات حيوانية.. أعتقد، على الأغلب.

دار فولك حول السيارة وهو لا يزال واضعًا قميصه على أنفه، يا لسيارته المسكينة، خُدِشت والآن تقذّرت، شعرَ بموجة غضب عارم تجتاحه، نظر خلال النوافذ الملوثة وهو يكتم أنفاسه ويحرص على ألا يقترب كثيرًا، تمكن

من ملاحظة وجود شيء آخر بداخل السيارة من خلال الوسخ الذي يغطي النافذة، عاد خطوة للوراء غير قادر على الكلام.

مئات الذبابات ملتصقة بالمقاعد ومغلفة بالغائط تفتش عن معلومات بخصوص موت إيلي ديكون.

كانت الكآبة تغلف جو قسم الشرطة.

- سألقن دو وعمه درسًا إزاء عربدتهم وإخلالهم بالأمن.

قال ريكو لفولك قبل أن يلتقط سماعة الهاتف.

- هل تعلم كم يبلغ ثمن السيارة؟ يمكن أن نطالب بتعويض.

هز فولك كتفيه في غير انتباه حيث يجلس على أحد المكاتب ينظر نظرة فارغة نحو ملفات قضية هادلر، كان ريكو قد أنهى مكالمته وأحاط رأسه بكفيه للحظة.

- يبدو أن ديكون يضرب ضربته الوقائية ليؤمن نفسه.

قال ريكو لفولك.

- لقد قدم شكوى.. ضدك.

- حقًا!

عقد فولك ذراعيه ونظر عبر نافذة القسم.

- مع سيارتي التي لا تزال مغطاة بالقذارة.

- إنه يقول إنك كنت تتعرض له، وتعبث بقبر ابنته أو شيء كهذا؟ إنه قادم بصحبة محامٍ.

- حسنًا.

لم ينظر فولك حوله.

- هل أنا بحاجة إلى أن أسأل...؟

- لم أفعل، ولكن لم يكن هناك شهود، إذن فستكون كلمته أمام كلمتي، كما أن لدي أنا أيضًا ما يمكنني من أن أقدم شكوى ضده، لذا...

استهجن فولك.

- ألا تنوي أن تفعل؟ إن الأمر جاد يا صديقي، سأتولى أمر رفعها، ولكنها ستصل إلى شخصٍ آخر، سيكون ذلك ذا تأثير سلبي على العمل.

نظر فولك إليه.

- بالطبع أنوي أن أفعل، لكن هذا كل ما لدى ديكون، أليس كذلك؟

كان صوت فولك هادئًا للغاية حتى أن ريكو كان مضطرًا إلى الاقتراب منه كي يسمعه.

- أن يترك أثرًا على التدمير والخراب، لقد كان دائمًا ما يعنف زوجته، ليس بعيدًا أنه كان يفعل الشيء ذاته مع ابنته. كان ذا سلطة ما على هذه البلدة، سلطة جعلته قادرًا على طردي أنا وأبي بعيدًا، الله وحده من يدري ما فعله ابن أخيه لتكتب كارن هادلر اسمه قبل أيام من مقتلها، إن هذين الاثنين قذران، ولا أحد يخبرهما بذلك.

- ماذا تقترح؟

- ليس لدي ما أقترحه، إنني فقط أقول إن ديكون يستحق أن يُعلّق، معاقبته على تخريب ممتلكات الغير سيكون جيدًا جدًّا من أجله، لكن ذنبه أكبر بكثير من ذلك؛ عائلة هادلر، ابنته، شيء ما.. أنا أعرفه.

سمعوا صوت غلق باب القسم من المكتب الأمامي، لقد وصل ديكون ومحاميته.

- يا صديقي، فلتستمع إليَّ جيدًا، إنك لا تدري بهذا، لكن إذا سمعك أحد تتفوه بأشياء مثل هذه خارج هذا القسم فستثبت ضدك شكوى التحرش تلك؛ لذا احترس لما تتفوه به، لا يوجد دليل يربط ديكون بقضية مقتل عائلة هادلر، ولا يهم إلى أي حد تريد أن يكون ذا صلة.

- اسأله.

- إن الصيد في الماء الراكد ليس جيدًا.

- فقط اسأله.

كانت المحامية شابة ومتشبعة بشغفٍ تام من أجل حقوق موكلها. استمع ريكو إليها بصبر بعد أن رافق كليهما إلى غرفة التحقيق، رآهما فولك وهما ذاهبان فرجع بظهره إلى الوراء على كرسيه في إحباط. أتت ديبورا من مكتب الاستقبال من خلفه وناولته زجاجة مياه باردة.

- ليس جيدًا أن تظل جالسًا هنا بالخارج بينما مال ديكون بالداخل.

- أجل.

تنهد فولك.

- إنها الإجراءات، تظل مفيدة لك إلى أن تصبح غير ذلك.

- أتدري ما يجب عليك فعله، أن تفعل شيئًا مفيدًا بينما تنتظر.

أومأت ناحية الردهة.

- ستكون غرفة التخزين مناسبة بعد بعض التنظيف.

نظر فولك إليها.

- لا أظن أن...

نظرت ديبورا إليه من فوق نظارتها.

- اتبعني.

فتحَت قفل إحدى الغرف ودفعته إلى الداخل، كانت رائحة عفنة تنبعث من الغرفة الممتلئة برفوف تحمل أوراقًا ولوازم مكتبية مكومة في الأرجاء، وضعت إصبعًا على شفتيها ثم لمست أذنها، تمكن فولك من خلال فتحة تهوية بالأعلى من سماع بعض الأصوات، كانت مكتومة، ولكن يمكن تمييز ما يُقال.

- من أجل شريط التسجيل، أنا النقيب ريكو، حاضر مع زميلي الضابط بارنز، من فضلكما عرِّفا عن اسميكما من أجل التسجيل.

- سيسيليا تارجوس.

أتى صوت المحامية واضحًا ورقيقًا من خلال الفتحة.

- مالكوم ديكون.

كان فولك يحدق إلى ديبورا في غرفة التخزين.

- يجب أن تُصلَّح هذه.

قال هامسًا. أجابته بما يشبه الإيماءة.

- أعلم، ولكن ذلك لن يكون اليوم.

خرجت وأغلقت الباب من خلفها وجلس فولك على أحد الكراسي وأخذ يستمع.

حاولت محامية ديكون أن تبادر.

- إن موكلي...

بدأت، ثم توقفت.

استطاع فولك أن يتخيل ريكو وهو يرفع يده ليقطع حديثها.

- لقد قدمت لنا نسخة من الشكوى المقدمة ضد الضابط الفيدرالي فولك، شكرًا لك.

انبعث صوت ريكو عبر الفتحة.

- كما تعلمين، إنه ليس هنا بصورة رسمية فعليًا وليس أحد أعضاء قسم الشرطة هذا؛ لذلك فإن تلك الشكوى ستوجَّه إلى الشخص المختص في دائرة سلطته.

- إن موكلي يطالب بضمانات بأنه سيكون في سلام دون مضايقات و...

- أخشى إنني لن يكون بإمكاني توفير أية ضمانات من هذا النوع.

- ولمَ لا؟

- لأن موكلك هو الجار الأقرب لمنزل مسرح جريمة لمقتل ثلاثة أشخاص، ولم يقدم أقواله إلى وقتنا الحالي، هو أيضًا مشتبه به في فعل تخريب ممتلكات الغير بخصوص سيارة ليلة البارحة في الواقع، سنتناقش في ذلك لاحقًا.

خيم الصمت.

- بالرجوع إلى أمر مقتل ثلاثة أفراد من عائلة هادلر، ليس لدى السيد ديكون ما يضيفه بهذا الشأن...

قوطعت المحامية بواسطة ديكون هذه المرة واندفع قائلًا:

- ليس لدي أي صلة لعينة بتلك الجريمة، ويمكنك أن تضع ذلك في تسجيلاتك.

تصاعد صوت سيسيليا تارجوس العالي.

- سيد ديكون، يجب عليك أن...

- أوه، أغلقِي فمك يا عزيزتي، ممكن؟

كان ديكون يتحدث بازدراء سافر.

- ليس لديك أي فكرة عمَّا يُطهَى هنا؛ هذان الرجلان سيلفقان الأمر برمته لدى أول فرصة تقابلهما، ولا أريدك أن تتسببي أنت في ذلك.

- لكن مع ذلك فإن ابن أخيك طلب مني أن أنصح...

- ما خطبك؟ أيجعلك هذان الثديان صماء مثل كونك غبية؟

ساد صمت طويل، لم يستطع فولك منع ابتسامته الساخرة وهو جالس بمفرده، لا شيء مثل اضطهاد النساء قديم الطراز يجعل أحدًا يرفض نصيحة جيدة. على كل حال، لن يستطيع ديكون قول إنه لم يُحذَّر.

ربما يمكنك إخبارنا عن ذلك اليوم مرة أخرى يا مال من فضلك.

كان صوت ريكو هادئًا لكن صارم، لقد كان عمل الرقيب سهلًا. فكر فولك أن هذه القضية قد أطفأت شعلة حماسه كليًا قبل أن تبدأ حتى.

- ليس لدي شيء لأقوله، لقد كنت بالقرب من المنزل أُصلح ذلك السور ورأيت شاحنة لوك هادلر آتية عبر ممر مزرعتهم.

بدا ديكون أكثر يقظة أكثر من أي وقت سمعه فولك، ولكن كلماته بدت رتيبة محفوظة وليس كأنه يقوم بتذكرها.

- يأتي هادلر ويذهب طوال الوقت لذا لم أعطِ لذلك أهمية.

استأنف ديكون حديثه.

- سمعت بعد ذلك صوتَ طلقٍ ناري قادمًا من مزرعتهم، دخلت إلى منزلي، ثم دوى بعد قليل صوت طلق آخر.

- هل فعلت أي شيء؟

- مثل ماذا؟ إنها مزرعة لعينة، يُطلَق النار على شيء ما كل يوم. كيف كان بإمكاني أن أعرف أنها تلك المرأة وابنها؟

تمكن فولك من تخيل ديكون وهو يهز كتفيه مستهجنًا.

- على كلٍّ، أخبرتك مسبقًا، لم أعطِ اهتمامًا بما كان يحدث، أليس كذلك؟ لأنني كنت أجري مكالمة هاتفية.

خيم الصمت على إثر الصدمة.

- ماذا؟

سمع فولك انعكاس ارتباكه في صوت ريكو، لم يأتِ ديكون بذكر أي شيء عن مكالمة هاتفية في أقواله، كان فولك يعلم ذلك لأنه قرأها عدة مرات.

- ماذا؟

قال ديكون مستفهمًا.

- كانت معك مكالمة هاتفية؟ في أثناء إطلاق النار؟

- أجل، لقد أخبرتك.

قال ديكون. لكن نبرة صوته اختلفت وبدا أقل تأكيدًا.

- أجل، لقد دخلت إلى البيت لأن الهاتف كان يرن.

قال ديكون مترددًا، كان صوته أبطأ الآن، وتعثر باحثًا عن الكلمة الأخيرة.

- لقد اتصلت فتاة من الصيدلية تخبرني أن أدويتي جاهزة.

- إذن فقد استقبلت مكالمة من سيدة من الصيدلية بعد سماعك للطلقة الثانية؟

سأل ريكو في غير تصديق واضح.

- أجل.

أجاب ديكون الذي بدا غير متأكد تمامًا.

- هذا صحيح، أظن ذلك؛ لأنها سألتني عن صوت هذا الانفجار وأجبتها بأن لا شيء هناك، فقط أعمال تخص المزرعة.

- هل كنت تستخدم هاتفك المحمول.

- كلا، على الهاتف المنزلي، لا أحصل على تغطية كافية عندي.

خيم الصمت مجددًا.

- لماذا لم تخبرنا بذلك قبلًا؟

ساد صمت طويل، وعندما فتح ديكون فمه ليجيب بدا كطفل صغير.

- لا أدري لماذا.

كان فولك يعرف أنه مصاب بالخرف، أسند جبهته إلى حائط غرفة التخزين البارد، كان يصرخ في داخله في انزعاج، تصاعد صوت كحة في أثناء انهياره، بدت المحامية مسرورة عندما تكلمت.

- أظن أن عملنا هنا قد انتهى.

الفصل الحادي والثلاثون

أبقى ريكو ديكون في غرفة التحقيق لعشرين دقيقة أخرى يأخذ أقواله بخصوص ما وقع من ضرر على سيارة فولك، ولكنها كانت مضيعة للوقت. سمح أخيرًا للرجل العجوز بأن يغادر بعد أن أطلق تحذيرات ترن في أذنيه.

أخذ فولك مفاتيح سيارة الشرطة وانتظر خلف مبنى القسم حتى رأى ديكون يغادر بشاحنته، انتظر لخمس دقائق ثم تحرك خلفه ببطء في الطريق إلى مزرعة ديكون، كانت لافتة التحذير بوجود حريق لا تزال هناك على الطريق تحذره من أن الخطر لا يزال هائلًا، انعطف عند لافتة باهتة ألوانها تشير إلى المكان الذي أُطلق عليه بتعالٍ مقاطعة ديكون، ثم سار عبر ممر صخري، رفعت بعض الخراف رؤوسها عاليًا حمدًا لله بعد أن مر مبتعدًا.

كان المنزل أعلى تلة يطل على منظر ريفي أخّاذ من حوله، كان فولك يرى منزل عائلة هادلر بوضوح على يمينه يبعد مسافة قصيرة بأسفل الوادي، كان خرطوم المياه الدوراني ملتفًا كشبكة عنكبوت حول عصا ومقعدين من مقاعد الحديقة، يبدوان كأثاث بيت الدمية. كان يحب ذلك المنظر منذ عشرين عامًا، عندما كان يمر بإيلي هنا، الآن لا يطيق النظر إليها.

أوقف فولك سيارته أمام حظيرة متداعية بينما كان ديكون يقفل سيارته، كانت يدا الرجل ترتجفان ووقعت المفاتيح من يده في التراب، طوى فولك ذراعيه ووقف يراقب ديكون وهو ينحني ببطء للبحث عنها، هرول كلب ديكون إلى قدم سيده وأخذ يزمجر باتجاه فولك، رفع الرجل العجوز ناظريه، تبدلت النظرة العدوانية التي كانت على وجهه إلى شيء آخر، كان يبدو فقط أنه متعب ومشوش.

- لقد غادرت قسم الشرطة للتو.

قال ديكون لكنه لم يبدُ متأكدًا.

- أجل، هذا صحيح.

- إذن ما الذي تريده الآن؟

كان ديكون يقف مستقيمًا بقدر ما أمكنه.

- هل تنوي أن تنفرد برجل عجوز بينما لا يوجد أحد بالجوار؟ يا لك من جبان!

- إنك لا تستحق أن أخسر مهنتي في سبيل لكمك.

- ماذا إذن؟

هذا سؤال جيد، كان فولك ينظر إلى ديكون. لعقدين من الزمن، كان هذا الرجل أكثر غموضًا من أي شيء، كان كالغول، هادم اللذات ومؤرق الليالي، بينما يقف أمامه الآن، لا يزال فولك قادرًا على أن يميز طعم الغضب الذي يقف في حلقه، ولكنه كان غضبًا ممزوجًا مع شيء آخر، ليست الشفقة.. بالتأكيد ليست شفقة.

كان فولك بدلًا من ذلك يشعر أنه تمت خيانته، لقد ترك الأمر دهرًا حتى يخبو من تلقاء نفسه فأخذ يتضاءل ويتضاءل بمرور الوقت ويُنسى حتى لم يعد يحق له الدفاع عن نفسه، خطا فولك خطوة للأمام فظهر الخوف لثانية في عيني ديكون وبرق خيطٌ من الخزي بداخله، توقف فولك، ما الذي كان يفعله هنا؟

نظر إلى عيني ديكون مباشرة.

- ليس لي أي علاقة بموت ابنتك.

- كلامٌ فارغ، لقد كان اسمك مكتوبًا على تلك الورقة، وقصتك كانت قصة خيالية...

كانت كلماته جوفاء ومكررة كالعادة. قاطعه فولك.

- كيف لك أن تعرف يا ديكون؟ أخبرني، ما الذي جعلك متأكدًا دائمًا من أنني لم أكن مع لوك يوم ماتت إيلي؟ سأخبرك أنا السبب؛ لأنه من الواضح أنك تعلم بشأن ذلك اليوم أكثر كثيرًا مما تعلنه.

* * * *

عندما دخل مال ديكون إلى بيت المزرعة، لم تكن هناك أي إشارة على أنه سيتناول عشاءه الليلة مما أصابه بغيظ شديد، كان ابن أخيه مستلقيًا على أريكة بنية عتيقة في غرفة المعيشة مغلقًا عينيه وعلبة بيرة تقف متوازنة على بطنه، كان صوت مباراة الكريكت ينبعث من المسجل في أثناء مطاردة الفريق الأسترالي لفريق جنوب إفريقيا.

ركل ديكون حذاء جرانت من على الأريكة ففتح ابن أخيه عينًا واحدة في عناء.

- لم يحضر الشاي اللعين حتى الآن؟
- لم تعد إيلي من المدرسة بعد.
- وأنت أيها الوغد الكسول ألا يمكنك أن تفعل شيئًا؟ لقد قضيت يومًا شاقًا بالخارج أرعى تلك النعاج.

هز جرانت كتفيه بلا مبالاة.

- إنها وظيفة إيلي.

نخر ديكون بأنفه، ولكنه كان محقًا، تلك وظيفة إيلي بالفعل. تناول علبة بيرة من الست علب الموضوعة بجانب جرانت وذهب إلى الجزء الخلفي من المنزل.

كانت غرفة ابنته مرتبة إلى حد كبير، هادئة وبمعزل عن الفوضى التي تعم باقي أرجاء المنزل. توقف ديكون أمام الباب وأخذ رشفة من علبة البيرة خاصته، أخذت عيناه تحومان في الغرفة كعين الخنفساء، ولكنه تردد في الدخول وظل واقفًا عند عتبة الغرفة، كان يشعر بشعور غير مريح بعدم التنظيم، كبكرة خيط طليقة، شرخ في الرصيف. كانت تبدو مثالية، ولكن كان هناك شيء خاطئ.

وقعت عيناه على ملاءة السرير البيضاء ثم تجهم وجهه، لاحظ أن هناك انبعاجًا دائريًا صغيرًا في الخشب وأن الطلاء كان متشققًا ومتقشرًا. بدت السجادة الوردية أسفل غطاء السرير أنها دُعكت في حركة دائرية غير منتظمة نتج عنها الآن درجة أو درجتين على الأكثر أغمق من بقية السجادة، بالكاد تُرى، ولكنها موجودة.

شعر ديكون بالقلق ككرة ثلج صغيرة تتكون داخله، تفحص الغرفة الصامتة والانبعاج وتلك البقعة إذ أشعل الكحول أول شرارة غضب في عروقه،

كان ينبغي أن تكون ابنته هنا، ولكنها لم تكن. أحكم قبضته على علبة البيرة الباردة مستحثًا لوزنها الصلب البارد أن يهدئ سورة غضبه.

سيخبر الشرطة لاحقًا أن تلك كانت اللحظة التي شعر فيها بأن هناك شيئًا خطيرًا قد حدث.

* * * *

راقب فولك والد إيلي من قرب.

- ربما بإمكانك أن تدَّعي أنك بريء من قضية هادلر، ولكنك تخفي شيئًا بشأن موت ابنتك.

- انتبه إلى ما يخرج من فمك يا هذا.

كان صوت ديكون هادئًا وثابتًا كزنبرك ملفوف.

- ألهذا كنت لا تدخر جهدًا لإثبات تهمة موت إيلي عليَّ؟ إذا لم يكن هناك مشتبه به في اليد، فلينشغل الناس في البحث عني، مَن يدري ما الذي كان بإمكانهم كشفه إذا وجَّهوا انتباههم نحوك، هل الإهمال؟ أم التعنيف؟

انقض الرجل العجوز على فولك بقوة لا تصدق وداهمه بهجومه حتى أسقطه أرضًا، أخذ ديكون يدعك يده القذرة بوجه فولك، ظل الكلب يدور وينبح بلا انقطاع.

- سوف أخرج كبدك.

كان ديكون يصيح الآن.

- إذا سمعتك تتفوه بكلمة أخرى كتلك فسأُخرِج أحشاءك كالحيوانات، لقد أحببتها.. أتسمعني؟ لقد أحببت تلك البنت.

* * * *

كان لوك هادلر منقطع الأنفاس، توقف ويده على المسجل إذ كاد فريق جنوب إفريقيا أن يحرز هدفًا، لكن ضارب الكرة استجمع نفسه وتغلب على خوفه وأبعدَ الكرة.

تناثرت زخات العطر بحرية على صدره العاري وفتح خزانة ملابسة على مصراعيها، كانت يده تعرف طريقها تلقائيًا إلى القميص الرمادي الذي كان مفضلًا لديه ذات يوم، تفحص لوك انعكاسه في المرآة وأخذ يتفحص أسنانه

وهو يزرر قميصه. كان معجبًا بما رأى، ولكنه كان يعرف عن خبرة أن هذا كله لا يهم، تطلب الأمر جهدًا خارقًا لكي يعرف ما يدور في عقول أولئك الفتيات هذه الأيام.

فاليوم، على سبيل المثال. تراءت في ذهنه صورة إيلي وهي تضغط بشفتيها الساخنتين الصغيرتين على شفتي آرون في الفصل فتجهم انعكاسه في المرآة، هل كانت تلك هي أول مرة؟ لسبب ما كان يشعر أنها لم تكن الأولى، شعر لوك بشيء شديد الوطأة يشبه الغيرة فهز رأسه هزة شديدة، لماذا يهتم؟ لم تكن لديه أية فكرة، ولكن بحق السماء، إيلي ديكون يمكنها أن تكون عاهرة صغيرة في بعض الأحيان؛ تتجاهله ثم تذهب إلى آرون، ليس لأن هذا يضايقه، ولكن رباه، كان يكفي لأي أحد أن يرى ذلك المشهد ليتيقن من أن هناك أمرًا مريبًا حقًا.

* * * *

كانت أظفار ديكون مغروسة في لحم وجه فولك بشكل مؤلم بشدة، فسحبه فولك من معصمه ليدفعه بعيدًا عنه، نجح في أن يقلب ديكون على ظهره ثم نهض وخطا مبتعدًا، انتهى الأمر في غضون ثوانٍ، لكن كان كلٌّ منهما يلهث تحت تأثير الأدرينالين الذي يندفع في عروقهما، حدق ديكون إليه وهو على الأرض وبصاقه الأبيض متجمع في زوايا شفتيه.

مال فولك نحوه متجاهلًا الكلب الواقف مكشرًا عن أنيابه، ظل واقفًا يراقب الرجل العجوز المستلقي على الأرض، سوف يكره نفسه لاحقًا من أجل ذلك، ولكنه في هذه اللحظة لا يهتم البتة.

* * * *

كانت ذراعا فولك تؤلمانه أسفل صندوق النباتات عندما وصل إلى المنزل، لكن ابتسامته لم تفارق وجهه، لم ينغص مزاجَه الرائق شيءٌ سوى شعور خفيف بالندم، ربما كان يجب عليه أن يتبع إيلي عندما خرجت من الفصل، كان يفكر أن هذا ما كان لوك سيفعله، كان سيحاول أن تطول المحادثة ويقنعها أنها تريد حقًا زجاجة المياه الغازية بعدما تذهب معه.

تجهم وجهه وألقى بالصندوق أمام الباب، كانت إيلي تبتسم في وجه لوك قبل أن تذهب بكل تأكيد، كانا يتحادثان نادرًا تلك الآونة، ولكن أكانت لتبتسم في وجهه مع ذلك؟

انتظر آرون ابتسامة من صديقه وأن يلقي إليه تعليقًا بذيئًا كما يفعل، لكن لوك بالكاد رفع حاجبيه تحية له.

- انتبه وأنت تحمل هذه.

كان ذلك كل ما قاله.

اقترح آرون أن يذهبا معًا ليتسكعا قليلًا في الطريق الرئيسي، ولكن لوك هز رأسه علامة الرفض.

- آسف يا صديقي، لدي موعد في مكان آخر.

لقد أخبرته إيلي أنها منشغلة أيضًا، تساءل آرون ماذا هي بفاعلة؟ كانت ستخبره إذا كان لديها عمل، أليس كذلك؟ حاول جاهدًا ألا يتساءل كثيرًا عما ينوي صديقاه فعله من دونه، فكر بدلًا من ذلك في شيء يفعله فحزمَ أدوات الصيد خاصته ونوى أن ينطلق إلى النهر، نحو أعلى النهر حيث توجَد الأسماك بكثرة. فكر كذلك أنه ربما يذهب إلى شجرة الصخرة تحسبًا إن ذهبت إيلي إلى هناك، لكنه فكر أنها لو كانت تود رؤيته لكانت قالت ذلك، ولكنها لم تكن تبدو في حال طبيعية، ربما لو كانا قضيا بعض الوقت بمفردهما لكانت أدركت ذلك، كان سيحنو عليها، حتى لو لم يستطع أن يجعلها تدرك ذلك، كان هناك خطب ما حقًا.

* * * *

- أنت تعتقد أنني قتلت ابنتك ذلك اليوم؟

قال فولك وهو ينظر إلى ديكون بالأسفل.

- أتعتقد أنني دفعت جسدها تحت الماء حتى لفظت أنفاسها الأخيرة ثم بعد ذلك كذبت على الجميع، وعلى أبي، طوال هذه السنوات؟

- أنا لا أعلم شيئًا عما حدث ذلك اليوم.

- أعتقد أنك تعلم.

- لقد أحببتها.

- منذ متى؟ هل وجد أيَّ أحد سببًا كافيًا كيلا يؤذي من يحب؟

* * * *

- أعطني أي دليل لعين على ذلك، بالنسبة إلى شخص على شفا حفرة من السجن، ما مدى الحماقات التي قمت بها؟

كان ريكو يصيح بعلو صوته على الهاتف، أدرك فولك أنه لم يسبق له أن رأى ريكو غاضبًا من قبل.

- لم أرتكب أيًا منها، كل شيء على ما يرام، لا عليك.

كان فولك يجلس في سيارة الشرطة على بعد كيلومترٍ من مزرعة ديكون، وقد وجد ثماني مكالمات فائتة من ريكو.

- ألم تفعل؟ هل تظن أنني ابن البارحة يا رجل؟ إن هناك شكوى مقدمة ضدك، أتظن أنني لن أتمكن من أن أتوقع أين أنت؟ أأبدو لك مجرد ضابط ريفي غبي لا يمكنه معرفة شيء؟

- ماذا؟ كلا. ريكو، اسمع يا صديقي، بالتأكيد ليس كذلك.

كان يرتجف غير قادر على التحكم بانفعاله، بدا الأمر غريبًا كأنه يرتدي زيًا تنكريًا.

- لقد جريتَ بعد انتهاء المقابلة مباشرة، أنا أعرف أنك كنت تتنصت علينا بالمناسبة.. ويمكنني أن أستشف من صوتك أنك كنت تحوك شيئًا مع ديكون، وأنت في سيارة الشرطة؛ لذلك فإن كل شيء ليس على ما يرام، أليس كذلك؟ لا أزال مسؤولًا عن هذه البلدة بحسب آخر معلوماتي، وإذا كنت لا تزال تتعرض لشخص قدم شكوى ضدك بالفعل بحق الجحيم فإن لدينا مشكلة كبيرة هنا يا صديقي.

ساد صمت طويل، كان فولك يتخيل ريكو وهو يسير جيئة وذهابًا حول القسم بينما يسترق كل من ديبورا وبارنز السمع. تنفس فولك بعمق، كان قلبه لا يزال يخفق بشدة.. لكنه كان قد بدأ يعود إلى صوابه.

- لا يوجد مشكلة بيننا. أنا آسف، لقد تسللت لبضع دقائق، إذا حدثت أي مشكلة فإنني سأكون مسؤولًا عنها، وليس أنت، أعدك.

ساد الصمت على الهاتف لفترة طويلة حتى ظن فولك أن ريكو أغلق الخط. حتى تكلم بصوت أكثر هدوءًا.

- استمع إليَّ يا رفيقي، أعتقد أن ذلك ربما سيصبح عبئًا ثقيلًا عليك، مع سمعتك هنا.

هز فولك رأسه على الرغم من أن أحدًا لم يكن هناك ليراه.

- كلا، لقد قلت لك. كانت لحظة جنون ليس إلا، لم أتسبب في أي ضرر، ولن يترتب على ذلك أي ضرر على أي حال.

- انظر، لقد فعلت كل شيء يمكنك فعله، وأكثر. لقد وصلنا إلى أبعد مما كنت سأصل إليه بمفردي، إنني أدرك كل ذلك إدراكًا تامًّا يا رفيقي، لكن ربما حان الوقت الذي نصل فيه إلى نهاية ذلك. استدعِ شرطة كلايد، إنني ألوم نفسي على ذلك، كان ينبغي أن أتصل بهم منذ وقت طويل، هذا ليس مسؤوليتك، لم يكن كذلك قط.

- ريكو، انظر يا صديقي...

- إنك مهووس بديكون ودو، ومهووس بتوجيه الاتهامات لهما. الأمر يبدو وكأنك تحاول أن تستغل قضية عائلة هادلر لكي تلحق أيًّا كان لما حدث لإيلي...

- ليس الأمر هكذا! لقد كان اسم دو مكتوبًا بخط يد كارن!

- أعلم، ولكن هذا الشيء الوحيد الذي لدينا! ولدى كل منهما حجته، كل منهما لديه.

تنهد ريكو على الناحية الأخرى.

- تبدو فكرة رن هاتف ديكون في نفس الوقت الذي حدث فيه إطلاق النار في منزل هادلر ضربًا من الخيال، إن بارنز يتفحص في سجلات الهاتف الآن، ولكن الفتاة التي تعمل بالصيدلية أكدت أقواله، أنها تتذكر حدوث ذلك.

- تبًّا.

مسح فولك شعره بيده.

- لماذا لم تقل ذلك من قبل؟

- لم تسأل قط.

صمت.

- ديكون لم يفعلها، لم يقتل عائلة هادلر، يجب أن تفتح عينيك، وبأسرع ما يمكن، إنك تحدق بشدة نحو الماضي حتى بدأ يعمي بصيرتك.

الفصل الثاني والثلاثون

شعر فولك أن الألم الذي يضغط كتفيه بدأ أخيرًا يهدأ عندما صبت غريتشن كأسًا ثالثًا من النبيذ الأحمر، كان هناك ثقل يضغط على صدره منذ وقت طويل حتى إنه توقف عن الاكتراث له، وبدأ أخيرًا يخف، يمكنه الآن أن يشعر بعضلات رقبته تنبسط، تجرع النبيذ ملء فمه مستمتعًا باللاشيء الذي يملأ عقله الآن، بدلًا من الفوضى العارمة التي اعتادها.

كان المطبخ مظلمًا وبقايا طعام العشاء أُزيلت من على الطاولة، يخنة اللحم. غسل الصحون معًا، يداها مغطاتان برغوة الصابون وهو يمسك بفوطة التنشيف حول يديه، كانا يعملان معًا في انسجام، كلٌّ منهما يشعر بروحه تتجدد خلال الأجواء المنزلية الدافئة.

انتقلا أخيرًا إلى غرفة المعيشة حيث ابتلعته أريكة قديمة وثيرة وكأس النبيذ في يده، راقبها وهي تتحرك في الغرفة في تؤدة وتفتح بعض الأضواء الهادئة على الطاولات الجانبية مُهيِّئة جوًا ذهبيًا دافئًا. ضغطت على زرٍ خفي فتصاعدت أنغام الجاز الرقيقة لتملأ أرجاء الغرفة، نغمات شجية وغير مألوفة، كانت الستائر البنية مفتوحة تداعبها نسمات الهواء الليلية، والهدوء يعم المكان خارج النافذة.

كانت غريتشن قد اصطحبته في سيارتها من الحانة.

- ما الذي حدث لسيارتك؟

أخبرها بما أصاب السيارة، أصرت أن تراها فسارا إلى موقف السيارات إذ بدأت ترفع الغطاء المشمع بحذر شديد، كانت السيارة قد نُظفت من الخارج لكنها كانت لا تزال مدمرة من الداخل، شعرت بالشفقة من أجله وضحكت برقة وهي تربت على كتفه، جعلته يشعر بأن الأمر ليس بهذا السوء.

أخبرته في طريقهما عبر الطرق المظلمة أن لاكي يبيت الليلة عند المربية، لم تفسر له سبب ذلك. كان شعرها الأشقر يلمع تحت ضوء القمر.

انضمت إليه الآن واتخذت مقعدًا على الأريكة، الأريكة نفسها، في الطرف الآخر منها. مسافة سيكون عليه أن يخترقها، لطالما وجد صعوبة في فعل ذلك، كان يدرس الإشارات وينظر فيها جيدًا، إذا فعل باكرًا جدًّا فسيسبب حرجًا، وإذا تأخر كثيرًا، فالشيء ذاته. ابتسمت، فكر داخله أنه ربما لن يكون الأمر صعبًا للغاية هذه المرة.

- ما زلت تنجح في مقاومة مكالمة ملبورن حتى الآن إذن.

قالت وهي ترتشف من كأسها، كان لون النبيذ بنفس لون شفتيها.

- بعض الأيام تكون أسهل من غيرها.

قال فولك وهو يبادلها الابتسام، كان يشعر بفورة دافئة تداعب صدره، فمعدته.. ثم أسفل قليلًا.

- هل توجد أي بادرة أمل أن الأمور في طريقها لتتضح؟

- بصراحة من الصعب قول ذلك.

أجابها بغموض، لم يكن يريد أن يتحدث بشأن القضية، أومأت وابتلعهما بعد ذلك صمت مريح، تموهت أنغام الجاز الشجية مع حرارة الجو.

- صحيح. لدي شيء لأريك إياه. أدارت نفسها لتصل إلى رف الكتب خلف الأريكة، جعلتها حركتها أقرب إليه كاشفة عن جسد رشيق. استدارت في حركة سريعة وهي تحمل في يديها كُتَيِّبين لحفظ الصور، كانا كتابين كبيرين مغلفين، فتحت الصفحة الأولى لأحدهما ثم تخطتها وقلبتها على جنبها. فتحت الصفحة التالية ثم اقتربت باتجاه فولك.

تم تخطِّي المسافة بنجاح، لم يكن قد أنهى كأسه حتى.

- وجدت هذا منذ يومين.

نظر إليه مليًّا، كان يشعر بلمسة ذراعها العارية على ذراعه، ذكره ذلك باليوم الذي رآها فيه مجددًا أول مرة، خارج الجنازة. لا، لم يكن يريد التفكير في ذلك الآن، لا يريد التفكير في عائلة هادلر، ولا في لوك.

نظر إلى الأسفل عندما فتحت الألبوم، كان هناك ثلاث أو أربع صور ملتصقين بالصفحة تغطيهم ورقة بلاستيكية رقيقة، كانت الصور القليلة الأولى لغريتشن وهي طفلة، صور ذات دمغة باللونين الأحمر والأصفر القديمة التي تشبه مختبرًا كيميائيًا. قلبت الصفحات.

- أين الـ.. ها هي ذي، انظر.

قالت وهي تدير الصفحة ناحية فولك وتشير بإصبعها، اقترب فولك، لقد كان هو وهي، لم يرَ تلك الصورة من قبل قط، صورة عمرها ثلاثون عامًا، كان حافي القدمين ويرتدي سروالًا رماديًا قصيرًا بينما كانت ترتدي فستانًا مدرسيًا واسعًا للغاية. كانا يقفان بجانب بعضهما وسط مجموعة صغيرة من الأطفال في زيهم المدرسي، الجميع يبتسم ما عدا هو وهي، كانا ينظران إلى الكاميرا نظرة مريبة. شعرها الطفولي الأشقر يلمع لمعة ذهبية بينما هو كان باللون الأبيض، تخيل فولك أن كلًّا منهما كان يقف مكرهًا بناء على تعليمات الشخص الواقف خلف الكاميرا بسبب تعبير وجهه المتمرد.

- أظن أنه أول يوم بالمدرسة.

أدارت غريتشن بصرها في كل الاتجاهات ورفعت أحد حاجبيها.

- إذن على ما يبدو أننا أصبحنا صديقين أنا وأنت قبل أي أحد آخر.

ضحك واقترب قليلًا وهي تمرر إصبعًا على الصورة من الماضي، بدلت بصرها إليه، في الوقت الحاضر، تكشف ابتسامة شفتيها حمراء اللون عن أسنان بيضاء، ثم تبادلا قبلة. كان يلفها بذراعه ويضمها إليه أكثر ويشعر بحرارة فمها على شفتيه، وأنفه تلامس خدها، ويده الأخرى تداعب شعرها، كلٌّ منهما ملتصق بالآخر في حميمية، وقد أثاره شعوره بتنورتها القطنية بين فخذيه.

انفصلا مبتعدين عن بعضهما وهما يضحكان في ارتباك وأنفاسهما متلاحقة، كانت عيناها باللون الأزرق القاتم تحت الضوء الهادئ، أزال خصلة من شعرها عن جبهتها فاقتربت منه مجددًا، وراحت تقبله بنهم، وعطر شعرها ومذاق النبيذ يختلطان مع كل نفس.

لم تصل رنة الهاتف إلى أذنيه، فقط عندما توقفت هي بدأ يدرك ما يحيط بهما، حاول أن يتجاهله، ولكنها وضعت إصبعًا على شفتيه فطبع قبلة عليه.

- ششش.

همست.

- هل هذا هاتفك أم...؟ لا، إنه هاتفي. آسفة.

- دعك منه.

تحركت بالفعل ودفعت نفسها لتنهض عن الأريكة بعيدًا عنه.

- لا يمكنني، أنا آسفة. ربما تكون جليسة الأطفال.

ابتسمت له ابتسامة ساحرة أصابت جلده بالقشعريرة في موضع لمستها، لا يزال يشعر بها بالقرب منه. نظرت إلى الشاشة.

- إنها هي، سأعود في الحال. خذ راحتك.

غمزت له في إيماءة لعوب تهكمية تشير إلى ما سيحدث لدى عودتها. ابتسم وهي تغادر الغرفة.

- مرحبًا يا أندريا، هل كل شيء على ما يرام؟

سمعها وهي تتكلم.

تباعد خديه وهو يدعك عينيه بأصابعه، نفض رأسه وأخذ رشفة من النبيذ واعتدل في جلسته على الأريكة، تيقظ بعض الشيء، ولكن ليس كثيرًا، كان يحاول ألا يفك التعويذة متنبئًا بعودتها.

وصل إليه صوت غريتشن من الغرفة الأخرى كهمهمات غير مفهوم كُنْهُها. أسند رأسه إلى الخلف على الأريكة يستمع إلى الأصوات المشفرة القادمة من الداخل، كان بإمكانه سماع إيقاع صوتها المتناغم يرتفع وينخفض باعثًا الراحة في أوصاله. أجل، قفزت الفكرة في رأسه فجأة بلا مقدمات، ربما بإمكانه أن يظل هكذا دائمًا، ليس في كيوارا، ولكن في مكانٍ آخر مكانٍ ذي مساحات خضراء شاسعة، بدا له أن حياته في ملبورن تبعد خمس ساعات فقط عن هنا وملايين الأميال. ربما تكون المدينة تسللت أسفل جلده، ولكنه كان للمرة الأولى يتساءل عما يكمن في قلبه حقًّا.

بدل من جلسته على الأريكة ومسح أغلفة كتيبات الصور الباردة بيده. أتى صوت غريتشن من الغرفة المجاورة في شكل همهمات خافتة، لم يحمل صوتها دليلًا على أن هناك شيئًا طارئًا وكانت تشرح شيئًا بصبر، سحب فولك

كتيب الصور ووضعه على حجره وفتحه بتثاقل وهو يحاول إبعاد أثر النبيذ عن رأسه الثقيل.

كان يبحث عن صورتهما معًا لكنه لم يستغرق وقتًا لكي يدرك أنه يحمل الكتيب الخطأ، كانت الصورة الأولى في الكتيب لغريتشن وهي أكبر سنًّا وليست لقطات الطفولة القديمة، كانت في التاسعة عشر أو العشرين من عمرها تقريبًا. أوشك فولك أن يغلق الكتيب ثم توقف. أخذ يتفحص الصور باهتمام، لم يرها قبلًا في هذا الوقت، رآها في سن أصغر، وعندما صارت أكبر، لا شيء بينهما. كانت غريتشن لا تزال تنظر إلى الكاميرا نظرة مريبة لكنها كانت قد تخلت عن وقفتها الجامدة. تنورتها أقصر ويكسو ملامح وجهها تعبيرٌ أقل خجلًا.

تفاجأ عندما قلب الصفحة ووجد نفسه أمام صورة غريتشن ولوك مباشرة، لم يتغير كلٌّ منهما في الصورة ذات الجودة العالية، كان كلٌّ منهما في بداية العشرينيات، يضحكان في حميمية واضحة، رأساهما متقاربان وتعلو وجهيهما ابتسامةٌ متشابهة. ماذا قالت؟

«تواعدنا لعام أو عامين، ولكن لا شيء جدي، لقد فشل الأمر بالطبع».

تتابعت الصور المشابهة لصفحتين متتاليتين: نزهاتهما معًا، إجازات على الشاطئ، حفلات عيد الميلاد. توقفت الصور عن التتابع فجأة. كان وجه لوك قد تغير من شاب في العشرينيات من عمره إلى رجل يقترب من الثلاثين، يقترب من العمر الذي قابل لوك فيه كارن، واختفى من كتيب صور غريتشن، فكر فولك أنه لا مشكلة في ذلك. لا بأس، ويبدو منطقيًا.

مر بالصفحات المتبقية بينما يصل إلى أذنيه صوت غريتشن المبهم من الغرفة المجاورة، أوشك أن يغلق الكتيب لكنه توقف فجأة.

في الصفحة الأخيرة بالضبط، وتحت الغلاف البلاستيكي الشفاف، كانت هناك صورة للوك هادلر، كان موجهًا نظره إلى الأسفل بعيدًا عن اتجاه الكاميرا وابتسامة رائقة ترتسم على وجهه، كانت الصورة مأخوذة من قرب لكنه بدا وكأنه في غرفة في مشفى يجلس على حافة سرير، كان يحمل في يديه رضيعًا حديث الولادة.

كان وجه الطفل الوردي الصغير وشعره الداكن ويده المكتنزة هو ما يظهر من الغطاء الأزرق الذي يحيط به وهو يحمله على ذراعيه، يحمل الولد في ارتياح ومن قرب، وبأبوةٍ.

فكر فولك تلقائيًا أنه بيلي؛ فقد رأى آلاف الصور المشابهة في منزل هادلر، دوى الاسم كانفجار قنبلة في رأسه عندما خطر على باله، مال فولك أكثر ناحية كتيب الصور الخاص بغريتشن وأخذ يدعك عينيه وقد أصبح أكثر يقظة الآن، لم تكن الصورة ذات جودة كافية إذ التُقطَت في غرفة خافتة الإضاءة باستخدام ضوء كشاف قوي، مع ذلك كان تركيز الصورة حادًا. وضع فولك الكتيب تحت ضوء المصباح الجانبي مباشرة ليتفحص الصورة بشكل أكثر وضوحًا. كان هناك سوار يحيط بمعصم الفتى البدين الذي يظهر من الغطاء الأزرق، كان اسم الرضيع مكتوبًا بشكل أنيق بحروف كبيرة.

لاكلان شونر.

الفصل الثالث والثلاثون

كان انعكاس فولك في النوافذ السوداء مشوشًا ومقلوبًا، بدا له صوت غريتشن عندما تردد في الغرفة غريبًا لأذنيه، أمسك بكتيب الصور الآخر وتفحصه سريعًا، كانت الصور لغريتشن وحدها، غريتشن مع والدتها، في سهرة في سيدني مع أختها الكبيرة.

لا أثر للوك، إلى أن... كاد أن يفوتها، عاد إلى الصفحة السابقة. كانت صورة ذات جودة سيئة لا تستحق أن توضع في كتيب لحفظ الصور أُخذت في إحدى المناسبات الاجتماعية، كانت غريتشن تقف في الخلفية وبجانبها تقف كارن هادلر، ولوك يقف بجانب كارن.

كان هادلر ينظر مباشرة إلى غريتشن من وراء رأس زوجته، كانت تبادله النظر وعلى وجهها ذات الابتسامة الرقيقة الساحرة التي ابتسمَتْها لفولك قبل دقائق، عاد يتفحص صورة لوك مع ابن غريتشن الصغير، الفتى الذي كان -بشعره الأسود وعينيه البنيتين وأنفه الحاد- لا يشبه والدته على الإطلاق عندما كبر.

انتفض فولك عندما أتى صوت غريتشن من خلفه.

- لم يكن شيئًا طارئًا.

التفت فولك ناحيتها فابتسمت له. وضعت هاتفها على الطاولة وتناولت كأس النبيذ.

- أراد لاكي سماع صوتي فقط...

اختفت ابتسامتها تدريجيًّا لدى رؤيتها النظرة التي كست وجهه وكتيب الصور مفتوحًا بين يديه، نظرت إليه مجددًا وعلى وجهها تعبير غامض.

- هل جيري وبارب يعلمان؟

شعر فولك بحدة نبرته ولم يعجبه ذلك.

- هل كانت كارن تعلم؟

اتخذت وضعًا دفاعيًا ومعاديًا على الفور.

- لا يوجد شيء يجب أن يعلموا بشأنه.

- غريتشن...

- لقد أخبرتك، إن والد لاكي غير موجود، كان لوك مجرد صديق قديم لذا أتى لزيارتي، كان يأتي لقضاء بعض الوقت مع لاكي من حين إلى آخر، ماذا في ذلك؟ ما المشكلة في ذلك؟ كان بمنزلة نموذج ذكوري له، لا شيء أبعد من ذلك.

كانت غريتشن تهذي في حالة هياج، توقفت ثم أخذت نفسًا عميقًا. وجهت عينيها ناحية فولك.

- لوك ليس والده.

لم يزد فولك حرفًا.

- ليس هو.

- ما الاسم المسجل به لاكي في شهادة ميلاده؟

- إنه فارغ، كما أن ذلك ليس من شأنك.

- هل لديكِ صورة واحدة لوالد لاكي؟ صورة واحدة تريني إياها؟

كان الصمت هو الجواب الذي حصل عليه.

- هل لديكِ؟

- لستُ مضطرة إلى أن أريكَ أي شيء.

- لا بد أن الأمر كان صعبًا عليكِ، أن تري لوك مع كارن.

كان صوت فولك باردًا وبعيدًا، حتى إنه لم يستطع التعرف عليه.

- بحقك يا آرون، هو ليس والد لاكي.

تلون وجه ورقبة غريتشن باللون الأحمر، ارتشفت بعضًا من النبيذ. تكلمت بلهجة دفاعية.

- إننا لم ننم مع بعضنا منذ.. رباه، منذ سنوات عديدة.

- وما الذي حدث؟ لم يكن لوك يريد الزواج منك، ظل مترددًا حتى قابل كارن ثم...

- أجل، ثم ماذا؟

ضرب النبيذ جانب الكأس، كتمت دموعها وقد تبخرت كل الحميمية السابقة.

- حسنًا، لقد ضايقني الأمر عندما اختارها هي، أوجعني. جرح لوك مشاعري، لكن تلك هي الحياة، أليس كذلك؟ هذا هو الحب.

توقفت. عضت طرف لسانها بين أسنانها الأمامية.

- كنت أتساءل عن سبب عدم إعجابكِ بكارن، ولكن ذلك بالتأكيد سبب كاف للغاية، أليس كذلك؟

- ماذا في ذلك؟ لا ينبغي أن أصبح صديقتها المقربة...

- كانت تمتلك كل شيء أردتِه أنتِ؛ لوك، الأمان، المال، على الأقل ما كان موجودًا منه، كنتِ هنا بمفردك، تركك والد ابنك ومضى في حياته، وترك البلدة بأكملها، أم كان في حقيقة الأمر يتسكع هنا وهناك ويلعب دور الأب والزوج مع أناس آخرين؟

انفعلت غريتشن وقد هربت دموعها من محبسها الآن.

- كيف أمكنك أن تسألني سؤالًا كهذا؟ إذا كنت في علاقة غرامية مع لوك وهو رجل متزوج؟ إذا كان هو والد ابني؟

أخذ فولك يحدق إليها، لطالما كانت الأجمل، تقترب من الملائكية. ثم قفزت في رأسه صورة البقعة الموجودة في غرفة بيلي هادلر، تذكر غريتشن وهي تمسك ببندقيتها وتصطاد بها تلك الأرانب.

- أنا أسأل لأنني يجب أن أسأل.

- يا إلهي، ما خطبك؟

تجهم وجهها وتصبغت أسنانها بلون النبيذ.

- هل تغار؟ لأنني ذات يوم اخترت لوك واختارني؟ أظن أن ذلك أحد أسباب وجودك هنا الآن، أليس كذلك؟ فكرت أنك ربما تتمكن أخيرًا من الحصول على شيء كان للوك بما أنه الآن قد رحل؟

- لا تكوني غبية.

- أأنا الغبية؟ يا إلهي، انظر إلى نفسك.

كان صوتها أعلى الآن.

- كنت تتبعه دومًا في صغرنا أينما ذهب كحيوان أليف. والآن، حتى الآن، تدور في بلدة تكرهها من أجله، إنك مثير للشفقة، ما الشيء الذي جعله يتحكم بك هكذا؟ الأمر كأنك مهووس به.

شعر فولك أن عيني صديقه الميت كانتا تراقبانهما من كتيب الصور.

- بحق السماء يا غريتشن، إنني هنا لأن ثلاثة أشخاص راحوا ضحية جريمة قتل، حسنًا؟ لذلك فإنني أتمنى من أجل مصلحة ابنك ألا يكون كذبك بشأن علاقتك مع لوك هو أسوأ شيء ارتكبته في حق تلك العائلة.

اندفعت ناحيته وضربت كأس النبيذ الخاص به من على الطاولة في طريقها فترك النبيذ بقعة كالدم على السجادة، فتحت الباب الأمامي على مصراعيه فهبت ريح ساخنة محملة ببعض أوراق الشجر.

- اخرج من بيتي.

كانت عيناها متورمتين، ووجهها محتقنًا بحمرة بشعة، أخذت نفسًا وهي عند الباب كأنها كانت على وشك أن تقول شيئًا إضافيًا لكنها توقفت. تحول فمها إلى ابتسامة صغيرة باردة.

- انتظر يا آرون، قبل أن تفعل أي شيء متهور.. لدي شيء أخبرك به.

كانت تهمس تقريبًا وهي تقول.

- أنا أعرف.

- تعرفين ماذا؟

مالت نحوه حتى كادت شفتاها تلاصق أذنه، تمكن من أن يشم رائحة النبيذ في أنفاسها.

- أعرف أن حجتك يوم ماتت إيلي كانت كذبة ملفقة، لأنني أعلم أين كان لوك حينها، وهو لم يكن معك.

- غريتشن، انتظري...

صفعته على وجهه.

- يبدو أن جميعنا لديه أسراره يا آرون.

صفعت الباب في وجهه.

الفصل الرابع والثلاثون

مشى فولك طويلًا في طريق عودته إلى البلدة، كان يشعر مع كل خطوة يخطوها كالشظية التي يرتد ألمها من أخمص قدميه حتى رأسه الثقيل، تطن الأفكار في رأسه كالذباب، أعاد شريط محادثاته مع غريتشن وراجع كل كلمة بدقة صارمة بحثًا عن أية سقطات، اتصل بـريكو ولم يجب، ربما لا يزال غاضبًا منه، ترك له رسالة يطلب منه أن يعيد الاتصال به.

عندما وصل إلى الحانة أخيرًا كانت توشك على الغلق، كان سكوت ويتلام واقفًا أمام الحانة يرتدي خوذته، بدا جُرح أنفه في حال أفضل مما كان عليه في الليلة الماضية، نظر إلى وجه فولك نظرة سريعة ثم توقف.

- هل أنت على ما يرام يا صديقي؟

- ليلة صعبة.

- هذا واضح.

خلع ويتلام خوذته.

- هيا، سأدعوك على مشروب سريع.

لم يكن فولك يريد أي شيء إلا أن يتسلق السلالم كي يصل إلى سريره، لكن لم تكن لديه القدرة على الجدال فتبع ويتلام نحو الداخل، كانت الحانة فارغة تقريبًا وماكمردو ينظف الطاولة، توقف عن عمله لدى رؤيتهما وجهز كأسَي بيرة قبل أن يطلبا منه. وضع ويتلام خوذته على الطاولة.

- هذه عندي، أضفهم إلى حسابي يا صديقي.

تجهم وجه ماكمردو.

- لا يوجد حساب.

- بحقك، لمشروب عادي؟

- لا تجعلني أقولها مرة أخرى يا صديقي.

- حسنًا، لا بأس.

أخرج ويتلام محفظته وأخذ يتفحصها.

- إنني ربما... أظن أنني سأدفع بالبطاقة.

- سأدفع أنا.

قاطعه فولك ووضع ورقة من فئة العشرين دولارًا على الطاولة، وهو يمتص احتجاجات ويتلام.

- لا بأس، لا عليك. نخبك.

تجرع فولك جرعة ضخمة، كلما ثمل أسرع ستنقضي ليلته سريعًا.

- ماذا حدث إذن؟

- لا شيء، إنني فقط سئمت حتى الموت من هذا المكان.

«*لقد جرحني الأمر، جرح لوك مشاعري*».

- هل هناك أي جديد؟

فكر فولك للحظة طويلة أن يخبره، توقف ماكمردو عن التنظيف وأخذ يتابع محادثتهما من وراء الطاولة حتى هز كتفيه في النهاية في غير اهتمام.

- سأصبح بخير إذا غادرت هذا المكان فقط.

أيًا كان ما حدث فكان يجب عليه أن يرجع إلى ملبورن يوم الاثنين، وربما أبكر من ذلك إذا أصر ريكو على رحيله.

أومأ ويتلام متفهمًا.

- هذا من حسن حظك، على الرغم من أن...

رفع يدًا، وتقاطع إصبعاه متمنيًا حظًا طيبًا.

- ربما ألحق بك أقرب مما ظننت.

- هل تفكر في مغادرة كيوارا.

- آمل ذلك، لا بد أن أفعل شيئًا ما من أجل ساندرا، لقد فقدت قدرتها على الاحتمال، لقد كنت أبحث عن مكان جديد، مدرسة في الشمال ربما، قليل من التغيير.

- إن الطقس أشد حرًّا في الشمال.

- على الأقل تسقط الأمطار هناك، إن ما يصيب جميع من في البلدة بالجنون هو انعدام الماء.

- سأشرب نخب ذلك.

قال فولك وهو يتجرع كأسه كاملة، شعر برأسه ثقيلًا تحت وطأة النبيذ والبيرة والانفعال. فَهِمَ ويتلام ما يرمي إليه وفعل نفس الشيء.

- حسنًا إذن، من الأفضل أن أذهب الآن. لديَّ مدرسة في صباح الغد على أي حال.

مد ويتلام يده.

- آمل أن أراك قبل أن تغادر، ولكن إذا لم يحدث، فإنني أتمنى لك حظًّا طيبًا.

صافح فولك يده.

- شكرًا لك، وحظًّا طيبًا لك أيضًا في الشمال.

غادر ويتلام ملوحًا بيده بابتسامة، وأعطى فولك الكؤوس الفارغة لماكمردو.

- هل صحيح ما سمعته بأنك ستغادر قريبًا؟

- على الأغلب.

- حسنًا، صدق أو لا تصدق، ولكنني سأحزن لذهابك، إنك الشخص الوحيد الذي يدفع لي دومًا، بمناسبة ذلك...

فتح درج النقود وأعطى لفولك ورقة العشرين دولارًا خاصته.

- إنني أضيف المشروبات إلى حساب غرفتك، فكرت إنه سيكون من السهل إضافتها إلى الحساب كله أو أيًّا كان ما تفعلونه أيها الشرطيون.

أخذ فولك الورقة متفاجئًا.

- أوه، حسنًا.. شكرًا، ظننت أنه لا يوجد حساب.

- لقد قلتُ ذلك لويتلام فقط.

عبس فولك.

- ولكن ماذا بشأن ويتلام؟ لا بد أنك تعرفه جيدًا بما يكفي.

ضحك ماكمردو ضحكة ساخرة.

- أوه أجل، إنني أعرفه جيدًا بما يكفي؛ لهذا السبب أعرف جيدًا أين يضع أمواله.

أشار برأسه إلى ماكينة القمار في الغرفة الخلفية.

- هل يلعب ويتلام القمار؟

أومأ ماكمردو مؤكدًا.

- والبقية؛ الأحصنة، الكلاب. من هنا يتابع قنوات السباقات ومن هنا يُبقي عينيه على تلك التطبيقات على هاتفه بلا انقطاع.

- إنك تمزح!

كان فولك مندهشًا، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن متفاجئًا، خطرت على باله الكتب الرياضية التي رآها في منزل ويتلام، لقد قابل الكثير من لاعبي القمار في عمله، ليس هناك نوع محدد منهم، الشيء الوحيد المشترك بينهم هو التيه والبؤس.

- إنه بارع فيه، ولكن يمكنك رؤية أشكال وألوان من الأشياء من خلف هذا البار، خاصة عندما يأتي الأمر إلى دفع ثمن المشروبات. إنني أظن أنه ليس مغرمًا كثيرًا بالقمار في الواقع.

- حقًّا؟!

- نعم، إنني أحس أنه مجرد تسلية بالنسبة إليه، ولكن ذلك لا يمنعه من بذل كل ما يملك في كل ليلة يقضيها هنا، ذلك ما كان يفعله عندما يُضرب عن طريق الخطأ في تلك الليلة التي تشاجر فيها جرانت وجايمي.

- هل أنت جاد؟

- على أي حال، لا ينبغي أن أخوض في أمور لا تعنيني، ليس هناك شيء ضد القانون في أن يضيع المرء ماله هنا وهناك، حمدًا لله، وإلا لم أكن لأتدخل.

- هذا ما سيفعله الكثير من الناس.

قال فولك مبتسمًا.

- إن أولئك المقامرين جميعهم حمقى مع ذلك؛ يبحثون دائمًا عن استراتيجيات للعب وثغرات، وفي نهاية اليوم لا يفلح إلا من فاز بالحصان الرابح.

* * * *

لم يسبق وأن كانت غرفة فولك كالزنزانة بهذا الشكل، نظَّف أسنانه دون حتى أن يشعل الضوء ثم ارتمى على سريره، غلب إرهاقه الشديد رأسه المزدحم، كان النوم وشيكًا.

أتى صوت علبة صفيح تتدحرج على طول الشارع بالخارج، كان صوت خشخشتها المعدني يثير الأعصاب، ذكّر الصوت فولك خلال نعاسه بالصوت الذي تصدره ماكينة القمار، أغمض عينيه، كان ماكمردو محقًّا بشأن القمار، في مثل هذا الوضع، أحيانًا لا تفلح جميع استراتيجيات الأرض.

«*لا يفلح إلا من فاز بالحصان الرابح*».

تحرك ترس بعيد في عقل فولك، كان ترسًا قديمًا متأصلًا في عقله لذلك استغرق وقتًا، ترسخ وتجذر بعمق، دار دورة واحدة مفاجئة في عقله ثم توقف واستقر.

فتح فولك عينيه ببطء، كان الظلام حالكًا لا يمكن رؤية شيء من خلاله، ولكنه ظل يحدق في ذلك السواد غارقًا في التفكير.

تخيل كيوارا في صورة ثلاثية الأبعاد، وتخيل نفسه وهو يتسلق، إلى المرصد ربما، ويتضاءل أسفله كلما يزداد ارتفاعًا، نظر إلى الأسفل عندما بلغ القمة، ألقى نظرة على المدينة بأكملها، الجفاف، عائلة هادلر. مدركًا للمرة الأولى كيف تبدو الأشياء من منظور مختلف تمامًا.

فكر فولك في ذلك بعينين مفتوحتين ظلتا تحدقان إلى الفراغ لدقائق طويلة، كان يجرب الترس في موضعه الجديد، في النهاية نهض واستعاد كامل وعيه الآن، ارتدى قميصًا وأدخل قدميه في حذائه سريعًا، التقط كشافًا وجريدة قديمة ونزل على السلالم متجهًا إلى موقف السيارات.

كانت سيارته تمامًا حيث تركها، رائحة القذارة التي غزت أنفه أدمعت عينيه لكنه لم يهتم لذلك كثيرًا، أزال غطاء السيارة واستخدم الجريدة كبديل للقفازات وفتح صندوق السيارة، كانت مفصولة عن باقي السيارة بواسطة المقاعد الخلفية التي حمتها من بطش عاصفة الغائط.

أضاء الكشاف ووجَّهه ناحية الصندوق الفارغ، ظل واقفًا هكذا لوقت طويل، ثم أخرج هاتفه والتقط صورة.

عندما عاد إلى غرفته، استغرق النوم وقتًا طويلًا حتى حضر مجددًا. استيقظ مع بزوغ الفجر وارتدى ملابسه مبكرًا وظل منتظرًا بنفاد صبر، في اللحظة التي دقت فيها الساعة التاسعة، التقط هاتفه وأجرى مكالمة واحدة.

* * * *

كانت يدا لوك هادلر تنزان عرقًا على عجلة القيادة، مكيف الهواء مفتوحٌ على أعلى درجة لكنه لم يؤثر في الحرارة بأي شكل منذ غادر منزل جايمي ساليڤان، كان حلقه جافًّا وتمنى لو أن لديه زجاجة مياه في ذلك الوقت، تلهّى في التركيز على الطريق أمامه، كان البيت قريبًا. فقط عليه أن يصل إلى هناك.

كاد أن يقطع المسافة الأخيرة قبل أن يرى شخصًا ما أمامه مباشرة، كان يقف في الطريق وحده، ويلوح بيده.

الفصل الخامس والثلاثون

دخل فولك قسم الشرطة مُحدِثًا جلبة وهو يلهث، كان قد أنهى مكالمته وجاء جريًا من الحانة إلى القسم.

- لقد كنا نطارد خيط دخان.

نظر إليه ريكو من وراء مكتبه، كانت عيناه حمراوين كالدم ولا يزال النعاس في زوايا إحداهما.

- ماذا؟

- الأمر برمته يا صديقي، ليس للوك أي علاقة بالأمر على الإطلاق.

* * * *

- رائع.

همهم لوك وهو يقترب منه، ازداد إحباطه عندما تمكن من التعرف على الشخص الذي كان يلوح له، تساءل للحظة إذا كان بإمكانه أن يتابع طريقه لكن القيظ كان على أشده، قدر أن درجة الحرارة تقترب من الأربعين.

تردد للحظة أخرى ومن ثم ضغط على الفرامل وأوقف شاحنته. أنزل زجاج نافذته وأخرج رأسه.

* * * *

فتح فولك ملف قضية هادلر بأصابع مرتعشة، كان متحمسًا ومنفعلًا في نفس الوقت.

- لقد قيدنا أنفسنا بالبحث عن أشياء متصلة بـلوك؛ ما الذي يخفيه؟ مَن أراد قتله؟ وما الذي توصلنا إليه في النهاية؟ لا شيء. حسنًا، لا شيء

ذو فائدة حقيقية، فقط الكثير من الدوافع الواهية، ولكنها ليست كافية، لقد كنت محقًا.

- حقًا؟

- لقد كانت نظرتي محدودة بالفعل، كلانا كنا كذلك، لقد كنا نمتطي الحصان الخاطئ طوال الوقت.

* * * *

أخرج لوك رأسه من النافذة وأومأ ناحية الشيء الموجود بجانب قدم الرجل.

- يبدو أن لديك بعض المشكلات هنا؟

- شكرًا لك، أظن ذلك. هل لديك أية أدوات في الشاحنة؟

أوقف لوك المحرك وترجل من الشاحنة، انحنى للأسفل ليلقي نظرة من قرب.

- ماذا حدث؟

كانت تلك آخر كلمات نطقها لوك هادلر قبل أن يهبط شيءٌ ثقيلٌ على مؤخرة جمجمته مهشمًا إياها، تبع ذلك صوت ارتطام مكتوم وصمت مخيف حيث صمتت كل الطيور الموجودة على الأشجار تحت وطأة الصدمة.

بأنفاس متهدجة بينما انتصب واقفًا بجانب جسد لوك هادلر المنهار على الأرض، كان سكوت ويتلام ينظر إلى ما فعله.

* * * *

فتش فولك خلال الملف وأخرج نسخة من فاتورة المكتبة الخاصة بـكارن هادلر، كلمة جرانت.. كانت مكتوبة فوق رقم هاتف فولك الشخصي، وضع الصفحة على مكتب ريكو ودفعها إليه وثبتها بإصبعه.

- جرانت هذا ليس اسمًا بحق الجحيم.

* * * *

أغلقت كارن باب مكتب مدير المدرسة من خلفها لتحجب الأصوات اليومية الصاخبة في زحام يوم الأربعاء، كانت ترتدي فستانًا باللون الأحمر مطبوع

عليه تفاح أبيض، وكان القلق باديًا عليها، اختارت أن تجلس على المقعد الأقرب إلى مكتب سكوت ويتلام، جلست بظهر مستقيم وتقاطعت قدماها عند الكاحل بأناقة ثم بدأت حديثها.

- سكوت، لم أكن متأكدة بشأن مجيئي للتحدث إليك عن هذا، لكن هناك مشكلة، ولا يمكنني أن أتظاهر بعدم رؤيتها.

اقتربت متوخية الحذر، ومحرجة أيضًا، وأعطته ورقة ما، أعلى الخطاب كان شعار جمعية كروسلي التعليمية يبرز من الخلفية البيضاء، ظهرت عينا كارن من وراء غرتها الشقراء، كانت تبحث عن شيء واحد فقط، الطمأنينة.

في أبعد نقطة من خاصية الكر والفر في دماغ سكوت ويتلام، كان هناك باب خفي موارب بعض الشيء بما يكفي لعرض لمحة بسيطة عن إلى أي حد يمكنه أن يصل لكي يوقفها.

* * * *

- جرانت.

قال فولك وهو يشير إلى دفتر المذكرات.

- تعني أيضًا منحة، تمويل، إعانة، منحة مالية، كتلك التي قدمت فيها مدرسة كيوارا الابتدائية مع جمعية كروسلي التعليمية السنة الماضية، ورُفض طلبهم. وخَمِّن ماذا حدث في حقيقة الأمر؟

طرفت عينا ريكو في غير تصديق.

- لا بد وأنك تمزح.

- لست أمزح، لقد أجريت مكالمة هاتفية صباح اليوم مع مدير الجمعية، وقد حصلت مدرسة كيوارا الابتدائية على المنحة المالية هذا العام التي تقدر بخمسين ألف دولار.

* * * *

أدرك ويتلام بعد فوات الأوان اللحظة الفعلية لوقوع الكارثة، أخذ الورقة ونظر إلى الشعار الذي يكشف خديعته وتفحصه، كانت استبانة أُرسِلت بصفة روتينية للجهات التي نجحت في الحصول على المنحة لجمع الآراء بشأن مصداقية الجمعية.

كانت تلك الورقة مجرد عينة، مما يعني أن هناك المزيد من المستندات على الأغلب، هكذا خمن، أشياء أخرى فضَّلت إخفاءها. أعطته كارن الفرصة لكي يفسر أو يعترف، أدرك ويتلام ذلك من نظراتها إليه بتلك العينين الزرقاوين التي ترجوه ليعطيها إجابة منطقية.

كان يجب أن يقول: «أجل، هذا غريب، سأنظر في الأمر. ربما يكون الحظ قد حالفنا أخيرًا»، رباه، كان يجب عليه أن يشكرها. هذا ما كان يجب عليه فعله، لكنه ارتعب بدلًا من ذلك، لم يأخذ وقتًا لقراءة الخطاب قبل أن يغض الطرف عنه.

لم تكن قط لعبة من السهل له كسبها، ولكنها كانت كذلك في تلك اللحظة التي ضيعها، حدجته بنظرات خبيثة، انتهت اللعبة وعليك أن تحسم موقفك أيها الخاسر.

- لن يكون في الأمر شيء.

قال ويتلام مسددًا ضربته القاضية بتلك الكلمات.

- مجرد خطأ، لا تكترثي به.

ولكن كان هو مَن أخطأ، أدرك من الطريقة التي تصلب بها ظهرها وعيناها التي نظرتا إلى الأسفل وهي تبعد نفسها، إذا كانت لا تعلم علم اليقين لدى دخولها الغرفة، فإنها قد تيقنت لدى خروجها.

لقد ودَّعته كارن هادلر وداعًا جافًا كجفاف حقول كيوارا.

* * * *

- سكوت ويتلام، اللعنة.. اللعنة، أيُعقل ذلك؟

- أجل يُعقل، إنه متورط في القمار، عرفت ذلك ليلة أمس.

أخبره فولك بما قاله ماكمردو.

- كان ذلك طرف الخيط الذي قادني؛ شيء قاله ماكمردو جعلني أدرك أننا كنا ننظر في الاتجاه الخاطئ طوال الوقت.

- ما الذي لدينا هنا إذن؟ سرقة أموال المدرسة من أجل ماذا؟ ديون لعينة؟

- يمكن أن يكون سببًا كافيًا، لقد جاء ويتلام العام الماضي من المدينة، ليس له أي صلة بالمكان، وظل هنا بالرغم من أنه يكرهه علنًا، لقد

أخبرني شيئًا عن عملية سطو تعرض لها في ملبورن، وأصيب أحدهم بطعنة سكين، لن أتفاجأ إذا كان هناك المزيد وراء ذلك الأمر غير ما قاله.

ساد الصمت للحظات.

يا إلهي، كارن المسكينة.

- إننا حمقى، لقد تهاونًا بها سريعًا جدًا.. هي وبيلي، ظننا أنهما مجرد أثر جانبي وكان دور البطولة من نصيب لوك دائمًا، دائمًا كان محط الانتباه، حتى منذ كنا أطفالًا، كان الغلاف الأمثل. كيف يمكن لأي شيء أن يدور حول زوجته المملة عندما يُذكر اسم لوك هادلر في الأمر؟

- يا إلهي!

أغمض ريكو عينيه يتخيل شريط أحداث القضية كما يعرفونها. أخذ ينفض رأسه بينما تتضح الصورة في عقله.

- لم تكن كارن تتعرض للمطاردة من قبل جرانت دو، ولم تكن خائفة من زوجها.

- لو كان هناك أي شيء، ربما كان لوك قلقًا مما كانت تظن أنها كشفته في المدرسة.

- أتظن أنها أخبرته؟

- أعتقد من المؤكد أنها فعلت، لماذا كان رقمي لديها إذن؟

* * * *

توجهت كارن إلى حمام السيدات مباشرة بعد خروجها من مكتب ويتلام، أغلقت على نفسها إحدى الكبائن وأسندت مقدمة رأسها إلى الباب قبل أن تنفلت دموع الغضب من مقلتيها، كان لديها بصيص أمل إلى أن اجتمعت به، كانت تريد أن ينظر ويتلام إلى الخطاب ويضحك قائلًا: «إنني أفهم ما حدث»، قبل أن يفسر الأمر بطريقة في غاية الإقناع.

كانت ترجوه أن يفعل ذلك، ولكنه لم يفعل. مسحت كارن دموعها بيد مرتعشة، والآن ماذا؟ كان جزءٌ منها لا يزال غير قادر أن يصدق أن ويتلام سرق ذلك المال حتى بعدما أصبحت متأكدة من صحة الأمر الآن، وقد كانت تعرف من قبل، إذ صارحت نفسها إن الأخطاء التي طفت على السطح كانت

أخطاءه هو وليست أخطاءها، كشفت الآثار الصغيرة التي تركها خلف خدعته وسرقته، حاولت أن تنطق الكلمة لكنها كانت في غاية الصعوبة.

كانت كارن تؤمن بأن الشك واليقين ليسا سيان، على عكس زوجها الذي يرى الحياة إما أبيض وإما أسود فقط لا غير.

- يا حبيبتي، إذا كنتِ تظنين أن ذلك الوغد سرق المال إذن اتصلي بالشرطة وأبلغي عنه، سأبلغ عنه إذا لم تفعلي أنت.

قال لوك ذلك قبل يومين.

كانت كارن جالسة على السرير وتحمل كتابًا جديدًا من المكتبة مفتوحًا على حجرها، لم تكن قد قرأت الكثير منه، كانت تنظر إلى زوجها وهو يخلع ملابسه ويلقيها إلى كومة من الملابس على كرسي، وقف عاريًا في الغرفة وقوس ظهره العريض وهو يتثاءب. ابتسم لها ابتسامة ناعسة بينما فتنها كم بدا جذابًا تحت الأضواء الخافتة، كانا يتهامسان كيلا يصل الصوت إلى غرفة الأولاد.

- لا يا لوك، لا تتدخل أرجوك، يمكنني الاعتناء بالأمر بنفسي، ولكنني أريد أن أتأكد قبل أن أُبلغ عنه.

كان جزء منها يعلم أنها تبالغ في الحذر، ولكن مدير المدرسة كان جزءًا من حجر أساس المجتمع، كانت كارن قادرة على تخيل ردود فعل الآباء، إن أعصابهم مشحونة بالفعل وكانت كارن قلقة من احتمال أن يقدموا على إيذائه، لم تستطع أن تطرح مجالًا لذلك دون دليل قاطع، فقد كانت كيوارا متوترة الأوضاع بما يكفي، لا بد أن يتم ذلك بطريقة صحيحة، كما أنها كانت تحتاج أن تضمن الحفاظ على وظيفتها التي كانت ستخسرها في لمح البصر إذا كانت مخطئة.

- يجب أن أتكلم مع سكوت أولًا.

قالت كارن إذ صعد زوجها على السرير بجانبها ووضع يدًا دافئة على فخذها.

- لأعطيه فرصة لتوضيح الأمر.

- تقصدين تعطينه فرصة لكي يخفي الأمر. كارن، عزيزتي، دعي الشرطة تتولى الأمر.

التزمت الصمت دلالة على أنها لا تتفق معه، فزفر لوك.

- كما تشائين، إذا كنتِ لن تبلغي عنه فعلى الأقل اطلبي المساعدة في الحصول على ذاك الدليل الذي تظنين أنك بحاجة إليه.

التفت لوك والتقط هاتفه، أخذ يتصفح باحثًا حتى وجد اسمًا في جهات الاتصال ثم مرر الهاتف إلى كارن.

- اتصلي بهذا الرجل، إنه شرطي صديق لي ويعمل محققًا فيدراليًا مختصًا في الأمور المالية في ملبورن، إنه رجل جيد، وذكي حقًا. كما أنه مدين لي بمعروف، يمكنك الوثوق به سوف يساعدك.

لم تنبس كارن ببنت شفة، لقد قالت للوك أنها ستحل الأمر، وستفعل، ولكن الوقت كان متأخرًا ومن الأسهل تجنب الجدال. التقطت قلمًا وجدته بين الفوضى على الكومودينو وأول قطعة ورق قابلتها يدها، كانت فاتورة المكتبة التي تستخدمها كمؤشر لصفحات الكتاب، قلبت الورقة وكتبت كلمة واحدة كدلالة لتذكيرها قبل أن تنسخ رقم آرون فولك؛ ولأن زوجها كان لا يزال يراقبها، دستْ بعد ذلك الورقة بعناية في الكتاب الذي كانت تقرؤه ووضعته بجانب السرير.

- حتى لا تضيع.

قالت وهي تطفئ الضوء وتستلقي بظهرها على الوسادة.

- اتصلي به.

أكد لوك وهو يقترب ويحيط زوجته بذراعيه في هدوء الليل.

- سيعرف آرون ما يجب فعله.

الفصل السادس والثلاثون

بعد مرور ساعة ونصف، جلس فولك وريكو في المقعد الأمامي لسيارة عادية خاصة بقسم الشرطة يراقبان المدرسة، موقعهما المتميز فوق التلة أتاح لهما رؤية شاملة للمبنى الرئيسي وساحة اللعب الأمامية.

فُتح باب السيارة الخلفي وركب الضابط بارنز، مال بجسده خلال الفتحة بين الكرسيين الأماميين ومد راحة يده يعرض بفخر طلقتين جديدتين من ذخائر الريمنغتون.

التقط ريكو الطلقات وأخذ يتفحصها جيدًا، أومأ مؤكدًا. لقد كانت الطلقات من النوع نفسه الذي وُجد في جثة لوك وكارن وبيلي هادلر، ربما سيتمكن الطب الشرعي من مطابقتها أكثر، ولكنها كانت متطابقة بما يكفي من الآن.

- لقد كانت مخبَّأة في كوخ أمين المدرسة، كما قلت.

كان بارنز يقفز تقريبًا على كرسيه.

- هل توجد أية صعوبات في الدخول؟

حاول بارنز أن يبدو متواضعًا لكنه لم يفلح.

- لقد ذهبت إلى أمين المدرسة مباشرة واستخدمت الحيلة القديمة «تفتيش روتيني»، التراخيص وهراء عن الأمان والسلامة، فأدخلني على الفور.. سهل للغاية. تمكنت من العثور على الكثير من الأشياء المخالفة ستجعله يُبقي الأمر سرًا، أخبرته أنني سأتغاضى عن الأمر إذا حلَّ كل شيء قبل زيارتي القادمة، لن يخبر أي أحد.

- أحسنت عملًا، ما دام أنه لن يخبر ويتلام خلال الساعات القليلة القادمة فنحن بأمان، سيصل الدعم من كلايد في غضون أربعين دقيقة.

- إنني لا أفهم لماذا لا نقتحم المكان ونقبض على ذلك الوغد.

دمدم بارنز من مقعده الخلفي.

- لم تقم شرطة كلايد بأي شيء لتستحق ذلك الشرف.

نظر ريكو إليه.

- سنحصل على الشرف حيثما يجب علينا أن نفعل يا صديقي، لا تقلق. إنهم لن يحصلوا على الكثير من التقدير لتأمين منزله ومصادرة أوراقه البنكية.

- أتمنى أن يسرعوا إذن.

- أجل، أنا أيضًا.

قال فولك.

عاد ثلاثتهم يراقبون المبنى من بعيد، رن الجرس معلنًا انتهاء اليوم الدراسي، توافد جمع من الأطفال خارجًا في مجموعات يهرولون حول بعضهم بعضًا وقد تجدد نشاطهم باستعادة حريتهم المؤقتة. تمكن فولك من ملاحظة شخص ما يقف خلفهم مستندًا إلى المدخل الرئيسي، كان مرتديًا قبعة وممسكًا بفنجان قهوة في يده ولمح ربطة عنق حمراء على قميصه، إنه سكوت ويتلام. شعر فولك ببارنز وهو يتقلب خلفه.

- خمسون ألفًا، إنه لمبلغ وضيع لتقتل ثلاثة أشخاص من أجله.

- إن الأمر لا يتعلق بالمال وحده كما تعتقد، إن المقامرين مثله دائمًا ما يسعون خلف شيء آخر، إنهم يرون كل دورة لزهر النرد هي فرصة أخرى. السؤال هو، ما الذي كان ويتلام يسعى خلفه؟

- لا تُهِم ماهيته، فلن يبرر ما حدث.

- كلا، هذا هو المال بالنسبة إليك، إنه من الممكن أن يصبح ملعونًا ومثيرًا للاشمئزاز.

وقف ويتلام في مدخل المدرسة يقلب كوب قهوته بين يديه، كانت الرياح تهب مجددًا، يشعر بالغبار الممتزج بالعرق على جلده، والأولاد يصيحون ويجرون في ساحة اللعب أمام ناظريه، فتساءل لو يمكنه أن يبدأ بأخذ راحته

مجددًا، سيرحل فولك في غضون يومين، وربما أبكر مع بعض الحظ، قرر أنه سوف يتنفس حينها، ليس قبل ذلك.

خلال شهور أخرى قليلة، سيُبقي رأسه منخفضًا حتى يسنح له الحظ ويتمكن من الهرب إلى وظيفة الشمال تلك، كان جزء منه غير قادر على أن يصدق أنه وصل إلى تلك النقطة، كاد يصاب بأزمة قلبية عندما ذكر ريكو أن لديهم تسجيلات كاميرات المراقبة من مزرعة عائلة هادلر، لم تكن لديه أي فكرة عن الكاميرا الموجودة بالمزرعة، وقد جلس غارقًا في عرقه البارد بين الشرطيين يستوعب كيف أن كَشفَ أمره كان وشيكًا للغاية.

كان لا بد له من الابتعاد عن هنا، يجب عليه أن يقنع ساندرا كي تمنحه فرصة أخيرة، بداية جديدة مرة أخرى وسوف يتوقف عن لعب القمار هذه المرة، لقد وعدها. قال لها تلك الكلمات ليلة البارحة وشعر لأول مرة من خلال دموعه أنه كان يعني ما قاله، وهي تتابع في صمت. لقد سمعت تلك الكلمات من قبل، تحديدًا قبل انتقالهم إلى كيوارا، وعلى الأقل لمرتين قبل ذلك، لكن كان عليه هذه المرة أن يجعلها تصدقه، يقول في نفسه أن يجب أن يفعلها هذه المرة، يجب أن يتوقف؛ لأن هذه المرة كان هناك الكثير مما لا يطيق تحمل خسارته.

مجرد التفكير في ذلك أصاب معدته بالاضطراب، كانت ساندرا في غاية القلق، ومع ذلك لم تكن لديها أي فكرة عن حجم الكارثة التي نزلت بهما حقًا، تظن أن أسوأ كوابيسها أن يكونا مديونين للبنك، وشعورها السري بالخزي لاضطرارها لشراء البقالة الأسبوعية بالبطاقات الائتمانية، وأنها مضطرة إلى الحفاظ على المظاهر المتخفية وراء قشرة لامعة من المنازل المستأجرة، وماكينات القهوة التي اشتروها بنظام التقسيط. تعرف أن المشكلات لا تزال موجودة، ولكن لم تعرف أنها كانت تكبر، لم تكن تعلم بشأن تلال الديون التي امتدت من هنا إلى ملبورن، أو المصائب التي تنتظرها هي وابنتها في نهاية المطاف لو لم يسددها.

كان ويتلام مبتسمًا تقريبًا، ابتسامة خبيثة مجنونة لأنه فكر في إخبارها بالحقيقة، فسيكون المسدس الكاتم للصوت كافيًا لكي تتبعه عدوًا إلى الشمال.

لقد أرسلوا خبرًا إلى منزله، هنا في كيوارا، فقد جاء رجلان منتفخي العنق من كثرة المنشطات من ملبورن رأسًا إلى باب منزله الراقي لإخباره أن صبر رئيسهم أوشك على النفاد. ادفع، وقد أحضرا المسدس بصحبتهما للتأكيد، شُل ويتلام تحت وطأة الخوف، كانت ساندرا ودانيللا موجودتين بالمنزل، بإمكانه سماع صوتهما تتحادثان في المطبخ بتكاسل، بينما كان الرجلان يتناقشان بصوت خفيض عما سيفعلانه معهما إذا لم يُخرج النقود، كان سماع ذلك النقاش كالجحيم.

لقد وصل إخطار التمويل من جمعية كروسلي التعليمية منذ يومين، كان الخطاب موجهًا إلى ويتلام مباشرة، وصل يوم عطلة كارن، ووُضع على مكتبه مغلقًا.

اتخذ ويتلام قراره في جزء من الثانية، إنهم يعطون الملايين، ستكون الخمسون ألفًا خاصته كنقطة ماء في المحيط بالنسبة إلى أولئك الأثرياء الأوغاد، بإمكانه أن يخصصها لشيء غير واضح وخادع بحيث لا يظهر حجم المال، كالدورات التدريبية على سبيل المثال، أو برامج التأهيل، سيجعله ذلك يبدو أنه قد اعتنى بكل شيء، لبعض الوقت. وقد كان ذلك هو كل ما يحتاجه، القليل من الوقت، لأستعيره الآن وأسدد ديني يا ملبورن، ومن ثم أعيده، حسنًا، في وقت لاحق، بطريقة ما. لم يكن المبلغ كافيًا لسداد دينه كاملًا، ولكنه سيكفي لإبعاد قبضتهم عن خناقه.

لم يمعن التفكير في الأمر كثيرًا وهو يُحوِّل المال، بدَّل فقط بيانات حساب المدرسة البنكي ببيانات حسابه الشخصي. الحساب الذي لا تدري ساندرا عنه شيئًا، أبقى اسم حساب المدرسة على الأوراق، فالبنوك تتعامل فقط مع الأرقام وليس الأسماء، كان يعرف هذا حتى لو لم يكن اسم الحساب يتطابق مع رقم الحساب. قال في نفسه أن الخطة لا بأس بها، لم تكن عبقرية، ليست جيدة حتى، ولكنها مؤمَّنة، حتى طرقت كارن هادلر باب مكتبه فيما بعد وهي تحمل في يديها تلك الورقة من جمعية كروسلي.

تذكر ويتلام النظرة التي كانت في عينيها، فتكورت قبضته وأخذ يضرب الحائط المجاور له مباشرة وبهدوء، حتى بدأت مفاصل أصابعه تنز دمًا.

* * * *

تابع ويتلام كارن وهي تغادر، بمجرد أن سحبت الباب من خلفها، استدار بكرسيه وأخذ يتقيأ في صمت في سلة المهملات، لا يمكنه أن يُسجن، لن يتمكن من سداد ديونه وهو في السجن كما أن الناس الذين أقرضوه ليسوا باللطف الكافي ليتفهموا السبب، إما يدفع وإما تدفع عائلته، هكذا كان الاتفاق موقعًا ومختومًا. لقد جعلوه يرى المسدس ذا كاتم الصوت، بل ويلمسه ويشعر بوزنه الثقيل بين يديه. إما يدفع وإما... كلا، لا يوجد بدائل، لا بد أن يدفع، بالطبع كان سيدفع.

ظل جالسًا في المكتب بمفرده وأجبر نفسه على التفكير، كارن عرفت، وذلك يعني أنها من المحتمل أن تخبر زوجها، هذا إن لم تكن قد أخبرته بالفعل، كم تحتاج من الوقت لتفجر القنبلة؟ لقد كانت امرأة حذرة، عنيدة ومثابرة في كل شيء تقريبًا، ذلك ما كان يؤخرها. إن كارن هادلر ستريد أن تكون متأكدة مئة بالمئة قبل أن تقحم نفسها في أي خطوة تتخذها، رغم أن لوك كان على العكس تمامًا.

لم يكن يملك متسعًا من الوقت، لا يمكنه أن يسمح بأن يُكشف أمره، لا يمكنه أن يسمح لهذا الأمر أن ينكشف، لم يكن يملك خيارًا.

بدأ اليوم الدراسي وانتهى ولا توجد إجابة محددة بعد، انتظر ويتلام بقدر ما أمكنه، ثم قام بما اعتاد القيام به دومًا عندما يكون متوترًا؛ أخذ كل ما يملك من نقود، وبعضًا مما لا يملك، واتجه إلى غرفة القمار في الحانة، لقد كانت هناك تحيط بها هالة من الأضواء وتصدر أصواتًا مهللة مبشرة، كان ذلك أول حل محمس تبادر إليه، كما كان يحدث دائمًا.

بينما كان متخفيًا عن الأنظار بين جمع المقامرين، سمع ويتلام صوت لوك هادلر قادمًا من إحدى الطاولات القريبة، تجمدت أوصاله ولم يعد الهواء يعرف سبيلًا إلى رئتيه وهو ينتظر هادلر ليخبر جايمي ساليڤان عن أموال المدرسة، كان واثقًا من أنه سيخبره، لكنه لم يفعل، أخذا يتكلمان عن كلام فارغ بخصوص الأرانب بدلًا من ذلك ويخططان للصيد في مزرعة ساليڤان في اليوم التالي، حددا الوقت، سيُحضر لوك بندقية الصيد خاصته، فكر ويتلام إن ذلك شيء رائع، ربما كانت لم تنتهِ اللعبة.. ليس بعد.

كانت الخطة قد تشكلت في عقله وهو يضع مئة دولار أخرى من العملات المعدنية الذهبية في ماكينة القمار، أخذ يقلبها في رأسه مرارًا حتى بدأت معالمها تتضح، كانت خطته لا بأس بها، لم تكن مثالية، وليست محكمة، ولكن ربما نسبة النجاح إلى الخسارة خمسون بالمئة. قرر ويتلام أن يغامر بتلك الاحتمالات في أي يوم خلال الأسبوع.

* * * *

وقف ويتلام يتابع الأولاد الذين يتدافعون أمامه في ساحة اللعب، وكانت ابنته من ضمنهم، تخيل لثانية أنه رأى بيلي هادلر بينهم، ولم تكن المرة الأولى، شعر ويتلام برأسه يرتج لا إراديًا، شيء أشبه بتقلص في رقبته، لا يزال يضطرب عندما يتذكر الفتى، وما دفعه لفعل ذلك.

لم يكن من المفترض لبيلي أن يكون هناك قط، ضغط ويتلام بقبضته بشدة على كوب القهوة وهو عائد إلى مكتبه، كان يجب أن يكون الفتى خارج المنزل، كل شيء كان مرتبًا، لقد تأكد من ذلك بنفسه، لقد أخرج لعبة تنس الريشة الطائرة بنفسه عن عمدٍ، وما كان عليه بعد ذلك إلا أن يقترح على ساندرا أن تتصل بكارن وترتب زيارة بيلي لكي يلعب، لو لم تقم أمه الغبية بإلغائها وتخريب الخطة، كان لن يتفاجأ بوجود بيلي هناك، لا يجب أن تلوم إلا نفسها.

لقد حاول ويتلام نفسه أن ينقذ الفتى، لا يمكن لأحد أن يقول عكس ذلك، ارتشف رشفة من القهوة وانتفض عندما احترق فمه، شعر بها وهي تسلك طريقها إلى معدته وتحول داخله إلى جحيم.

* * * *

كان يشعر بمعدته تتلوى، غادر ويتلام الحانة وقضى ليلته مستيقظًا يحاول العثور على أية ثغرات في خطته. في اليوم التالي، ظل جالسًا في مكتبه يحدق بنظرة ذهول فارغة ينتظر طرقة الباب الحتمية، لا بد أن كارن تكلمت، هذا مؤكد، سيأتي أحدهم، كان فقط لا يعلم من سيكون هل الشرطة؟ أم رئيس مجلس إدارة المدرسة؟ أو ربما كارن نفسها مرة أخرى؟ كان يخاف من تلك الطرقة ويتوق إليها في الوقت ذاته، طرقة ستعني أن كارن قد تكلمت، ستعني أن الوقت قد فات. ولن يصبح عليه القيام بما كان يخطط له.

لم يكن في حاجة إلى أن يسأل نفسه عما إذا كان سيتمكن من تحمل ذلك، كان يعرف أنه يمكنه، لقد أثبت ذلك لنفسه مع الشاب في زقاق فوتسكراي، كان من المفترض أنه يعرف ذلك الشاب جيدًا، كان من المفترض أن يكون محترفًا.

كان ويتلام قد مر به مرة من قبل، ثم بعد ذلك حاصره الرجل في موقف السيارات وجرده من محفظته وأوصل رسالته عن طريق جرح حاد وصل إلى كُليته، فكر ويتلام أنه كان من المفترض أن يسير الأمر كما حدث في فوتسكراي، لكن الرجل استشاط غضبًا وأخذ يلوح بالسكين ويتمادى أبعد مما يجب، خرجت الأمور عن السيطرة فجأة.

لقد كان الرجل في حالة مزرية، وكان من المؤكد أنه تحت تأثير شيء تعاطاه، استهان بلياقة ويتلام عندما سمع كلمة «أستاذ»، اندفع نحوه في اللحظة الأخيرة في هجمة موفقة فوقع كل منهما فأحدث اصطدامهما بالأرض الصلبة صوت ارتطام شديد.

بدا نصل السكين برتقالي اللون تحت ضوء الشارع، وشعر ويتلام بسن السكين تخترق بطنه ويندفع خطٌ أحمر من الدم الدافئ. اندفع الأدرينالين والخوف في داخله وهو يمسك بيد الرجل الممسكة بالسكين بعنف، أمسكها ولَوَاها بكل قوته لكي يدفعها ناحية جسد مهاجمه، لم يفلت الرجلُ السكينَ، كان لا يزال يمسكها عندما اخترقت جسده، أصدر الرجل صوتًا كالخنزير وبلل وجه ويتلام بلعابه المتناثر بينما يُلقيه الأستاذ أرضًا، كان يشعر بالدم الذي يندفع على الطريق، انتظر حتى لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة، ثم انتظر دقيقة أخرى إضافية.

كانت عينا ويتلام تدمعان، كان جسده يرتجف مرتعبًا من أنه قد يموت، ولكن في مكان ما مدفون في قرارة نفسه، كان هناك شعور بالارتياح؛ لقد حُوصر في الزاوية وتصرف لينجو بنفسه، لقد فعل ما كان يجب. إن ويتلام الذي اعتاد على الشعور بأنه يتهاوى في كل مرة يضع يده في جيبه ليأخذ محفظته، قد تمكن لمرة واحدة بأن يسيطر على نفسه.

لقد اختبر قوته البدنية بأصابع ترتجف خوفًا، كان جرحه سطحيًا لكنه بدا أسوأ كثيرًا مما هو عليه، انحنى بالقرب من مهاجمه وبدأ في تطبيق دورتين

من الإنعاش القلبي بإخلاص ليتأكد من أن بصمات أصابعه المغطاة بالدماء تعكس فعله المدني المتحضر، وجد منزلًا مضاء الأنوار في شارع مجاور، أطلق الشعور الذي كان يقاومه وهو يطلب منهم أن يبلغوا عن حادث سطو، لقد تمكن المهاجمون من الهرب، ولكن رجاءً فقد أصيب أحدهم إصابة بالغة.

عندما يفكر ويتلام في ذلك الحادث الآن، وهذا كان يحدث معظم الأوقات أكثر من المتوقع، كان يعرف أنه دفاع عن النفس، أما هذا الخطر الجديد فربما يختلف في أنه يحدث في مكتب بدلًا من زقاق، وأوراق بدلًا من السكين، ولكن في قرارة نفسه كان يشعر أن الأمر لا يختلف على الإطلاق؛ الرجل في الطريق، كارن على الجانب الآخر من المكتب، يقيدان يده، يجبرانه على الدفاع عن نفسه، إما هما وإما هو؛ واختار ويتلام نفسه.

انتهى اليوم المدرسي ومضى، أصبحت الفصول وساحات اللعب فارغة تمامًا، ولم يأتِ أحد يطرق باب مكتبه، لم تبلغ عنه بعد، لا يزال قادرًا على إنقاذ نفسه، إما الآن، وإما أبدًا. نظر إلى الساعة.

إنه الآن.

الفصل السابع والثلاثون

- كيف وصل ويتلام إلى مزرعة هادلر؟

سأل بارنز وهو يميل بجسده بين الكرسيين الأماميين.

- لقد ابيضت أعيننا ونحن نشاهد تسجيلات كاميرات مراقبة المدرسة مرارًا وتكرارًا، وأظن أن سيارته لم تتحرك من موقف المدرسة طوال الظهيرة تقريبًا.

وجد فولك لقطات جثة لوك الممددة في صندوق شاحنته الخلفي، أخرج من بينها اللقطة المقربة للخطوط الأربعة بداخل صندوق السيارة، أعطاها لبارنز مع هاتفه الذي يعرض الصور التي التقطها من صندوق سيارته اليوم الماضي، كان هناك خطان طويلان على قماش صندوق السيارة، تبادل بارنز النظر إلى كلتا الصورتين.

- إن العلامات هي نفسها، ماذا يعني ذلك؟
- التي في سيارتي لا تزال حديثة، إنها علامات إطارات الدراجة، لقد سار هناك بدراجته اللعينة.

* * * *

لم يخبر ويتلام أحدًا من مكتب الاستقبال بمغادرته، لقد تسلل من مخرج الحريق دون أن يراه أحد تاركًا سترته على الكرسي وحاسوبه يعمل، الرمز العالمي لقول: «ما زلت هنا، سأعود في الحال».

انطلق متجهًا إلى غرفة التخزين متجنبًا المدى المحدود لكاميرات المراقبة، وجد نفسه ممتنًا للتمويل الضئيل للمدرسة ثم أخذ يضحك في سخرية، في غضون دقائق كان ويتلام قد فتح مخزن الذخيرة وأخذ ملء يده من الطلقات، كانت لدى المدرسة بندقية صيد وحيدة من أجل السيطرة على الأرانب، التي

وضعها في حقيبة رياضية وعلقها على كتفه، سيستخدم تلك فقط إذا اضطر إلى ذلك. كان ويتلام يتمنى في داخله أن تكون بندقية لوك هادلر معه، لقد كان يصطاد مع ساليڤان، لكن الذخيرة؟ ليست لديه فكرة.

هرول ويتلام إلى مكان دراجته، كان قد خرج في وقت مبكر صباح ذلك اليوم وأوقف سيارته في شارع هادئ بالقرب من المدرسة، أخرج دراجته من صندوق السيارة وركبها بقية المسافة الصغيرة، ربط دراجته في مكان كان يعلم أنه سيكون مزدحمًا بالناس بعد قليل وستكون متخفية عن الأنظار، بعد ذلك سار عائدًا إلى سيارته وقادها حتى موقف سيارات المدرسة واختار موقعًا رئيسيًا مكشوفًا بشكل كامل بواسطة كاميرا المراقبة.

أما الآن فقد أخذ دراجته المنتظرة وفي خلال لحظات كان يقودها عبر طرق البلدة المهجورة متجهًا إلى مزرعة هادلر، لم تكن بعيدة وكان توقيته جيدًا، توقف على بعد كيلومترٍ من المزرعة واختار مكانًا متخفيًا بجانب الطريق، انطلق إلى داخل الأدغال وظل منتظرًا يهمس دعاءً محمومًا وصامتًا بأن يكون توقيته صحيحًا.

بعد مرور خمس وعشرين دقيقة كان يتصبب عرقًا ويفكر بأنه أضاع الفرصة، لم تمر سيارة واحدة من على الطريق، مرت ثماني دقائق أخرى.. تسع، ثم بعد ذلك، وبعدما كان ويتلام قد أشاح بنظره إلى البندقية متسائلًا عمًا إذا لم يكن لديه أي مخرج من هذا في حقيقة الأمر، سمع الصوت قادمًا.

دوى صوت محرك شاحنة من بعيد، نظر ويتلام متفحصًا، كانت الشاحنة، التي يطمح لها، شعر أنه فقد عقله وهو يصلي شاكرًا في صمت، خطا إلى جانب الطريق ودفع الدراجة لتسقط بجانب قدميه، وقف بجانبها ومد ذراعيه خارجًا وأخذ يلوح في جنون وبؤس مصطنع.

بدا للحظة فظيعة أن الشاحنة لن تتوقف، ثم عندما أصبحت أقرب بدأت تهدئ من سرعتها حتى توقفت حيث كان يقف، فتحت نافذة السائق.

- يبدو أن لديك بعض المشكلات هنا؟

أخرج لوك هادلر رأسه من النافذة.

* * * *

ارتجف كوع ويتلام في ألم وهو يهوي بالجورب المعبأ بالحجارة على جمجمة لوك من الخلف ليهشمها، ارتد الألم إلى مقدمة عنقه فانسحقت تمامًا ثم ارتمى لوك بوجهه أولًا في التراب ثم استقر جسده الميت على الأرض.

ارتدى ويتلام قفازات مطاطية أخذها من معمل العلوم الخاص بالمدرسة ثم فتح صندوق الشاحنة الخلفي، حمل لوك من تحت ذراعيه بسلاسة لائقٍ بدنيًا، وألقى بها إلى الصندوق بإهمال.

أصاخ السمع، كانت أنفاس لوك متقطعة وهادئة، رفع ويتلام الجورب وهوى به مرتين متتاليتين حتى شعر بالجمجمة تتهشم، كانت هناك دماء الآن، تجاهلها ويتلام وغطًى لوك بغطاء بلاستيكي وجده في صندوق الشاحنة ثم رفع دراجته إلى الأعلى. استقرت العجلات المحملة بالطين بجانب اللوح الجانبي.

كانت بندقية لوك في المقعد المجاور له، شعر ويتلام بالدوار والارتياح واستند بجبهته إلى عجلة القيادة لدقيقة حتى استجمع نفسه مجددًا، لم تكن البندقية معبأة.. لا بأس، أخرج ويتلام ذخيرة الريمنغتون الخاصة بالمدرسة من جيبه وعبأ بندقية لوك.

كان الموت حتميًا.

الفصل الثامن والثلاثون

كانت الاستراحة الصباحية قد انتهت منذ نصف ساعة وعمَّ الهدوء أرجاء المكان، بدت ساحة اللعب خالية تمامًا من بعيد وكان فولك يمنع نفسه من التثاؤب عندما رن هاتفه، انتفض ريكو وبارنز على صوت الرنة المرتفع الذي قطع الصمت بالسيارة.

- العميل الفيدرالي فولك؟

قال أحدهم عندما أجاب.

- معك بيتر دن، مدير جمعية كروسلي التعليمية، هل تحدثنا هذا الصباح؟

- نعم.

أجاب فولك وهو يستقيم في جلسته قليلًا.

- انظر، إن الأمر يبدو غريبًا بعض الشيء، ولكن ذلك الادعاء الذي تقدمت به بشأن.. مدرسة كيوارا التمهيدية؟

- أجل.

تمنى فولك أن يدخل الرجل في الموضوع مباشرة.

- أعلم أنك قلت إن الأمر يجب أن يتم بسرية، ولكنني اكتشفت أن مساعدتي -إنها جديدة، ما زالت تحاول التأقلم- على ما يبدو أنها مررت الأمر إلى أحد الزملاء التي لم تفهم مدى سرية الأمر و ...

- وماذا؟

- ويبدو أنها قد تواصلت مع المدرسة المذكورة منذ نحو عشرين دقيقة لكي تتأكد.

- كلا.

مد فولك ذراعه وثبت حزام الأمان، وأشار لريكو وبارنز باهتياج كي يقوما بنفس الشيء.

- أجل، إنني أفهم.. أنا آس...

- مع مَن تحدثت؟

- لقد تواصلت مباشرة مع أعلى سلطة لأن المبلغ كان كبيرًا، مدير المدرسة، السيد ويتلام.

أغلق فولك الهاتف.

- المدرسة، فورًا.

ضرب ريكو على دواسة الوقود بقوة.

* * * *

اهتز جسد لوك قليلًا أسفل الغطاء البلاستيكي بينما كان ويتلام يقطع المسافة القصيرة إلى مزرعة عائلة هادلر بتثاقل، أشاح ويتلام بعينيه بعيدًا عن مرآة الرؤية الخلفية وقبض على طارة القيادة بإحكام، كانت يداه تعرقان بغزارة بداخل القفازات، عندما وصل إلى منزل المزرعة، أوقف شاحنة لوك وترجل منها مسرعًا دون التفكير فيما هو مقبل عليه، فقط أمام الباب الأمامي شعر بالتردد.

لم يكن ويتلام يعرف تصميم منزل عائلة هادلر جيدًا، وبالتأكيد ليس بما يكفي لكي يسعى خلف كارن تحت وطأة ضربة من الجنون المفاجئ، رأى يده تمتد إلى جرس الباب وتضغط عليه، سيجعلها تأتي إليه، كانت بندقية الصيد معلقة مستندة بإحكام إلى فخذه.

فتحت كارن هادلر الباب وذُهِلَت على الفور لدى رؤية الطارق ووطأة المفاجأة، أخذت نفسًا وتجعد لسانها خلف أسنانها في محاولة لنطق حرفي السين والكاف ثم توقفت فجأة عندما رفع البندقية في حركة سريعة وضغط على الزناد، كان قد أغمض عينيه وهو يفعل ذلك وعندما فتحهما كانت كارن تتهاوى إلى الخلف يسيل الدم الأحمر من معدتها المسلوخ عنها الجلد، جفل ويتلام عندما لامس كوعها الأرض المغطاة بالقرميد مصدرًا صوتًا مرتفعًا ومن ثم رأسها، وَمَضت عيناها بشكل مخيف، وتردد أنين طويل مكتوم عميق من صدرها.

كانت أُذنَا ويتلام تطنان ولم يسمع أي شيء من هذا.

- أمي؟

كلا.. كلا، لم يستطع سماع أي شيء آخر.

- أمي؟

لا شيء إلا أنفاسه المتلاحقة وطنين أذنيه، وبالطبع لم يسمع صراخ بيلي هادلر كالطير الجريح من الظل الذي في الردهة؛ حيث كان يقف ممسكًا بلعبة تتدلى من يده وفاغرًا فاه في فزع.

- أمي؟

لم يستطع ويتلام أن يصدق، كان الفتى هنا. لماذا بحق الجحيم لم يكن بعيدًا عن هنا وفي أمان في الجانب الآخر من البلدة يلعب في فناء منزل ويتلام؟ وبدلًا من ذلك إنه هنا، وقد رأى، والآن أصبح ويتلام مضطرًا إلى أن يتصرف بالرغم من أنه لم يرَ ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة يفكر بها لكي يفعل ذلك، أخذ يصرخ بجثة كارن: «*هل أنت سعيدة الآن أيتها المتطفلة الساقطة؟*»، بينما التفت بيلي وتصلب في مكانه، غير قادر على الصراخ من شدة الخوف وبدلًا من ذلك كان صدره يعلو ويهبط في تنهيدات تلهث رعبًا.

شعر ويتلام كأن روحه قد غادرت جسده، تابع ودلف إلى الغرفة، كان كالأعمى وهو يفتح الخزانة على مصراعيها ويمزق غطاء السرير. أين هو؟ أين هو؟ كان غاضبًا ومهتاجًا بسبب ما كان مجبرًا على فعله، صدر صوت من صندوق الغسيل، لم يستطع ويتلام تذكر أنه دفعه جانبًا، ولكن لا بد وأنه قد فعل لأن بيلي كان هناك، كان هناك ملتصقًا بالحائط، يدفن وجهه بين يديه، لكن ويتلام تمكن من أن يتذكر أنه سحب الزناد، أجل.. لقد تمكن لاحقًا من تذكر ذلك جيدًا.

أخذ ذلك الصوت الذي لا يُحتمل يتردد في رأسه مجددًا، ثم مجددًا –آه، يا ربي، أتوسل إليك لا– تحول إلى شيء آخر، للحظة شنيعة ظن أن صوت الصراخ كان آتيًا من بيلي، الذي كان مصابًا في منتصف رأسه وصدره، تساءل إذا كانت تلك الأصوات تصدر منه هو نفسه، ولكن فمه كان مغلقًا حين وضع يده عليه.

تتبع الصوت في فضول عبر الصالة، كانت الرضيعة في غرفة الأطفال واقفة في مهدها، تنتحب، وويتلام واقفٌ أمام الباب، أحس أنه على وشك أن يتقيأ.

وجَّه فوهة البندقية ناحية ذقنه وثبتها، كان يشعر بالحرارة التي تنبعث من المعدن إلى أن تحسنت حالته، وببطء أدار سلاحه. كانت البندقية ترتعش في يده بينما يوجهها ناحية بذلتها الصفراء، الفوضى في رأسه لا تطاق، لكن وسط كل تلك الأصوات تمكن عقله من إرسال رسالة منطقية إليه: انظر!

توقف لهُنَيهة، أغمض عينيه وفتحهما، انظر إلى سنها، اسمع.. إنها تصرخ، تصرخ ولا تتكلم، لا كلمات، لا يمكنها أن تتحدث، لن يمكنها أن تشي بك.

كان خائفًا من كونه لا يزال متأهبًا في تلك اللحظة.

- أطلِق.

همس إلى نفسه، سمع ضحكة مخيفة لكن عندما نظر من حوله لم يكن هناك أي أحد غيره.

استدار ويتلام وانطلق هاربًا، تخطى جسد كارن، ثم خرج إلى شاحنة لوك ثم أجلس نفسه أمام عجلة القيادة منطلقًا بأقصى سرعة إلى الطريق، استمر في القيادة ولم يمر بأي أحد في طريقه حتى فقد القدرة على الإمساك بالمقود من شدة الاهتياج، اتخذ أول منعطف قابله، كان طريقًا سخيفًا قاده إلى خلاء صغير.

قفز خارج الشاحنة وسحب دراجته، كانت أسنانه تصطك ببعضها. بيدين مرتجفتين أزال الغطاء البلاستيكي ليخفي الخطوط الأربعة التي خلفتها عجلات دراجته على طلاء الشاحنة وهي تهتز وتتحرك في أثناء الرحلة.

استجمع ويتلام شتات نفسه وانحنى بجانب الجسد، لم تصدر أية حركة، أمعن النظر إلى وجه لوك، قريبًا جدًّا إلى درجة أنه تمكن من رؤية الموضع الذي جرح فيه نفسه في أثناء الحلاقة، لم يكن يتنفس، كان لوك قد توقف عن التنفس.

ارتدى ويتلام قفازات جديدة ومعطف أمطار بلاستيكيًّا ومن ثَم سحب الجثة إلى حافة صندوق السيارة، جره بشيء من الصعوبة ثم ألقاه في وضع الجلوس، وضع البندقية بين ساقَي لوك، وضغط بأطراف أصابعه على السلاح، ووجه فوهة البندقية إلى أسنانه.

كان ويتلام مرتعبًا من أن ينزلق الجسد ويسقط، وشعر على نحو مريب بأنه كان عليه أن يتدرب على ذلك بشكل ما، بعد ذلك أغمض عينيه وضغط على الزناد، انفجر وجه لوك وسقطت جثته إلى الخلف، تناثرت جمجمته على إثر الضربة.. انتهى الأمر. كدس ويتلام كلًّا من القفازات والمعطف والغطاء البلاستيكي في حقيبة بلاستيكية كي يحرقها فيما بعد، تنفس ثلاثة أنفاس عميقة ثم ركب دراجته منطلقًا إلى الطريق الفارغ.

بمجرد أن انطلق بدراجته، كان الذباب قد بدأ بالتجمع بالفعل.

الفصل التاسع والثلاثون

كان مكتب ويتلام فارغًا، محفظته ومفاتيحه وهاتفه لا يوجد لهم أثر، ولا يزال معطفه معلقًا على الكرسي.

- ربما سيعود في غضون دقائق، ما زالت سيارته هنا.

قالت مديرة المكتب في توتر.

- إنه ليس هنا. بارنز، فلتذهب إلى منزله، إذا كانت زوجته هناك فاحتجزها.

فكر فولك للحظة ثم التفت إلى المساعِدة.

- هل ابنة ويتلام لا تزال في الصف؟

- نعم، أعتقد ذ...

- خذيني إليها.. الآن.

اضطرت المساعدة إلى أن تهرول خلف فولك وريكو عبر الرواق كرهًا لكي تتمكن من اللحاق بهما.

- هنا، إنها بالداخل.

قالت منقطعة الأنفاس أمام باب أحد الفصول الدراسية.

- أي واحدة؟

سأل فولك وهو ينظر خلال النافذة الصغيرة باحثًا عن الطفلة التي رآها في صورة العائلة الخاصة بويتلام.

- هناك، الفتاة الشقراء في الصف الثاني.

التفت فولك إلى ريكو.

- أيعقل أن يغادر البلدة دون ابنته؟

- من الصعب أن أجزم، ولكنني لا أظن ذلك، ليس قبل أن يحاول أن يفعل.

- أتفق معك. أعتقد أنه قريب.

توقف فولك.

- اتصل بكلايد، لا بد أنهم بالقرب من هنا، فلتخرج حواجز الطريق، ثم أحضِر كلًّا من لديه خبرة في طرق البحث والإنقاذ.

تتبع ريكو نظر فولك من خارج النافذة، خلف المدرسة كانت توجد غابة ممتدة بكثافة وغزارة، والأشجار تتمايل في حرارة الجو، لم تكن الرؤية واضحة.

- نحن بصدد مطاردة لعينة، الخارج هو المكان الأمثل في العالم للاختباء.

تشكلت فرق البحث والإنقاذ جنبًا إلى جنب في خط مستقيم من اللون البرتقالي على طول الغابة، كانت الرياح تعبث بأشجار الأوكالبتوس من فوق رؤوسهم، تهب محملة بالأتربة والحصى، تُعيق رؤيتهم وتجبرهم على تغطية أعينهم، كانت كيوارا ممتدة من خلف ظهورهم، صغيرة وتتلظى بفعل الحرارة التي تغشاها.

انضم فولك إلى الصف، كان النهار في منتصفه، بإمكانه الشعور بعرقه يتصبب أسفل سترته الفسفورية، وريكو بجانبه متجهم الوجه.

- أجهزة اللاسلكي قيد التشغيل أيها السيدات والسادة.

صدح صوت قائد فرقة البحث والإنقاذ عبر مكبر للصوت.

- كما أن هذه منطقة ثعابين فتاكة؛ لذلك احترسوا لمواضع أقدامكم.

بالأعلى كانت هناك هليكوبتر تحرك الهواء الساخن نحو الأسفل، أعطى القائد الإشارة فبدأ الصف البرتقالي بالتحرك في خطوات متساوية، أحاطت الغابة بهم وابتلعتهم داخلها، كلما أبحر الفريق عميقًا بالغابة فرّقتهم أشجار الأوكالبتوس الشاهقة والحشائش الكثيفة، وخلال بضع خطوات سريعة لم يرَ فولك غير ريكو عن شماله وسترة برتقالية على امتداد بصره عن يمينه فقط.

شرح القائد طريقة البحث الاستكشافي بنفاد صبر واضح، مناسب للغابات الكثيفة؛ على فرقة البحث أن يصطفوا ويسير كل منهم في خط مستقيم إلى الغابة مباشرة في نفس الصف حتى يعوق شيء ما طريقهم.

- الفكرة هي أننا إذا لم نتمكن من العبور فلن يتمكن المدير خاصتكم هو أيضًا، إذا لم تتمكنوا من متابعة التقدم، عودوا أدراجكم وحافظوا على الصف.

قال القائد وهو يلقي بسترة إلى فولك.

- فقط انتبهوا جيدًا، يمكن أن يصبح الوضع رهيبًا بالداخل.

تقدم فولك، كان الصمت مخيمًا، لا صوت سوى خشخشة الأغصان الجافة تحت أقدامهم وصوت مرور الريح بين الأغصان، كانت الشمس في أوج ذروتها تشق طريقها بين الثغرات المتباعدة بين الأشجار كضوء بطارية، حتى صوت الطائرة أتى مكتومًا؛ إذ حوّمَت عاليًا فوق رؤوسهم كطير جارح.

انتبه فولك لخطواته بفعل الخدع البصرية التي يصنعها ضوء الشمس على الأرض، لم يكن واثقًا تمامًا عما عليه أن يبحث عنه، يشعر بالإعياء لدى فكرة أنه ربما يضل طريقهم، فهو لم يقم ببحث شامل في الغابة منذ تدريبه البوليسي، لكنه قد قضى وقتًا كافيًا بين تلك الأشجار في صغره جعله يدرك أن بإمكانها أن تبتلعك أسهل بكثير من أن تطلق سراحك.

لسعت قطرات العرق زاوية عينيه فمسحها بصبر نافد، أخذت الدقائق تمر، بدت الأشجار من حوله وكأنها تزداد قربًا من بعضها مع كل خطوة، ودفعت الحشائش الطويلة فولك إلى أن يرفع قدميه عاليًا كي يتمكن من خوضها، تمكن من رؤية أجمة كثيفة وممتدة على امتداد بصره، حتى من تلك المسافة، كانت تبدو متشابكة ومنيعة لا يمكن عبورها، كان قد وصل إلى نهاية الخط الخاص به تقريبًا، وليس هناك أثر لـويتلام.

خلع قبعته ومرر يدًا على رأسه، لم يصدر أي من صف الباحثين صيحة وصول إلى شيء ما، ظل جهاز اللاسلكي الذي يحيط بخصره صامتًا، هل ضيعوه؟ مرت في خياله صورة لوك وهو مستلقٍ بلا حول أو قوة في صندوق شاحنته، ارتدى قبعته مرة أخرى وتابع التقدم محاولًا بأقصى جهده أن يشق طريقه في الغابة الكثيفة متجهًا إلى الأجمة، كان تقدمه بطيئًا ولم يكن قد تقدم غير بضعة أمتار حين شعر بعصا تسقط على سترته.

نظر فولك عاليًا في مفاجأة، على بعد خطوات قليلة عن شماله، توقف ريكو والتفت ناحيته، كان واضعًا إصبعًا على شفتيه.

- ويتلام؟

حرك فولك فاه بصمت فأجابه ريكو بنفس الطريقة رافعًا إحدى يديه علامة على عدم التأكد:

- ربما.

ثم قرّب جهازه اللاسلكي إلى فمه ودمدم بشيء ما.

تفقد فولك المكان من حوله بحثًا عن أية سترة برتقالية، كان أقرب مفتش مثل بقعة بعيدة خلف ستار من الأشجار، سار فولك على أطراف أصابعه ناحية ريكو وهو يجفل مع كل صوت تصدره خطوات أقدامه على الحشائش المتشابكة.

نظر إلى حيث كان يشير صديقه، كان هناك جذع شجرة قد سقط مكونًا تجويفًا أمام الغابة، كان بالكاد يرى لكنه بدا في مكان غير مناسب بالنسبة إلى المشهد، ظهرت أطراف أصابع بشرية وردية اللون. سحب ريكو سلاحه البوليسي.

- لم أكن لأفعل ذلك لو كنت في مكانك.

انبعث صوت ويتلام من الجذع، كان الهدوء البادي في صوته في غاية الغرابة.

- سكوت.. صديقي، إنه نحن.

اجتهد فولك كي يتحدث بنفس نبرته.

- عليك أن تستسلم للأمر، هناك خمسون شخصًا هنا يسعون خلفك، لا يوجد سوى مخرج واحد.

أصدر ويتلام ضحكة عالية.

- هناك دائمًا أكثر من طريق واحد للخروج. رباه، إنكم أيها الشرطيون ضيقو المخيلة، قل لصديقك أن يبعد سلاحه، ثم بإمكانه أن يمسك بجهازه اللاسلكي ذاك ويخبر الآخرين بأن يعودوا أدراجهم.

- لن يحدث.

قال ريكو ممسكًا سلاحه بيده وموجهًا إياه ناحية الجذع.

- بلى.

انتصب ويتلام واقفًا فجأة، كان متّسخًا ويتصبب منه العرق، وكانت هنالك شبكة من الخدوش بنفسجية اللون على خده ضارب الحمرة.

- قف مكانك، أنتما مراقبان.

أشار ويتلام بإصبعه إلى الأعلى حيث تحلق طائرة الشرطة في السماء الصافية. أخذت تظهر وتختفي خلال فتحات الأشجار من الأعلى حيث كانت تدور في نصف دائرة واسعة، لم يكن فولك متأكدًا من أنها رأتهم، كان يأمل ذلك.

مد ويتلام ذراعه بحركة مفاجأة إلى الأمام تشبه تحية نازية منخفضة، ثم خطا خطوة بعيدًا عن الجذع، كان يمسك بشيء ما بإحكام في قبضته.

- لا تقترب.

قال وهو يلف يده. لمح فولك بريقًا معدنيًا فصاح عقله على الفور: «مسدس»، ولكن كان جزء أعمق من عقله يحاول أن يعرف حقًا كنه ما يراه، تشنج ريكو بالقرب منه. أخذ ويتلام يفتح يده إصبعًا بعد الآخر فأفلت فولك نفسًا حبيسًا في صدره.

لقد كانت قداحة.

الفصل الأربعون

أشعل ويتلام القداحة فأخذت النيران البيضاء الملتهبة تتراقص أمام الغابة الذابلة، كان شيئًا فظيعًا، كان فولك متوجسًا يشعر بالخوف يتدفق من أعماق قلبه حتى طفح بجلده.

- سكوت...

بدأ فولك الحديث، ولكن ويتلام رفع إصبعه محذرًا، كانت قداحة غالية الثمن من النوع الذي يظل مشتعلًا حتى تُغلق يدويًا، كانت النيران ترتعش وتتراقص مع الريح.

في حركة واحدة، انحنى ويتلام وأخرج قارورة صغيرة الحجم من جيبه، فتح غطاءها وارتشف رشفة منها، لم تبتعد عيناه عنهما قيد أنملة، أدار القارورة وصب قطرات من السائل الذهبي على الأرض من حوله. بعد لحظات ضربت أبخرة الويسكي أنف فولك.

- اعتبرها وسيلة تأمين.

صاح ويتلام فارتعش الشرر وهو يهز ذراعه الممدودة للأمام.

- سكوت، أنت أيها الوغد الغبي، ستتسبب بقتلنا جميعًا بهذا، وأنت معنا.

- فلتطلق عليّ النار إذن، إذا كنت تنوي أن تفعل، ولكنني سأسقطها.

تحرك فولك في وقفته فطقطقت الأوراق والفروع وهي تتكسر أسفل قدميه، لعامين لم يسقط المطر على الغابة والآن هي مشبعة بالكحول، لقد كانوا واقفين على علبة ثقاب. في مكان ما خلفهم، غير مرئي لكنه بالقرب من سلسلة متصلة من أشجار الأوكالبتوس والحشائش، كانت هناك المدرسة والبلدة، ستنطلق النيران في تلك السلسلة بسرعة القطار الطلقة، كان يعلم

هذا، كانت ستندفع بقوة وتقفز وتلتهم نفسها، وتتسابق كالفهد الصياد وتدمر بسرعة وحشية.

كان ذراعا ريكو ترتجفان بينما يوجه مسدسه ناحية ويتلام. أدار رأسه قليلًا إلى فولك.

- إن ريتا موجودة بمكان ما هناك.

كان صوته منخفضًا وأسنانه مطبقة على بعضها.

- سأُرديه رميًا بالرصاص دون أن أسمح له بإشعال هذا المكان.

فكر فولك في زوجة ريكو النشيطة التي أضعفها حملها، ارتفع صوته.

- سكوت، لن يكون لديك أية فرصة في الخروج من هنا إذا وقعت تلك النار على الأرض، أنت تعلم ذلك، سوف تُحرق حيًا.

تقلص رأس ويتلام في هزة خفيفة لدى ما قاله فولك، وأخذت القداحة تهتز في يده، أخذ فولك نفسًا عميقًا بصعوبة، وخطا ريكو نصف خطوة إلى الخلف وهو يلعن.

- رباه، انتبه إلى ما في يدك بحق الجحيم، هلا فعلت؟

- فقط ابتعد.

استعاد ويتلام سيطرته.

- أنزِل سلاحك.

- كلا.

- ليس لديك خيار في هذا، سأسقطها.

- أغلِق القداحة.

- أنت أولًا، أنزل سلاحك.

تردد ريكو، كانت إصبعه تضغط على الزناد بقوة، نظر إلى فولك ثم انحنى على مضض ووضع سلاحه على الأرض، لم يلمه فولك؛ فقد رأى ما يمكن لحرائق الغابات فعله، لقد خسر جارٌ له منزله وأربعين خروفًا ذات صيف عندما خرج حريق عن السيطرة، غطى فولك ووالده وجهيهما بالخِرَق وتسلح كل منهما بخراطيم المياه والجرادل، بينما تحول لون السماء إلى

الأحمر والأسود، ظلت الخراف تصرخ حتى أنفاسها الأخيرة، كانت النيران المستعرة تتأجج وتتلظى بأصوات شيطانية، كان شيئًا مروعًا، كقطعة من الجحيم، الأرض الآن جدباء أكثر مما كانت في الماضي، لن يكون الحريق بطيئًا هذه المرة.

مقابلهما كان ويتلام يفتح القداحة ويقفلها مثل اللعبة، ظل ريكو يتابع ما يفعله في رعب كالمنَوَم مغناطيسيًا مُقفلًا قبضتيه بإحكام، ظلت الهليكوبتر تحوم فوق رؤوسهم مباشرة، وقد تمكن فولك من أن يلمح بطرف عينيه بعض السترات البرتقالية متباعدين بين الأشجار، لقد تمت توصيتهم بالحفاظ على التباعد بينهم بلا شك.

- لقد حللت الأمر برمته إذن؟

بدا ويتلام متحمسًا أكثر منه غاضبًا.

- مال الجمعية.

أشعل ويتلام القداحة ولم يغلقها هذه المرة. وقع قلب فولك في قدميه وحاول ألا ينظر إلى اللهب.

- نعم. كان يجب أن أفهم كل ذلك من قبل، لكنك أخفيت أمر القمار جيدًا.

ضحك ويتلام ضحكة غريبة مكتومة.

- لقد تمرست في ذلك جيدًا، حذرتني ساندرا، قالت لي إنني سأدفع ثمن ذلك يومًا ما، بالمناسبة...

أشار ويتلام بالقداحة إليهما، فأصدر ريكو صوتًا غير لائقٍ من نهاية حلقه.

- اسمعا، ليس لـساندرا أية علاقة بهذا، حسنًا؟ هي تعلم بعض الأمور المتعلقة بالقمار، ولكنها لا تعلم إلى أي مدى ساءَ الأمر، أو أي شيء آخر. عدني أنك تتفهم ذلك، لم يكن لديها علم، لا بشأن منحة المدرسة، ولا عائلة هادلر.

تعثر صوته لدى ذكر عائلة هادلر ثم تنفس نفسًا عميقًا.

- وإنني آسف بشأن الفتى الصغير، بيلي.

جفل ويتلام عندما نطق اسم الفتى، نظر إلى الأسفل وأغلق القداحة، شعر فولك بأول بارقة أمل.

- لم أفكر قط في إلحاق الأذى ببيلي، لم يفترض به أن يكون هناك حتى، أحتاجك أن تصدقني، لقد حاولتُ أن أحميه، أود أن تعلم ساندرا ذلك.

- سكوت، فلتأتِ معنا يا صديقي ويمكننا أن نذهب إلى ساندرا لتخبرها أنت بذلك.

- كأنها ستهتم بأي شيء أقوله لها الآن، بعد كل ما فعلته.

التمعت دموع ويتلام المختلطة بالعرق على خديه.

- كان يجب أن أتركها تغادرني منذ سنوات، منذ أول مرة أرادت أن تفعل، أن أتركها تأخذ دانييل وتذهب بعيدًا عني لتكونا بأمان. لكنني لم أفعل وقد فات أوان ذلك الآن.

مسح وجهه بيده فاستغل ريكو الفرصة لكي يمسك بسلاحه.

- مهلًا!

أشعل ويتلام نار القداحة مجددًا قبل أن يتمكن ريكو من لمس سلاحه.

- لقد كان لدينا اتفاق يسير على نحو جيد.

- لا بأس، فقط ابق هادئًا يا سكوت، إنه قلق على عائلته، مثلك تمامًا.

تصلب ريكو في مكانه وهو يمد يدًا للأمام بينما تعلو وجهه أعتى علامات الخوف والانفعال، ثم استجمع نفسه شيئًا فشيئًا.

- سكوت، إنها حبلى.

قال وهو ينظر إلى ويتلام مباشرة، كان صوته متقطعًا.

- ستلد زوجتي خلال أربعة أسابيع، أرجوك.. أرجوك أن تطفئ القداحة فقط.

ارتعشت يد ويتلام.

- اخرس.

- ما زال بإمكانك أن تغير ذلك يا سكوت.

- لا يمكنني، ليس بتلك البساطة، أنت لا تفهم.

- أرجوك، فكر بساندرا ودانييل، أطفئ القداحة وتعال معنا. إذا لم تفعل ذلك من أجلك، فافعله من أجل زوجتك، من أجل ابنتك الصغيرة.

تبدل وجه ويتلام وحالت الخدوش الموجودة على وجهه إلى لون داكن وقبيح، حاول أن يسترق نفسًا عميقًا لكن صدره كان مثقلًا.

- لقد كان ذلك من أجلهم.

صرخ ويتلام.

- كل ذلك، كل ما حدث كان من أجلهم، أردت أن أحميهم، ماذا كان يُفترض بي أن أفعل؟ ***لقد رأيت المسدس ذا كاتم الصوت***، جعلوني ألمسه، أي خيار كان يجب عليَّ اتخاذه؟

بالتأكيد لم يكن فولك يدري عمَّا يتحدث ويتلام، ولكن كان بإمكانه أن يخمن، خلف خوفه المتزايد، كان يحس بشعور غريب بعدم التأثر، ربما يكون ويتلام قادرًا على أن يبرر أفعاله أمام نفسه، ولكن أفعاله الشنيعة قد تولدت عن وحش صنعه هو نفسه.

- سوف نعتني بهم يا سكوت، سوف نهتم بـساندرا ودانييل.

نطق فولك الأسماء بصوت عالٍ وواضحٍ.

- تعالَ معنا وأخبرنا بما تعرفه، يمكننا إبقاؤهم في أمان.

- لا يمكنكم، ليس بإمكانكم حمايتهم إلى لأبد، حتى أنا لا يمكنني حمايتهم على الإطلاق.

كان ويتلام يبكي الآن، أخذ اللهب يهتز؛ إذ أحكم قبضته فانقطعت أنفاس فولك.

حاول أن يسكن النحل الذي يطن في عقله ويفكر في الخطر المحدق بوضوح. في كيوارا في الوادي من خلفهم بأسرارها وكآبتها، المدرسة والحيوانات، بارب وجيري هادلر، غريتشن وتشارلوت وماكمردو. أجرى بعض الحسابات بسرعة فائقة؛ المسافات، وعدد المنازل والمخارج، لم تكن ذا فائدة. بإمكان النيران أن تتجاوز سيارة، ما بالك بشخص على قدميه.

- سكوت..

صرخ فولك.

- إنني أرجوك ألا تفعل ذلك؛ لا يزال الأولاد بالمدرسة، ابنتك هناك بالأسفل، لقد رأيناها بأنفسنا، المكان كله كبرميل البارود، أنت تعلم ذلك.

حدق ويتلام باتجاه البلدة، فخطا ريكو وفولك خطوة سريعة للأمام.

- مهلًا!

نبح ويتلام وأخذ يلوح بالقداحة.

- كلا، ليس مجددًا، ابتعدا.. سألقي بها.

- سوف تحترق ابنتك حتى الموت مع أولئك الأطفال، وهم يهرولون حفاظًا على حياتهم.

حاول فولك تهدئة صوته.

- هذه البلدة... سكوت، استمع إليَّ... سوف تحترق هذه البلدة وأهلها، ويصبحون رمادًا.

- عليهم أن يعطوني ميدالية من أجل تخليص كيوارا من بؤسها، إن هذه البلدة ككومة القذارة.

- ربما هي كذلك، ولكن يجب ألا تجعل الأطفال يدفعون الثمن.

- سيقومون بإنقاذ الأولاد، سيتوجه رجال الإطفاء إلى هناك أولًا.

- أي رجال إطفاء أيها الأخرق؟

صاح ريكو، أشار إلى السترات البرتقالية المتفرقة من حولهم في الغابة.

- إنهم جميعًا هنا خلفك، سنُقتل جميعًا معك، إذا أسقطت تلك القداحة سننتهي جميعًا، ومعنا زوجتك وابنتك، أعدك بذلك.

تجعد ويتلام نحو الأمام كأنما تلقى ضربة في معدته واللهب يرتعش في يده، كان الخوف باديًا في عينيه عندما قابلت عيني فولك ثم أخذ ينتحب نحيبًا قويًا مثيرًا للشفقة.

- لقد فقدتهما على أي حل؛ ليس بإمكاني حمايتهما، لم أتمكن قط، هذا أفضل مما ينتظرنا.

- كلا يا سكوت، هذا ليس...

- وهذه البلدة، هذا المكان العفن الخرب...

صرخ ويتلام وهو يرفع يده الممسكة بالقداحة.

- فلتحترق كيوارا...

- الآن.

صاح فولك ثم اندفع هو وريكو إلى الأمام بأذرعهما مفتوحة، يشدان سترتيهما عن آخرها كالغطاء ورمى كل منهما جسده بعنف على ويتلام؛ إذ ألقي بالقداحة المشتعلة على الأرض.

ضربت حرارة ملتهبة صدر فولك عند ارتطامهم بالأرض، كان يلف بجسده جيئة وذهابًا يلوح بالسترات ويضرب بحذائه في الطين، متجاهلًا إحساسه بالحرارة التي تلفحه على ساقه وفخذه، كان يقبض على شعر ويتلام بيده والألم يقتله حتى احترق الشعر وأصبحت يده منسلخة عن جلده وتجعدت وأصبحت تقبض على لا شيء.

ظلا يتدحرجان ويحترقان لوقت بدا كالدهر حتى امتدت يدان ترتديان قفازات سميكة وسحبت فولك إلى الخلف من كتفيه، كان يطلق صرخات كحيوان معذب وجلده المنسلخ يحترق ويغلي.

غمرته بطانية ثقيلة، كان يختنق ويزدرد الماء الذي سُكب على رأسه ووجهه، سحبته يدان أخريان بعيدًا، كان ينهار وهو مستلقٍ على ظهره ولم يكن قادرًا على بلع الماء من الزجاجة التي دُفعت إلى شفتيه. حاول أن يدير جسده من العذاب حتى ساعده أحدهم في الاستلقاء رويدًا رويدًا فأخذ يصرخ من شدة الألم الذي ضرب أطرافه، رائحة اللحم المحترق تنخز فتحتَي أنفه فجفل، وأخذ ينخر بأنفه بعينين دامعتين وأنف يسيل.

لف رأسه جانبًا يضغط خده الرطب بالأرض، كان ريكو غير مرئي إذ كان يخفيه حائط من السترات البرتقالية، لم يتمكن فولك إلا من رؤية حذائه، كان مستلقيًا لا يتحرك قيد أنملة، أتت مجموعة ثالثة وانحنت من حوله صائحين.

- ريكو!

حاول فولك أن يتكلم، ولكن دفع أحدهم زجاجة الماء إلى شفتيه مرة أخرى، حاول جاهدًا أن يحرك رأسه.

- ريكو، يا صديقي. هل أنت بخير؟

لم تأتِ إجابة.

- فلتساعدوه.

لماذا لا يتحركون أسرع؟

- يا إلهي، ساعدوه.

- صه..

قالت امرأة ترتدي سترة فسفورية، بينما كان مربوطًا بالأحزمة على نقالة.

- إننا نفعل كل ما بوسعنا.

الفصل الحادي والأربعون

عندما استيقظ في قسم الحروق بمشفى كلايد، أخبره الأطباء بأنه سيعيش، لكنه لن يتمكن من أن يصبح عارض أزياء بيده بعد الآن. عندما سُمح له برؤية الحرق، كان مندهشًا ومشمئزًا من جسده. استحال جلده الحليبي الباهت إلى نسيج أحمر لامع، كان جرحه لا يزال طازجًا يرتشح، ضمَّدُوا يده وذراعه وساقه ولم يعاود النظر مجددًا.

زاره العديد من الناس بالمشفى، أحضر جيري وبارب تشارلوت، وأدخل ماكمردو زجاجة بيرة إليه خلسة، وجلس بارنز بجانبه لفترات طويلة من الوقت دون أن يتحدث كثيرًا، لم تزره غريتشن، ولم يلُمها فولك. عندما أُتيح له النهوض، أمضى فولك معظم وقته بجانب سرير ريكو وهو نائم تحت تأثير المخدر، بينما يخضع لعلاج حروق بالغة على جسده وظهره.

الأطباء قالوا إنه سيعيش هو أيضًا، ولكنهم لم يتفوهوا بأي مزحة كما فعلوا مع فولك.

ربتت ريتا ريكو بإحدى راحتيها على بطنها بينما أمسكت الأخرى بيد فولك السليمة وهما جالسان في صمت بجانب زوجها، أخبرها فولك بأن ريكو كان شجاعًا، أجابته ريتا بإيماءة من رأسها وأعادت سؤال الطبيب عن متى سيستيقظ زوجها، وصل أشقاء ريكو بأقصى سرعة واحدًا تلو الآخر، بدوا جميعًا كأنهم نسخ متنوعة من نفس الشخص، صافحوا يد فولك الذي تمكن من رؤية الفزع في أعينهم حتى وهم يلقون بالأوامر الصارمة إلى أخيهم النائم لكي يستيقظ.

فتح ريكو عينيه أخيرًا، وسمح الأطباء لفولك بيوم كامل بالخارج. فقط للعائلة، عندما عاد مجددًا إلى الداخل، وجد ابتسامة واهنة ترتسم أسفل ضمادة ريكو.

- تطهير النار الحقيقي للنفس، ها؟

افتعل فولك ضحكة.

- شيء من ذاك القبيل، لقد أحسنت صنيعًا.

- لديَّ ريتا لأعتني بها، ولكن أخبرني الحقيقة.

أشار له ريكو ليقترب منه.

- ألم تفكر أنه أمرٌ مغرٍ بعض الشيء لو تركت كيوارا تحترق عن آخرها بعد كل شيء تسببت لك به؟

ابتسم فولك ابتسامة واسعة هذه المرة.

- لم أستطع أن أفعل ذلك يا صديقي، فقد تركت مفاتيح منزلي هناك بالحانة.

أُرسل ويتلام إلى مشفى ألفريد في ملبورن تحت وصاية الشرطة تحت ذمة عدة اتهامات، من ضمنها مقتل لوك وكارن وبيلي هادلر.

وصل إلى فولك إنه كان من غير الممكن التعرف عليه، لقد أكلت النيران شعره وكان محظوظًا ببقائه على قيد الحياة. ليس محظوظًا كثيرًا، فكر فولك في نفسه، لن يكون السجن شيئًا يسيرًا عليه.

عندما خرج فولك من المشفى، ذهب للاستشفاء تحت رعاية عائلة هادلر المحبة، كانت بارب في غاية الحماس والاهتياج ولم يستطع جيري أن يتركه يمر دون أن يصافح يده، أصرا على أن يقضي وقتًا برفقة تشارلوت بقدر المستطاع، أخبراها كيف أنه ساعد أباها، وأعاد لها والدها الحقيقي –الرجل الجيد والزوج المحب– من الموت.

لم تتغير حقيقة أن جيري وبارب فقدا ابنهما، ولكنهما كانا أكثر مرحًا بشكل ما، لاحظ فولك أنه أصبح بإمكانهما النظر في أعين الناس مرة أخرى، اصطحبهما فولك إلى المقبرة، أصبح الآن قبر لوك تحديدًا مكانًا يمكنك أن ترى عليه الزهور الطازجة.

بينما كانت بارب تُرِي تشارلوت البطاقات وباقات الزهور، كان جيري وفولك يقفان جانبًا يتحدثان.

- حمدًا لله أن الأمر لم يكن له علاقة بابنة ديكون، أريدك أن تعرف شيئًا، إنني في الحقيقة لم أفكر قط أن... أعني، لم يكن لوك ليفعل قط...

- أعرف يا جيري، لا عليك.

- هل لديك أي فكرة عما حدث لها؟

تنحنح فولك لدى اقتراب بارب.

* * * *

عندما استعاد فولك قواه بما يكفي، توجه إلى منزل غريتشن سيرًا على الأقدام، كانت في الباحة الخلفية تصطاد مجددًا، وعندما رأته يقترب، أدارت البندقية وصوبتها نحوه لبضع ثوانٍ أطول من اللازم.

- غريتشن، أنا آسف.

صاح فولك عبر الحقل ورفع يديه عاليًا.

- هذا كل ما أردت قوله.

أخذت تنظر إلى ضماداته ثم أخفضت السلاح. زفرت وخطت ناحيته.

- لم آتِ لزيارتك في المشفى.

- أعرف.

- أردت ذلك، ولكن...

- لا بأس، هل أنت بخير؟

أجابت بهزة من كتفيها وظلا واقفين في صمت متبادل يستمعان إلى أصوات الطيور على الأشجار، كانت تتحاشى النظر إليه.

- لقد أحب لوك كارن.

تكلمت أخيرًا.

- لقد أحبها حقًا، وكانت إيلي من قبلها.

التمعت عيناها بالدموع وهي تنظر من حولها.

- لا أظن أنني كنت خياره الأول يومًا.

أراد فولك إخبارها بأنها مخطئة، ولكنه كان يعرف أنها أذكى كثيرًا من أن تصدق ذلك.

- ماذا عن اليوم الذي ماتت فيه إيلي؟

تجعد وجه غريتشن.

- لطالما عرفت إن لوك لم يخبرك بالحقيقة.

كان صوتها مكتومًا إذ هربت دموعها رغمًا عنها.

- لأنه كان معي.

* * * *

- هل سمعت ذلك؟

فتحت غريتشن عينيها وأغمضتهما نصف إغماض مقابل أشعة الشمس المتسللة من بين الأشجار، وكانت حشائش الغابة تحك ظهرها.

- سمعت ماذا؟

كانت تشعر بأنفاس لوك على رقبتها وهو يتحدث، لم يتحرك. كان شعره لا يزال مبللًا وصوته ناعس ومكتوم، حاولت غريتشن أن تنهض لكن أعاقها صدره العاري الذي كان ملتصقًا بها، كانت ملابسهما مكومة بإهمال أسفل إحدى الأشجار.

تجرد كل منهما من ملابسه عدا الداخلية منها قبل أن يلقيا بنفسيهما إلى النهر البارد، شعرت غريتشن بحرارة جسد لوك تتسلل إليها عبر المياه وهو يلثم شفتيها بنهم ثم ألقاها على ضفة النهر واعتلى سماءها. انتهى الحال بالملابس الداخلية وهي تجف على صخرة منبسطة.

كانت مياه النهر مرتفعة وأخذت تهدر وتتناثر لدى ارتطامها بالصخور بأسفل المجرى، كانت غريتشن لا تزال تسمع تلك الأصوات العالية مجددًا، دوى صوت عالٍ جافٌ عميقٌ من بين الأشجار، جفلت على إثره ثم تبعه صوت آخر.

- اللعنة، أظن أن أحدهم قادم، دفعت لوك بعيدًا عنها، فنهض عابس الوجه يشيح بنظره جيئة وذهابًا.

- بسرعة.

ألقت غريتشن ببنطاله إليه وحاولت أن ترتدي حمالة صدرها لكنها كانت تخطئ تثبيتها من الخلف بسبب تعجلها.

- ارتدِ ملابسك.

كان لوك يتثاءب فاغرًا فاه فأخذ يضحك عندما رأى تعبيرات وجهها.

- حسنًا لا بأس، سأفعل.

قلب لباسه الداخلي بين يديه ليرى الجهة الصحيحة له قبل أن يرتديه، كان الطريق بعيدًا بعض الشيء مستترًا خلف صف من الأشجار، أصبح صوت خطوات الأقدام أكثر وضوحًا الآن.

- هلا ارتديت بنطالك رجاءً؟

أزلقت قميصها على شعرها المبلل.

- يجب أن نذهب، يمكن أن يكون أي أحد، يمكن أن يكون أبي.

- لا أظن أنه والدك.

قال لوك بينما يرتدي بنطاله رغم ذلك، ارتدى قميصه وانتعل حذاءه ووقفا بجانب بعضهما صامتين ينظران بتمعن إلى الأشجار الكثيفة ناحية بداية الطريق.

كادت غريتشن أن تضحك عندما انبثق الشخص الضئيل من بين الأشجار.

- يا إلهي، إنها فقط إيلي، كادت تصيبني بسكتة قلبية.

لاحظت أنها كانت لا تزال تهمس.

كانت الفتاة تسرع الخُطى ورأسها منحني، توقفت عند النهر، أخذت تحدق في مياه النهر العالية لبضع ثوان، كانت تضغط بإحدى يديها على فمها ثم ولت ظهرها مبتعدة.

- هل أنت هنا بمفردها؟

ابتلع النهر الهادر صوتها، ظنت لوهلة أنها سمعت الصوت مرة أخرى، ولكن لم يظهر أحد في الطريق خلف إيلي.

- لا يهم، أنت محقة.. يجب أن نذهب.

كان لوك يهمس، وضع يده على كتفها.

- لماذا؟ لنقل مرحبًا.

- دعينا لا نفعل ذلك، إنها تتصرف بغرابة في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى أنني مبتل تمامًا.

ألقت غريتشن نظرة على نفسها، لقد أغرقت حمالة صدرها قميصها بالماء.

- وما المشكلة؟ أنا أيضًا كذلك؟

- دعينا نذهب.

حدقت غريتشن إليه، لا بد أن الماء قد أزال رائحة الحميمية عنهما، ولكن الأمر برمته كان مكتوبًا على ملامح وجهه.

- لماذا تحديدًا لا تريدها أن ترانا؟

- لا يهمني إذا رأتنا يا غريتشن.

كان لا يزال يهمس.

- إنها سخيفة وستعلق بنا، ليس لديَّ طاقة لها اليوم.

أدار ظهره وسار بخطوات هادئة بين الأشجار، بعيدًا عن إيلي، تجنب الطريق الذي سلكته إيلي واتجه إلى الطريق المعاكس عبر الممر الطيني الذي يقود إلى مزرعة والدي غريتشن بدلًا من ذلك. لحقت به غريتشن بخطوة ثم التفتت وأخذت تنظر ناحية إيلي، انحنت للأسفل بجانب شجرة غريبة الشكل وهي تمسك صخرة في يدها.

- ما الذي تفعله؟

تساءلت غريتشن، ولكن لوك كان قد ذهب.



- عندما عرفت أنها وضعت الصخور في جيوبها لم أتمكن من النوم لثلاثة أيام.

مسحت غريتشن أنفها بمنديل.

- لقد رأيتها، لو ذهبت إليها لربما تمكنت من إيقافها، لكنني لم أفعل، بل غادرت، خلف لوك بالطبع.

بالكاد كانت كلماتها مفهومة وسط دموعها.

* * * *

لحقت به غريتشن بمسافة قصيرة عبر الممر.

- مهلًا.

سحبت ذراعه.

- ماذا بك؟

- لا شيء يا عزيزتي.

أمسك بيدها ولم يتوقف عن السير.

- الأمر فقط أنني يجب أن أعود الآن.

سحبت غريتشن يدها عنه.

- إنها تعرف أننا أنا وأنت معًا، أعني إيلي. الأمر ليس سرًّا.

- أجل يا عزيزتي، بالطبع أعلم.

- لماذا إذن لم ترد أن ترانا؟ ما الذي يهم إذا علم الآخرون أن علاقتنا أصبحت جدية الآن؟

- ليس في ذلك شيء، دعك من هذا الأمر.

قال لوك، ولكنه توقف ثم التفت ليواجهها، مال إليها كي يقبّلها.

- انظري إليّ، إنها لا تعنيني. لكنني أجد أن ما بيننا رائعٌ جدًّا، أود فقط أن يظل شيئًا مميزًا، بيننا نحن الاثنان فقط.

خطت بعيدًا عنه.

- أجل، بالطبع. ما هو السبب الحقيقي؟ أتعتقد أنه ربما يكون هناك احتمال لشخص أفضل؟

- بحقك يا غريتشن.

- هل هذا هو الأمر؟ لأنه إذا كان كذلك، فإن إيلي لا تزال هناك تنتظر...

تململ لوك وعاد يمشي مجددًا.

- وهناك أيضًا العديد من الأولاد الذين...

- لا تفعلي ذلك.

جاء الصوت محلقًا من فوق كتفيه، حدقت إليه. كانت تحب تلك الكتفين.

- ماذا إذن؟

لم يجب.

قادهما الممر إلى الإصطبل الخلفي في مزرعة والديها وواصلا السير باتجاه البيت. كانت غريتشن تعلم أن والدتها وشقيقتها لا تزالان خارجًا، وأمكنها سماع والدها منهمكًا بالعمل بالحظيرة الخلفية.

أخذ لوك دراجته من حيث تركها بجانب إحدى الأشجار وركب عليها. مد يدًا فتناولتها غريتشن بعد لحظات.

- إنني أود أن أبقي بعض الأشياء فيما بيننا.

قال وهو ينظر في عينيها.

- لكن ليس هناك أي داعٍ لأن تتدللي كل مرة.

اقترب منها لكنها أبعدت رأسها كي تتجنب قبلته، نظر إليها للحظات ثم هز كتفيه في غير اكتراث. انفجرت باكية بمجرد أن قاد دراجته مبتعدًا.

استسلمت غريتشن لدموعها التي أخذت تنهمر على وجهها الجميل حتى أدركت أنه لن يعود، شعرت بالغضب يتمكن منها فهرولت إلى المنزل وهي تمسح خديها بيدها، التقطت مفاتيح شاحنة المزرعة، لم تنجح في اجتياز اختبار القيادة، ولكنها ظلت لسنوات تقود حول الحقول.

قفزت غريتشن أمام المقود وانطلقت خلف لوك، كيف يجرؤ على معاملتها بتلك الطريقة؟ لمحت دراجته أمام مفترق الطرق، هدأت من سرعة الشاحنة قليلًا كي تظل بعيدة، لم تكن متأكدة بالضبط مما ستقوله عندما تلحق به، أمامها مباشرة ظهرت سيارة تتدحرج في طريقها عند التقاطع فلامست مكبح الفرامل، بعد لحظات قليلة، لاحت شاحنتها البيضاء أمام التقاطع مباشرة.

لا يمكن للوك هادلر أن يتحدث إليها بتلك الطريقة، أخذت تقول لنفسها، كانت تستحق أفضل من ذلك. انحرف لوك شمالًا فجأة وظنت للحظة كاد قلبها أن يقف فيها أنه عائد إلى النهر إلى إيلي، رباه، كانت ستقتله إذا فعل

ذلك حقًا، استمرت في اللحاق به من بعيد حبيسة الأنفاس، في اللحظة الأخيرة أبطأ لوك سرعته ووجه دراجته باتجاه مدخل منزله.

توقفت غريتشن على الطريق تراقب من بعيد وهو يفتح الباب الأمامي ويدلف إلى الداخل، لمحت والدته في الخلف وهي تنشر الملابس المغسولة لتجف.

أدارت الشاحنة وأخذت تنتحب طوال طريق عودتها.

* * * *

- عندما سمعتُ أن إيلي لم تعد إلى المنزل، عدت أدراجي إلى النهر لكي أرى بنفسي، توقعت أن أجدها منعزلة مع كيس نوم مبتعدة عن طريق والدها، لم يكن لها أي أثر.

عضت غريتشن على إصبعها.

- تجادلنا أنا ولوك عما إذا كان يجب أن نقول شيئًا أم لا. لكننا لم نكن في غاية القلق بشأن تلك النقطة، أتفهمني؟ لقد كانت تخفي الكثير من الأشياء في ذلك الوقت، لقد ظننت حقًا أنها ستظهر عندما تصبح مستعدة.

توقفت لوهلة طويلة عن الكلام.

- لم أتخيل للحظة واحدة أنها قد كانت في تلك المياه.

التفتت ونظرت إلى فولك.

- عندما قالوا إنها غرقت لم أتمكن من مسامحة نفسي، ماذا لو كنا بقينا هناك وتحدثنا إليها؟ لقد ظننت أن هناك خطبًا ما، وأدرت ظهري لها، لقد شعرت بالخجل الشديد من نفسي. كل ما فعلته أنني التزمت الصمت، جعلت لوك يعدني بألا يخبر أي أحد أننا رأيناها، لم أرد أن يعرف أي أحد إلى أي درجة خذلناها.

مسحت غريتشن دموعها.

- ثم عندما ظننت أن الأمور لا يمكن أن تزداد سوءًا، بدأ الجميع يوجهون إصبع الاتهام نحوك، حتى لوك كان خائفًا، إذا كانوا يظنون أن لك علاقة بالأمر، فما الذي سوف يقولونه لدى علمهم بأننا كنا موجودين هناك؟ فكر لوك في تلك الخطة، سيقول إنه كان معك، هذا سوف يساعدك،

سوف يساعدنا، وسأقوم أنا بالتظاهر لبقية حياتي أنني لم أكن هناك، أنني ذهبت خلف لوك عندما كان ينبغي أن أذهب إليها.

ناول فولك غريتشن منديلًا من جيبه، أخذته منه بابتسامة صغيرة.

- ليس لكِ أي ذنب فيما حدث لإيلي ديكون.

- ربما، لكن كان بإمكاني أن أفعل المزيد.

هزت كتفيها وتمخطت.

- لا أدري بشأن لوك، هو لم يكن شخصًا سيئًا، ولكنه كان سيئًا بالنسبة إليّ بعض الشيء.

ظلا واقفين بجانب بعضهما لبعض الوقت يحدقان إلى الحقول، كان يدور في عقل كل منهما أشياء ولت منذ زمن، أخذ فولك نفسًا.

- غريتشن، اسمعي، ليس الأمر من شأني، ولكن جيري وبارب، وتشارلوت، إنهم...

- لوك ليس هو والد لاكي.

- ولكن إذًا...

- أرجوك يا آرون، فقط توقف عن فعل ذلك.

تقابلت عيناها الزرقاوان مع عينيه، ولكن للحظة فقط.

- حسنًا.

أومأ برأسه، لقد حاول. هذا يكفي.

- حسنًا يا غريتشن، ولكنهم أناس جيدون، ولقد خسروا الكثير مؤخرًا، وأنتِ كذلك. إذا كانت هنالك أية فرصة يمكن بها إنقاذ شيء جيد من كل هذا البؤس، يجب أن تستغليها.

لم تنبس وأخذت تحدق إليه فقط، كان وجهها لا يعبر عن أي شيء. أخيرًا مد فولك يده غير المحترقة، نظرت إليها ثم فاجأته عندما غمرته بذراعيها في عناق سريع. ليس حميميًا، ليس حتى ودودًا، ولكن ربما كان مسالمًا.

- أراك بعد عشرين سنة أخرى.

كان يشعر هذه المرة أن ذلك ربما كان صحيحًا.

الفصل الثاني والأربعون

كان منزل عائلة فولك الآن يبدو أصغر مما يتذكر، سواء منذ طفولته أو منذ أسابيع قليلة مضت. اتجه إلى النهر من خلف المنزل وأخذ يطوف حول حدود المزرعة، لم يكن قلقًا من أن يقابل المالك الجديد هذه المرة.

في المشفى، أدار ريكو عينيه متهكمًا بينما يخبر فولك كيف أن الناس بدلت موقفها بسرعة هائلة، لقد بدؤوا فجأة يرفضون تلك المنشورات رفضًا قاطعًا، ما حدث منذ عشرين عامًا قد انتهى منذ عشرين عامًا، بحق السماء. ما فات مات وأشياء مثل هذه.

ظل فولك يطوف بالحقول وقد صار ذهنه أكثر صفاءً الآن، ما حدث منذ عشرين عامًا قد انتهى منذ عشرين عامًا، ولكن بعض الأشياء يجب ألّا تُنسى وكأنها لم تكن قط. كـإيلي ديكون، لقد كانت هي أكثر من أي أحد آخر ضحية هذه البلدة، بأسرارها وكذبها وخوفها. لقد كانت بحاجة إلى أحد بجانبها، ربما كانت بحاجة إليه هو، وقد خيب آمالها، كانت إيلي تخاف من أن تُنسى وسط كل تلك الفوضى. مثلما كانت كارن تقريبًا، ومثل بيلي.

ليس اليوم، فكر فولك، اليوم سوف يحيي ذكرى إيلي في المكان الذي عرف أنها كانت تحبه. وصل إلى شجرة الصخرة وقت غروب الشمس، لقد كانوا في شهر أبريل تقريبًا، وقد بدأ الصيف يصبح أخف وطأة، كانوا يقولون إن الجفاف ربما ينتهي بحلول الشتاء، يتمنى أن يكونوا محقين في ذلك هذه المرة، من أجل الجميع. النهر لا يزال جافًا، تمنى أن يعود إلى الحياة يومًا ما.

جلس فولك على الصخرة وأخرج السكين الذي أحضره معه، بحث عن موضع الشق السري وبدأ في الحفر. أخذ يحفر اسم إيلي بحروف صغيرة، كان السكين منثلمًا، يحفر ببطء شديد، لكنه استمر في الحفر حتى النهاية.

عندما انتهى أسند ظهره إلى الصخرة وجفف جبهته، مرر إبهامه على الحروف في إعجاب بما صنعته يده، أحس بساقه المحروقة وكأنها تشتعل من جديد إذ كان جاثيًا عليها.

جعله الألم يتذكر شيئًا، ابتسم وهو يستدير ويمد يده إلى الشق باحثًا عن القداحة العريقة التي تركها هناك منذ آخر مرة. الحنين إلى الماضي شيء جيد، ولكن بعد الأحداث الأخيرة لم يرد أن يترك مجالًا لأي شيء قد يشتاق إليه هنا.

كان فولك يعلم أنه وضعها في مكان عميق فلم يجد على السطح غير التراب والأوراق، مد يده عميقًا باسطًا أصابعه بقدر ما أمكنه، شعر بملمس القداحة المعدني، لكنه لمس بإبهامه شيئًا أملس وصلبًا. انتفض وألقى القداحة بعيدًا، أدخل يده مجددًا في انزعاج وتوقف عن الحركة عندما لمس الشيء نفسه، كان شيئًا خشنًا لكنه مرن وكبير إلى حد ما، من صنع الإنسان.

نظر فولك مليًّا بداخل الحفرة، لم يتمكن من رؤية أي شيء وتردد. ثم فكر في لوك وويتلام وإيلي وكل من تعرض للأذى بسبب الأسرار المدفونة، هذا يكفي.

دفع فولك يده إلى الداخل وأخذ يحركها حركات عشوائية حتى أحكم قبضته، شد ذلك الشيء بقوة فخرج من الحفرة مصحوبًا بدفعة مفاجئة أسقطته على ظهره، شعر بألم شديد في صدره إذ سقط ذاك الشيء فوقه مصحوبًا بارتطام. نظر إلى الأسفل وزفر عندما رأى الشيء الذي كان يمسكه بيده، حقيبة ظهر بنفسجية.

كانت مغطاة بشباك العنكبوت والأتربة، لكنه تمكن من التعرف عليها على الفور، حتى لو لم يفعل، كان سيعرف حتمًا لمن كانت. شخص واحد فقط الذي كان يعلم بأمر الشق الموجود في شجرة الصخرة ولقد أخذت ذلك السر معها إلى النهر.

فتح فولك الحقيبة وأفرغ محتوياتها على الأرض، كان بها بنطلونا جينز، قميصان، سترة ثقيلة، قبعة، ملابس داخلية وحقيبة مستحضرات تجميل صغيرة، كان بها محفظة بلاستيكية تحتوي على بطاقة هوية لفتاة كانت تشبه إيلي ديكون بعض الشيء. كان الاسم المكتوب هو شارنا ماكدونالد

وكانت في عمر التاسعة عشرة، مبلغ مالي من أوراق فئة العشرة والعشرين وحتى أوراق من فئة الخمسين النادرة، محفوظة وبها بعض الخدوش.

كان هناك شيء آخر عميقٌ بداخل الحقيبة، ملفوف بعناية منذ عشرين عامًا بداخل معطف واقٍ للمطر لحمايته عندما كانت تحزم حقيبتها، أخرجه وظل ممسكًا به لوقت طويل، كانت حافاته ممزقة ومتجعدة، ولكن ذلك لم يؤثر على ما كتب أسفل الغلاف المقوى، بالأبيض والأسود. كانت مذكرات إيلي ديكون.

* * * *

في أول مرة ضربها ناداها باسم والدتها، كان بإمكانها أن ترى في عيني والدها الغائمتين أنها كانت مجرد زلة لسان، انزلقت بسرعة انزلاق الزيت عندما نزلت قبضته على كتفها. كان ثملًا، وكانت هي في الرابعة عشر من عمرها، في تلك المرحلة الانتقالية من فتاة إلى امرأة، لقد أزيلت صورة والدتها من فوق المدفأة منذ زمن طويل، ولكن ملامح المرأة المميزة كانت تعود إلى الحياة وتتجدد في المنزل مع كل يوم تكبر فيه إيلي ديكون.

ضربها مرة واحدة، ثم تكرر الأمر بعد بعض الوقت، ثم تكرر مجددًا ومجددًا. حاولت أن تخفف الخمر بالماء، أدرك والدها ذلك مع رشفته الأولى، ولم تكرر ذلك الخطأ مرة أخرى قط، كانت ترتدي في المنزل ملابس تُظهر آثار الضرب، لكن ما كان من ابن عمها جرانت إلا أن يشغل التلفاز وينصحها ألا تثير جنون أبيها العجوز، تدهور مستواها الدراسي، كان معلمو المدرسة يوبخونها لقلة انتباهها، إذا استرعى ذلك انتباههم، لكن أحدهم لم يسألها عن السبب.

أصبحت إيلي قليلة الكلام وبدأت تبحث عن السبب الذي جعل والديها مولعين بالخمر إلى ذلك الحد، كانت الفتيات التي ظننت أنهن صديقاتها ينظرن إليها بغرابة ويهمسن من خلفها عندما يعتقدن أنها لا تسمعهن، لديهن مشكلات من نوع خاص بهن، مشكلات تتعلق ببشرتهن ووزنهن وأمور الفتيان، لم تكن إيلي تتماشى مع اهتماماتهن. لاحقًا، وجدت إيلي نفسها مستبعدة ومنبوذة من بين الجميع.

ذهبت بمفردها إلى متنزه سنتري ليلة سبت، لم يكن لديها أي مكان لتذهب إليه وكانت معها زجاجة في حقيبتها عندما وصل إلى مسامعها صوت شخصين يضحكان بصوت خفيض؛ آرون ولوك، خفق قلب إيلي ديكون كأنها عثرت على شيء كانت قد نسيته وظهر أمامها فجأة.

استغرق جميعهم وقتًا حتى اعتادوا على ذلك، نظر إليها الشابان وكأنما كانا يرانها للمرة الأولى، كان ذلك يعجبها، كانت تحب فكرة أن لديها شخصين في حياتها يفعلان كما تقول هي بدلًا من أن يُمْليَا عليها ما تفعله.

عندما كانوا أصغر سنًا، كانت تفضل مرح لوك وتظاهره بالشجاعة، ولكنها وجدت نفسها الآن مغرمة بتفكير آرون الحاذق. كانت تدرك أن لوك لا يشبه أباها وابن عمها في شيء، ولكنها لم تستطع تجاهل شعورها بأن هناك جزءًا عميقًا في داخله يشبههما ولو بقدر ضئيل كذلك، أحست براحة كبيرة عندما ظهرت غريتشن في طريقه وفتنته بجمالها وبهائها.

كان ذلك جيدًا لبعض الوقت، كان قضاء وقت أطول مع أصدقائها يعني وقتًا أقل في المنزل، حصلت على عمل بوقت جزئي وتعلمت بمشقة بالغة كيف تخفي مالها بعيدًا عن أيدي والدها وابن عمها.

أصبحت أسعد، ولكن ذلك جعلها مهملة ومغرورة أمام والدها. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى ارتطم وجهها ذو الستة عشر ربيعًا ارتطامًا عنيفًا بوسادة الأريكة حتى ظنت أنها ستفقد وعيها.

بعد شهر، كانت هناك فوطة مطبخ قذرة تضغط على أنفها وفمها بينما كانت متشبثة بأيدي والدها بأظفارها، عندما أفلتها لاحقًا، كان أول نفس تأخذه وسط اهتياجها وفزعها مشبعًا برائحة الخمر المنبعثة من أنفاسه، كان ذلك هو اليوم الذي توقفت فيه إيلي ديكون عن الشرب؛ لأنه كان اليوم الذي قررت فيه الهرب، ليس على الفور، وليس من موقف واحد سيئ إلى شيء أسوأ، لكن قريبًا، ومن أجل ذلك كانت تحتاج أن يكون عقلها حاضرًا، قبل فوات الأوان.

جاءت القشة التي قسمت ظهر البعير في منتصف إحدى الليالي الحالكة إذ استيقظت في غرفتها لتجده جاثمًا فوقها بجسده ينكزها بأصابعه في كل مكان، شعرت بوخز مؤلم متبوعًا بصوته المشبع برائحة الخمر، ينعت أمها

بأقذر الشتائم في أذنها. تمكنت أخيرًا أن تدفعه بعيدًا عنها بمشقة بالغة، صفعها بقوة قبل أن يغادر، ارتطم رأسها على إثرها بعمود سريرها ارتطامًا عنيفًا. في الصباح، مررت إصبعها على موضع انبعاج الخشب وأخذت تزيل بقعة الدماء من على السجادة الوردية وهي تترنح، كان رأسها يؤلمها. شعرت بالحاجة إلى البكاء، ولم تستطع أن تحدد أين تتألم أكثر.

عندما اكتشف آرون الشق الموجود بشجرة الصخرة في ظهيرة اليوم التالي بدا ذلك كإشارة من السماء. اهربي. لقد كانت مخفية، سرية، وكبيرة بما يكفي لإخفاء حقيبة، كانت مثالية، مع أول بارقة أمل ملأت نفسها، أخذت تنظر إلى وجه آرون وأدركت لأول مرة كم ستشتاق إليه.

عندما تبادلا تلك القبلة، جعلها ذلك تشعر بأنها بخير أكثر مما كانت تعتقد أنها بإمكانها أن تكون، إلى أن لمست يده الجرح في رأسها. انتفضت في ألم وابتعدت عنه، رفعت عينيها ورأت نظرة الذعر على وجه فولك، في تلك اللحظة ازداد كرهها لوالدها بقدر ما كرهته طوال حياتها.

أرادت كثيرًا أن تخبر آرون، أكثر من مرة، ولكن أكثر ما كانت تشعر به إيلي من بين كل الأحاسيس التي تندفع في جسدها.. الخوف.

تدرك أنها ليست الشخص الوحيد الذي يخاف من والدها، كان رده على أقل إساءة، حتى لو كانت مجرد تصور في عقله، متهورًا ووحشيًا. لطالما رأته يرسل وعيدًا وينفذه، يقدم الخدمات للناس لكي يستغلهم عند الحاجة، يسمم المحاصيل، يدهس الكلاب بسيارته، وفي مجتمع يكاد يكون العيش فيه مستحيلًا، كان الناس يتجنبون المعارك بقدر الإمكان. عندما أدركت كل شيء على حقيقته، عرفت إيلي ديكون أن ما من أحد في كيوارا يمكنها أن تلجأ إليه ليحميها من بطشه.

وعلى هذا الأساس وضعت خطتها، أخذت المال الذي أخفته وحزمت حقيبتها سرًا، أخفتها عند النهر حيث كانت تعلم أن أحدًا لن يجدها في ذلك المكان، تنتظر إلى أن يحين الوقت. حجزت غرفةً في أحد الفنادق الصغيرة المجهولة يبعد ثلاث مدن عن هنا، سألوها عن اسمٍ من أجل الحجز فأعطتهم تلقائيًا الاسم الوحيد الذي كان يشعرها بالأمان؛ فولك.

خطت اسمه والتاريخ الذي اختارته على قطعة من الورق ووضعتها في جيب بنطالها، كتميمة حظ؛ لكيلا تستسلم، كان لا بد أن تهرب، ولكن لم يكن لديها غير فرصة واحدة.

«إذا اكتشف والدي الأمر، سوف يقتلني».

كانت تلك الكلمات هي آخر ما كتبته في مذكراتها.

* * * *

عندما دخل مال ديكون إلى بيت المزرعة، لم تكن هناك أي إشارة على أنه سيتناول عشاءه الليلة مما أصابه بغيظ شديد. ركل ديكون حذاء جرانت من على الأريكة ففتح ابن أخيه عينًا واحدة.

- لم يحضر الشاي اللعين حتى الآن؟

- لم تعد إيلي من المدرسة بعد.

تناول علبة بيرة من الست علب الموضوعة بجانب جرانت وذهب إلى الجزء الخلفي من المنزل، توقف ديكون أمام الباب وأخذ رشفة من علبة البيرة خاصته، لم تكن أول واحدة له اليوم، وليست الثانية. وقعت عيناه على ملاءة السرير البيضاء، والانبعاج الموجود بالخشب، والبقعة على السجادة الوردية، ثم تجهم وجهه. شعر ديكون بالقلق ككرة ثلج صغيرة تتكون داخله، هناك خطب ما يحدث، أخذ يحدق في الخشب المنبعج وبدأت الذكرى المبهمة تتوعد بالظهور، تجرع الكثير من الخمر حتى عادت إلى مخبئها في أعماق ذهنه المشوش، بدلًا من ذلك سمح للخمر بأن يشعل أول فتيلة غضب في عروقه.

كان من المفترض أن تكون ابنته هنا لكنها لم تكن. كان لا بد أن تكون هنا، معه. تردد صوت في عقله أنها ربما تتأخر قليلًا، ولكن بعد ذلك تذكر الطريقة التي كانت تنظر بها إليه في الآونة الأخيرة، كانت نظرة يعرفها جيدًا؛ النظرة نفسها التي رآها منذ خمس سنوات مضت، نظرة تقول «**كفى.. وداعًا**».

شعر بسورة غضب تجتاحه واندفع فجأة يصفق باب خزانتها بعنف، لم تكن حقيبة ظهرها في مكانها المعتاد، كانت هناك بعض الفراغات ما بين الملابس المرتبة بعناية، أدرك ديكون ما يعنيه ذلك. أدرك أنها تدبر شيئًا، وتخفي الأسرار، لقد تجاهل تلك العلامات من قبل، ولن يحدث مجددًا. انتزع

أدراج الخزانة بعنف وبعثر محتوياتها على الأرض، كان الخمر يتناثر على السجادة في أثناء انهماكه في البحث عن أي دليل، توقف فجأة، علم بما لا يخالطه الشك أين يمكنها أن تكون. إلى نفس المكان الذي اعتادت أمها أن تهرب إليه.

العاهرة الصغيرة، العاهرة الصغيرة.

هرع عائدًا إلى غرفة المعيشة، جذب جرانت لينهض على مضض وألقى بمفاتيح الشاحنة إليه.

- سنذهب لنحضر إيلي، وأنت ستقود.

العاهرة الصغيرة، العاهرة الصغيرة.

أخذا بضع علب بيرة معهما من أجل الطريق، كانت أشعة الشمس لافحة بينما يعبران الطرق القذرة باتجاه منزل فولك، لا يمكنها أن تذهب، ليس هذه المرة.

كان يفكر ما إذا كان الوقت قد فات حتى لمح بارقة أمل كاد قلبه يتوقف على إثرها، لمح حركة سريعة لشخص يرتدي قميصًا باهتًا، وشعره طويل ابتلعته الأشجار الكثيفة خلف منزل فولك.

- إنها هناك، متجهة إلى النهر.

تجهم وجه جرانت، وأوقف الشاحنة.

- لم أرَ أي شيء.

قفز ديكون خارجًا وترك ابن أخيه خلفه وهرول عبر الحقول واختفى بين الأشجار، كان الشرر يتطاير من عينيه، يتعثر في طريقه وهو يبحث عنها.

رآها وهي مستندة إلى شجرة غريبة الشكل، سمعت إيلي صوت قدومه، ولكن بعد فوات الأوان، اتسع فمها الصغير وأخذت تصرخ إذ جذبها من شعرها.

- أيتها العاهرة الصغيرة، أيتها العاهرة الصغيرة.

لن تذهب. هذه المرة لن تتمكن من الذهاب بحق الجحيم. لم يكن في وعيه، وكانت إيلي تتلوى في يده مما جعل من الصعب الإمساك بها، فانقض عليها براحته المفتوحة وأحكم قبضته، حول رقبتها. ترنحت وسقطت إلى

الخلف وسقطت بجوار النهر وهي تئن بصوت غير مسموع، شعرها وكتفاها مغموران بمياه النهر العكرة، كانت تنظر إليه بنفس النظرة التي يعرفها، فأطبق يده أسفل ذقنها حتى غمرت المياه الموحلة ذلك الوجه.

كانت تنازع عندما أدركت ما كان يحدث، أخذ يحدق إلى انعكاس عينيه في ذلك النهر الموحل فأحكم قبضته عليها.

كان مجبرًا على أن يَعِد جرانت بأن تصبح المزرعة ملكه عندما كانا يبحثان عن أحجار بجوار النهر وقت غروب الشمس لكي تأخذها إلى أسفل النهر، لم يكن لديه خيار، عندما عثر ابن أخيه على الملاحظة التي تحمل اسم فولك في جيبها، اقترح أن يضعاها في غرفة إيلي لتجدها الشرطة، استمرا في البحث حتى حلول الظلام، لكنهما لم يتمكنا من إيجاد حقيبتها.

لاحقًا بعد وقت طويل، عندما جلس وحيدًا أول ليلة ولليال أُخَر كثيرة قادمة، تساءل مال ديكون إذا كان يقصد تقييد ابنته بقوة إلى هذا الحد.

«إذا اكتشف والدي الأمر، سوف يقتلني».

* * * *

ظل فولك جالسًا لوقت طويل يحدق إلى النهر الجاف بعدما انتهى من قراءة كلمات إيلي. في النهاية، أغلق الدفتر وأعاده إلى الحقيبة مرة أخرى مع بقية الأشياء، نهض واقفًا وألقى بالحقيبة على كتفه.

أدرك فولك أن الشمس قد غابت وأسدل الليل ستاره، كانت النجوم تلمع أعلى أشجار الأوكالبتوس، لم يكن قلقًا، كان يعرف الطريق، وفي طريق عودته إلى كيوارا.. هبت نسمة من الهواء البارد.

"واحد من أكثر الأعمال التي قرأتها في حياتي سحرًا... كل كلمة متقنة حد الكمال".

- ديفيد بالداتشي

"مفاجآت تحبس الأنفاس... في كل صفحة سرٌّ جديدٌ".

- نيويورك تايمز

"بين الفينة والفينة تظهر رواية جريمة أسترالية تقطع أنفاسك وتطارد أحلامك".

- سيدني مورنينج هيرالد

"كاتبة الموت والحياة الأكثر مبيعًا في قائمة النيويورك تايمز، ستشعر بحرارة الشمس المتأججة، وتتذوق طعم التراب في فمك، وتحدق بعينيك إلى الفراغ تحت وطأة المفاجأة".

- مايكل روبوتام



جين هاربر

هي كاتبة لأكثر الروايات مبيعًا حول العالم، رواية القحط هي أول عمل لها وحاز عدةَ جوائز عالمية، كما نشرت رواياتها في ٤٠ دولةً حول العالم وحصدت الكثيرَ من الجوائز العالمية. ولدت جين في مانشستر، المملكة المتحدة، ثم انتقلت وعائلتها في عمر الثامنة إلى أستراليا وعاشت ست سنوات في فيكتوريا وحصلت خلال تلك الفترة على الجنسية الأسترالية. ثم عادت مع عائلتها في سن المراهقة إلى المملكة المتحدة والتحقت بجامعة كينت لتدرس اللغة الإنجليزية والتاريخ، وتعيش حاليًا في ملبورن بأستراليا.

القحط
THE DRY

القحط هي أول رواية لجين هاربر، وهي رواية تشويقية تدور أحداثها في بلـدة خياليـة تبعـد خمـس سـاعات عـن ملبـورن. يعـود المحقـق الفيدرالـي آرون فولـك إلـى مسـقط رأسـه بعـد عقـود لحضـور جنـازة صديـق طفولتـه المقـرب، لـوك. يتعـاون فولك مـع محقـق البلـدة لمحاولـة كشـف الحقيقـة وراء مقتـل عائلـة هادلر المروّع، فقـط ليجـد أسـئلة بـدلًا مـن الإجابات.



تصميم الغلاف: محمود هشام







aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb